سلسلة
دراسات
إفريقية

١

الشعوب والسلالات الإفريقية

تأليف الدكتور محمد عوض محمد



الدار المصرية للتأليف والترجمة

الشعوب والسلالات الإفريقية

تأليف
الدكتور محمد عوض محمد

١٩٦٥

الدار المصرية للتأليف والترجمة

الفهرس

الخرائط والرسوم

الشعوب والسلالات الإفريقية

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـــديم

بقـــلم
الدكـتور عبـــد القادر حاتم
نائب رئيس الوزراء للثقافة والإرشاد القومى

إن إصدار سلسلة من الكتب فى الدراسات الإفريقية مشروع تفرضه أحداث هذا العصر الذى شهد تطوراً ضخماً فى شئون القارة الإفريقية ليس له نظير فى أى عصر وفى أية قارة .

ولقد كان العرب على صلة عميقة الجذور بإفريقية منذ القدم عن طريق التجارة والهجرة وخاصة إلى السواحل الشرقية من القارة ، ولا تزال آثارهم شاهداً على ذلك .

وظلت إفريقية من بعد تسترعى اهتمام الشعوب العربية التى تستوطن الآن جزءاً كبيراً من مساحة القارة ، وكانت لها بها صلات وثيقة ، وطالما أحست بالعطف على شعوبها وأشفقت عليها من الاستعمار ووحوشه الضارية التى أنشبت مخالبها فى القارة ، واتخذت من ديارها « ممتلكات » تستغلها وتسطو على ثروتها ، وتسخر شعوبها لخدمة أغراضها ومطامعها .

ومرّ بالشعوب العربية أيضاً حين من الدهر كانت فيه منهمكة فى مكافحة الاستعمار تناضل من أجل حقها المغتصب فى الحرية والاستقلال . . إلى أن كانت ساعة الفجر ، وأخذت الغياهب تنجاب عن القارة وشعوبها .

كانت أول دولة نالت حريتها فى إفريقية المدارية هى دولة غانا ، وكان ذلك فى عام ١٩٥٧ بعد هزيمة العدوان فى السويس بعام واحد ! وبعد

هذه القطرة أخذت القطرات تتوالى حتى أصبحت غيثاً ، بل طوفاناً غمر القارة كلها بسيل متدفق من التحرر والنهوض ، ولم يلبث أن اكتسح تياره صروح الاستعمار حتى كاد أن يفنيه من الوجود .

وفى سنة ١٩٦٠ وما بعـــدها أخذت مقاعد الأمم المتحدة وهيئاتها المتخصصة تمتلئ بتلك الوجوه السمر الوسيمة ، حتى زاد عدد الأعضاء الإفريقيين فى كل منها على الخمس والثلاثين دولة ، وارتفع صوتهم فى تأييد الحق ، ونصرة العدل ، والدفاع عن كل قضية شريفة . ثم وحدوا صفوفهم وجعلوا من أنفسهم منظمة إفريقية موحدة ، تعمل لتحرير الشعوب ، وتنتصر لكل مبدأ إنسانى نبيل .

هنالك أخذت الدول الاستعمارية تحسب للدول القارة الإفريقية حسابها ، وتحاول جاهدة أن تستميلها ، كما حاولت أن تستبقى شيئاً من نفوذها الغابر تحفظ به مصالحها ، وأخذت تمارس سياسة جديدة يصفها الناس بأنها « الاستعمار الجديد » ، ذلك الشيء الكريه الذى نراه اليوم ممثلاً أقبح تمثيل فى الكونغو ، والذى يمقته كل إفريقى ، ويحذره كل مخلص للحياة الدولية الحرة الكريمة .

* * *

إن معركة السويس وهزيمة العدوان على مصر فى سنة ١٩٥٦ وانتصار إرادة الشعب العربى فى مصر على دول العدوان الثلاثى ، ترددت أصداؤها فى أنحاء القارة ، وانعكست آثاره على حركات التحرر فى أقطارها . ولم تكن نهضة إفريقية محض صدفة ؛ إن عدوان السويس الفاشل كان نتيجة لإحساس الاستعمار بأن الأرض تنهار من تحت أقدامه، لقد هاله أن رأى جنوده تجلو مرغمة عن وادى النيل ، وقناة السويس تعود شئونها لأصحابها الشرعيين ، فخيل له أن يتشبث بالأرض قبل أن يكتسحه موج الحرية القاهر . فلم تكن حرب

السويس موجهة إلى قطر بعينه ، بل كانت حرباً يشعلها الاستعمار على تحرر الشعوب بعامة ، والشعوب الإفريقية بخاصة .

وقد خرج الاستعمار من معركة السويس مذموماً مدحوراً ، وأدرك دعاته أن عهد الطغيان قد ولى إلى غير رجعة ، وأن شمس الحرية لا بد لها أن تبدد عهد الظلم والظلام ، وتنشر الضوء والنور فى جميع الأرجاء .

إن المثال الذى ضربته الجمهورية العربية المتحدة بقيادة زعيمنا الملهم الرئيس جمال عبد الناصر ، والقدوة الصالحة التى قدمتها ، كان لها بلا شك أثرهما فى النهضة الإفريقية ، وهذا أمر نغتبط له كل الاغتباط ، ولكنه أمر يزيدنا قرباً وتآلفاً مع سكان القارة وشعوبها ويفرض علينا مزيداً من العناية بتفهم شئون هذه القارة ، والإلمام بمختلف أحوالها ، ومشكلات السكان فى كل قطر من أقطارها ، وقضايا التنمية فيه ، تعويضاً لمراحل التخلف فى ظل الاستعمار .

وما دامت الجمهورية العربية المتحدة تضطلع بهذا الواجب المقدس فلا بد لنا أن نقدم لأبناء الأمة العربية دراسات علمية إفريقية لكى نخلق وعياً إفريقياً لدى الرأى العام فى البلاد العربية ، فإن السياسة الحكيمة لكل دولة يجب أن تستند إلى قاعدة شعبية مستنيرة ، حتى تكون الشعوب وقادتها قوة متفاهمة متعـــاونة .

وبعد ، فإن الاهتمام بإفريقية ظاهرة نلمسها فى كل بلد من بلاد العالم حتى فى البلاد التى لا تربطها بإفريقية تلك الروابط التى تجمعنا وترجع إلى عصور عريقة فى القدم . ولا وجه للغرابة فى أن تلقى إفريقية هذا الاهتمام ، لأن الأسرة البشرية قد أدهشها أن ترى أعضاءها يزدادون هذه الزيادة الهائلة ، فكثر التأليف عن القارة وسكانها ، ولغاتها وثقافاتها ، وأحوالها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، حتى تكونت فى السنوات العشر الأخيرة مكتبة إفريقية ضخمة ، وهى كل يوم فى ازدياد .

وطبيعى أن تهتم الدار المصرية للتأليف والترجمة بهذا الموضوع الجليل فتؤلف لجنة من المتخصصين فى الدراسات الإفريقية للإشراف على هذه السلسلة التى تجمع بين التأليف والترجمة .

* * *

ويسرنى اليوم أن أقدم هذه السلسلة إلى قراء العربية ، كما يسرنى أن يفتتحها الدكتور محمد عوض محمد بكتاب عن « الشعوب والسلالات الإفريقية » .

والله سبحانه ولى التوفيق .

بسم الله الرحمن الرحيم

وجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وقَبائِلَ لِتَعارَفُوا

« سورة الحجرات »

• • •

فى هذه الصفحات أضع بين يدى القارئ العربى ، فصولا عن السلالات والشعوب فى إفريقية ، توخيت فيها السهولة واليسر بقدر الطاقة ، حتى لا أشق على القارئ العربى ، غير المتخصص ، بالإسراف فى إيراد المصطلحات الفنية. وأردت فى الوقت نفسه ، أن يكون الكتاب مفيداً للطلاب ، الذين يدرسون السلالات والأجناس .

ولم يكن بد ، ونحن نحاول رسم صورة واضحة وضوحاً كافياً ، للسلالات والشعوب ، أن نتجنب الإفراط فى ذكر كل قبيلة إفريقية ؛ مهما كانت قليلة الخطر ، مع تركيز البحث فى المجموعات الكبيرة ، والوحدات ذات الأثر الهام فى تطور القارة . . . غير أننا رأينا من الواجب أن نولى شعوب وادى النيل والأقطار التى اتصلت بالعالم العربى عناية خاصة .

ولم يكن متاحاً لنا ، ونحن نود إخراج الكتاب فى أقرب وقت ممكن ، أن نزوده بطائفة كبيرة من الصور والرسوم ، مما يفيد فى التعرف على مظاهر الناس ، وبيئاتهم ، ولعل الحظ أن يسعدنا بتدارك هذا النقص فى طبعة تالية . على أننا لم نقصر فى تزويد الكتاب بطائفة من الخرائط النافعة ، التى رسم أكثرها خصيصاً لهذا الكتاب .

• • •

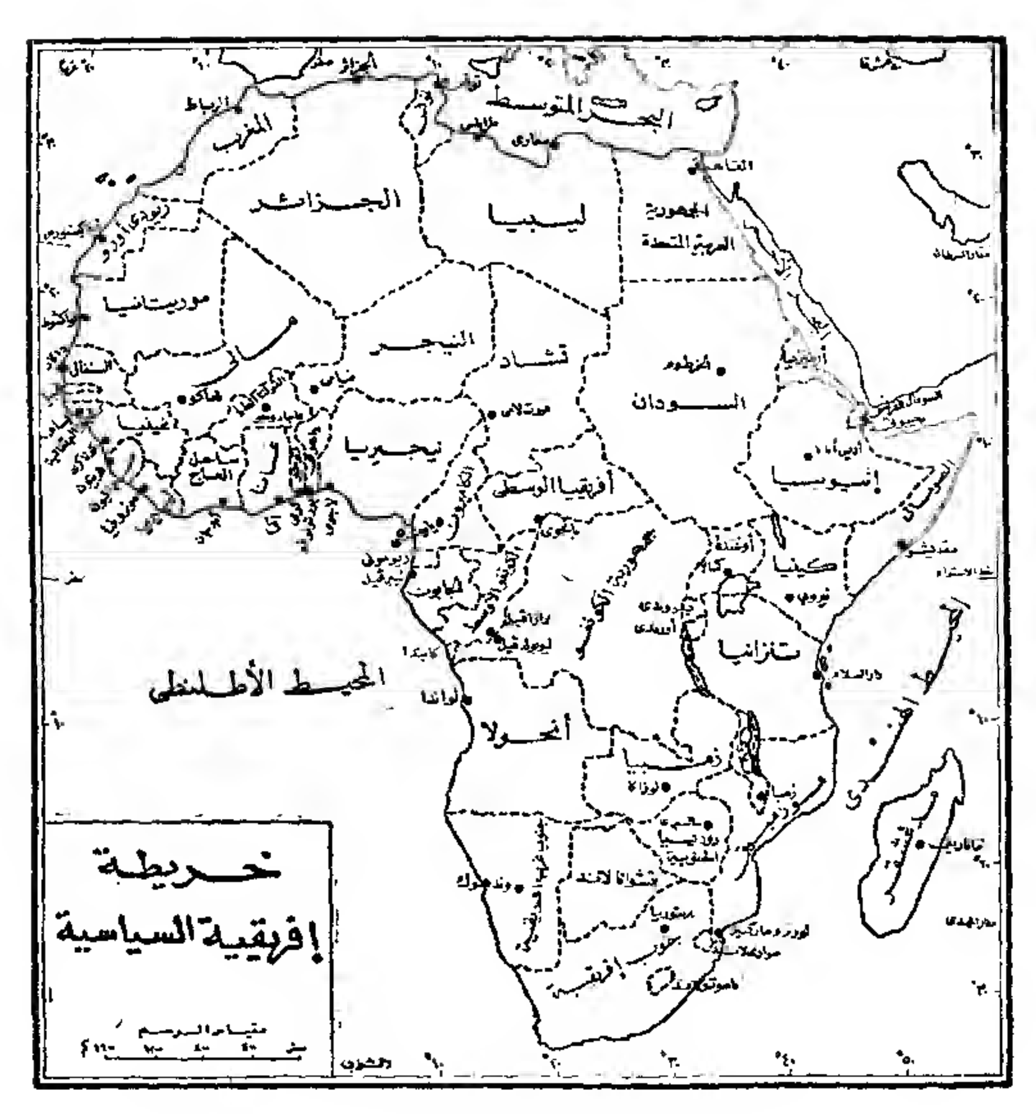
أما بعد فان هذا السفر هو الحلقة الأولى من « سلسلة الدراسات الإفريقية » التى تشرف عليها لجنة خاصة أنشأتها « الدار المصرية للتأليف والترجمة » ، وبوصفى مقرراً لهذه اللجنة . اتجهت الرغبة إلى أن أفتتح هذه السلسلة ، وأن أقوم بتأليف الحلقة الأولى .

وهذا تقدير كريم ، أحمد عليه اللجنة والدار ، كما أنى أتقدم بوافر الشكر للسيد نائب رئيس الوزراء للشئون الثقافية والارشاد ، الدكتور عبد القادر حاتم ، على تأييده وتشجيعه للعاملين فى هذا الميدان ، كدأبه فى سائر الميادين الثقافية .

والله سبحانه وتعالى يهدينا سبيل الرشاد .

محمد عوض محمد

الجيزة فى شهر ديسمبر سنة ١٩٦٥



خريطة
إفريقية السياسية
البحر المتوسط
المغرب
الرباط
الجزائر
ليبيا
الجمهورية العربية المتحدة
القاهرة
موريتانيا
مالي
النيجر
تشاد
السودان
الخرطوم
نيجيريا
أثيوبيا
أديس أبابا
الصومال
مقديشو
كينيا
نيروبي
تنزانيا
دار السلام
أفريقيا الوسطى
أنجولا
لواندا
زامبيا
لوزاكا
المحيط الأطلنطي
المحيط الهندي

(شكل رقم ١)

مقدمة

كثيراً ما توصف إفريقية بأنها منزل ذو ثلاثة أبواب : قارة ضخمة منعزلة عما يجاورها من القارات . ولكن هنالك ثلاثة مواضع تقربها من جارتيها أوروبا وآسيا . هذه الأبواب الثلاثة : جبل طارق وبرزخ السويس وباب المندب ، ليست كلها ذات أهمية متشابهة فى حركة المواصلات بين إفريقية وما يجاورها . ومن المفيد أن ننعم النظر فى كل باب من تلك الأبواب الثلاثة :

(أ) بوغاز جبل طارق طريق ضيق لا يكاد يتجاوز عشرة الأميال ؛ وليس عبوره من إحدى القارتين إلى القارة الأخرى أمراً شاقاً حتى لدى الشعوب البدائية . إن أكثر ما يهمنا من هذه الأبواب ونحن ندرس شعوب القارة وسلالتها ، أن ننظر هل دخل الإنسان إلى هذه القارة منها أو من بعضها . وأرجح الآراء أن الإنسان فى عهوده الأولى لم يدخل القارة الإفريقية من باب جبل طارق . فإن السلالات التى ظهرت فى أوربا فى العصور الحجرية لم تكن مشابهة للسلالات التى تسود إفريقية . ولم تكن هنالك حركة انتقال من أوربا إلى إفريقية . بل العكس هو الصحيح وهو أن الإنسان فى عهوده الأولى قد تنقل وهاجر من إفريقية إلى أوروبا ، وبذلك كان طريق جبل طارق مخرجاً للجماعات البشرية من شمال إفريقية ولم يكن مدخلا .

(ب) طريق باب المندب ، هو أيضاً طريق ضيق جداً ، وتكتنفه الجزر ، وأكبر الظن أنه كان فى العهود البشرية الأولى أصغر مساحة ،

والقارتان أشد تقارباً . . ولم يكن هذا الباب يوماً مشكلة جدية تعوق انتقال الجماعات الأولى من إفريقية إلى آسيا أو من جنوب الجزيرة العربية إلى الجانب الغربي للبوغاز . فهل دخل الإنسان قارة إفريقية من هذا الباب ؟ والإجابة عن هذا السؤال لا تزال موضع جدل وبحث . . إن الانتقال البشرى من آسيا لإفريقية عبر باب المندب ظاهرة ترى آثارها اليوم رأى العين ولا سبيل إلى إنكارها . فإن الآثار الثقافية الآتية من آسيا واضحة تماماً فى الأقاليم الإفريقية المتاخمة للبوغاز وفى الأقاليم التى تليها . ومن أهم ما ترتب على هذه الظاهرة ما نراه فى هضبة إثيوبيا ، من آثار ثقافية من جنوب جزيرة العرب . وما نشاهده من آثار عربية أخرى فى شرق إفريقية .

هذا وليس يعرف أن هناك هجرة بشرية خطيرة حدثت فى الاتجاه المضاد ، أى من إفريقية إلى آسيا . وغيرت الأوضاع الثقافية فى الجزيرة العربية . صحيح إن ملوك إثيوبيا قد غزوا اليمن والحجاز . ولكنها كانت غزوة من الطراز الحربى ، ولم تترك على كل حال أثراً يستحق الذكر سواء من الوجهة السلالية أو الثقافية .

فطريق باب المندب إذن هو باب لدخول السلالات والثقافات أى الموجات البشرية المتتالية عبر القرون ، منذ أقدم العصور إلى وقتنا هذا . والتى لها أثر واضح فى التكوين الجنسى فى شرق إفريقية ، والجهات التى تليه ، حتى أواسط القارة على أرجح الأقوال .

(ج) برزخ السويس هو الطريق الثالث ، الذى ظهرت آثاره واضحة فى وادى النيل وشمال إفريقية . وبعض هذه الآثار وقعت فى وضح العصور التاريخية . ولا سبيل إلى جحودها أو نكرانها . ولكن لا شك أيضاً أن هذه الظاهرة ترجع إلى عصور قديمة تسبق التاريخ المسجل بآلاف السنين :

إن جزيرة العرب كانت دائماً مستودعاً بشرياً عظيماً . ومُنبعثاً لموجات بشرية تتدافع فى تيارات متتالية على مدى العصور والأجيال . كانت من قبل أكثر مطراً وأغزر عشباً ، ثم أخذت رطوبة الجو تتناقص ، بعد انتهاء الزمن الذى أطلق عليه الباحثون اسم العصر المطير ، منذ نحو عشرة آلاف من السنين. فتعاقبت موجات من الهجرات من الجزيرة العربية ، مندفعة نحو الأقطار المجاورة وقد غمرت هذه الموجات سهول الرافدين دجلة والفرات ، والهلال الخصيب الذى يحف بشرق البحر المتوسط ، ثم وادى النيل وشمال إفريقية . وكان من أهم هذه الموجات وأسبقها فى الزمان الموجات المتجهة صوب القارة الأفريقية عن طريق باب المندب أولا . ثم طرق البحر الأحمر كلها ، وفى وسعنا أن نعتبر برزخ السويس وسواحل البحر الأحمر وبوغاز باب المندب طريقاً واحداً عريضاً ، تسلكه الجماعات البشرية المتتالية ، فى مسالك متعددة ، متقاربة أو متباعدة ، تبعاً للمصدر الذى ترجع إليه كل جماعة وافدة من مواطنها الأصلية .

ولا شك أن هذه الحركات البشرية الآتية من آسيا قد كان لها أثر عظيم فى تعمير القارة الإفريقية بالسلالات البشرية ، وبضروب متنوعة من الثقافات . وهذا التيار الشرقى المتجه نحو إفريقية قد امتدت آثاره إلى الجنوب الشرقى للقارة ، حيث نجد فى المحيط الهندى جزيرة مدغشقر ، التى هاجرت إليها فى موجات متتالية جماعات من جنوب شرقى آسيا ، فتسربت بذلك سلالات من جنس الملايو . وحملت معها الثقافات الخاصة بها .

— ١ —

إن إفريقية موزعة — بالتساوى تقريباً — بين السلالات القوقازية فى الشمال والشمال الشرقى ، والسلالات الزنجية فى الجنوب والغرب ، ومن المألوف أن يتساءل المرء عن مصدر السلالات ومن أين أتت . كان الرأى القديم السائد أن النوع البشرى نفسه قد نشأ فى قارة آسيا ، وعلى الأرجح فى الشطر الغربى

منها . . . ثم نزحت الجماعات بالتدريج ، وتطورت وتنوعت فى أوطانها الجديدة ، تبعاً لتجمعها فى بيئات جديدة متنوعة ، ومنفصلة نوعاً بعضها عن بعض . وطبقاً لهذه النظرية كان الرأى متجها إلى اعتبار القارة الأفريقية قد نزحت إليها الجماعات من الأقطار الملاصقة لها . وأن انتشار السكان والعمران الكامل قد تم على مدى مئات الآلاف من السنين .

كانت هذه النظرية تشمل السلالات الزنجية والقوقازية . وإن كانت الأولى أقلم بكثير من الأخرى وقد ظلت القارة الإفريقية وطناً للجنس الزنجى ، منفرداً بالحياة والانتشار فى أرجائها الفسيحة . ومكتسباً فى هذا العهد الطويل جداً تلك الصفات الجسدية التى تميزه عن سائر الأجناس ، والتى تلائم البيئات الإفريقية كل الملاءمة . . . وأخيراً أخذت السلالات القوقازية تتدفق ، فكان بعضها يتحد مع السلالات الزنجية ويؤثر فيها ثقافياً واجتماعياً . وبعضها يحتفظ بكيانه كجنس مستقل كما نشاهده اليوم فى السلالات الحالية .

تلك هى النظرية القديمة التى لا يزال بعض العلماء « المحافظين » متمسكين بها . أى أنهم يعتبرون أن قارة إفريقية لم تنشأ فيها الشعوب والسلالات التى تعيش فيها الآن . بل إنها عُمرت بالسكان تدريجياً على مدى آلاف السنين ، والذين نزلوا بها واتخذوها وطناً . . . جاءوا كلهم من الشرق أو الشمال الشرقى .

على الرغم من أن هذه النظرية ظلت سائدة حيناً من الدهر فإنها لم تكن تخلو من بعض نقط ضعف أهمها أنها لم تفسر بطريقة مرضية كيف تكون الأقاليم الآسيوية المتاخمة خالية من الجنس الزنجى . مع أنه لابد أن انتقل منها — إذا صحت النظرية — إلى القارة الإفريقية ، فليس فى غرب آسيا المطل على إفريقية قطر أو إقليم يمكن أن يعد وطناً من أوطان الزنج الأصلية . . وكل الزنوج الذين نزلوا غرب آسيا — على قلتهم — دخلوها فى العصور التاريخية الحديثة .

وعلى هذا الاعتراض يرد أصحاب النظرية ، أن السلالة الزنجية ، قد انتقلت كلها من وطنها الأصلى على مدى عشرات من آلاف السنين حتى خلت منها أوطانها الأصلية (والمفروض أنها فى جنوب الجزيرة العربية) .. فلا يحق لنا أن نتوقع أن نجد لها بقية فى تلك الجهات بعد هذا الزمن الطويل ، وبعد أن أقبلت سلالات أخرى وطاردتها - أو طردت البقية الباقية منها - ومن الجائز بالطبع أن يكشف البحث العلمى فى مكان ما عن بقايا بشرية تنتمى إلى السلالة الزنجية ؛ فى غرب القارة الآسيوية . . .

وبعض العلماء يذهب إلى أبعد من هذا ، ويزعم أن المحيط الهندى الشمالى حديث التكوين ، كما يبدو من تشابه الحياة الحيوانية فى الهند وفى غابات إفريقية .. كتشابه الفيلة فى القارتين . ولم يكن من الممكن أن تنتقل هذه الحيوانات الضخمة بأية وسيلة سوى الاتصال البرى المباشر بين القارتين فى الإقليم المدارى . لهذا يرى البعض أن الوطن الزنجى القديم كان إلى الجنوب من جزيرة العرب ، ثم غمرته مياه المحيط الهندى تدريجياً .

ويبدو أن بعض الباحثين لم يجدوا فى هذه التفسيرات ما يشفى الغلة .. ولم يجدوا مفراً من أن يقرروا أن الجنس الزنجى نشأ فى القارة الإفريقية ، وأنه انحدر من سلالة قديمة استوطنت القارة ، وتطورت واكتسبت الصفات الزنجية من خلال الإقامة فى بيئة حارة رطبة . وذهب بعضهم إلى أن هذا الوطن الزنجى القديم كان فى الهضبة الوسطى ، فى الإقليم الشمالى من حوض نهر الكونغو .

وقد قبل كثير من الكتاب فى السنوات الأخيرة هذه النظرية .. اعتماداً على ما وجد فى هضاب كينيا من بقايا وأدوات . لا بد أن تكون من صنع الإنسان . أى أنهم اعتمدوا على ما وفقوا للعثور عليه فى باطن الأرض بعد البحث والتنقيب . وبالطبع ليست القارة الإفريقية من الجهات التى قتلت بحثاً وتنقيباً ومن الجائز أن تتمخض الحفائر الأثرية عن كل جديد وعجيب ؟

ومع ذلك لا بد لنا أن نذكر أن مسألة نشأة الجنس الزنجي فى مكان ما بإفريقية . تثير بعض المسائل . . أهمها أن الجنس الزنجي ممثل فى إقليم آخر فى شرق آسيا ، بعيداً أقصى البعد عن إفريقية . إن الجانس الزنجي له وطن آخر فى جزيرة غينيا الجديدة وما يليها من جزر ميلانيزيا[1].

وإلى جانب هذا التوزيع المتباعد لجنس الزنج . هناك مسألة أخرى شبيهة به ، وهى توزيع سلالة الأقزام ، وهى كما نرى سلالة تمت للجنس الزنجي بأواصر القرابة ؛ وللأقزام توزيع يلفت النظر . فهناك الشعبة الأفريقية، التى تعيش مبعثرة وسط غابات الكونغو وأواسط أفريقيا . . وهناك أقزام من نفس الطراز فى آسيا . وهم الأندامان فى الجزيرة المسماة باسمهم فى المحيط الهندى . والسيمانج فى شبه جزيرة الملايو ، والآيتا فى جزر الفليبين ، والتابيرو Tapiro فى غينيا الجديدة (القسم الاندونيسى) . وليس من السهل أن نتصور كون هذا التوزيع المترامى الأطراف منشؤه القارة الأفريقية . . ومنها انتشر حتى بلغ جزر الفلبين .

ولعل المشكلة لا تزال تفتقر إلى مزيد من دراسة وبحث وكشوف جديدة ، ولا يلام المرء إذا احتفظ برأيه الأخير فى هذه القضية ، حتى يتمخض البحث عن شيء يسهل التسليم بصحته .

— ٢ —

على أن اختلاف الرأى حول نشأة السلالات الإفريقية ، لا يضيرنا كثيراً فيما نحن بصدده هنا من دراسة وتمحيص للسلالات الموجودة فى القارة اليوم ، وصفاتها التى تميزها بعضها عن بعض ونظمها الاجتماعية وثقافتها

(١) راجع كتاب الأجناس البشرية Races of Man تأليف A.C. Haddon وما ورد به من تقسيم السلالات . كما يجد القارئ فى ختام ذلك الكتاب آراء هادن فى نشأة الإنسان حيث يقرر فى صراحة أنه مؤمن أن تطور النوع البشرى كان فى جهة من آسيا Somewhere in Asia . ويجد القارئ فصلا وافياً فى الموضوع فى كتاب سكان هذا الكوكب ، لمؤلف هذا الكتاب .

واقتصادها ونحو ذلك ، فلنمض إذن على بركة الله فى معالجة موضوعنا هذا فى الصفحات التالية .

ولا بد لنا قبل أن ندخل فى صلب الموضوع أن نلفت النظر إلى أننا مضطرون فى دراستنا هذه لأن نلجأ إلى بعض المصطلحات الأنثروبولوجية ، دون أن يكون فى ذلك إسراف يتعذر معه متابعة هذه الدراسة ، على غير المتخصصين .

فلنذكر أولا أن تمييز السلالات البشرية يقوم فى الأغلب على دراسة صفاتها الطبيعية وسنورد فيما بعد الصفات الهامة التى استخدمها العلماء فى تمييز جنس عن جنس وسلالة عن سلالة . وتقسيم النوع البشرى إلى أجناس أمر قد فكر فيه الإنسان منذ زمان . والمذهب الحديث الذى أخذ به العلماء هو أن الأجناس البشرية ثلاثة :

الأول : الجنس المغولى ، المنتشر فى شمال وشرق آسيا ، وفى الأمريكتين الشمالية والجنوبية إذ ليس ما يسمى الهنود الحمر سوى فرع من الجنس المغولى .

الثانى : الجنس الزنجى ، المنتشر أكثره فى إفريقية جنوب الصحراء ، ومنه شعبة صغيرة فى غرب المحيط الهادى . بقطع النظر عن الذين استوطنوا القارة الأمريكية وجزرها .

الثالث : الجنس القوقازى ، وهذا الاسم اصطلاحى بحت فإنه ليس جنساً خاصاً ببلاد القوقاز ، وهو منتشر فى غرب آسيا ومعظم أوربا والنصف الشمالى والشمال الشرقى من إفريقية .

هذه هى الأجناس الرئيسية للنوع البشرى ، وكل جنس ينقسم إلى سلالات .

وأهم صفة طبيعية لجأ إليهـــا العلماء حديثاً فى تمييز الأجناس الثلاثة هى شكل الشعر : فالجنس المغولى شعره مسترسل مستقيم خشن نوعاً كأنه شعر

الفرس وإذا قطعت الشعرة بدا قطاعها تحت العدسة المكبرة مستديراً . ويغلب على الشعر المغولى السواد .

أما الجنس الزنجى فيمتاز بشعر لولبى أو مجعد شديد التجعيد . بحيث تلتوى كل شعرة على نفسها أو تلتف عدة شعرات بعضها على بعض ، تاركة فراغاً بين كل مجموعة والتى تليها ، وهذا ما يسميه العرب الشعر المفلفل ، ولشدة التواء بعضه على بعض قلما يكون طويلا . وتكاد النساء ألا يختلفن فى هذا عن الرجال . والشعرة الواحدة يبدو قطاعها تحت العدسة فى صورة شريط .

أما الجنس القوقازى فيمتاز بشعر مموج . فإذا أمسكنا شعرة فى اليد نرى أنها ليست مستقيمة كالشعر المغولى ، ولا تتخذ صورة لولبية مثل الشعر الزنجى ، بل تبدو منحنية انحناءة يسيرة . وتحت العدسة يبدو قطاعها بيضياً . ومن الجائز أن يتخذ الشعر شكل الشعر المجعد وهذا يقربه نوعاً من الطراز الزنجى . ولكن بدرجة يسيرة ؛ فإذا كان التجعيد بصورة مبالغ فيها . فقد يكون ذلك بسبب اختلاط قديم أو حديث بسلالة زنجية .

والجنس القوقازى هو الجنس الوحيد الذى يتخذ الشعر فى سلالاته ألواناً متعددة أحياناً فيظهر فيه السواد والشقرة والصهوبة واللون العسلى والبنى والكستنائى والكتانى . وإن كان اللون الأسود هو الغالب على كل حال .

فتمييز الأجناس إذن يعتمد قبل كل شىء على شكل الشعر . وهناك صفات أخرى لتمييز السلالات نذكرها باختصار فيما يلى :

القـــامة :

معظم النوع البشرى متوسط القامة ، ودرجة التوسط فى الرجال البالغين هى حسب الاصطلاح الشائع ١٦٥ سنتيمتراً . . وأكثر السلالات يقترب من هذا الرقم . ويكون الشخص قصير القامة أو يميل إلى القصر فى المصطلح الأنثربولوجى . إذا كانت قامته تتراوح بين ١٤٥ و ١٦٥ سنتيمتراً .

أما إذا انخفضت القامة عن الحد الأدنى للقصر ، عدت السلالات من الأقزام . ولا يقصد بالأقزام فى دراسة الأجناس أولئك الأفراد الذين قد يولدون وسط جماعات متوسطة القامة ويكون قصر القامة هنا مجرد ظاهرة شاذة تسمى القماءة . أما الأقزام الحقيقيون فإن قصر قامتهم صفة عامة فى السلالة كلها .

وهناك سلالات تمتاز بالقامة الطويلة . أى أن متوسط القامة فى السلالة كلها يزيد على ١٧٥ سم (للرجال البالغين) . . ولا عبرة بوجود أفراد طوال القامة فى جماعة أو سلالة . بل يجب أن يكون متوسط طول القامة مرتفعاً . ومعلوم بالطبع أن قامة المرأة فى المتوسط أقل من قامة الرجل . وفى مقارنة السلالات لا بد من مراعاة ذلك .

لون البشرة :

كان أكثر اعتماد القدماء فى تمييز السلالات على لون البشرة . وعلى الرغم مما يذهب إليه دعاة التفرقة العنصرية ، فإن اللون كمميز جنسى فقد كثيراً من أهميته . ويرجع اختلاف اللون إلى وجود غدد تحت الجلد تفرز مادة ملونة لوقاية ما يلى الجلد من أنسجة حساسة من تأثير أشعة الشمس . وكلما زاد إفراز هذه الغدد زادت سمرة البشرة . والذين حرموا من هذه الإفرازات، يكون هذا نتيجة حالة مرضية ، وهى البرص (بالإفرنجية Albism) وتكون الغدد أكثر إفرازاً فى سكان الأقاليم التى تتعرض كثيراً لأشعة الشمس . وعلى مضى القرون وآلاف السنين يثبت اللون الداكن أو الأسمر ، فيصبح صفة جنسية . فإذا انتقلت جماعة سمراء البشرة إلى إقليم آخر أقل تعرضاً للأشعة فإن لونها لا يتحول عن الطبيعة التى اكتسبها فى البيئة الأولى ؟

وجميع السلالات — مهما كانت تبدو بيضاء البشرة — فإن بشرتها تحمل قدراً من المادة الملونة . . وتفاوت الألوان يرجع إلى تفاوت درجة الإفراز ونشاط الغدد .

واللون من الصفات الأساسية فى قارة مثل إفريقية معرضة أكثر من سواها للأشعة ، وكلها أو جلها واقع فى المنطقة المدارية أكثر من سائر القارات . فلا بد أن يحسب العلماء حساباً لهذه الصفة ، وإن لم يذهبوا مذهب القدماء فى الاعتماد عليها كل الاعتماد فى تميز الأجناس ، لأن سواد البشرة أو شدة السمرة قد تبدو فى غير الزنوج من السلالات ، التى تعيش فى نفس البيئة ولأن اللون صفة تعوزها الدقة لأن مراتب السمرة والسواد والبياض يصعب تحديدها تحديداً علمياً .

شكل الرأس والنسبة الرأسية :

من الصفات التى يعتمد عليها الباحثون شكل الرأس : لأن بعض الرءوس طويل إذا نظرنا إليه من فوق أو عريض أو متوسط . . وتختلف الرءوس فى هذه الصفة من سلالة إلى سلالة . وقد اصطلح العلماء على تعبير حسابى لشكل الرأس بأن جعلوا نسبة العرض إلى الطول . . نسبة حسابية يكون فيها الطول ١٠٠ دائماً ، ويكون العرض وحده رقماً مختلفاً حسب الشخص الذى تعمل نسبته الرأسية وكأننا أمام كسر اعتيادى فيه العرض هو البسط والطول هو المقام فإذا كان شخص ما طول رأسه ٢٠ سم ، والعرض ١٥ أمكننا أن نوضح ذلك فى شكل الكسور الآتية :

$$\frac{\text{العرض}}{\text{الطول}} = \frac{١٥}{٢٠} = \frac{٧٥}{١٠٠}$$

ونظراً لأن رقم ١٠٠ سيظل ثابتاً فإننا لا نحتاج إلى ذكره ونقول إن النسبة الرأسية لهذا الشخص هى ٧٥ .

وبناء على هذا اصطلح الكتاب على تقسيم الناس بحسب النسبة الرأسية كما يلى :

طـــوال الرءوس Dolichocephalic النسبة ٧٥ فأقل

متوسطو الرءوس Mesocephalic النسبة من ٧٥ إلى ٨٠

عريضو الرءوس Brachycephalic النسبة من ٨٠ فأكثر

ومع ذلك فإن النسبة الرأسية ليست عظيمة الأهمية فى القارة الإفريقية لأن أكثر السكان طوال الرءوس سواء فى ذلك الزنوج والقوقازيون . ولكن لها أهمية بالنسبة للأقزام وفى بعض جهات محدودة .

شكل الأنف :

لشكل الأنف أهمية خاصة فى تمييز السلالات . والأنف قد يكون بارزاً أو متوسط البروز أو أفطس . . وهناك أيضاً اختلاف آخر حيث يكون الأنف عريضاً أو متوسطاً أو ضيقاً . وقد عملت لهذه الخاصية نسبة أنفية على نسق النسبة الرأسية ، فَجُعِلَ الطول مقاماً والعرض بسطاً والنسبة هى نسبة العرض إلى الطول ، وكما رأينا فى النسبة الرأسية اصطلح على نسبة أنفية من ثلاث مراتب :

أنف ضيق	نسبته ٧٠ فأقل
أنف متوسط	« ٧١ — ٨٥
أنف عريض	« أكثر من ٨٥

بروز الفكين ، وشكل الشفتين :

لا بأس فى أن نأخذ هاتين الصفتين معاً . فبروز الفك معناه أننا إذا نظرنا إلى الوجه نظرة جانبية (بروفيل) نجد الفك بارزاً أكثر من المألوف . أو قليل البروز ؛ وهذه صفة شائعة فى الجنس الزنجى الذى لم يتأثر بسلالات قوقازية . كذلك الشفاه تكون فى الجنس الزنجى ممتلئة جداً ، وقد تكون الشفة مقلوبة ، فتبدو بذلك أكثر غلظاً ، ومع أن مثل هذه الصفة قد يوجد فى جماعة من الجماعات ، فإنها كثيرة فى الجنس الزنجى النقى الذى لم يختلط بسلالة أخرى .

أما السلالات الزنجية التى تأثرت بالجماعات القوقازية ، فإن اختلاطها هذا يكون له أثره فى تلطيف الصفات الزنجية الأصلية من ناحية شكل الأنف

والفك والشفتين . ويكون له أثر فى اللون أحياناً . ولكن لا يكاد يكون له أثر فى شكل الشعر ، فإن توارث صفات الشعر الزنجى أقوى وأكثر وضوحاً عند اختلاط السلالتين الزنجية والقوقازية ؛ أما اللون فلا يتغير كثيراً إلا بعد مصاهرات واختلاطات طويلة الأمد .

هذه هى أهم الصفات الجسدية أو الطبيعية التى يلجأ إليها علماء الأجناس فى تمييز السلالات ، وهنالك صفات أقل أهمية ربما جاء ذكرها فى الفصول التالية . وهناك أيضاً صفة لم تحقق كل ما كان يرجى منها من فائدة ، وهى تمييز السلالات بحسب مجموعة الدم . ونظراً لأن هذه الظاهرة لم يلجأ إليها كثير من العلماء ، فإننا نكتفى بالإشارة إليها ، دون أن نأخذها فى دراستنا هذه بعين الاعتبار .

— ٣ —

من هذا يتبين لنا أن تمييز الأجناس والسلالات يجب أن يعتمد فيه على الصفات الطبيعية . غير أن الإلمام بالصفات الطبيعية يستدعى مجهوداً متصلاً فى كل ركن وكل إقليم من أقاليم القارة ، وبعض تلك الصفات يتطلب استخدام آلات لقياس الرأس والأعضاء . وليس ذلك بالأمر السهل ويحتاج إلى زمن طويل ، ولا يزال الجزء الأكبر من القارة الأفريقية لم يلق العناية الواجبة فى هذا الصدد ، من أجل ذلك اضطر الباحثون إلى الاعتماد فى كثير من الأحيان على اللغة كوسيلة للتمييز بين السلالات . ومع أن من المسلم به أن اللغة ليست من الصفات الطبيعية ، بل هى من المميزات الثقافية . ويكثر فيها أن تقتبس جماعة أو سلالة لغة سلالة أخرى . فإنها مع ذلك لا غنى عنها للباحث فى شئون القارة الإفريقية ، وتقسيم سكانها إلى سلالات وشعوب، حيث تكون اللغة هى الظاهرة الوحيدة التى ترشدنا إلى ما بين السلالات من نسب أو قرابة ، كما تدلنا أحياناً على الهجرات والانتقالات ، التى ابتعدت ببعض السلالات عن مواطنها الأصلية وسنجد حين ندرس الجماعات الإفريقية

أمثلة متعددة أخرى لظاهرات بشرية ، اهتدينا إلى فهمها بدراسة توزيع اللغـــات .

وتوصف القارة الإفريقية بأن ظاهرة اللغات فيها معقدة إلى أبعد الحدود . ويقول غير واحد من علماء اللغات إن ما بإفريقية من الألسن لا يمكن أن يقل عن ثمانمائة لغة[1] وقد تعب علماء اللغات فى تصنيف لغات إفريقية ، وأعيد التصنيف غير مرة ، وقد استقر التصنيف المبنى على بحوث الأستاذين مينهوف ووستر مان Meinhof and Westermann فترة من الوقت وارتضاه الأستاذ سلجمان وجمهور العلماء . وهذا التقسيم على الصورة الآتية[2] :

١ ــ اللغات السامية	٢ ــ الحامية
٣ ــ الهوتنتوت	٤ ــ البانتو
٥ ــ السودانية	٦ ــ البشمن

ويقصد باللغة السامية العربية ولغات إثيوبيا وبعض لغات أو لهجات فى منطقة بحيرة تشاد والحامية يراد بها لغات البربر فى إفريقية الشمالية ، ولغات الجلا والبجه ونحو ذلك .

أما لغة الهوتنتوت فإنها شقيقة لغة البشمن ، ولكن هناك فرقاً بينهما لأن عناصر حامية دخلت لغة الهوتنتوت فأثرت فيها . أما لغة البانتو فمجموعة كبيرة متشابهة جداً يتكلم بها زنوج أفريقية فى الثلث الجنوبى من القارة المنحصر بين المحيطين الأطلسى والهندى .

أما اللغات « السودانية » . فهى لغات عديدة جداً ، يتكلم بها عدد هائل من القبائل الزنجية فى غرب إفريقية من نهر السنغال إلى نهاية خليج غانا .. وفى

---

(١) انظر Gresnberg (١٩٦٢) ص ١٥ وما بعدها .

(٢) راجع ص ٧ من كتاب سلجمان أجناس أفريقية (١٩٥٧) ، والخريطة الإيضاحية فى نفس الصفحة .

إقليم السفانا الممتد فى شمال الغابات الاستوائية . وكذلك تطلق على كثير من لغات نيجيريا وأعالى النيل وجبال النوبة ودارفور وجنوب أرض الجزيرة .



عن سلجمان ص ٧

(شكل رقم ٢)

وهذا التنوع اللغوى الشديد الذى يبدو فى اللغات « السودانية » يقابله ذلك الاتفاق الواضح بين لغات البانتو . وسنعود إلى ذكر هذه الظاهرة وما قيل فى تعليلها عند الكلام على شعبة البانتو .

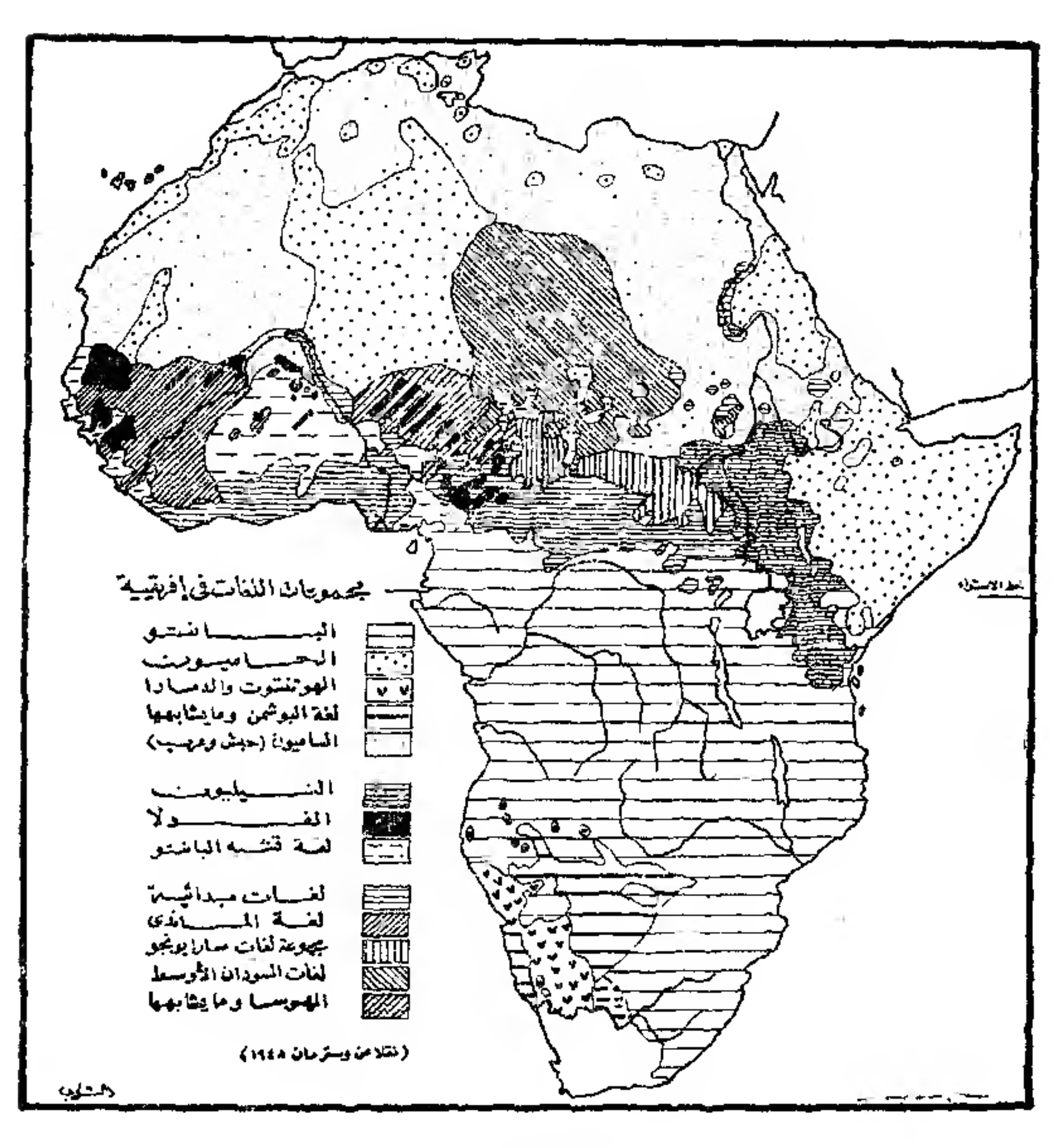
وهذا التقسيم للغات إفريقية إلى ست مجموعات على الصورة الموضحة قبلا . لم يعجب الأستاذ جرينبرج الذى رأى أن يقسم اللغات الإفريقية إلى خمس مجموعات كبيرة واسعة الانتشار وسبع مجموعات صغيرة تخص سبع

قبائل لم يستطع أن يحشرها فى خمس المجموعات الكبيرة : وحسبنا هنا أن نذكر المجموعات الخمس الكبيرة ، وقد أطلق عليها الأسماء الآتية :

١ ـ مجموعة النيجر والكونغو وهى تشمل بضع مئات من اللغات .

٢ ـ الإفريقية الآسيوية ، ويقصد بها ما يدعى عادة اللغات السامية والحامية .

٣ ـ السودانية العليا : فى أعالى النيل والكونغو .



(شكل رقم ٣)

٤ ـ مجموعة أواسط الصحراء : ويتبعها عدد محدود من اللغات موزعة فى مساحة كبيرة .

٥ ـ لغات النبرات : التى تضم لغات الهوتنتوت والبشمن والسنداوى ونحوهـا .

هذه الأقسام الخمسة تعتريها تقسيمات أخرى ، ولا محل للخوض فى هذا كله ، لأننا سنعالج كثيراً من المسائل التى أثيرت حول اللغات الإفريقية عند الكلام على القبائل الهامة التى تحتل أرجاء القارة .

ـ ٤ ـ

السلالات الإفريقية :

سبق لنا أن ذكرنا أن سلالات إفريقية تنقسم بوجه عام إلى قسمين كبيرين :

المجموعة الزنجية فى الجنوب ، والمجموعة القوقازية فى الشمال ، ومن الممكن رسم خط تقريبى ، نحاول فيه أن نفصل ما بين أوطان كل من المجموعتين .

يبدأ مثل هذا الخط من مصب نهر السنغال فى غرب إفريقية ، ويلتزم مجرى النهر إلى نحو منتصفه . ثم يتجه الخط شرقاً إلى منحنى نهر النيجر إلى الجنوب من بلدة تمبكتو . ثم يمتد من هنا إلى بحيرة تشاد ويدور من جنوبها ، ويتجه شرقاً بانحدار إلى الجنوب حتى يصل إلى مجرى نهر بحر العرب . ويتبعه بالقرب من خط ٩° من درجات العرض . وعندما يقترب الخط من جبال النوبا ، يتجه نحو الشمال ويدور حول الجبال حتى يصل إلى نهر النيل الأبيض فيخترقه عند خط عرض ١٢° . ويمتد عبر الجزيرة فى اتجاه غربى شرقى ، حتى يبلغ سفوح الهضبة الحبشية . وهناك يتجه نحو الجنوب فى اتجاه رأسى تقريباً حتى يصل إلى المحيط الهندى بالقرب من نهاية نهر تانا ، ويصل

إلى المحيط الهندى فى نقطة تقع جنوب الخط الثالث من درجات العرض الجنوبية .

وليس معنى هذا أن مثل ذلك الخط بمثابة خط فاصل قاطع مانع ، بين القوقازيين إلى الشمال منه ، والزنج إلى الجنوب ، بل إنه كما ذكرنا خط تقريبى وهو فى كثير من أجزائه منطقة اختلاط بين الجنسين . وكل ما يمكن أن يقال فى هذا الخط إن الأقاليم الواقعة شماله تغلب فيها السلالات القوقازية . والأقاليم الواقعة جنوبه تسودها السلالات الزنجية . . هذا مع تجاهل الآثار الاستعمارية الأوربية ، التى لا يأخذها علم الأنثروبولوجيا بعين الاعتبار .

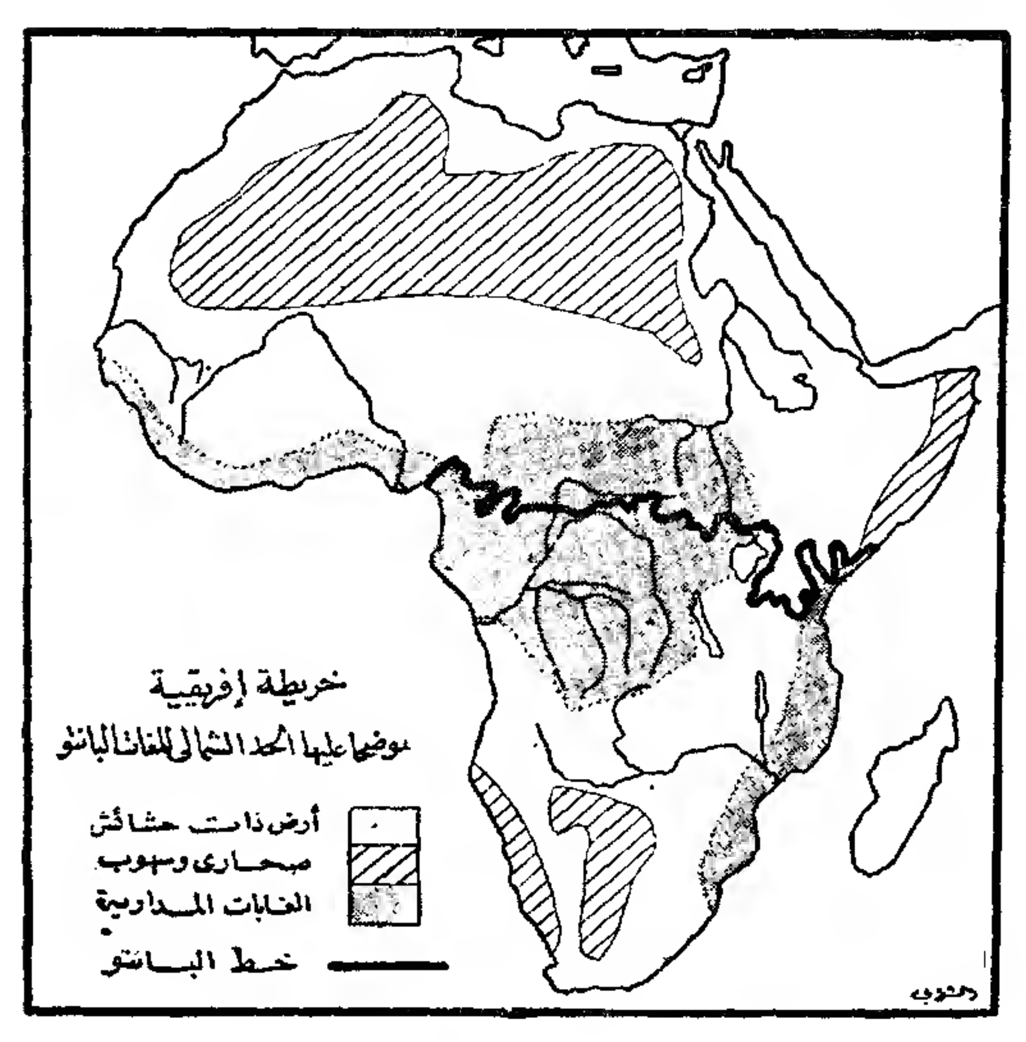
وهكذا نرى أن التقسيم الأساسى للسلالات فى إفريقية ، هو انقسام سكانها إلى زنوج وقوقازيين . ويضاف إلى هذا أن الزنوج ينقسمون إلى قسمين : سلالات البانتو المتشابهة اللغات ، والسلالات السودانية المتعددة اللغات ،وهنالك خط واضح يفصل المجموعتين ، لعله أدق من الخط الفاصل بين القوقازيين والزنوج عامة . . وهذا الخط الذى يفصل بين البانتو وغيرهم يمتد من خليج بيافرا فى الغرب ويخترق حوض الكونغو إلى بحيرة البرت ويدور حول البحيرات إلى أن ينتهى إلى مصب نهر تانا .

وبذلك تنقسم السلالات الزنجية إلى هذين القسمين الكبيرين . أما السلالات القوقازية فمن الممكن تقسيمها إلى قسمين : سلالات حامية ، وأخرى سامية، والأولى وهى التى تحتل منطقة قرن إفريقية وبعض الجهات الواقعة إلى الغرب من البحر الأحمر . وبعض جهات إفريقية الشمالية . ويميز الكتاب بين الحاميين الشرقيين والحاميين الشماليين أو الليبيين . أما السلالات السامية فتجاور الحاميين فى الشرق من إفريقية والشمال ، وتحتل معظم الهضبة الحبشية وحوض النيل وشمال إفريقية . ويذهب أكثر الكتاب إلى أن اللغات هى الفارق الرئيسى بين الحاميين والساميين .

والآن وقد ذكرنا هذه الأقسام المبدئية للقوقازيين والزنوج ، فإننا بهذا

نكون قد ذكرنا القسم الأعظم من سكان القارة الذى يزيد عدداً على تسعة أعشار السكان ولكن لا بد لنا مع ذلك من الإشارة إلى أمرين :

أولها أن هناك سلالتين فى أقصى الجنوب الغربى تختلفان عن الجنس الزنجى ، ولا يمكن أن نعدهما فرعاً منه وهما سلالة البشمن والهوتنتوت .



(شكل رقم ٤)

ولا بد أن نذكر معهما سلالة أخرى أطلق عليها العلماء اسم الأقزام ويعيش معظمها مبعثراً فى غابات الكونغو وغابة إيتورى . هذه السلالات الثلاث لا بد لنا أن نضيفها حتى نكمل الصورة العامة للجغرافيا الجنسية الإفريقية :

الأمر الثانى الذى تجب الإشارة إليه : هنالك مجموعة من السلالات لها صفات مشتقة من عنصر قوقازى ، مثل ضيق الأنف ، والرقة النسبية للشفتين ، والسمرة الملطفة . ولكن فيها من الزنج ، صفة الشعر اللولبى . . ولا شك أن هذه السلالات مكونة من خليط من السلالتين على مدى قرون عديدة . . ويؤيد هذا الرأى الأوطان التى تعيش فيها تلك السلالات فى الشرق من إفريقية .. وهى موزعة ما بين شمال تنجانيقا ، وكينيا وأوغندا وصوماليا والطرف الجنوبى الشرقى من السودان، ومنها قبائل مشهورة مثل الماساى والسوك والتركانا وغيرها . ويطلق عليها اسم النيليين الحاميين .

وهكذا يمكننا وقد تناولنا بالتحليل سلالات إفريقية أن نلخص ما هدانا إليه التحليل من تقسيمها إلى الأقسام الآتية :

١ ـ البشمن والهوتنتوت والأقزام .

٢ ـ الزنوج من سودانيين وبانتو .

٣ ـ القوقازيون من حاميين وساميين .

٤ ـ أنصاف الحاميين ؛ أو كما يسمون الآن : النيليين الحاميين .

الفصل الأول

البشمن والهوتنتوت والأقزام

إذا تناولنا هذه السلالات فى فصل واحد فإن ذلك لا يرجع إلى أنها متقاربة النسب أو متشابهة ، بل لأن عددها القليل لا يبرر إطالة الكلام عنها ؛ ومع ذلك لا بد أن نتحدث عن كل منها على حدة :

البشمن[1]

قد لا يزيد عدد البشمن فى أوطانهم الحالية على ٥٠,٠٠٠ ، ويوجدون موزعين فى وسط وشمال صحراء كلها رى فى الجنوب الغربى من إفريقية ؛ وموقعهم الجغرافى هذا يعتبر من جهات الالتجاء التى تحتمى بها الجماعات ، ابتعاداً عن عدو يطاردهم أو يزحف من ورائهم .

والبقايا الأثرية ، تشير إلى أنهم جاءوا من الشمال حيث كانوا منتشرين فى مساحة كبيرة فى الأقاليم المدارية شمال وجنوب خط الاستواء ، ويؤيد هذا الرأى ما وجد من تصوير فى الصخور فى تنجانيقا بأسلوب يحاكى أسلوب البشمن فى أوطانهم الحالية . . وربما وجدت أمثلة من هذا التصوير فى جنوب إثيوبيا .

---

(١) إن هذا الاسم مشتق من الكلمتين الإنجليزيتين Bush-men ومعناها رجال الأحراج . ولم نشأ استعمال الترجمة العربية ، لأن الاسم الشائع الإنجليزى الأصل قد أصبح علماً .

وهناك أيضاً ضرب من الكرات الحجرية المثقوبة التي يستعملها البشمن ليثقلوا بها عصا الحفر التي يستخدمونها في استخراج الجذور من الأرض . وقد وجدت أمثالها في أوغندا وفي جنوب السودان . ويذهب الكثير إلى أن البشمن كانوا إلى وقت غير بعيد منتشرين في كثير من أنحاء الجزء الجنوبي لإفريقية . ومن المحتمل أن انتشار البانتو منذ نحو ثلاثة آلاف من السنين كان سبباً — أو واحداً من الأسباب — في تراجع البشمن إلى أوطانهم الحالية ، كما تدل على ذلك آثارهم في التصوير على الصخر ، أو بعض العظام البشرية أو أسماء بعض المواضع .

وقد اضطروا إذن تحت ضغط شعوب أكثر عدداً إلى التراجع تدريجياً ، حتى أن بعضهم قد وصل إلى الساحل الجنوبي الغربي في إفريقية ، حيث وجدهم البوير يعيشون على صيد السمك والتغذي بما تلفظه الأمواج من السمك والحيتان الضخمة وكان البوير يطلقـــون عليهم اسم مرتادى الشواطئ Strandloopers وقد انقرضوا — أو معظمهم — في العصر الحديث .

أما الصفات الطبيعية للبشمن فإن تميزها سهل بالنسبة لسائر الإفريقيين ما عدا الهوتنتوت . الشعر لولبي جداً تتجمع فيه الشعرات تاركة مسافات من جلدة الرأس ، وهذا هو الطراز الذي يوصف بأنه مفلفل . والقامة أقرب إلى القصر أي نحو ١٥٨ سنتيمتراً ، وهذا الطول يبعدهم عن الأقزام ؛ والأطراف نحيلة والأيدي والأرجل صغيرة والنسبة الرأسية تقرب من ٧٥ ؛ والرأس قليل الارتفاع ، ولون البشرة يميل إلى الاصفرار ، والجلد يتجعد بسهولة . الوجه قليل البروز ، مستعرض صغير ، بارز عظام الخدين والجبهة منتفخة نوعاً ، والعيون ضيقة ، والجفون يعتريها التجعد . والأذن شكلها مربع وتكاد تخلو من الشحمة .

ومن الصفات التي اشتهر بها البشمن ما يعتري الجزء الأسفل من العمود الفقري من التقوس للأمام . وذلك يسبب بروز العجيزة بشكل واضح ؛

وفى النساء يتراكم الشحم بكثرة فى هذه المنطقة ، وهذه الصفة أطلق عليها العلماء اسم استيتوبيجيا Steatopygia وتكثر هذه الصـــفة عند البشمن والهوتنتوت . وقد تظهر نادرة فى جهات أخرى .

ويتكلم البشمن لغة خاصة ، رأى جرينبرج أن يجعل منها ومن عدد قليل آخر مجموعة منفصلة أو أسرة لغوية منفردة . وسماها أسرة الطقات The Click Family أى الأصوات ، التى تختلف عن جميع أصوات الحروف الأبجدية فى جميع اللغات ، وبالطبع إن هذه اللغات لا تتألف كل ألفاظها من طقات ، بل ترد الطقة فى بعض الكلمات ، ونظراً لأن هذه الطقطقة لا نظير لها فى لغة أخرى جعلها الأستاذ جرينبرج أسرة فريدة ، وتجىء هذه الطقات فى لغة الهوتنتوت وفى لغات البشمن ، كما أنها تجىء أيضاً فى لغة السنداوى والهاتسا فى تنجانيقا ، مما يشير إلى احتمال انتشارها قديماً فى جهات أخرى فى النصف الجنوبى من القارة .

على الرغم من التشابه بين لغات البشمن ، فإن لهم ألسنة تختلف من مجموعة إلى أخرى . ولذلك نرى لهم ثلاث مجموعات لغوية : فى الشمال والوسط والجنوب . وكل واحدة من هذه المجموعات الثلاث تنقسم إلى أقسام . كل قسم منها خاص بقبيلة من القبائل ، أو ما يمكن أن نطلق عليه اسم قبيلة على سبيل التجاوز ، مع أنها ينقصها أى نوع من التنظيم القبلى .

يتسمى كلٌّ من هذه « القبائل » باسم خاص ، لعله مشتق من اسم جد قديم تزعم الانتساب إليه . وليس هنالك أى نوع من السلطة المركزية تستطيع أن تفرض أى نوع من القرارات أو الأوامر على القبيلة كلها ، كما أنها لا تقوم بأى عمل مشترك لمصلحة القبيلة كلها وربما كان البشمن كلهم يشتملون على نحو مائة من هذه القبائل .

وتنقسم القبيلة إلى « عشائر » ، وكل عشيرة تتألف من بضع عشرة أسرة ويسميها أكثر الكتاب « عصابات » Bands . تزعم أنها ترجع إلى جد

واحد وتمتلك مساحة من الأرض تلتزمها ولا تكاد تخرج عنها . ولها فى حدود أرضها نوع من الاستقلال ، وتفصل ما بين أرض كل عشيرة وما يليها حدود أو معالم واضحة كبعض الأحراج أو الأودية . ولا يجوز عبور هذه الحدود المحايدة ، إلا من أجل الزيارة النادرة . وإلا اعتبر اجتياز الحدود نوعاً من العدوان . والظاهر أن علاقة العشائر المتجاورة ليست دائماً ودية . لأنهم أحياناً يخشون جيرانهم ، ولا يجازفون بعبور أرضهم حتى ولو كان يصحبهم بعض رجال السلطة من الأوربيين .

ومع ذلك فقد يحدث بعض التعاون بين العشائر المتجاورة ، وربما استنجد الضعيف بجاره القوى ، ولكن هذا ليس كثير الحدوث ، ولا يدوم زمناً طويلا ، بل ينتهى بمجرد زوال الأسباب التى دعت إليه .

هذا التعاون بالطبع — إذا حدث — لا يكون إلا بين المتجاورين ؛ أما العصابات المتباعدة فلا يكاد يعرف بعضها بعضاً ، وليس بينها صلة .

ولكل عشيرة رئيس ليس له صفة الزعامة الدائمة ، ولا تجب له الطاعة فى الأمور العادية ، ولكن له بعض النفوذ « التقليدى » ، وله وظائف تقليدية لا بد أن يتولاها ، فإن العشيرة تنظر إليه بأنه المتصرف فى شئون الأرض وما بها من موارد غذائية وماء ونار .

ونظراً لأن الزواج من النوع الاغترابى ، والزوجة تعيش فى عشيرة زوجها ، فإنه على مضى الزمن تكون العشيرة مؤلفة من أقرباء الزعيم وزوجاتهم ولعل هذا أيضاً مما يوجد ضرباً من الصلة بين العشيرة والعشيرة التى تتبادل معها الزواج ، ولا تكاد هذه الصلة أن تعدو ما يتطلبه الزواج من اتصالات وقتية .

وتعيش العشيرة فى شبه معسكر كبير . له خطة ورسم خاص ، بحيث تكون أكواخ المتزوجين منفصلة بعضها عن بعض بنحو ٧ أو ٨ أمتار ؛ فى شكل دائرة كبيرة قطرها ٧٠ أو ٨٠ متراً ، ويكون كوخ الزعيم عند

بعض القبائل فى الجانب الشرقى من القرية وبعيداً عن الدائرة ببضعة أمتار ، وفى وسط المعسكر شجرة تكون مجتمعاً للرجال وتقام حولها الحفلات .

ويعيش الأولاد والبنات فى كوخ صغير بقرب كوخ الأبوين ، حتى إذا تجاوزوا الرابعة وضع كل من الأولاد والبنات فى كوخ خاص . وعند بعض العشائر ربما نام الأولاد بالقرب من الشجرة . أما البنات فيعمل لهن كوخ خاص يعشن فيه تحت رعاية امرأة ناضجة تتولى تربيتهن وتثقيفهن ، أما الصبية فيتبعون آباءهم الذين يلقنونهم أساليب الصيد والرماية ، وبعد أن يوفق الصبى لصيد أول غزال يسمح له باستعمال السهام المسممة .

وتختلف الأكواخ فى الحجم والشكل من عشيرة إلى أخرى ، وهى فى أبسط أشكالها عبارة عن مأوى ارتفاعه متر ونصف المتر . مكون من فروع شجرة مغروســـة فى الأرض بنظام نصف دائرى ومغطاة بالحشائش والحطب .

ولكل عشيرة معسكر أو قرية دائمة ، هى التى يقضون فيها معظم السنة . وقد يضطرون للانتقال منها إلى جهة أخرى دون الخروج عن حدود منطقتهم . ويقود الحركة الزعيم . . حتى إذا وصل إلى المكان المناسب اختار موضعاً لكوخه . وتبعه باقى العشيرة كل أسرة فى مكانها الخاص ، وتقوم النساء وحدهن ببناء الأكواخ ، ويقوم الزعيم بإشعال نار مستخدماً لذلك حطب الإيقاد . ولا يجوز أن يؤتى بالنار من المعسكر الأول ، بل توقد النار الجديدة وتأخذ منها كل أسرة ما تحتاجه .

والعنصر الهام فى حياة البشمن هو البحث عن الطعام ، وهو الشغل الشاغل للعشيرة . . وهم لا يزرعون ، ولا يربون ماشية بل يأخذون حاجتهم من الطبيعة رأساً ، وتختلف طعامهم حسب البيئة التى يعيشون فيها ، وحسب موسم السنة ولذلك يكون الطعام أحياناً معظمه من الصيد وأحياناً يكون أكثره نباتاً وأشياء أخرى تجمع أو تلتقط . ومقداره يقل أو يكثر حسب

الظروف المناخية والنباتية . وبعض الجهات أغنى نسبياً من غيرها ، والجهات الشمالية أوفر صيداً ونبتاً ، من الجهات الوسطى .

وأهم حيوانات الصيد أنواع من الوعول والغزلان والأرانب . والصيد حرفة الرجل أما الجمع والالتقاط فمن حرفة النساء ، وأهم ما تجمعه النسوة من نبات ثمار الأشجار الوحشية والدرنات والجذور والنبات الصالح للأكل . وهذه تكون متوفرة جداً بعد سقوط المطر ، كذلك تقوم النساء بجمع مقادير من الحشرات مثـل الجراد والنمل والعقرب والنحل والضفادع والعضاه والثعابين ونحوها . ويقال إنهم يتناولون لحم جميع ضروب الحيوان ما عدا الضبع والخلد (الأول لأنه يأكل اللحم البشرى ، والآخر لأن من عادته ادخار الحبوب التى يشتهيها البشمن) .

وطريقة قنص الحيوان تتنوع بتنوع الفريسة وبحسب حالة الموسم ، وسقوط المطر ونحو ذلك ، فهم ينصبون الفخاخ للطير فى فصل الجفاف ، لكى يصطادوا طيوراً مثل دجاج الوادى والحبارى والنعام والحيوانات الصغيرة . وبعض الأرانب والثعابين وبوجه عام الحيوانات التى تعيش فى داخل جحورها تصاد بوساطة الدبوس أو بعصا طويلة فى آخرها سنارة .

والمطاردة من الوسائل المتبعة كثيراً ، فيجرى الرجل وراء الفريسة حتى يعييها ثم يضربها بمطرقته . . وهو يطارد بعضها شتاء حيث يعوقها الوحل عن العدو . ويطارد بعضها صيفاً لأن حرارة التربة تحرق نعالها . وإذا ظهر قطيع انبرى له رجلان أو ثلاثة ، فيعدون وراءه حتى يبلغ بالحيوان الإعياء فيقتله بالرمح أو بالحربة . . وقد يلجأ الصياد إلى استخدام القوس والسهم وهو يصنع من خشب وفى طرفه حديدة أو قطعة عظم مدببة .

والسهام تُسمَّم للصيد، إما بسم حيوان كالثعبان أو بعض الحشرات وإما بعصير نبات سام ، وإذا أصيب الحيوان ، أخذ الصائد فى مطاردته حتى يسقط من شدة الإعياء ، فإذا جن عليه الليل دون أن يظفر بالفريسة ،

عاد ومعه زملاؤه فى الصباح المبكر ، فيحاصرون المنطقة حتى يعثروا على ضالتهم . لأن السم يكون قد أحدث مفعوله فى أثناء الليل . ويكون معهم زعيمهم ليشرف على العمل الباقى .

ومتى وجدوا فريستهم أجهزوا عليها ، ثم سلخوها ، واستخرجوا منها الكبد ، وهذه هى أول شيء يأكله الصيادون قبل أن يبرحوا مكانهم ؛ بعد ذلك يستخرجون المعدة ، ويجعلون منها وعاء يحتفظون فيه بالدم ، ثم يقطعون الفريسة ويحملونها على أفرع شجر . . إلى أن يصلوا بها إلى القرية . ويدعى الزعيم لكى يذوق أول قطعة من الفريسة ويحكم بصلاحيتها للأكل .

ويتولى الزعيم بعد ذلك توزيع الفريسة ، مع مراعاة نصيب الصائد الذى اصطادها ، وذلك طبقاً لعرف محدد صارم .

وهذا النظام الصارم لا يطبق إلا إذا كانت الفريسة حيواناً كبير الحجم ، أما ما يقتنصونه بمفردهم من الحيوانات الصغيرة كالأرانب والغزلان ، فيكون من نصيب الأسرة ؛ بخلاف الزراف ونحوها فإنه يكون من نصيب العشيرة كلهـــا .

وينتفع البشمن بكل جزء من الفريسة ، حتى العظام تحطم ويطهى ما بداخلها مع اللحم . ويستعمل جلد الحيوان الحديث السن فى الملابس ، أو صنع حقائب لحمل الطعام والتبغ ، أما الجلود الكبيرة الحجم فتصنع منها الأغطية والنعال والسيور ، وأوتار القسى . . . وبعض العشائر الميسورة نسبياً تحتفظ ببعض الكلاب لتستعين بها على الصيد . والتعامل بين الجماعات يكون بالمبادلة ، إذ يختص كل منها بشيء يبادل به مثل المصنوعات الجلدية أو بيض النعام وما يصنع منه من عقود ، وكذلك المواد التى تتخذ لتسميم السهام ونحو ذلك .

ومهما كانت حياة الصيد مجهدة مضنية ، وغير محمودة العاقبة دائماً ، فإنها هى الحياة التى يمارسها البشمن . ولا يخطر لهم ببال أبداً أن يلجأوا إلى الزراعة أو إلى تربية الماشية صغيرة أو كبيرة . وقد اكتسبوا بتجاربهم مهارة

فى الصيد ، وفى معرفة طبائع الحيوانات ، وتتبع آثارها فى الصيد . ولهم قدرة على احتمال الجهد والمشقة والجوع . . واستخراج كل شىء تشتمل عليه البيئة ، حتّى الماء الذى فى بطن الثرى قد يمدون فى الرمل أو التراب بوصاً ، ويمتصون به ما فى الثرى من الماء .

وربما تخفى الواحد منهم بريش النعام وحمل عصا ذات طرف منحنٍ فى شكل العنق والمنقار ، ويتحرك مقلداً حركات النعام ، لكى يستطيع أن يقترب من سرب النعام ، حتّى يصبح فى وسعه أن يرمى إحدى النعامات بالسهم .

وبمثل هذه الأساليب والحيل أمكن للبشمن أن يبقى على مدى الآلاف ، بل وعشرات الآلاف من السنين ، دون أن يلجأ إلى صناعة أخرى غير عمله المحبب وهو الصيد والقنص .

* * *

وللبشمن ديانة ولكن علمنا بتفاصيلها قليل ، فهم جميعاً يصلون للقمر ولبعض الأجرام السماوية . ولهم أساطير وخرافات تتصل بتلك الأجرام ، ولهم أيضاً اعتقاد فى كائنات خرافية ، تسيطر أو لها صلة ببعض الظاهرات الطبيعية ، وأهمها الكائنات التى تؤثر فى سقوط المطر ، وكثيراً ما يبتهلون لتلك الكائنات .

وقد كان للبشمن – إلى وقت قريب – فن جميل يمارسونه بالنقش على الصخر فى الكهوف والأركان ، ولا تزال صور عديدة من صنعهم موجودة فى جهات مختلفة ، والرسوم عادة عبارة عن صور متعددة الألوان ، تحكى أسلوب الحياة وأحداثها ، فبعضها يحكى غارة على قطيع من الوحش أو حفلة رقص ، أو مناظر دينية سحرية يبدو فيها رجال لهم رءوس الدواب ، ولكن أكثر ما تمثله تلك الرسوم هو حياة الناس والحيوانات التى يعيشون من صيدها . ولقد كانت هذه المهارة الفنية قائمة إلى وقت قريب ، وبعض

آثارها حديث الصنع ، ولكنهم لا يمارسون هذه الفنون الآن والنقوش الوحيدة التى يرسمونها اليوم هى ما يحلون به بيض النعام الذى يجعلون منه وعاء لحفظ الماء .

هذا ويميل الكتاب إلى اعتبار البشمن أقدم الأجناس فى القارة الإفريقية . وليس له مثيل فى أية قارة أخرى ، ولا شك أنه كان أوسع انتشاراً من الوطن المحدود الذى يعيش فيه اليوم . فى بيئة ليست أفضل البيئات لحياة الصيد .

الهوتنتوت

على الرغم من أن الهوتنتوت يقترن اسمهم دائماً باسم البشمن ، ويشابهونهم شكلا وثقافة ، فقد تأثروا بعناصر ودماء غريبة . إن حياة الصيد التى يحياها البشمن والتقاليد التى يلتزمونها ، والعزلة التى فصلتهم عن غيرهم ، وحالت دون اختلاطهم ، قد ساعدت على بقاء السلالة دون أن تتسرب إليها دماء أجنبيـــة .

والهوتنتوت قامتهم أطول نوعاً ، والصفات الزنجية أكثر ظهوراً مما هى عند البشمن والرأس أكثر استطالة .

ولا شك أنه قد حدث بعض الاختلاط بالبانتو ، الذين جاوروهم زمناً طويلا ، ولا يزالون يجاورونهم اليوم . ويرى سلجمان أن الهوتنتوت قد اختلطوا فى «الوطن الأصلى» بعناصر حامية . وكان لهذا الاختلاط أثره الثقافى أيضاً فى اكتساب لغة الهوتنتوت خصائص مشتقة من لغات الحاميين ، وإن بقيت اللغة من أسرة لغات البشمن ذات الطقات ، وعند سلجمان أن ذلك الوطن الأصلى واقع فى منطقة البحيرات .

ويبدو أن هجرة الهوتنتوت نحو الجنوب جاءت متأخرة عن هجرة البشمن وقد التزموا طريقاً أبعد إلى الغرب فاخترقوا أعالى نهر زمبيزى حتى

وصلوا إلى الساحل الغربى ، ثم انحدروا جنوباً إلى منطقة الرأس . وكانوا أول الوطنيين الذين صادفهم المستعمرون الأوروبيون عندما نزلوا بتلك المنطقة .

إن التوزيع القديم للهوتنتوت كان يشمل الأطراف الجنوبية الغربية من مصب نهر كونينى Kunene شمالا إلى شبه جزيرة الكاب جنوباً ، ويمتد شرقاً إلى نهر كاى . أما فى الوقت الحاضر فإنه قد يكون هنالك بقايا موزعة فى جوانب هذا الوطن الكبير ، أما الجماعات المنظمة نوعاً ، ولها نوع من الحياة المشتركة ، فإنها منحصرة فى إقليم محدود من إفريقية الجنوبية الغربية ، إلى الشمال من نهر أورنج . وهذا يدل على ما كان للهجرة الأوربية من أثر فى التضييق عليهم وزحزحتهم عن أوطانهم .

وقد كانت لهم من قبل قبائل عديدة منظمة ، وكل قبيلة تتكلم واحدة من اللهجات الأربع التى كانت سائدة . وترتب على هذه اللهجات تقسيم الهوتنتوت إلى أربع مجموعات : النامان والكورانا ، والجوناكوا ، وسكان منطقة الرأس والذين يعيشون اليوم فى الجنوب الغربى من إفريقية كلهم من مجموعة نامان . ولعلهم لا يتجاوز عددهم اليوم ٢٥,٠٠٠ . أما المجموعات الأخرى فقد هلك منها الكثير ، واندمج الكثير فى أثناء اختلاطهم بالمهاجرين الأوروبيين وعبيدهم الذين صاحبوهم وجاءوا من جزر الهند الغربية ، وأطلقوا على هؤلاء المولدين اسم ملوّنى منطقة الكاب Cape Coloured وغير ذلك من الأسماء، وهؤلاء المولدون تبدو بالطبع فيهم صفات العناصر الداخلة فى تكوينهم .

لا شك أن كثيراً من الهوتنتوت الذين انقرضوا قد جاءهم الانقراض عن طريق الاندماج ، لا فى عناصر المهاجرين وحدها ، بل وفى السكان الآخرين من البانتو . . . ولهذا يرى سلجمان أن الهوتنتوت سلالة مشرفة على الانقراض . والباقون منهم (النامان) ينقسمون إلى بضع قبائل أو جماعات تشبه القبائل . كل منها تدعى ملكية الماء والمرعى فى بقعة من الأرض :

وكل قبيلة تتألف من عشائر أبوية النسب ، اغترابية فى زواجها . وفى كل

قبيلة عشيرة تتركز فيها رياسة القبيلة . ولكن هذا الرئيس يشاور دائماً زعماء العشائر الأخرى فى معظم شئون القبيلة ، وقد تتجمع القبيلة فى بعض المواسم فى مكان واحد ، ولكن فى معظم السنة تعيش كل عشيرة بمفردها .

* * *

وأكبر ما تختلف فيه الهوتنتوت عن البشمن أنهم رعاة يربون البقر ذات القرون الطويلة والغنم ذات الأذناب السمينة . ويمارسون صنع الحديد ، ويتخذون منه أدوات ورماحاً وسهاماً ، ويصنعون من الخشب مواعين وصحوناً ، ومن البوص والحطب يصنعون الأسفاط وينسجون الحصير . ومن الجلود يتخذون قرباً للماء وأوعية لحفظ اللبن . وفى هذا كله ما يميزهم على البشمن . غير أنه لا يبدو أنهم كانوا يوماً ذوى براعة فى نحت الصخور ونقشها ، وهو ما امتاز به البشمن .

والغذاء الرئيسى للهوتنتوت هو اللبن ، الذى يحفظونه فى أوعية من الخشب أو الجلد . ويتناولونه بعد أن يختمر قليلا . وعلى خلاف ما يفعل البانتو وغيرهم تقوم النساء لا الرجال بحلب الماشية وإلى جانب اللبن يتعاطون أنواعاً مختلفة من الخضراوات ، ولحوم الحيوانات التى يصيدونها ، وأساليبهم فى الصيد لا تكاد تختلف عن أساليب البشمن ، غير أنهم يتفننون فى صناعة الشراك ، ولا يستخدمون القوس والسهم . ولا يذبحون الماشية من أجل الطعام إلا فى بعض الحفلات الدينية أو الاجتماعية الهامة .

فى الأزمنة الحديثة نقصت مواردهم من الماشية ، حتى اضطر بعضهم إلى القيام ببعض الزراعة الأولية . وهذه لا تتم إلا فى أضيق الحدود لاضطرارهم إلى الانتقال فى بعض المواسم سعياً وراء الماء والمرعى ، ولكن انتقالاتهم محددة فلا يتنقلون على نطاق واسع مثل البوشمن . ولذلك كانت أكواخهم أكثر بقاء ، وأمتن بناء .

والمستعمرة التي يعيشون فيها يحيط بها سياج دائرى من العوسج له بابان واحد فى الشمال وآخر فى الجنوب ، ومنازل الأسر موزعة فى أطراف الدائرة وفى الوسط حظيرة كبيرة للماشية . فيها أمكنة محجوزة للعجول والحملان . ولكل أسرة عدد من الأكواخ . . وهى تبنى بشىء كثير من العناية على شكل خلية النحل ؛ ويبنى الكوخ بأعواد من الخشب ، تغرس فى الأرض ، وتوصل أطرافها العليا بقطع من الخشب بحيث يبدو الكوخ فى شكل نصف كرة . ويغطى الكوخ بطبقات من القش والحطب . وترصف الأرض داخل الكوخ بالطين . وينام الناس داخل الأكواخ على فرش من الحصير . . وعند الانتقال الموسمى ، يفك الكوخ وتحمل الأجزاء والأمتعة على ظهور الثيرة إلى المكان الجديد .

والملبس فى الوقت الحاضر أوربى الطراز ولكنه فيما مضى كان من الجلد الناعم بعد أن يدعك جيداً حتى يزداد نعومة . فيتخذ منه إزار ورداء . . وكثيراً ما تتخذ نعال من الجلد أيضاً . . ويلبس النساء والرجال أنواعاً من الحلى أكثرها من النحاس وتتخذ النساء سيوراً من الجلد حول الأرجل . ويضع الرجال حول العضد والمعصم أسورة من العاج أو النحاس .

واحترام المرأة من التقاليد المرعية . وهذا يظهر بوجه خاص فى احترام الرجل لحماته ، بحيث يتجنب الرجل النظر إليها . وكذلك فى احترام الأخ لأخته ، حتى لا يكاد يخاطبها إلا بوساطة شخص ثالث : وقد تتولى الأخت الكبيرة عقاب أخيها إذا صدرت منه أعمال تنافى الاحترام الواجب . وكذلك تحترم العمة . أما الخال فإن الأطفال يعاملونه بحرية تامة .

* * *

ومحور الديانة والشعائر الدينية عند الهوتنتوت اعتقادهم فى أبطال — آلهة : يرجع أكثرهم إلى تصورات وثنية . أو إلى تمثلهم للقوى الطبيعية وبوجه خاص القوى التى ترسل المطر . ولعل أهمها تسوى جؤاب Tsui Goab وهو الذى

يقصد فى الملمات ويرتجى حين يمتنع المطر . . وهو يمثل قوة الخير ، وكثيراً ما يتعرض لقوة الشر المدمرة المتمثلة فى جوناب Gounab الذى من دأبه معارضة قوة الخير ، حتى يمحوها من الوجود . ثم تعود بعد ذلك إلى الحياة والازدهار ، وهذا يذكرنا بالعراك الدائم بين أوزريس وست .

وهناك بطل خرافى عظيم يؤمن به الهوتنتوت واسمه Heitsi-Eibib يتحدث الناس عن أعماله العظيمة . وعودته إلى الأرض من آن لآن ثم يموت ويعود مرة أخرى . وكان يصنع المعجزات . و « قبوره » منتشرة فى صورة أكوام من الحجارة . ولا يكاد يمر أحد من الهوتنتوت بقبر دون أن يهمس ببعض الكلمات ويضيف حجراً أو قطعة من الخشب إلى « الضريح » .

هذا وقد كان للهوتنتوت عبادة للقمر ، أسوة بما نجده عند البشمن . ولكن ليس هناك دليل على أنهم لا يزالون محتفظين بهذه العبادة .

الأقـــزام

هذه مجموعة أو سلالة أخرى قليل عددها ، ولكن لها خصال وصفات تلفت النظر ، وتسترعى الاهتمام ، وأول ما تجب ملاحظته ما أشرنا إليه فى المقدمة من أن سلالة الأقزام ليست مقصورة على القارة الإفريقية ، بل يمتد انتشارها شرقاً إلى المحيط الهادى ، منتشرة بهذه الصورة أوسع الانتشار ولكن بأقل الأعداد . والعلماء يفرقون بين المجموعة الإفريقية والآسيوية بأن يسموها فى إفريقية نجرللو Negrillo مستخدمين صيغة التصغير باللغة الإيطالية . وأما المجموعة الأسيوية فيدعونها Negrito مستخدمين صيغة التصغير فى اللغة الأسبانية . وفى كلا الحالين معنى العبارة الزنجى الصغير ، وقلة عددهم حيثما وجدوا يرجع إلى اشتغالهم بالصيد والجمع والتقاط الغذاء ، مع العجز عن العمل المنتج . فيحتاجون إلى وطن عظيم واسع ، حتى يجدوا فيه الغذاء لأنفسهم وللحيوانات التى يصيدونها . وكانت هذه الحال ممكنة فى العهود الإنسانية

القديمة ، وبعد ذلك تزاحم السكان ، واحتلوا الأقطار واشتغلوا بالرعى وبالزراعة ، فلم يكن بد من أن يكتفى الأقزام بأجزاء محدودة من أوطانهم وأن يزاحمهم فيها أناس اقتصادهم أكثر تعقيداً وأكثر إنتاجاً . ولهذا لا نجد الأقزام يعيشون وحدهم فى إقليم واحد فيما عدا جزر الأندمان فى وسط المحيط الهندى . وهذه أيضاً أفسدها الحكم الاستعمارى بأن جعلها منفى لبعض الجماعات من المجرمين .

فالأقزام فى إفريقية يحترفون الصيد والقنص والجمع . ولا شك أن أوطانهم فيما مضى كانت أعظم اتساعاً مما هى اليوم ، وكانت فى الغالب تشمل منطقة بحر الغزال والبحيرات الكبرى ، والغابات والأدغال المنتشرة فى حوض الكونغو ، إلى بلاد الكاميرون وسواحل غانا . وأكبر الظن أنهم كانوا يمرحون فى هذه المساحات كلها قبل انتشار الزنوج فيها . أما اليوم فإنهم يعتصمون بأشد الغابات كثافة فى أواسط إفريقية ، فى حوض الكونغو ، وغابات إيتورى ونحوها . لا يكادون يتجاوزون الدائرة الرابعة شمال وجنوب خط الاستواء .

ويرجع استيطان الأقزام فى إفريقية إلى زمن قديم ، ولا نستطيع أن نقدر قدمه . ونحن نعرف على كل حال أنهم كانوا معروفين لأهل مصر فى عهد بناة الأهرام ، فقد كان حكام مصر يرسلون بعثات نحو الجنوب فيحملون سلعاً وذخائر إفريقية . وأحياناً كانوا يعودون ومعهم أحد الأقزام ، فقد كان الجالس على عرش الفراعنة يرى أن القزم المرح الذى يجيد الرقص واللعب وإثارة الضحك بحركاته ، هو أثمن شىء يأتى من الجنوب ، وقد خلف المصريون القدماء فيما تركوه من نقوش وكتابات رسوماً لغير واحد من هذه الأقزام .

ومن المؤكد أن البعثات المصرية فى ذلك الوقت لم تكن تذهب إلى غابات الكونغو ، بل كانت تجد بغيتها فى جهات أقرب بكثير من الأوطان الحالية .

والأقزام – إذا لم يختلط بهم دم غريب – قصار القامة جداً بحيث لا يتجاوز ارتفاع الواحد ١٣٥ سنتيمتراً ، والأذرع طويلة جداً بالنسبة للأرجل . وقصر الأرجل هو السبب الأكبر فى قصر القامة ، ولون البشرة محمر داكن غالباً ، وقد يكون أسمر باصفرار ، والجسم يغطيه شعر خفيف مثل الزغب .

والنسبة الرأسية إما متوسطة أو عريضة قليلا (٧٩ إلى ٨١) . وهذا من أهم خصائصهم ، ونظراً لأنهم يعيشون وسط جماعات منخفضة نسبة الرأس فيهم ، فإننا إذا صادفنا ارتفاعاً فى النسبة الرأسية فى أى جماعة إفريقية ، فإن هذا فى الغالب يكون نتيجة اختلاط بالأقزام . والأنف عريض جداً ، بيّن الفطس والعيون كبيرة وفيها بروز . والوجه قصير ، والفك بارز ، والشفاه غليظة . أما شعر الرأس فهو بالطبع من الطراز المفلفل جداً .

والأقزام يعيشون فى جماعات صغيرة متباعدة ، وهذا ما تفرضه حرفة الصيد والجمع . وتقيم كل جماعة أكواخهـا الصغيرة فى مكان منعزل من الغـابة .

وهم يصيدون بالقسى والسهام المسمومة . . ويستطيعون التغلب حتى على الحيوانات الكبيرة . . . ولا ندرى ماذا كان شعور هؤلاء الأقزام ، حينما بدأ ينزل فى أوطانهم الجماعات العديدة من البانتو . لكنهم اليوم على كل حال يعيشون فى وفاق ووئام مع من يحيط بهم من البانتو . . وأصبحوا يتكلمون بلغاتهم ويبادلونهم السلع فيعطونهم من نتاج الصيد ويأخذون منتجات زراعية مثل الموز والذرة .

ومن أمثلة الاختلاط ما روى عن الأقزام البامبوتى فى غابات إيتورى ، من أنهم يشتركون فى حفلات الختان مع جيرانهم من البانتو . فحين يجىء الوقت لإجراء هذه العملية فى جهة من الجهات يشترك الأبناء من الأقزام وجيرانهم ، ويمارسون الطقوس اللازمة لهذه المرحلة الخطيرة فى حياة الغلمان

الذين يصبحون بعدها أعضاء فى المجتمع ، وينتقلون من مرحلة الطفولة إلى مرحلة الشباب .

وهناك أمران ليس من السهل القطع فيهما برأى ، وهما لغة الأقزام وديانتهم .

ويجب أن نذكر ونحن نتحدث عن هذين الأمرين أن الأقزام يعيشون جماعات متفرقة فى بيئة واسعة ، وكل فرقة تختلط وتعامل أناساً تجاورهم وتتصل بهم من آن لآن . فضرورة التعامل تقضى بأن تتحدث كل جماعة إلى الذين حولهم . وتتعلم كل مجموعة قزمية لغة جيرانهم من البانتو أو غيرهم . . ولذلك لا يكاد يعرف أن لهم لساناً خاصاً بهم ، أو أن هنالك بقية من لسان كان سائداً بين جموعهم .

أما العقيدة الدينية فلعل فيما يسود الأقزام من عقائد، مما يشتمل على عناصر أصلية خاصة بهم إلى جانب ما اقتبسوه أو تأثروا به من معتقدات جيرانهم من البانتو .

وليس يبدو أن عبادة السلف المنتشرة بين جميع البانتو ، لها مكان خطير فى ديانة الأقزام.وأهم ركن فى ديانتهم تمجيد قوة ينسبونها إلى السماء . وبعضهم يراها متصلة بخلق الكون . وأحياناً يسمون هذا الكائن السماوى رب العواصف والبرق والرعد والمطر . وبعض الجماعات تذكر له اسماً خاصاً . والبعض يدعوه الجد . ويقدمون إليه بعض القرابين مثل جزء من قلب الفريسة عندما تذبح ، أو قسط من عسل .

ومجموعة إيفى Efé التى تعيش فى غابات إيتورى تدعو هذا الكائن باسم تورى . ويقولون عنه إنه خلق كل شىء . وإليه يؤول كل شىء ، وقبل انطلاقهم للصيد يبتهلون إليه : « هبنا الطعام يا تورى ! » وهم يرون أن تورى هو الذى تعود إليه الموتى . وهو الذى يقتل بصواعقه الشريرين .

هذا وليس للأقزام قبائل ، وإن كانت لهم عشائر صغيرة . ومع ذلك فإن

بعض مجموعاتهم تتسمى باسم واحد مثل الأكا Akka فى غابات الكونغو والبامبوتى والإيفى فى غابات إيتورى . والباتوا فى أوغندا .

* * *

تلك إذن السلالات الثلاث : البشمن والهوتنتوت والأقزام ، القليلة العدد ، السائر بعضها إلى الانقراض ، ولكنها تمثل – على قلة عدد أفرادها – ظاهرة خطيرة فى القارة الإفريقية . وهى ظاهرة تعمير القارة على مضى الآلاف وعشرات الآلاف من السنين ، ويشهد بقدم هذه السلالات أوطانها المنعزلة ، التى اضطرت أن تلجأ إليها حين بدأت موجات المغيرين والمهاجرين تزحف من الشمال والشرق ، فاعتصم البشمن وأقرباؤهم بالطرف النهائى للقارة . واعتصم الأقزام بالغابات الشديدة الكثافة .

وقد زاحم الأوروبيون البشمن والهوتنتوت فى أوطانهم ، وضيقوا سبل العيش فى وجوههم ، فلم يبق منهم إلا عدد يسير لا يتجاوز الستين أو السبعين ألفاً . . . أما الأقزام فكانوا أوفر حظاً ، إذ نزلوا جهات أكثر اتساعاً . وأوفر صيداً ولا يجاورهم البيض بل الزنوج ، وأكثرهم من الباتتو . ولذلك لا بد أن يكون عيشهم أرغد ، وعددهم أكبر ، وإن كنا لا نعرف عددهم حتى ولا على وجه التقريب .

والسلالات الثلاث ، على كل حال عددها تافه إذا ما قورن بسكان القارة الذين يقرب عددهم اليوم من المائة مليون نسمة .

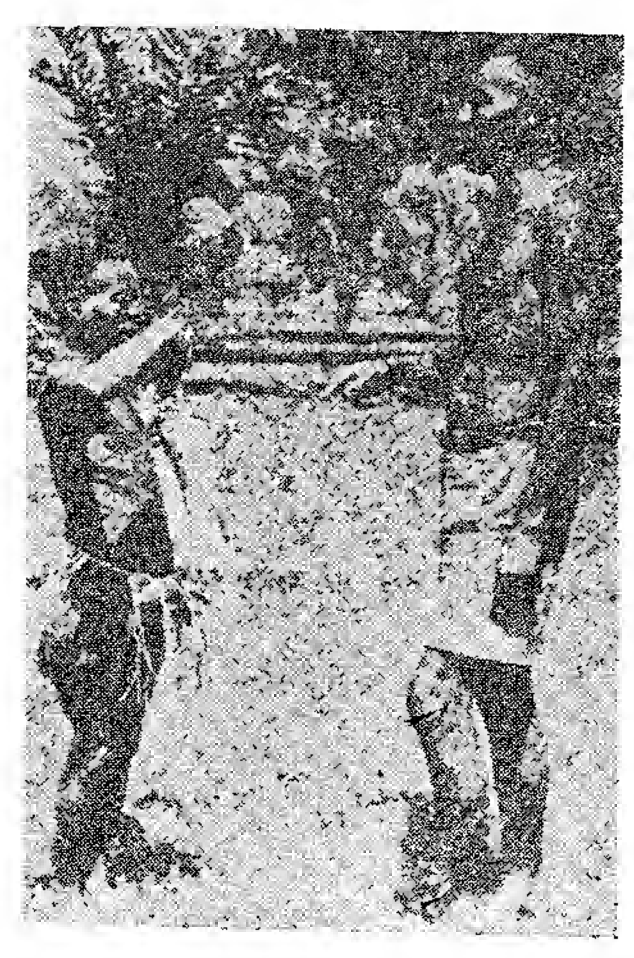
الفصل الثانى

الزنجى الصريح

الزنجى الصريح النسب هو الذى يحمل دماء زنجية خالصة لم تختلط بدم قوقازى أو بشمن أو قزم . ويرى كثير من علماء الأجناس أن العثور على سلالات زنجية نقية يوشك أن يكون مطلباً عسيراً جداً . فقد انتشرت الجماعات الزنجية فى القارة ، وكان قد سبقتها إليها جماعات أخرى . فخالطوهم وعاشروهم ثم جاء العهد الذى ظهر فيه القوقازيون الذين يطلق عليهم اسم الحاميين ، وأخذوا يتدافعون إلى القارة فى موجات متعاقبة ، واشتد امتزاجهم بالسلالات الزنجية امتزاجاً شديداً ، ظهرت آثاره فى كثير من الوحدات الزنجية سواء فى الصور والأشكال أو فى بعض النواحى الثقافية . ويزعم البعض أن تاريخ إفريقية الجنسى هو تاريخ هذا الامتزاج بالتدريج على مدى القرون .

أين إذن نجد الجنس الزنجى الصريح ؟ لعل المسألة مسألة نسبية ، وأن درجة الاختلاط تختلف وتتفاوت من إقليم إلى إقليم ؛ وأن السلالات الزنجية الصريحة ، هى التى احتفظت بالنصيب الأوفر من دمائها وتقاليدها ، وأكثرها لم يتعرض لغارات أو هجرات جدية من قبل الجماعات القوقازية ، بسبب التجائها إلى أقاليم تحميها بعض الظاهرات الطبيعية . ولذلك رأى سلجمان وغيره أن السلالات الزنجية الصريحة توجد بوجه خاص فى إفريقية الغربية فيما بين نهر السنجال ، إلى الحدود الشرقية لنيجيريا ، وقد يكون منها جزء فى الكونغو ، وهى على كل حال تمتد على طول خليج غينيا ، وتشمل الأقاليم

الساحلية التي تتمثل في جمهورية السنغال ومالي وغمبيا وغينيا « البرتغالية » ، وغينيا وسيراليون وليبريا وساحل العاج وغانا وتوجو وداهومي . ونيجيريا ، ومن الممكن أن تضم إليها جمهورية أعالي فولتا .



(شكل رقم ٥) زنجي وقزم

ومع أن الزنوج الذين يقطنون هذه الأراضي ليسوا كلهم ممن يمكن تسميتهم « صرحاء » فإنه لا بد لنا من أن نعرض لدراسة الإقليم الغربي كله الممتد من نهر السنغال إلى بحيرة تشاد ، وينتهي جنوباً بشواطئ المحيط الأطلسي .

والصفات الطبيعية التي تميز السلالات الزنجية هي اللون الشديد السمرة ، والشعر اللولبي والقامة الطويلة (١٧٣ سم) والرأس طويل باعتدال (النسبة

الرأسية ٧٤ - ٧٥) وبروز الفك وغلظ الشفتين ، مع نسبةأنف عالية (أكثر من ٩٠ فى الرجال) .

وتتأثر القامة بالاختلاط بالحاميين فتطول ، وإذا قصرت كان ذلك راجعاً إلى امتصاص عناصر قزمية ، كما أن هذه العناصر ترفع النسبة الرأسية إلى ٨٠ أو أكثر ويبدو التأثير القوقازى أيضاً فى شكل الوجه والفم والشفتين . ولكن يظل الشعر لولبياً دائماً . والشعر على كل حال قصير جداً فى الرجال والنساء .

وهناك خصائص اجتماعية وثقافية لا بد من الإشارة إليها فى صدر الحديث عن الجنس الزنجى . لقد نشأت فى الجهات الزنجية ممالك يسيطر عليهاملوك يتوارثون العرش ، وتشتمل المملكة على قبائل . وقد يوجد النظام القبلى دون أن يكون داخلا فى مملكة . . . وتنقسم القبيلة إلى عشائر ، والعشيرة هى الوحدة الأساسية للمجتمع ،ومن لوازم كل عشيرة عادة أن يكون لها « طوطم » Totem وهو بمثابة شعار للعشيرة ويكون عادة عبارة عن حيوان من غير الحيوانات الأليفة ، وقد يكون من حيوان الأرض أو الماء ، ومن الجائز أن يكون نباتاً أو صخراً ، ولكن المألوف أن يكون من الحيوانات . والطوطم يرمز للعشيرة ، التى تزعم أحياناً أنه جدها ، أو أنه ظهر هو والجد الأكبر فى وقت واحد ، فى أثناء زوبعة أو عاصفة ، أو أية ظاهرة من ظواهر الطبيعة العنيفـــة .

ويتبع الطوطمية نظام الاغتراب Exogamy فلا يتزوج الرجل امرأة من عشيرته ، ولو حدث ذلك لكان كارثة للعشيرة كلها ، وبعضهم يتجنب عشيرة أمه أيضاً علاوة على عشيرته الأصلية . وهكذا يسود الاغتراب المجتمع الزنجى كله سواء فى وطنه الغربى الذى نحن بصدده هنا أو فى جميع أوطانه الأخرى .

ومن الخصائص الأخرى التى للسلالات الزنجية الغربية . أنها تبنى كوخاً مستطيلا ، وأسلحتها التقليدية تشمل القوس المدببة الأطراف ، أوتارها من

النبات ، كما يستخدمون السيوف والترس المنسوجة ولكنهم لا يستعملون المراوة أو المقلاع . .. وملابسهم من نسيج من لحاء الشجر ، وليف النخيل ؛ ولا يتخذون من الجلد لباساً .

وقد انتشرت بينهم « الجمعيات السرية » وسنصفها فيما بعد . ويتخذون طبولا من الخشب ، وقد يقرعونها أحياناً فى حفلاتهم الموسيقية ، ولكنها أحياناً تستخدم وسيلة للتفاهم ، حتى قال بعضهم بوجود « لغة الطبل » "a drum language" ويتخذون أقنعة ، ولهم مهارة فى عملها ، وفى نحت الخشب لمحاكاة الصورة البشرية .

والخيل والماشية نادرة جداً فى الأقاليم الساحلية بسبب انتشار مرض النوم ، والحيوانات التى يربونها مقصورة على الماعز والضأن والدجاج والكلاب : أما الغذاء النباتى فقد كان فى الأصل مقصوراً على الفاصوليا والقرع الكبير والموز وبعض الفول السودانى ، وبسبب الاتصال بالبرتغال أدخلت زراعة اليام وهو يشبه البطاطا والكسافا والذرة الشامية .

ومن أهم مايمتاز به زنوج غرب إفريقية البراعة الفنية ، وبخاصة فى مسائل النحت والفن التشكيلى ، ولا يكاد يضارعهم فى ذلك جماعة فى أى جزء من إفريقية جنوب الصحراء . وقمة البراعة الفنية تتمثل فى إقليم بنن Bennin وأيفى IFE وما حولها من الجهات فى الإقليم الجنوبى الغربى من نيجيريا . فقد برع السكان هنا منذ قرون عديدة فى النحت الفنى للعاج وصناعة الأقنعة ، وتماثيل البرنز . وعندما استولى الإنجليز على مدينة بنن سنة ١٨٩٧ وجدوا فيها مجموعات ثمينة من روائع الفن ونقلوا منها إلى المتحف البريطانى فى لندن ، أنياباً منحوتة كاملة من العاج وتماثيل من البرنز فى غاية الروعة والإتقان الفنى ؛ ولم تلبث التحف الإفريقية أن ملأت كثيراً من المتاحف فى أوروبا وأمريكا .

ومعظم جهات إفريقية الزنجية لا تخلو من آثار فنية على هذا النسق ، ولكن غرب إفريقية أكثرها عناية بإنتاج التحف الجميلة ، وفى غرب إفريقية

لا شك أن أهم الأقطار إنتاجاً وأكثرها ثروة فنية نيجيريا بعامة وجنوبها الغربى بخاصة .

* * *

أما الجمعيات السرية فمنتشرة فى أقاليم غرب إفريقية ، وهى تنظيمات ذات أشكال متعددة ووظيفتها قد تختلف من مكان إلى مكان ، وفى بعض الأحوال قد لا يكون عنصر السرية متوفراً ، ويستطيع كل شخص أن ينضم إليها بعد دفع الرسوم المقررة . وفى بعض الجمعيات قد يكون الالتحاق بها خاضعاً لشروط صارمة ، وقد تكون لها لغة خاصة بها . . .وبعضها قد يرتكب أعمالا تضايق رجال الحكم وقد تؤذى طائفة من طوائف المجتمع ، ولكن هذا النوع نادر . وأكثر الجمعيات السرية هيئات لا تتصرف إلا فى حدود ما يهم المجتمع . وتحرص على مراعاة الصالح العام .. ومن أشهر هذه الجمعيات جمعية أجبونى عند اليوروبا وفى داهومى جمعية تدعى ييوى Yewe تلتزم طقوساً دينية خاصة ، وعند قبائل إمبيبو فى الجزء الجنوبى الشرقى من نيجيريا جمعية إجبو ذات نفوذ كبير ، وأعضاؤها مرتبون فى نحو ست إلى عشر طبقات . . وبعض هذه الطبقات قد يلبس أفراده أقنعة خاصة عندما يجتمعون . وبعض هذه الجمعيات السرية قد يتسمى باسم حرفة كأنه جزء من نقابة ومن أشهرها جمعية الحدادين .

وسنخص هنا بالذكر جمعيـــة تدعى بورو Poro وهى من أشهر الجمعيات وأوسعها نفوذاً . ونفوذها يشمل قبائل سيراليون وليبيريا . وهذه الجمعية تسعى دائماً لحفظ كيان المجتمع ، والمحافظة على تقاليده ولها أربع وظائف أساسية :

(ا) تربية النشء من أبناء وبنات .

(ب) المحافظة على الآداب الجنسية .

(حـ) السهر على استقامة الأمور السياسية والاقتصادية .

(د) الاهتمام بتوفير الخدمات الاجتماعية والطبية والرياضية .

(أ) وهى تحقق رسالتها التربوية بوساطة « مدارس » أو ما يشبه الفصول المدرسية فى داخل الأحراج حيث تتولى تهذيب الأولاد والبنات (منفصلين) ويقوم المؤدبون من الرجال بتعهد فصول الصبية ، وتتولى النساء تثقيف الفتيات ، والغرض الذى ترمى إليه أن تنشئ كل صبى أو فتاة ، بحيث يكون له ولها إلمام بشئون القبيلة وتقاليدها . وبالجملة يتحول « التلاميذ » من نشء جاهل إلى شباب وفتيات أعدوا الإعداد اللازم ليكونوا أعضاء نافعين فى المجتمع .

(ب) أما المحافظة على الآداب الجنسية فإن لها جمعية فرعية تسمى الهيموى Humoi رئيستهـــا امرأة . ويحتل المناصب الرئيسية فيها أفراد من بعض أسر معروفة . وتسعى هذه الجمعية إلى المحافظة على قواعد الزواج ، بحيث لا يسمح بالزواج إلا لمن كان زواجهم مطابقاً لتلك القواعد . . وإلى جانب تحريم الزواج أو الاتصالات الجنسية بين الشديدى القرابة مثل أولاد الأخ أو أولاد الأخت يحرم زواج الرجل بأخت زوجته ، أو بأية واحدة من قريباتها وهى على قيد الحياة . أو بأى امرأة كانت يوماً ما زوجاً لأخيه ، أو بأمه أو أخته من الرضاعة .

وهنالك قواعد أخرى عديدة تتصل بالمعاشرة الزوجية تحرمها الجمعية . ولا بد للناس أن يخضعوا لتعاليمها .

(حـ) السهر على الحياة السياسية والاقتصادية : بحيث لا يتولى أى منصب خطير إلا من ترضى عنه الجمعية أو من يكون عضواً هاماً فيها . وتتولى الجمعية محاكمة أى شخص وجهت إليه تهمة خطيرة ، فتختار لمحاكمته هيئة قضائية ، يبقى اسم رئيسها مجهولا . وتتم المحاكمة فى جلسة سرية .

وجمعية البورو Poro علامات خاصة : فإذا وضعت تلك العلامات فى مكان خاص كان ذلك نذيراً للأفراد بأن يمتنعوا عن عمل بعينه . مثل صيد السمك حينما تجف الأنهار ، ويخشى أن ينقرض السمك إذا أفرط الناس فى صيده من المياه شبه الراكدة . أو مثل البدء فى حصد ثمر البطاطا قبل أن يتم نضجها . . ولهم مشروعات اقتصادية عديدة ذات فائدة مؤكدة للمجتمع .

(د) أما الخدمات الاجتماعية ، فأهمها بلا شك العناية بالمرضى ، ويعنى بهذه الناحية جمعية فرعية أخرى أفرادها من أسرات محدودة . وهنالك خدمات أخرى لتنظيم الحفلات الهامة فى المناسبات التى تعنى المجتمع كله . وتنظم ما يتصل بها من غناء ورقص[1] .

لا شك أن مثل هذه الجمعية نفعها أكثر من ضررها . وإذا اصطدمت مع الحكومات فإنما يرجع ذلك إلى أنها تعمل فى نفس الصعيد الذى تعمل فيه الهيئات الحكومية . وقد لا تتفق الآراء دائماً حول بعض المسائل .

وهذه الجمعيات كما ذكرنا من أهم خصائص الحياة فى إفريقية الغربية ، ولكن لها وجود فى بعض جهات الكمرون والكونغو . وفى أعالى الكونغو وفى أعالى بحر الغزال عند الزاندى وإن كانت أقل خطراً . والراجح أن جمعية ماو ماو التى أسسها الكيكويو ودوّخت الحكومة فى كينيا ، لا بد أن تأثرت فى إنشائها وأساليبها بمثل تلك التقاليد السائدة فى إفريقية الغربية ، على الرغم مما يقال عن خلو إفريقية الشرقية من ظاهرة الجمعيات السرية .

* * *

ننتقل الآن إلى الحديث عن القبائل والشعوب التى تعيش فى هذا الوطن الزنجى العظيم مبتدئين بالقبائل المتاخمة لنهر السنغال والممتدة نحو الشرق إلى بحيرة

---

(١) راجع مقالة K. L. Little عن الجمعيات السرية ص ١٩٩ وما بعدها من كتاب Cultures and Societies of Africa تأليف أوتنبرج . ١٩٦٠

تشاد ، ثم نعود إلى القبائل المتاخمة لساحل المحيط من جنوب السنجال إلى الكمرون :

وأول قبيلة – ولعل الأوفق أن ندعوهم شعباً – فى جنوب نهر السنجال هم الولوف Wolof ويقال إن نهر السنجال فى مجراه الأسفل يمثل حداً يفصل ما بين القوقازيين فى شماله والزنوج الصرحاء فى جنوبه. وهذا لا يخلو من الغلو . لأن الاستعمار الفرنسى قد أقام فى هذا الإقليم مركزاً سياسياً وتجارياً هاماً فى مدينة داكار وما حولها وانجذب إلى هذا الإقليم عدد كبير من الفولا وغيرهم ممن تغلب عليهم الصفات القوقازية .

أما الولوف فشعب يبلغ تعداده نحو سبعمائة ألف نسمة منهم ٦٥٠,٠٠٠ نسمة فى جمهورية السنجال وخمسون ألفاً فى غمبيا . وأكثرهم مسلمون ، والسحنة والتقاطيع زنجية واللون شديد السمرة . قوام حياتهم الزراعة ، أما اقتناء الماشية فيكاد يكون مقصوراً على الطبقة الميسورة وأهم زراعاتهم الذرة الرفيعة ، وهذه الزراعة يقوم بها الرجال ، كما يقومون أيضاً بزراعة الفول السودانى وهو الغلة الرئيسية ، التى تأتيهم بما يحتاجونه من نقد . وعناية الشباب بزراعة الفول السودانى عناية فائقة ، ولو أدى ذلك إلى نقص فى محصول الذرة لأنهم يستطيعون أن يستوردوه ويدفعوا ثمنه من إيراد الفول السودانى .

أما الحرف فأهمها صناعة المنسوجات . يعاون فيها الرجال بزراعة القطن ، والنساء بغزله ثم يقوم بنسجه الرجال من طبقة النساجين ، وهنالك طبقات أخرى من الصناع لحرفة دباغة الجلود ، والحدادة ونحوها .

ومن أهم خواص مجتمع الولف تعدد طبقاته ، وبعضها أرقى من بعض ، ولا يجوز لرجل أن يتزوج إلا من طبقته . . وأعلى الطبقات الأحرار المنحدرون من أحرار . تليهم طبقة أتباعهم الذين أصبحوا أحراراً ، ويأتى بعد ذلك فى المرتبة الثالثة أصحاب الحرف مثل الحدادين ودباغى الجلود ، ثم طبقة المنشدين والمغنين ، ثم العبيد المتحررين أو نسلهم :

ومما يؤثر عن مجتمع الولوف أنهم كثيراً ما يؤلفون جماعات تعمل معاً ، وتتألف كل جماعة من نحو بضعة عشر فرداً . . وللشباب جماعتهم ، وكذلك للفتيات قبل الزواج ، أو بعد الزواج وقبل أن يلدن أطفالا . وكل جماعة تقوم بالعمل مجتمعين ومتنافسين ، وأخص ما يقومون به أعمال الزراعة من إعداد للأرض وتطهيرها من الأعشاب ثم البذر والحصاد . وهم يرون أن عملهم مجتمعين يجعل العمل مثمراً ومحبباً إلى نفوسهم . ومن واجب الشخص الذى يستخدمهم أن يوفر لهم حاجتهم من الطعام والشراب ، ويذبح لهم ثوراً أو ذبيحة مناسبة بعد انتهاء العمل . الذى يتنافسون فيه دائماً . وفى أكثر الأحيان تمنح مكافأة سخية من طعام ودراهم لمن يثبت له التفوق على زملائه :

وإلى الجنوب من الولوف شعب السرر Serer وهم يشابهونهم شكلا وثقافة . ويقال إنهم أطول قامة (ومتوسط قامتهم يقرب من ١٧٥ سنتيمتراً) : ويجاورهم أيضاً شعب توكولور Tokolor . وكان الثلاثة داخلين فى مملكة الولوف وقت ازدهارها .

* * *

وإلى الشرق من هذا الإقليم ، بل ويحتل جزءاً منه شعب كبير وهو شعب الماندنجو أو الماندى . . وهو منتشر ما بين المحيط الأطلسى غرباً إلى منحنى نهر النيجر شرقاً . ويمتد جنوباً إلى قرب خط العرض التاسع ؛ وهو لا يحتل وحده كل هذه المساحة ، ولكنه بلا شك له النصيب الأوفر منها، وهى الإقليم الكبير الذى يوصف بالسودان الغربى أو الفرنسى أيام كان لفرنسا النفوذ التام فيه . والوحدات السياسية التى ظهرت أخيراً فى هذا الإقليم مثل جمهورية السنجال ، ومالى وغمبيا وغينيا لا تخلو من بعض قبائل تنتمى إلى شعب الماندنجو ، وإن كان ميدانه الأكبر فى الجزء الأوسط الممتد من أواسط نهر السنغال إلى منحنى نهر النيجر فى إقليم تمبكتو . والدولة التى يتمثل فيها الماندنجو أكثر من سواها هى جمهورية مالى .

ويشتمل الماندنجو على عدة قبائل تحمل أسماء مختلفة مثل ديولا وكاسنكى وجالنكى وبمبارا وسوننكى ومالنكى وغيرها ، ويوصف الماندنجو شكلا بأنه طويل نحيل، تقاطيعه تقربه من السحنة القوقازية،وغزير شعر اللحية إذا قورن بسائر الزنوج ، والبشرة خفيفة السمرة .

وقد نشأت فى العصور الوسطى فى الإقليم الذى يحتله اليوم الماندنجو دولتان الأولى دولة غانا القديمة ، وكانت عاصمتها كمبى صالح الواقعة بين نهرى سنجال والنيجر ، أما الأخرى فهى مملكة مالى ، وعاصمتها لم تكن بعيدة عن باماكو عاصمة دولة مالى الحديثة .

وقد ازدهرت دولة مالى فى العصور الوسطى وزارها الرحالة ابن بطوطة فى القرن الرابع عشر فى عهد الملك منْسى سليمان : «وكلمة المنسى معناها السلطان » وقد ظلت هذه المملكة قائمة إلى أن استولى على الإقليم ملك الصنْغاى عمر أسقيا . . وأقام فى هـــذه الجهات دولة جديدة فى أوائل القرن السادس عشر .

والماندنجو زراع مهرة يدين معظمهم بالإسلام . . ولهم نشاط فى بعض الصناعات . والنظام الإقليمى يسوده النظام القبلى فى جهات الريف. وفى بعض البلدان يسود نظام النقابات المهنية ، للمشتغلين بحرفة بعينها مثل الحدادة أو صيد السمك أو نحو ذلك .

أما الصُّنْغاى ، الذين استتب لهم الأمر فى إقليم منحنى نهر النيجر : فإن عددهم اليوم يزيد على المليونين . . وقد اختلطوا ببعض السكان الوافدين من الشمال ، مثل الطوارق والفولا ، ولكنهم مع ذلك شعب زنجى ظل محتفظاً بسيطرته على الإقليم برغم بعض الإغارات المغربية فى آخر القرن السادس عشر ، وبرغم الاحتلال الفرنسى لمدينة تمبكتو العاصمة فى القرن التاسع عشر .

وعلى الرغم من أنهم شعب زنجى صميم ، فإن صفاتهم الطبيعية يبدو فيها أثر اختلاطهم بالعناصر الشمالية . واعتناقهم الإسلام قد قرب بينهم وبين

جيرانهم : ويمتازون بالقامة الطويلة ، والنسبة الأنفية المعتدلة والسمرة المخففة ، والشعر بالطبع لولبي كما هي الحال في الماندنجو وسائر السلالات الزنجية . . ولا شك أننا في إقليم أعالي السنجال والنيجر قد خرجنا عن الجهات التي تسودها الدماء الزنجية الصريحة ، وأصبحنا في جهات يظهر فيها تأثير سكان أقاليم السفانا والصحراء ، وكلما توغلنا شمالاً أو شرقاً ازداد هذا التأثير وضوحاً .

وقبل أن نذهب شرقاً في طريقنا إلى بحيرة تشاد لا بد لنا أن نلقي نظرة على البلاد الواقعة إلى الجنوب من مملكة الصنغاي . إننا بذلك نقترب من وطن السلالات الزنجية الصريحة ونرى في هذه الجهات وفي أعالي نهر فولتا ، شعباً يسمى المُصّى Mossi والقبائل الأخرى المتفرعة منه ، إن نهر الفلتا يعد من أهم الأنهار التي تصب في خليج غينيا ومصبه في الحدود الشرقية لدولة غانا . وقد أنشئت حديثاً دولة أعالي الفلتا إلى الشمال من غانا ومن ساحل العاج ، والعنصر السائد فيها هم المصى . وهم شعب زراعي ، وقوام الزراعة هنا الذرة . ولهم بعض الماشية وخيل جيدة ، وكثير من الحمير ، ولم ينتشر الإسلام كثيراً في البلاد التي كانت ، قبل خضوعها للنفوذ الفرنسي ، تؤلف مملكة وطنية عاصمتها في واجادوجو . وهي العاصمة الحالية للجمهورية . وعلى الرغم من وجود المبشرين لا تزال الوثنية سائدة في هذه الجهات . وتتمثل في تمجيد الشمس والأرض والأجداد .

وإذا اتجهنا بعد ذلك شرقاً نحو بحيرة تشاد وجدنا أثر الإسلام قوياً ، من الناحية الثقافية . كما أن أثره كبير في الصفات الطبيعية كما رأينا في الصنغاي ، وكما نجد أيضاً حول بحيرة تشاد في شعوب كانم وباجرمي وبرنو . وهكذا نصل إلى شمال نيجيريا ، ونظراً لأننا سنخص نيجيريا بالذكر في نهاية هذا الفصل ، فإننا نتوقف في جولتنا هذه عند بحيرة تشاد ، ونعود إلى الجانب الآخر من الغرب الإفريقي الممتد على سواحل المحيط الأطلسي وخليج غينيا .

إذا ابتعدنا عن جمهورية السنجال متجهين نحو الجنوب كان أهم الأقطار التي نصادفها جمهورية غينيا التي اشتهرت في إفريقية الحديثة ، بل وفي العالم ، بأنها الدولة التي آثرت الاستقلال التام مع الضنك على الاستقلال مع البقاء في الوحدة الفرنسية . . والسلالة السائدة لا تزال هي سلالات الماندنجو ، والزعيم سيكوتوري نفسه أمه من المالنكي وأبوه من السوسو ، وكلاهما من قبائل الماندنجو . وعلى الرغم من أن هذا الشعب يسود الإقليم ، فإن هنالك عناصر أخرى . وقد رأى الزعيم سيكوتوري أن النزعة والعصبية القبلية قد تعوق الوحدة ، فاتجه في سياسته إلى إدماج القبائل بوساطة انتشار نظام نقابات العمال . وبذلك يجمع أبناء القبائل في اتحادات مهنية . وبذلك تنتقل عصبية القبيلة إلى الروابط الوطنية التي تربط بين أبناء الوطن الواحد .

إلى الجنوب من غينيا نجد سيراليون ثم ليبريا ، وإلى جانب سكانهما الأصليين مثل مندى وتمنى (ويعزى إلى التمنى إنشاء جمعية بورو السرية) وأمثالهم نزل في هذه البلاد عنصر جديد في المائة سنة الأخيرة ، وهو يتألف من العبيد الذين نالوا حريتهم سواء في بلاد خاضعة للحكم البريطاني أو الأمريكي ، وآثروا أن يعودوا إلى إفريقية ويسرت لهم إنجلترا العودة إلى سيراليون والولايات المتحدة سهلت عودتهم إلى ليبريا وهؤلاء بالطبع جزء يسير ممن نال حريته . والكثرة العظمى بقيت في الولايات المتحدة وجزر الهند الغربية . وأكبر الظن أن الذين أعادتهم إنجلترا إلى سيراليون هم العبيد الذين كانوا في إنجلترا نفسها .

مهما يكن من أمر فإن في كل من سيراليون وليبريا عناصر جديدة تتكلم الإنجليزية . وبتأثيرهم انتقلت اللغة الإنجليزية إلى هذه البلاد وصارت هي اللغة السائدة في لهجة خاصة يتكلمها عامة الناس تدعى بدجن إنجلش Pidjin English . وهذه العناصر أكثر في ليبريا ، وتسيطر على الإدارة والأعمال . وقد نزلت بالبلاد شركة مطاط أمريكية . ولها نفوذ كبير في البلاد . وهذا التنوع في السكان بين المهاجرين والوطنيين قد عاق التقدم والوحدة نوعاً ما في

ليبريا . ولكن أثره فى سيراليون ضعيف بسبب غلبة العناصر الأصلية ووجود قادة وطنيين ممتازين :

وفى ليبريا فى الأقاليم الساحلية الممتدة إلى ساحل العاج المجاور سلالة تسمى شعب الكرو Kru ، مؤلف من عدة قبائل ، ويبلغ تعداده نحو ربع مليون نسمة . لهم لغتهم الخاصة بهم ، وصفاتهم الزنجية الخالصة توحى بأنهم لم يتأثروا بهجرة من الشمال ، بل لعل نزولهم بهذه الشواطئ يرجع إلى زمن قديم لأن إلفهم لهذه البيئة البحرية واضح فى تقاليدهم ونشاطهم فإن لهم مهارة عظيمة فى الملاحة وفى صيد السمك ، وأمكنهم أن يتدربوا على العمل فى البواخر ، فلا تكاد توجد سفينة تمر على موانئ غرب إفريقية إلا وفيها عدد من البحارة من الكرو . كما أن لهم نشاطهم البرى أيضاً ، إذ يشتغلون بزراعة الغلات الغذائية الخاصة بهذه الأقاليم . والتنظيم السياسى لمجتمعهم يشمل تقسيم الشعب إلى أقسام ، كل قسم له رئيسه الوراثى . ونظام مجموعات السن منتشر بينهم . ولهم أيضاً جمعيات « سرية » لها وظائف قضائية ودينية ، يستطيع أن يلتحق بها جميع الذكور من أبناء القبيلة ، ما عدا الأطفال .

* * *

ويسود الأقطار الحافة بخليج غينيا مجموعة لغوية عظيمة تشتمل على عدد كبير من اللغات ، وتدعى المجموعة باسم كوا KWA ويرى جرينبرج أنها أسرة لغوية قائمة بذاتها وتشتمل على لغات الكرو السابق ذكرهم ، ولغات مجموعة توى Twi المنتشرة فى ساحل العاج ، وفى غانا ولدى شعب أشانتى وفانتى : وهى تدعى هنا لغة الآكان Akan ويليها المجموعة المسماة ايوي Ewe وتشتمل على بعض لغات توجولند وداهومى . وإلى الشرق منها المجموعة الكبيرة - ولعلها أكبر مجموعة من لغات KWA ، وهى التى تسمى يوروبا Yoruba المنتشرة فى الجنوب الغربى من نيجيريا لدى الشعب الذى يسمى بنفس الاسم ، كما أن بعض شعوب نيجيريا الوسطى مثل نوپه

Nupé ، وسكان الإقليم الجنوبى الشرقى مثل إيبو IBO يتكلمون لغات قريبة من مجموعة KIWA .

ويمتاز هذا الإقليم الساحلى الكبير ، بأنه كان مسرحاً لتكوين ممالك مستقرة ، بعضها لم يتزعزع كيانه إلا بعد إغارات بريطانيا وفرنسا وغيرهما من الدول الغربية . وقد ترتب على قيام تلك الدول الوطنية تكوين شعوب منظمة : مثل شعب الأشانتى وداهومى ، ويوروبا ونوبى وبنن ، الذى يعيش كل فى مملكة تحمل اسمه . وبعض هذه الممالك ، بل جلها كان قائماً قبل قدوم البرتغاليين فى القرن الخامس عشر .

ويتحدث غير واحد من السياح الذين زاروا هذه الأقطار عما شاهدوه فيها من مظاهر الأبهة والفخامة وبخاصة فى بلاط الملك . كما تحدثوا عما رأوه أو سمعوه من عادة تقديم الضحايا البشرية العديدة فى حفلات الحصاد السنوية . وبخاصة فى أشانتى وداهومى وبنن .

ولكن هذه التقاليد البادية الفظاعة ، ليست المقياس الذى يقاس به ما بلغته البلاد من التقدم السياسى والدينى والثقافى . فإن شعوب هذا الإقليم قد وصلوا إلى مكانة عالية من التقدم فى الاقتصاد والتجارة والحكم ، كما أنهم أبدوا استعداداً كبيراً للإلمام بالعلوم الحديثة ، حينما أتيحت لهم الفرصة .

وقد نشأت دولة الأشانتى فى القرن السابع عشر ، وظلت قائمة إلى وقت الاستيلاء البريطانى سنة ١٨٩٦ . وقد تألفت عندما تعرضت لعدوان عدو جنوبى من دولة تدعى دولة دنكيرا . وكان الأشانتى أقساماً مستقلة ، لا يستطيع قسم منها أن يقاوم ذلك العدوان وبعضها كان يدفع الشر بدفع الجزية . فلما طال الأمد تعلم الأشانتى استخدام الأسلحة النارية ، ووحدوا صفوفهم وهزموا الدنكيريين ، وكونوا دولة اتحادية .. يحتفظ فيها كل شعبة باستقلالها المحلى . وكل شعبة تختار زعيمها . ويكون الشخص الذى يختار زعيماً لإقليم كوماسى ، رئيساً للاتحاد وملكاً للأشانتى فمملكة الأشانتى أشبه

بالاتحاد الفيدرالى ، وهى مثال للممالك الأخرى التى نشأت بين شعوب الآكان فى غرب إفريقية .

وأساس النظام الاجتماعى عند الأشانتى أنه يقوم على قاعدة الوراثة عن طريق الأم ؛ وكل فرد من الأفراد – أياً كانت قبيلته – ينتمى إلى واحدة من ثمانى عشائر ، يسود نظام الأم كل عشيرة ؛ ولكل منها طوطم وتتصل نشأته فى عرفهم بظهور الأم الجدة على وجه الأرض . ومع أن أمر هذه الطواطم يحيط به بعض الغموض ، غير أن الأطفال يتعلمون منذ الحداثة أن يكرموها ويحترموها ، وكل عشيرة لا بد لها أن تتجنب الزواج من عشيرة لها نفس الطوطم .

وكل ما له صلة بما يرثه الإنسان من منصب أو ممتلكات يتم دائماً عن طريق الأم ، ومع ذلك فإن للأشانتى اهتماماً بالنظام البطركى أو الأبوى أيضاً . فإن الآباء ينقسمون أيضاً إلى أقسام يقال لها نُطُورو NTORO . . وهذه الأقسام عددها اثنا عشر . ولكل منها أيضاً حيوانه أو طوطمه ، ولا يجوز الزواج بين الأفراد من هذه الأقسام ، وهكذا يكون كل شخص من الأشانتى ينتمى إلى مجموعة من ناحية أمه ومجموعة أخرى من ناحية أبيه . ويعتقد الأشانتى أن المرء يرث جسمه ودمه من أمه ، ويرث من أبيه روحه وشخصيته والمفروض أن كل مجموعة أبوية تمتاز بصفات مثل الجرأة أو الرأفة أو نحو ذلك . وهكذا استطاع الأشانتى أن يفسروا انتماءهم للنظام الأموى والأبوى فى آن واحد .

ولا بد لنا أن نذكر أن هذه الأقسام الأموية والأبوية لها أثرها فى الحياة الاجتماعية ، ولكن لا أثر لها فى الحياة السياسية ، التى تعتمد على تقسيم المملكة إلى أقسام كالمديريات ، لكل منها رئيس يتبعه مراكز لكل منها رئيس يجىء فى المرتبة الثانية . وهكذا حتى نصل إلى العشيرة والأسرة ورئيسها هو أكبر أفرادها سناً . هذه الأقسام يتمتع كل منها باستقلال محلى ، والزعماء الكبار هم الذين يبايعون الملك ، الذى مقره مدينة خوماسى . فهذا النظام العسكرى

الذى ولده الجهاد المشترك هو أهم المظاهر السياسية فى المملكة ومن أهم أسباب الاستقرار فيها .

ولا يتم الكلام على الأشانتى دون إشارة إلى مسألة « الكرسى الذهبى » Golden Stool وهو رمز السلطان والرياسة فيهم . وقد ظهر هذا الكرسى لأول مرة فى عهد الملك أوساى توتو Osai-Tutu الذى تولى الملك من عام ١٧٠٠ إلى عام ١٧٣٠ م . وهو الملك الرابع بعد تأسيس الدولة . كان فى عهده « قسيس » محنك يدعى أنُتشى .. مثل بين يدى الملك وأعلن أنه جاءته رسالة من إله السماء بأن يجعل من الأشانتى شعباً عظيماً قوياً . والتمس من الملك أن يجمع الناس فى خماسى ، فاحتشد خلق كثير فى ساحة المدينة ، ولم يلبثوا أن رأوا السماء تكفهر وتتلبد بالغمام ، وتهب العواصف تحمل الغبار الذى يملأ الفضاء ويوشك أن يخفى ضياء النهار ، ثم اشتد قصف الرعد ودوت الصواعق وفى وسط هذا الإعصار الشديد ، والرياح العنيفة ، مدّ القسيس ذراعه إلى السماء ، فإذا هى تحمل كرسياً خشبياً بعضه يكسوه الذهب ؛ ولم يسقط هذا الكرسى إلى الأرض ، بل استقر على حجر الملك أوساى توتو . هنالك أعلن القسيس أن هذا الكرسى يحتوى روح أمة الأشانتى . . وأن عزهم ومجدهم ورخاءهم وقوتهم وسعادتهم تكمن فى هذا الكرسى . فإذا ناله عطب أو تلف كان ذلك نذيراً بالويل والثبور للأمة وإيذاناً بزوال عزها وسلطانها .

وهكذا أصبح لأمة الأشانتى هذا الرمز المقدس شعار عزها ووحدتها ؛ وهذا الكرسى يجب ألا يمس الأرض ، ولم يجلس عليه آدمى قط ، وعندما ينقل مرة فى العام إلى ميدان الحفل السنوى . . يتم نقله بعناية فائقة تظلله مظلته الخاصة ، وتحيط به طائفة من الأتباع . وبعد وفاة الملك يودع كرسيه فى المستودع الخاص بكراسى الملوك . . وفى هذه الدار تقام الحفلات فى الظروف الهامة وتقدم القرابين لأرواح السلف ، لكى يظلوا على رعايتهم وتأييدهم لأمتهم ، وقد بات مألوفاً بعد ذلك أن يكون لرؤساء الأقاليم أيضاً كراسى ، ولها بيتها الذى تودع فيه . ولكن لا تكون بالطبع لهذه الكراسى « المحلية »

نفس الأهمية التي تنسب لكرسي الملك . فهذا رمز للوطن كله ، وتلك ترمز للإقليم الذى توجد فيه .

والمعتقدات الدينية للأشانتي – بقطع النظر عمن تحول إلى ديانة أخرى – تشمل ثلاثة عناصر : إله الأرض أو روح الأرض Earth Spirit ، والإله الأسمى وهو كائن فى السموات العلى ، بعيد عن إدراك الناس ، وليس له دور خطير فى حياتهم اليومية . أما محور الحياة الروحية فهو الابتهال إلى السلف عامة . وملوك الأشانتي السالفين على وجه الخصوص ، الذين تعقد لأرواحهم الحفلات وتقدم القرابين . وأهم هذه الحفلات وأشهرها حفلة أرواح السلف السنوية . وهى تعقد فى موسم الحصاد . وكانت فيما مضى يتقرب فيها بالضحايا البشرية[1] لأرواح السلف ويقدم فيها النبيذ وبعض الغلة الجديدة ، بوساطة الملك نفسه مصحوبة بالكلمات الآتية :

لقد دارت السنون دورتها . وهأنذا أضع بين يديكم قرابين من الضأن .
ومقداراً من اليام الجديدة لكى تأكلوا .
الحياة لى ولشعبى هذا الأشانتي .
إذا قامت النساء بزراعة الحقول . . فساعدوهن.
حتى تجيء الغلة وافرة غزيرة .
ولا تدعوا مرضاً يحل بديارنا [2] .

ولا يجوز للملك ولا للشعب أن يأكل من المحصول الجديد ، إلا بعد أن يقرب للأرواح فى ذلك الحفل السنوى . ولم يعد هذا الحفل يعقد الآن . وقد وصفه غير واحد من الكتاب ، وكان أهم ما لفت نظرهم ما يسفك فيه من الدماء ، وما يشرب فيه من الخمور . ولكن بعضهم لم يفته ما للحفل من

---

(١) يرى بعض الباحثين أن الضحايا البشرية عادة تتألف من المجرمين الذين صدر حكم بإعدامهم وأرجىء التنفيذ .

(٢) نقلا عن سليمان (١٩٥٧) ص ٦٣ اعتمادا على كتاب الأستاذ R. S. Rattray وعنوان Ashanti (١٩٢٣) .

الأهمية فى ربط ماضى الأشانتى بحاضرهم . وفى جمع الرؤساء من سائر البلدان ، والتأثير فيهم ، وتأكيد ولائهم وإخلاصهم ، حرصاً على وحدة الأمة ، وضماناً لتقدمها ، وتقوية للروابط بين جميع طبقات الشعب .

وطبيعى ألا تكون هناك حاجـــة الآن لعقد مثل هذا الحفل ، بعد أن أسست الدولة الجديدة ووضع لها دستور جديد واتحدت البلاد كلها بما فيها الأشانتى . وأصبح المهم أن يلتف شعب غانا كله حول حكومته ورؤسائه الشرعيـــين .

وقد قامت فى داهومى فى نفس الوقت تقريباً مملكة تشابه مملكة الأشانتى ، وتختلف عنها فى بعض التفاصيل . فالحكومة المركزية أكثر تسلطاً على المديريات وحفلاتها السنوية من نفس النوع ، وموت الملك تصحبه التضحية بكثير من الجنود والأتباع والنساء والعبيد ، حتى لا تترك روحه بمفردها . ومن معانى الحفل السنوى أنه يتيح الفرصة لإرسال عدد آخر من الأرواح لكى يكبر بذلك الأتباع لدى روح الملك الراحل .

ويذكر سلجمان ما اشتهرت به مملكة داهومى من وجود فرقة حرس من النساء أطلق الكتاب عليها اسم الأمازونات . ويرى بعضهم أن السبب فى تكوين هذه الفرقة التى يقدر عددها بنحو ٢٥٠٠ امرأة ، يرجع إلى ما رزقته المرأة فى داهومى من قوة الجسم وفخامة المظهر ، ولا نعلم تماماً متى حلت تلك الفرقة . ولكنها كانت موجودة إلى نحو عام ١٨٧٠ ، وفى الغالب أنها تلاشت على أثر الاحتلال الفرنسى .

إذا اتجهنا من داهومى شرقاً وصلنا إلى حدود نيجيريا . ولعل من المفيد ، نظراً لما لنيجيريا من الأهمية كوحدة من أكبر الوحدات السياسية ، أن نتكلم عنها كلها مرة واحدة ، على الرغم من اختلاف السلالات فيها ، وتنوعها . وهذا الاختلاف يفرضه اتساع رقعة البلاد ، وامتدادها من الشواطئ الجنوبية إلى بحيرة تشاد ، أى أنها من منطقة الغابات الجنوبية ، تمتد تدريجياً إلى أقاليم

السفانا الغنية ثم إلى السفانا الفقيرة . ولذلك كان لها من ناحية السكان والقبائل والسلالات خصائص لا نجدها فى أية وحدة سياسية أخرى فى الأقاليم الإفريقية الغربية ؛ ومن ميزاتها الطبيعية أنها يجرى فيها نهر النيجر ورافده البنيو Benue ولا يخفى ما للأنهـــار من الأثر فى الاتصـــالات ، وفى تحديد الأوطان ونحو ذلك .

وبديهى أن يكون هناك تنوع كبير فى السكان ، واختلاف ثقافى بين الشمال والجنوب وأن اختلاف ظروف الأقاليم ، ستنعكس فى نوع المؤثرات التى تعرض لها كل منها، ومع ذلك فإن هناك ظروفاً تساعد هذه القبائل والشعوب كلها على أن تتعاون وترتبط سياسياً ، وهو أن ليس هنالك تضاريس تعوق المواصلات ، بل تغلب السهولة على معظم جهات نيجيريا . وذلك يسر التجارة والاتصال فى جميع العصور .

وقد تكونت دولة نيجيريا الحديثة ، فقضت الظروف أن تتألف من وحدات سياسية ثلاث ، يجمعها الحكم الفيدرالى . ومع أن الاختلاف الأكبر هو بين الشمال والجنوب ، فإن الشمال كان إحدى الوحدات السياسية ، أما الجنوب فقد قسم إلى وحدتين سياسيتين : واحدة فى الغرب والأخرى فى الشرق . . وهناك ثلاثة شعوب ، ظاهرة القوة فى الأقاليم الثلاثة ألا وهى الحوسة فى الشمال ، والإبو فى الشرق واليوروبا فى الغرب . هذه هى السلالات الكبيرة ، وفى نيجيريا ما يقرب من ٢٥٠ جماعة أو سلالة تتكلم كل منها لغتها الخاصة .

وتبعاً للخطة التى سرنا عليها فى تتبع سكان الأقاليم الساحلية من الغرب إلى الشرق فإن أول ما يصادفنا حينما نخترق حدود نيجيريا الغربية هو شعب اليوروبا Yoruba .

إن أوطان اليروبا تقع غرب مصب نهر النيجر . ويدخل فى أوطانهم الشريط الساحلى المطل على مياه المحيط .. غير أن شعب اليوروبا يعيش فى

الداخل وليس له نشاط ساحلى ، ومدنه الشهيرة مثل إبادان كلها فى الداخل (العاصمة لاجوس مدينة حديثة ، بنيت فى عهد الاستعمار) وآخر مدن اليوروبا فى الشمال إيلورين Ilorin تبعد عن الشاطئ بنحو ٢٠٠ من الأميال .

وللإسلام أثره فى مدن اليوروبا الشمالية . وهناك تبشير واسع الانتشار ، لمختلف المذاهب المسيحية . غير أن بقايا العبادات القديمة (عبادة السلف ونحوها) لا تزال منتشرة . . كما أن هناك تمجيداً لإله سماوى يدعونه أولرون Olorun كما أن هناك آلهة أخرى أقل خطراً .

ويعتبر اليوروبا فى طليعة الشعوب الإفريقية وأكثرها تقدماً . والحياة الاقتصادية تتسم بالجد والنشاط وتتناول الزراعة والمهن اليدوية والتجارة . . . وجميع هذا النشاط على اختلاف أنواعه مركز حول المدن ، التى طالما كانت أيضاً مركزاً للنشاط السياسى .

وقد اشتهر اليوروبا بإنشاء المدن المستقرة ذات الحجم الكبير . ومن أشهرها :

اسم المدينة		عدد السكان (حوالى سنة ١٩٥٥)
إبادان	Ibadan	٥٠٠,٠٠٠
أيفى	Ife	١٥٠,٠٠٠
أويو	Oyo	٧٥,٠٠٠
إيلورن	Ilorin	٥٠,٠٠٠

وهذا خلاف مدينة لاجوس العاصمة ، التى نمت فى عهد الاستعمار ويبلغ سكانها ٢٨٠,٠٠٠ نسمة أى أنها ليست أكبر مدينة فى الإقليم ، بل تفوقها إبادان وهى مدينة يوروبية خالصة . . . وكل مدينة يوروبية مقسمة إلى أقسام أو أخطاط . ويسكن كل خط فى العادة أناس من بطن واحد ، أو شعبة قبيلة واحدة ، أى أنه بين سكان الخط قرابة نسب ، ولهم مجلس يسهر على مصالح الخط وله رئيس تدين له الجماعة كلها . وهذا من أهم عناصر الاستقرار .

ولعل المدن والبلاد المتوسطة تشتمل على نصف السكان فى إقليم اليوروبا كله : وبالطبع هناك عدد من البلدان الصغيرة والكبيرة .

ومما يلفت النظر أن المشتغلين بالزراعة يسكنون المدن فى معظم السنة ، ويمارسون مهنتهم فى الأراضى التى تحيط بالمدينة . فيذهب الزارع كل يوم إلى مزرعته ليقوم بما تتطلبه الزراعة من عمل ثم يعود إلى بيته آخر النهار . . وإذا كان موسم الزراعة يتطلب البقاء بجانب المزرعة أياماً فإنه يبنى مسكناً صغيراً أو مأوى موقتاً يبيت فيه الليالى اللازمة ، ثم يعود إلى مسكنه الدائم فى المدينة إثر ذلك . والمساحة التى تزرع حول المدينة تحيط بها من كل جهة إلى بعد يصل إلى ١٥ ميلا . فالمدينة فى هذه الحالة عبارة عن قرية عظيمة .

وهذه الظاهرة تكون أكثر وضوحاً فى المدن الصغيرة أو المتوسطة ، فقد أوضح غير واحد من الباحثين أن المدينة التى سكانها من ٢٠٠٠ إلى ٥٠٠٠ يكون نسبة اليوروبا فيهم ٨٠٪ أكثرهم حرفته الزراعة .

أما المدن الكبيرة التى تصل إلى ١٠٠,٠٠٠ نسمة فإنها تشتمل على اليوروبا بنسبة ٢٠٪ ؛ لأن مثل تلك المدن تزدحم بأنواع النشاط التجارى والصناعى والفنى ، إلى جانب رجال الإدارة والوافدين عليها من الخارج(١).

ولا يؤخذ من هذا الكلام أن سكنى اليوروبا مقصورة على المدن ، بل هناك ما يقرب من النصف يعيشون فى قرى كبيرة أو صغيرة ، ملتزمين النظام السائد فى كل خط فى المدن : أن يكون معظم سكان القرية أو كلهم من عشيرة واحدة . ولهم مجلسهم ورئيسهم الذى يأتمرون بأمره .

ومع التسليم بأن النشاط الزراعى له المكان الأول عند اليوروبا ، غير أن هناك حرفاً عديدة يقوم بها المتخصصون مثل النسيج ، والصباغة ، والحدادة ، وصب النحاس ، ونحت الخشب والعاج والقرع ، وصناعة العقود ،

---

(١) راجع مقالة الأستاذ : باسكوم Bascom فى كتاب Ottenberg ١٩٦٠.

والصناعات الجلدية ، وعمل الحلى والتمائم ، وغير ذلك من الصناعات الدقيقة التى ينهض بها عدد محدود من المتخصصين .

وقد اشتهرت بنن Benin وإيفى العاصمة الدينية بما اشتملت عليه من ذخائر فنية ومن تماثيل منحوتة من الخشب ، أو مصنوعة من القرميد ، ومن الحديد والبرنز . وقد نقل كثير من التحف إلى خارج البلاد حتى امتلأت بها المتاحف فى أوروبا وأمريكا . وكان الملوك والرؤساء يشجعون هذه الصناعات ويرعون هذه البراعات الفنية ، إلى أن جاء الغزو البريطانى ، وغلب الرؤساء على أمرهم ، وفرّ الفنانون إلى الغابات هرباً من المغيرين . وبعد نحو عشرين عاماً تنبه رجال الإدارة إلى أن فقد هذه الفنون خسارة كبيرة . فأخذوا يحرضون من بقى من الفنانين على العودة ، وعادت هذه المهارات إلى الانتعاش . إن البراعة الفنية منتشرة فى كثير من جهات إفريقية الاستوائية ، ولكنها بلغت الغاية فى إقليم اليوروبا خاصة وفى بلاد سواحل غينيا بوجه عام[1]

والتجارة عند اليوروبا تحتل مكاناً خطيراً فى حياتهم الاقتصادية . ومن الظاهرات التى تلفت النظر أن النساء هن اللاتى ينهضن بعبء تجارة التجزئة . ويقول الأستاذ لاندر Lander إن أحد ملوك Oyo كانت له مائة زوجة يرسلهن لبيع الغلات الزراعية . . وقد زار لاندر البلاد سنة ١٨٣٠ .

* * *

إذا عبرنا نهر النيجر وجدنا إلى الشرق شعب « ابو Ibo » يحتل معظم الإقليم ، ومعه شعب إيبيبو Ibibo وإفيك Efik . وهى تتكلم لغات من نفس الأسرة اللغوية السائدة عند اليوروبا .

يعيش الإبو والشعوب المتاخمة لهم فى الجنوب الغربى من نيجيريا ، حيث يمثلون وحدة من الوحدات المستقلة داخل النظام الفيدرالى . وهم شعب مجد ،

---

(١) راجع مقالة الفن الإفريقى فى كتاب
1959 Bascom & Herskovitz : African Cultures

نال قسطاً وافراً من التعليم ، لعله أكثر مما أصابه سائر الشعوب فى نيجيريا . غير أن أساس حياتهم الاقتصادية هو الزراعة ، وهم يمارسون فى زراعتهم أسلوباً خاصاً : وهو أن يزرع المزارع أرضه سنة أو سنتين ، ثم يتركها بوراً أربع أو خمس سنين ، ثم يعود إليها . . أى أنه لا ينتظر حتى يظهر الضعف على الأرض وينقص المحصول نقصاً كبيراً . بل يبادر بتغيير الأرض قبل أن تستنفد قوتها . . وهى طريقة لها فوائدها ما دامت الأرض الزراعية متوفرة ، كما أنها تساعد على اكتساب أرض جديدة للزراعة بتطهيرها من الغابات .

إن الشعوب التى تتكلم لغة الإبو يتجاوز عددها خمسة ملايين ، وهى تعيش فى مجموعات مستقلة تدبر كل منها شئونها بنفسها ، فى قرى يتراوح سكان كل قرية منها بين ١٢٥ و ٣٠٠٠ نسمة . وعلى الرغم من التشابه فى اللغة والنظم الاجتماعية ، لم يحاول الإبو أن يكونوا شعباً متحداً ، إلا فى الأعوام الحديثة . وقد أصبح واحد منهم رئيساً لدولة نيجيريا الفيدرالية . . وتغلب الصفات الزنجية الصحيحة على السكان ، كما هى الحال عند اليوروبا . ولو أن هؤلاء يدعون بعض الاتصالات الشمالية .

إذا اتجهنا شمالا من بلاد الإبو نمر بديار قبيلة تختلف نوعاً عن الإبو وهى قبيلة تيف Tiv التى يبلغ تعدادها ما يقرب من مليون نسمة ، وربما جاز لنا أن ندعوها شعباً . وهى أيضاً مجموعة زنجية صميمة تصل أوطانها إلى نهر بنيو ، الرافد الأكبر لنهر النيجر ، ولها لغة خاصة فيها شبه بلغة البانتو .

وفى هذا الإقليم الأوسط الذى يلتقى فيه النيجر بالبنيو ، قبائل وشعوب كثيرة بعضها تأثر بالإسلام مثل شعب نوپه Nupe . فى مقابلهم شرقاً إلى الشمال شعب جوكون Jukon ، المحافظ على ديانة أسلافه . ووصف سلجمان هذه القبيلة بأنها تتميز بوجود عادة الملك المقدس Semi-Divine King الذى لا يمس الأرض برجليه (عاريتين) حتى تبقى الخصوبة فى الأرض . وكان فيما مضى يقتل فى حفل كبير ، على النحو الذى يشابه ما كان سائداً

عند الشلك وغيرهم . . . والملك يعاونه عادة امرأتان : أخت الملك الراحل وأولى زوجاته .

وقد اصطلح الكتاب على تقسيم نيجيريا إلى قسمين جنوبى وشمالى ، وجعلوا الجزء الجنوبى مشتملا على اليوروبا ومن حولهم غرب النهر : وعلى الإبو ومن معهم فى الشرق . فإن كلا من الجوكون والنوپه يعدون من نيجيريا الشمالية ، غير أن الشعب الذى يسود الشمال هو بلا شك شعب الهوصه Hausa (١) على الرغم من وجود سلالات عديدة مختلفة موزعة فى أركان الإقليم . إن عدد الهوصه يتجاوز عشرة ملايين ، ويشتمل على مراكز الإدارة فى كل من سكوتو وكتسينا وكانو وزاريا وغيرها . وهذه الإمارات متصلة الثقافة والرياسة فيها لأمير سكوتو ، ومع أن الأمراء ينحدرون من سلالة الفولا . فإن الهوصه هم العنصر الغالب الذى تتألف منه الكثرة العظمى من سكان تلك المدن ، كما أنه السائد فى غير تلك المدن من البلدان والقرى . وهم المسيطرون على الحياة الاقتصادية من زراعة وصناعة وتجارة ، بل إن نشاطهم التجارى يمتد إلى الجنوب أيضاً ، وهم بارعون فى زراعتهم ، ويحسنون تربية الماشية . وعلى الرغم من أنهم مسالمون ، فإن بلاءهم فيما يشجر من حروب يشهد لهم بالبسالة .

والهوصه يدينون جميعاً بالإسلام ، والزعيم الدينى الأكبر أمير سكوتو . وهناك مجموعات صغيرة تتكلم لغة الهوصه ولكنها لا تدين بالإسلام ، كما أن فى الإقليم بعض إمارات عربية مثل البورنو جنوب بحيرة تشاد ، وهى بالطبع ليست من الهوصه . . أما لغة الهوصه فتوصف عند علماء اللغات بأنها « حامية » وإن كان الأستاذ جرينبرج يفضل أن يجعلها فرعاً من اللغات التى أطلق عليها اسم « إفريقية أسيوية » .

وعلى الرغم من أن الهوصه شعب زنجى ، ويغلب فيه أن تكون البشرة سمراء جداً ، فإنه يوصف بأن الأنف أكثر اعتدالا وبروز الفك أقل مما نجده

(١) يكتب بالسين أو بالصاد ، وبالهاء عادة ، وإن كان الكتاب العرب يكتبونها أحياناً بالحاء (الحوصة) وإن كان هذا لا يتفق مع لغة الهوصه .

لدى الزنوج الصرحاء . ومن المعقول أن يكون هنا مجال لاختلاط السلالات الزنجية والقوقازية الوافدة من الصحراء ، ويبدو أن هذا حدث على مدى زمن طويل جداً ، لأن الموصه عنصر متحد مندمج .

والفولا الذين يعيشون فى نيجيريا هم شعبة من سلالة الفولا الكبيرة ، التى تعيش موزعة فى الأقاليم الممتدة من السنجال إلى أعالى النيجر . وهم فى نيجيريا إما أن يشتغلوا بالوظائف الحكومية فى المدن ، أو يحترفوا رعى الماشية ، وهم يعيشون حياة قريبة من البداوة . . وهناك آخرون يجمعون بين الزراعة وتربية الماشية . . والفولا لا يتجاوز عددهم السبعة أو الثمانية ملايين نسمة فى كل الأقاليم التى يحتلونها .. وهم بلا شك شعب قوقازى أصلا . وإن كان المستقرون منه قد امتصوا مقداراً متفاوتاً من الدماء الزنجية :

الفصل الثالث

شعوب البانتو

— ١ —

لئن كانت السلالات الزنجية فى الجانب الغربى من القارة تمتاز بتعدد اللغات إلى درجة كبيرة بحيث تتجاوز الخمسمائة على أقل تقدير ، فإن البانتو بخلاف ذلك لهم « أسرة لغوية واحدة ». وليس معنى ذلك أن المتكلم فى الجزء الجنوبى من القارة ، يستطيع أن يفهم ما يقوله واحد من سكان الجانب الشرقى أو الغربى ، بل معناه أن اللغات التى يتحدث بها الناس فى جميع الأوطان البانتوئية ، متشابهة تشابهاً كبيراً كما تتشابه مثلا لغات الفرنسيين والأسبان والطليان ، بوصفها فروعاً من اللغة اللاتينية .

إلى جانب هذا نلاحظ أن أوطان البانتو متلاصقة متجاورة فى مساحة تعادل ثلث القارة الإفريقية . . ولا يشوب انتشارهاهذا إلا وجود سلالة ضئيلة العدد مثل البشمن والهوتنتوت ، لا تحتل قطراً من الأقطار ، بل تعيش إلى جانب السلالات السائدة من البانتو ، كذلك لا ينبغى أن يحسب حساب العناصر الدخيلة من الاستعماريين فى الأطراف الجنوبية ، فإن هذه ظاهرة سياسية أكثر مما هى ظاهرة جنسية . وفيما عدا ذلك نرى البانتو مستأثرين بأوطانهم فى هذا المجال الفسيح : تجمعهم أسرة لغوية واحدة .

وأوطان البانتو كما أشرنا من قبل تبدأ فى الغرب ، على خليج بيافرا عند الحدود الشرقية لنيجيريا . ويمتد الحد بعد ذلك فى اتجاه شرقى مع تعرجات

عديدة إلى الشمال ثم الجنوب ؛ ولا فائدة من وصف هذه التعرجات ، ولا بد للقارئ أن يتبينها على الخريطة . وعندما يصل الخط إلى منطقة بحيرات أعالى النيل يدور حول شمال بحيرة فكتوريا ، ثم ينتهى إلى المحيط الهندى شمال خط الاستواء بقليل :

أى أن الخط يمتد من الغرب إلى الشرق فى اتجاه مطرد تقريباً ، والظاهرة الوحيدة الشاذة التى يراها من يطلع على امتداد هذا الخط . هو اتجاهه بشدة نحو الجنوب شرقى بحيرة فكتوريا حتى يصل إلى خط العرض الرابع جنوب خط الاستواء ثم يعود فيتجه شمالا بشرق إلى أن ينتهى إلى المحيط الهندى . وسبب ذلك أن سلالات أخرى توغلت آتية طبعاً من الشمال فيما بين بحيرة فكتوريا والمحيط الهندى ، وقد استطاعت هذه السلالات (وهى من النيليين الحاميين) أن تحتل منطقة الوسط هذه . وتدفع حدود البانطو إلى الجنوب فى تلك المنطقة بمقدار نحو ثلثمائة من الأميال .

وإذا كانت حدود أوطان البانتو الشمالية ممتدة على النحو الذى رأيناه ، فإن سائر الحدود عبارة عن شواطئ القارة الإفريقية ، المطلة على المحيط الهندى شرقاً وعلى المحيط الأطلسى غرباً .

إن ظاهرة اتساع أوطان البانتو ، وتجاورها بحيث تكون كتلة ضخمة من السلالات الزنجية متشابهة اللغات ، ظاهرة تفتقر إلى التأويل والتفسير . . وقد تناولها العلماء بالبحث وتشعبت فى تفسيرها آراؤهم . . إن وجود أسرة لغوية منتشرة فى أوطان متباعدة مثل لغات البانتو ، يدعو إلى احتمال أن يكون هناك قطر واحد ، انتقلت منه اللغة تدريجياً فى موجات متتالية حتى عمت المساحة كلها . ولذلك اتجه تفكير الباحثين إلى تحديد هذا الوطن الأصلى ، الذى انتشرت منه تلك اللغات . واتجه الرأى الأول الذى ظل سائداً زمناً طويلا إلى أن الوطن الأصلى لها شرق إفريقية : فى منطقة البحيرات النيلية ، أو إلى الشرق منها . وأكبر الظن أن القائلين بهذا الرأي تأثروا بعدة ظاهرات :

١ ـ منها أن البانتو تظهر فى الكثير منهم بعض الصفات القوقازية المعروفة مثل اعتدال فى النسبة الأنفية وفى الشفتين ، بل وفى لون البشرة خصوصاً بين الطبقات « الأرستقراطية » ، وذهب غير واحد من الكتاب إلى الزعم بأن كل فرد من البانتو يحمل فى تكوينه بعض الدماء القوقازية .

٢ ـ إذا قبلنا هذه الحجة ، فإن الجهة التى جاءت منها السلالات القوقازية ، وتوغلت منها فى القارة الإفريقية هى الجهات الشرقية فيما يسمى قرن إفريقية .

٣ ـ إن التوزيع الجغرافى للسلالات يوحى بأن السلالات الزنجية قد زحزحت عن أوطانها ، وأصبح القوقازيون يستأثرون بجزء كبير من إفريقية الشرقية . . .

والصورة التى تخيلها هؤلاء الكتاب أن الموجات الأولى لهجرة «الحاميين» اختلطت بالزنوج الساكنين فى شرق إفريقة ، وكونوا منها شعباً كبيراً ظلت له السيادة زمناً طويلا ، حتى أقبلت موجات أخرى زحزحته نحو الجنوب ونحو الغرب . . . وهكذا تعاقبت الموجات ، وانتشرت لغة البانتو فى جميع الأوطان التى تحتلها .

ونزل المتكلمون بلغات البانتو أوطاناً متعددة ؛ وفى هذه الأوطان الجديدة تطورت اللغات ودخلها بعض تجديدات ، كما يحدث دائماً حين تنتشر لغة انتشاراً واسعاً . ويقول أصحاب هذا الرأى إن اللغات التى يتكلم بها بعض الجماعات المنعزلة فى منطقة البحيرات الاستوائية هى التى تظهر فيها الخصائص « البدائية » أى ما يدل على أنها لم تتطور ، بسبب عزلتها وانقطاعها . وهذا فى نظرهم دليل على أن لغة البانتو الأولى كانت فى منطقة البحيرات ، ومنها انتشرت إلى الأقاليم الأخرى .

سادت هذه النظرية زمناً وقال بها علماء مثل ماينهوف Meinhof وسترمان Westermann وغيرهم ، ثم ظهرت النظرية الحديثة التى نادى بها جرينبرج ،

وتبعه كثير من الكتاب . وقد بنى هذه النظرية ، على دراسة اللغات الإفريقية دراسة دقيقة ، حاول أن يظهر فيها وجوه الشبه الحقيقية فيما بينها . وقد هداه البحث إلى أن المجموعة اللغوية الإفريقية الكبرى هى التى سماها لغات النيجر والكونغو . والفرع « الأوسط » من هذه المجموعة يتركز فى حوض نهر النيجر . وفيه لغات عديدة ، بعضها مشابه للغات البانتو . ومن أكثرها شبهاً بلغات البانتو لغة شعب تيف Tiv وجماعات أخرى صغيرة فى الركن الشرقى من نيجيريا والغربى من الكمرون . . . لهذا قرر جرينبرج أنه لا معنى للبحث فى أطراف القارة الإفريقية عن أصل لغة للبانتو ، مع وجود قرابة شديدة لها فى صميم القارة . . وهو لذلك يرجع أصول لغة البانتو إلى منطقة نهر بنيو Benue وأن انتشارها كان من هناك شرقاً إلى حوض الكونغو وإلى شرق وجنوب القارة الإفريقية فى جهات كان يسكنها أناس مثل الأقزام والبشمن . ونظراً للتشابه القوى بين لغات البانتو ، فإنه يرى أن اللغة الأصلية بدأ انتشارها من وطنها الأصلى منذ نحو ٢٥٠٠ عام .

وقد اتبع جرينبرج[١] كثير من الكتاب . ومثل أوليفر وفاج[٢] . وهما يعللان انتشار البانتو « السريع » بأنه يرجع إلى أن حرفة الزراعة وصلت إلى منطقة السفانا قبيل الميلاد . وساعد على التكاثر السريع ، وتعمير تلك الأوطان المتباعدة .

هذه خلاصة مقتضبة للنظريتين ، اللتين تعالج كل منهما مشكلة تحديد الوطن الأصلى للغات البانتو ، ولا يحاول أحد أن يجعل كلا منها أكثر من مجرد نظرية قابلة للتعديل أو التغيير على ضوء ما قد يجد من البحوث . . ولا بد أن نلاحظ مع ذلك أنه ليس مما ينقض نظرية جرينبرج وجود دماء قوقازية

---

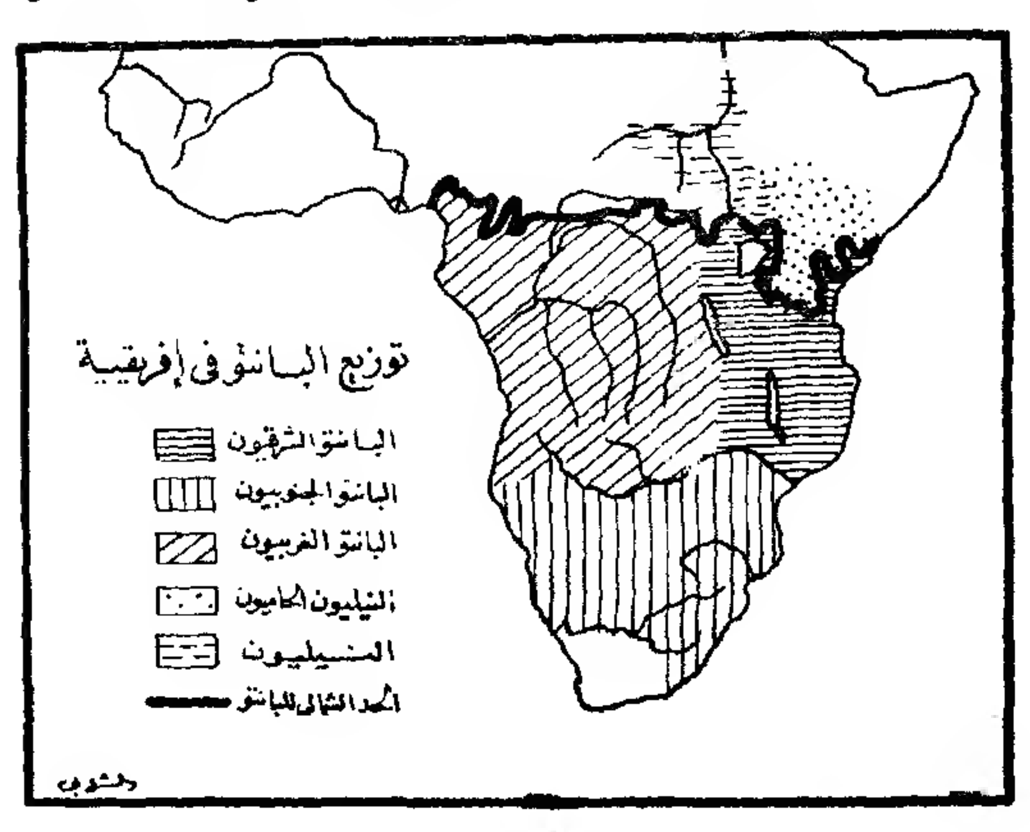
(١) شرح جرينبرج ما أراده شرحاً وافيا فى كتابه
Studies in African Linguistic Classification (1955).

(٢) Oliver & Fage (1962).

فى تكوين البانتو ، لأن هذه الصفات القوقازية واضحة فى الجهات الشرقية ، وأقل وضوحاً فى الجانب الغربى من أوطان البانتو .

* * *

على الرغم من اتساع الأوطان فإن البانتو هم قبل كل شىء أحد القسمين الكبار للجنس الزنجى فى القارة الإفريقية . والصفات الزنجية سائدة فى كل مكان ، معدلة أحياناً ببعض الصفات القوقازية فى شكل الوجه ، ولكن



(شكل رقم ٥)

الشعر المفلفل موجود دائماً ، مهما اعتدلت النسبة الأنفية أو كانت الشفاه والفك أقرب إلى الصفات القوقازية . . وهذا الاستثناء يقل إذا اتجهنا غرباً ؛ وفى أقاليم الغاب الغربية بوجه خاص ربما وجدنا ارتفاعاً ملحوظاً فى النسبة الرأسية دليل تأثير بعض الأقزام . . ومن الملاحظ أيضاً أن القامة فى الغرب أقصر منها فى الشرق :

ونظراً لأن أوطان البانتو تحكى شكل مثلث ، وأنها عريضة فى الشمال وضيقة نسبياً فى الجنوب ، نرى أن الكتاب لهذا السبب وربما لأسباب ثقافية وجغرافية أخرى يقسمون البانتو إلى ثلاثة أقسام :

١ — شرقى .
٢ — جنوبى .
٣ — غربى .

على الصورة الموضحة بالخريطة ، وفيها نرى أن القسم الجنوبى هو وحده الذى يطل على المحيطين الأطلسى والهندى ، كما أن له شواطئه الجنوبية ، التى تصل بين المحيطين . والتى تمر منها السفن التى تدور حول رأس الرجاء الصالح أما القسم الشرقى فيطل على المحيط الهندى . والغربى يطل على المحيط الأطلسى ويفصل بين الاثنين الخط الأخدودى المار ببحيرات إدوارد وكيفو وتنجانيقا ، ومن الطرف الجنوبى لبحيرة تنجانيقا يتجه جنوباً حتى نهر زامبيزى . . .

وسنتناول بالكلام القسم الجنوبى أولا ، ثم القسم الغربى ، ثم الشرقى . ولكنا قبل أن نمضى فى الحديث عنها لا بد لنا أن نذكر خصائص بعض الأسماء مما يتصل بطبيعة لغات البانتو ، فمن أهم خصائص هذه اللغات أنها مقطعية : أى أن المعنى يكمل أو يغير بإضافة مقطع أو استبدال مقطع بمقطع ، وعلى سبيل المثال نذكر أن شعب جندة يدعى الناس فيه باجنده ، لأن المقطع « با » يفيد معنى الناس . والشخص من الجنده يسمى « موجنده » . والوطن الذى يعيش فيه الجنده يسمى بوجنده . واللســـان الذى يتكلمون به يسمى لوجنـــده .

وهذه المقاطع قد تختلف قليلا فى الجنوب عن الشمال الشرقى أو الغربى. بحيث يستعمل بدلا من المقطع « با » مقطع آخر مثل « وا » أو « آما » كما هى الحال فى آمازولو ، غير أن المبدأ واحد . وهو النظام المقطعى الذى تمتاز به لغة البانتو .

البانتو الجنوبيون : يتفوقون عدداً على جميع سكان إفريقية الجنوبية ، وأوطان البانتو الجنوبيين تمتد من مصب نهر الزمبيزى وتتبع مجراه ، ثم تتبع نهر كونيني Kunene إلى مصبه فى المحيط الأطلسى . وبذلك تشمل النصف الجنوبى من موزمبيق ثم روديسيا الجنوبية ، واتحاد إفريقية الجنوبية ، (ما يسمى الآن جمهورية إفريقية الجنوبية) وإقليم إفريقية الجنوبية الغربية ... ويضاف إلى ذلك الثلاث ولايات المشمولة بالحماية البريطانية مع وجودها وسط أراضى جمهورية إفريقية الجنوبية . وهى سوازيلند ، وباسوتولند . وبتشوانالند .

هذه المساحة الكبيرة يسودها شعوب البانتو على الرغم من نزلائها الأوروبيين . ويمكن أن نلخص صورة التكوين البشرى للجنوب الإفريقى على النحو التالى :

العنصر الأوربى يقرب من	٣,٠٠٠,٠٠٠	(منهم ١,٨٠٠,٠٠٠ بويرى و ١,٢٠٠,٠٠٠ بريطانى)
البانتو فى جمهورية إفريقية الجنوبية	١٠,٠٠٠,٠٠٠	
ملونون	١,٥٠٠,٠٠٠	مزيج من البانتو وغيرهم
هنـود	٥٠٠,٠٠٠	
البانتو فى الولايات المحمية	١,٥٠٠,٠٠٠	
البانتو فى موزمبيق الجنوبية	٢,٠٠٠,٠٠٠	
البانتو فى الإقليم الغربى	١,٥٠٠,٠٠٠	

وهكذا تكون جملة البيض لا تتجاوز ٣ ملايين وجملة البانتو والعناصر الملونة ١٧ مليوناً ، وهؤلاء البانتو الجنوبيون ينقسمون إلى عدد كبير جداً من القبائل والوحدات القبلية ، وكل وحدة لها اسمها ، وقلما نجد اسمها يشمل عدداً كبيراً من القبائل المتجاورة أو المتحالفة . ومع أن بين البانتو الجنوبيين تشابهاً كبيراً فى أسلوب المعيشة والتنظيم الاجتماعى ، والمعتقدات الدينية . فإن بينهم فروقاً فى بعض المسائل الخاصة بالتطورات التاريخية والفروق اللغوية ،

وبعض الخصائص الثقافية ، وهذه الفروق تسمح بتقسيم البانتو الجنوبيين إلى أربعة أقسام :

١ – القسم الشمالى ويشمل شعوب شونا Shona المنتشرين فى روديسيا الجنوبية وفى موزمبيق جنوب نهر الزمبيزى . وهم عبارة عن قبائل عديدة ، ثقافتها متشابهة . وقد اشتهر هذا الإقليم بآثار لمبان ضخمة حجرية ، وبخاصة تلك المبانى التى تدعى خرائب زمبابوى Zimbabwe وإن كنا لا نعرف الشىء الكثير عن بناة تلك الحضارة ، فإن الرأى الراجح أنها آثار لحضارة زنجية ، وليست من عمل عنصر دخيل . بل لعلها من صنع أجداد بعض قبائل الشونا ، الذين أقاموا مملكة فى حوض نهر الزمبيزى منذ القرن العاشر أو الحادى عشر الميلادى .

٢ – القسم الثانى من البانتو الجنوبيين تقع أوطانه الرئيسية إلى الشرق من جبال دراكنبرج ، وتبدأ فى الشمال من نهر سابى فى جنوب موزمبيق ، وتمتد إلى الشواطئ الجنوبية الشرقية . ويشتمل هذا القسم على مجموعتين من أكبر وأهم مجموعات البانتو الجنوبيين وهما مجموعة Nguni ومجموعة Tsonga ولعل النجونى أكبر الشعبتين ومنهم طائفة هاجرت للشمال . ومنهم أيضاً شعب سوازى الذى يعيش فى البلاد المسماة باسمه Swaziland ، وهى من الأقطار المشمولة بالحماية البريطانية . ومنهم الشعب الشهير Zulu ومنهم قسم فى روديسيا يدعى Ndbele وتسمى الجماعة منهم Amandbele .

وقد اشتهر الزولو أكثر من غيرهم من سكان الجنوب الإفريقى ؛ لأنهم فى مبتدأ القرن التاسع عشر ظهر فيهم زعيم محارب نابغ يدعى شاكا ، الذى استطاع أن يغزو البلاد المجاورة ، وأن يوسع الوطن ويجعل من الزولو أمة قوية مرهوبة الجانب . . وقد دامت سيطرة الزولو على البلاد إلى نحو منتصف القرن التاسع عشر ، حين بدأ البوير ينازعونهم السلطة فى الإقليم الواقع شرقى جبال دراكنبرج ، ولا يزال الزولو يعيشون فى إقليمهم ، وإن كانت دولتهم تفككت على أثر الاحتلال الأجنبى .

أما مجموعة تسنجا ، فيعيش معظم أبنائها فى موزمبيق ، ومنهم فرع يسكن الترنسفال . وتشتمل المجموعة على ثلاثة شعوب وهى تسنجا ورنجا Ronga وتسوا Tswa .

٣ ـ القسم الثالث من البانتو الجنوبيين : هو القسم الأوسط ويعيش فى الهضبة الوسطى إلى الغرب والشمال الغربى من جبال دراكنبرج ؛ وهذه الهضبة الواقعة إلى الغرب من الجبال أقل مطراً ونباتاً من الإقليم الساحلى ، ولعلها لهذا السبب أقل ازدحاماً بالسكان فيما عدا جهات التعدين الواقعة فى الشمال الشرقى المركزة حول مدينة جوهانسبرج ، وعاصمة إفريقية الجنوبية بريتوريا .

وأهم المجموعات فى الهضبة الوسطى هم مجموعة ڤندا Venda فى الإقليم الشمالى الشرقى منها . والمجموعة الثانية هى مجموعة سوتو Sotho التى تعيش إلى الغرب مباشرة من جبال دراكنبرج . وهى التى أمكنها تكوين دولة Basutoland ، الواقعة تحت الحماية البريطانية . . وهى فى طريقها الآن إلى الاستقلال ، ويبلغ شعب سوتو داخل حدود الحماية ما يزيد على المليون نسمة ويتمتع بتقدم اجتماعى واقتصادى ملحوظ .

ومن مجموعة سوتو أيضاً القبائل التى تعيش فى الحماية المسماة Bechwanaland وهى تمثل حيزاً كبيراً فى الشمال الغربى من الهضبة ، ومن أشهر قبائل بتشوانالند قبيلة نجراتو ، ثم قبيلة تسوانا Tswana وهى التى حرّف اسمها وأطلق على الحماية كلها .

٤ ـ القسم الرابع والأخير من مجموعة البانتو الجنوبيين هو القسم الغربى ، وأهم فروعها قبائل هريرو Herero وأمبر . وهم يعيشون فى إفريقية الجنوبية الغربى . هذا الإقليم الذى كان تابعاً لألمانيا قبل الحرب العالمية الأولى ، ثم آل إلى حكومة إفريقية الجنوبية عن طريق الانتداب وقبائل هريرو كانت موحدة تحت رياسة زعيم واحد ، وقت سيطرة الألمان على البلاد . ثم

فقدت وحدتها تحت الانتداب من الدرجة الثالثة الذى منيت به البلاد منذ عام ١٩٢٠ .

* * *

هذا التقسيم للبانتو الجنوبيين ، يبدو لأول وهلة أنه تقسيم يعتمد على اختلاف مواقع كل قسم : فى الشمال والشرق والوسط والغرب ، ولكنه يشتمل أيضاً على بعض اختلافات ثقافية ، واختلاف فى اللهجات .

والصفات السائدة زنجية ، وهناك اختلافات محلية بقدر ما استوعبت السلالة من عناصر قوقازية (حامية) وبخاصة فى الشرق الأوسط ؛ وعناصر هوتنتوت فى الغرب والقامة مع ذلك متوسطة أو فوق المتوسط قليلا (١٦٨سم) وربما كان لها ارتفاع محسوس فى الشرق .

اللون يتراوح بين السواد الذى يتمثل فى سوازيلند ، واللون البنى الفاتح عند الهريرو . والشعر مفلفل دائماً قليل جداً على الجسم والوجه ، ولا يبدأ ظهوره على الوجه إلا فى الحلقة الثالثة من العمر . ويظهر الأثر القوقازى فى اعتدال النسبة الأنفية والفك القليل البروز والشفتين . ويزعم سلجمان أن هذا يتفق عادة مع ازدياد طول القامة . كما هو ملاحظ بين جماعات زولو وتسنجا . . . وبالعكس ربما ظهرت بعض صفات البشمن فى الشعبة الغربية والرءوس بوجه عام طويلة ، ويستوى فى ذلك الشرق والغرب .

وعادة الختان منتشرة فى الجهات الشرقية ، وإن كان بعض العشائر قد أقلع عنها . كذلك يظن أن ختان البنت موجود عند البعض ، وإن لم يكن أمر هذه العادة معروفاً تماماً .

وفى كثير من القبائل عادة تشويه الأسنان الأمامية لتبدو مدببة ، وخلع القواطع ، وسنرى فيما بعد أن هذه العادة منتشرة فى حوض بحر الغزال وبحر الجبل ، وعادة عمل الشلوخ والندويب فى الوجه فى الإقليم الشرقى والغربى :

كذلك توجد لدى بعض عشائر الزولو عادة بتر بعض أطراف الأصابع ولعلها عادة انتقلت إليهم من البشمن أو الهوتنتوت .

* * *

أما من الناحية الاجتماعية فتتألف هذه المجموعة من البانتو من عدة قبائل ، ولكل قبيلة زعيمها ، ولها رقعة من الأرض تتبعها ، بقدر ما تستطيع الذود عنها ؛ وإذا ضعفت وتمزقت تلاشت بالاندماج ، كل جزء يندمج فى القبيلة التى تسوقه الظروف إليها ، فالمدار فى تكوين القبيلة ليس على القرابة وصلة النسب ، بل إلى التجميع والتنظيم . فنرى سوتو مثلا يتألفون من قطع وبقايا بتأثير الزعيم موشيش Moshesh ، الذى استطاع أن يضيف ويزيد فى أتباعه حتى جعل منهم شعب سوتو فى باسوتولند . وقد رأينا مثالا آخر فى حالة الزولو إذ جعل منهم زعيمهم شاكا أمة كبيرة بفضل غزواته . وإن كانت وقعت تحت سلطة حكومة إفريقية الجنوبية . بينما استغاث الزعيم موشيش بالملكة فكتوريا لكى تجعل بريطانيا بلاده تحت حمايتها . . وبذلك نجت باسوتولند من مخالب تلك الحكومة . وفيها اليوم حركة وطنية تنشد الحرية الكاملة والاستقلال .

وهكذا تختلف ظروف تكوين كل قبيلة . ولذلك كان كثير منها صغيراً نسبياً يتراوح بين ألف وألفى نسمة ولكن ظاهرة التوسع وتجميع أشتات القبائل نتج عنه تكوين عدد كبير من القبائل الكبيرة . التى نستطيع أن نسميها شعوباً ، مثل السوتو سالفى الذكر ، ومثل سوازى ، وعددهم ٢٠٠,٠٠٠ وبامانجواتو ويزيدون على ١٥٠,٠٠٠ .

والمسكن الذى يسكنه البانتو الجنوبيون عبارة عن وحدة سكنية تدعى كرول Kraal حيث تعيش كل أسرة فى وحدة سكنية خاصة بها : وفى الإقليم الشمالى والشرقى والغربى نرى هذه الوحدات السكنية مبعثرة من غير نظام خاص . . أما فى الإقليم الأوسط فإن الوحدات السكنية متقاربة بعضها

من بعض بحيث تكون قرى تشتمل الواحدة منها على ١٠ إلى خمسين وحدة سكنية (كرول) وهذا هو النظام السائد فى باسوتولند . ولكن هذه الوحدات ربما تجاورت حتى تؤلف بلداناً سكانها يقربون من عشرين إلى ثلاثين ألفاً ، وذلك فى بتشوانالند .

والكرول سواء أكان فى قرية أم بلدة ، أم كان قائماً بمفرده ، فإنه يتفق فى خصائصه ونظامه ؛ ويشتمل الجزء الأوسط من الكرول على حظيرة للماشية الثقيلة والدقيقة ويحيط بها سياج من العوسج ، وإليها تأوى الماشية فى الليل . . ومن حول الحظيرة وعلى بعد بضعة أمتار منها تقام الأكواخ التى يعيش فيها أهل الكرول . وكل كوخ له حوش صغير للطبخ ، وشكل الكوخ يشبه خلية النحل عند الهريرو وعند معظم القبائل الشرقية أيضاً . أما عند القبائل الوسطى والشمالية فيكون الكوخ مستديراً وسقفه مخروطىّ الشكل وفى الكرول فناء محجوز حوله سياج ليجلس فيه الرجال ، ومن حول الكرول كله سياج غليظ من الحطب والعوسج ، مستدير أو بيضى . . ولا يخلو أى كرول من شجرة خاصة أو حجر أو كتلة خشب منصوبة ذات فرعين : وهذه تكون بمثابة مذبح تقدم فيه القرابين وتقام عادة أمام باب كوخ الزعيم .

وتنقسم القبيلة كالعادة إلى عشائر ، والعشيرة هى الوحدة التى تجمعها صلة قرابة أو نسب وعند العشائر الشرقية عادة خاصة وهى أن كل عشيرة لها إيسو بنجو Isobongo أى لها اسم خاص يمكن أن ندعوه اسم تكريم أو تشريف أو اسم النسب ، أى اسم الجد الذى تنتسب إليه العشيرة . وإذا أريد مخاطبة شخص بصورة تكريمية فلا بد أن ندعوه باسم التشريف . وإذا كان من عشيرة تنتسب إلى جد يدعى تشيزى Tschesi مثلا . كان من التكريم لأبناء العشيرة أن تدعوهم Ama Tschesi . وبدلا من أن تدعو أى إنسان باسمه الخاص ، يكون تكريماً له أن ندعوه باسم الجد .

ولا يجوز للإنسان أن يتزوج من أسرة لها نفس الإيسوبنجو . وهذا نظام لا يكاد يختلف عن نظام الاغتراب المعروف . ولكنهم يذهبون إلى أبعد من ذلك فلا يجوز مثلا لرجل أن يشرب اللبن إلا مع أفراد لهم نفس اسم التكريم . وعند الزولو إذا شرب الرجل اللبن مع فرد من عشيرة أخرى ، فإنه يصبح بذلك قد تم له التآخي مع تلك العشيرة ، ولا يجوز له أن يتزوج من واحدة من نسائها .

ويبدو أن نظام الإيسوبنجو أو اسم التكريم المشتق من أحد الأجداد : هو بمثابة الشعار الذي يجمع كل عشيرة ، وهو بديل من أن يكون لها طوطم خاص بها . فرأت القبائل الشرقية أن يكون شعارها جدها الأكبر ، بدلا من أن يكون شعارها حيواناً أو نحو ذلك . وعلى كل حال فإننا نجد نظام الطوطمية المعروف موجوداً لدى القبائل الوسطى ، التي تنقسم هي أيضاً إلى عشائر ، وكل عشيرة أيضاً لها اسم خاص يدعى سبوكو Seboko . ولكنه ليس اسماً للجد المشترك ، بل هو اسم لحيوان أو لبعض المعادن مثل الحديد ، أو لظاهرة طبيعية مثل المطر . وبذلك يكون اسم العشيرة - إذا استخدمت المعنى العربي - بني أسد أو بني حديد أو بني مطر .

* * *

والحرفة الغالبة عند البانتو الجنوبيين هي رعي الماشية ، والزراعة البدائية ، وهم يرعون البقر والضأن والماعز ، ويحصلون منها على الغذاء الرئيسي وهو اللبن ، وعلى مادة أولية للصناعة وهي الجلود . ومن النادر أن تقتل الماشية من أجل لحمها . بل تذبح للمناسبات الدينية أو الاجتماعية الهامة . . ومع ذلك يصيبون حاجتهم من اللحم عن طريق الصيد ؛ وتأتيهم الزراعة بغلات مثل الذرة الشامية والرفيعة وبعض البقول والخضراوات .

والماشية ترعى وتحلب بوساطة الرجال ، أما الزراعة ففي أيدي النساء ؛ وقد حرم عليهن أن يقمن بأي عمل يتصل بالماشية . لا يستثنى من ذلك سوى شعب هريرو ، فإن النساء فيه يقمن بالحلب أيضاً . . وهذا هو المثال الوحيد

الذى نجده يشذ عن المألوف عند جماعات البانتو ، وعن الزنوج المختلطين بالحاميين مثل سلالة النيليين .

أما الديانة والعبادة ، فتغلب عليها عبادة السلف . والطقوس التى تؤدى فى هذا الصدد يؤديها رئيس الأسرة بالنسبة لأسرته ، فيبتهل ويقرب القرابين لأجداده ، وهذا المظهر من أهم العوامل فى تماسك الأسرة ، والرق بها عن منافسة أخوين ، يثور بينهما أى خلاف فى أى موضوع . إن التماسك الدينى يضطر الأصغر للإذعان والتماس الصفح من الأكبر .

وهذا هو المبدأ المقرر بالنسبة للقبيلة كلها . وكما أن رئيس الأسرة يبتهل إلى أجداده الرؤساء السالفين لكى يحفظوا الأسرة ويدرأوا عنها الأذى ، كذلك يبتهل زعيم القبيلة إلى أجداده السالفين ، وهو وحده الذى يستطيع أن يسترحمهم وأن يستعطفهم لكى يرفعوا عنها الضر ، ويسبغوا عليها الخير . وهو وحده الذى يقدم إليهم القرابين ، ويبتغى إليهم الوسيلة . وهذا مما يساعد على توحيد القبيلة ، وتقوية مركز الزعيم .

ويحس البانتو فى حياتهم دائماً بأن أجدادهم على اتصال مستمر بهم ، ولا تغيب ذكراهم عن أذهانهم . فلا تقام حفلة تشرب فيها الجعة ، إلا قربوا لهم بعض الشراب . وإذا قسم الطعام كان للسلف أيضاً نصيبهم . وهناك أيضاً مواسم معينة مخصصة لإحياء ذكرى الأجداد ، وهذه هى التى تقرب فيها .

ومما يتصل بعبادة السلف عند القبائل الغربية ، وجود النار المقدسة عند الهريرو ، حيث لكل أسرة كرول ، فى الجانب الشرقى منه كوخ الزوجة الأولى لرئيس الأسرة . وأمام هذا الكوخ المذبح وبالقرب منه تشتعل دائماً نار السلف أو النار المقدسة . ويهتمون بالمحافظة عليها ليلا ونهاراً ، فيحملونها إلى داخل الكوخ ليلا ، ثم يعيدونها إلى جانب المذبح فى الصباح . وهى دائماً موضع عناية زوجة الزعيم . وبالقرب من هذه النار تذبح الثيران التى تقرب فى الحفلات ، وتبقى جماجمها حول النار ، وربما جلس الرجال عليها .

وبالقرب من المذبح شجرة التين البرية ، التى يرى الهريرو أنها رمز لأرواح السلف . وفى الجزء الشمالى من أوطان الهريرو شجرة تين كبيرة يزعمون أنها مسكن لأرواح السلف ، ولذلك يقدسونها .

وإلى جانب عبادة السلف ، يعتقد البانتو بكائن إلهى ، لم يكن يوماً من البشر . ويختلف تصويرهم لهذا الإله من قبيلة إلى أخرى . وإليه ينسبون الصواعق والمطر والظاهرات الطبيعية عامة . وعند قبيلة تسنجا Tsonga يطلق عليه اسم تيلو Tilo وإذا خاطبوه قالوا « مولاى » وعند الزولو يفرقون بين الإله الخالق واسمه أنكلنكلو Unkulunkulu « الواحد الجليل العظيم » وبين إله آخر يدعى انكوزى ، وهو أشبه بالإله تيلو عند التسنجا . .

وهذه الآلهة المتعددة الأسماء ، عند مختلف القبائل ، قليلة التدخل فى حياة الناس وكذلك قلما تدخل فى عباداتهم .

الفصل الرابع

شعوب البانتو

— ٢ —

المنطقة الغربية للبانتو تمتد من مصب نهر كونيني فى الجنوب إلى مصب نهر ريى Rey فى الشمال فى خليج بيافرا وتشمل الكاميرون، وبلاد الكونغو (ليوبلدفيل) والكونغو برازافيل وجابون وأنجولا وروديسيا الشمالية . والطرف الغربى من موزمبيق . . هذه المساحات الشاسعة ، تشمل أقطاراً فسيحة ، تكتنفها الغابات الكثيفة ، وفى كثير من المواضع فيها تعيش بعض بقايا الأقزام . وهؤلاء الأقزام الذين تكاد أوطانهم اليوم أن تتركز فى الغابات الاستوائية الإفريقية ، لا شك أنهم عاشوا فى هذه الأوطان دهراً طويلا ، وكان فى إقامتهم هذا الزمان الطويل ما يكفل لهم الامتزاج والاختلاط بالزنوج الذين جلهم من البانتو الغربيين ، بل قد لا يكون هناك إسراف إذا قلنا إن الدماء القزمية التى امتصتها الشعبة الزنجية الغربية أكثر من الأقزام الذين احتفظوا بدمائهم نقية صريحة ، ولا بد لمن يدرس السلالات فى إفريقية الزنجية أن يذكر ذلك دائماً وإلا تعذر عليه أن يعلل ما يراه من صفات قزمية واضحة لدى بعض البانتو ، وأخصها القامة القصيرة . ونسبة الرأس العالية . فالأستاذ سلجمان يذكر أن سلالة تتيلا Tetela فى الجزء الجنوبى الأوسط من حوض الكونغو يصل بها متوسط النسبة الرأسية إلى ٨٠ وقد تصل إلى ٨٤ ؛ وفى الجزء الشمالى الأوسط حيث يصب نهر أرويمى فى الكونغو نجد شعب سوكو

Soka تتكرر فيهم هذه الظاهرة ، وهم فوق ذلك قصار القامة . مع أنهم من صميم شعوب البانتو .

أما الصفات القوقازية فإنها موجودة لدى بعض البانتو ، ولكن قلة ما لدينا من الإحصاءات والمقاييس ، لا تمكننا من أن نتحدث عن توزيع هذه الظاهرة ، سوى أن نقرر أنها بصفة عامة أقل مما نجده لدى البانتو الجنوبيين وأقل كثيراً مما نجده لدى البانتو الشرقيين .

ولسنا بحاجة بعد هذا الإيضاح أن نطيل الكلام على الصفات الطبيعية عند البانتو الغربيين ، فهم مثل سائر البانتو شعوب تتوافر فيها الصفات الزنجية ، وفى الحدود السالفة الذكر لا يكاد يختلف فيها شعب عن غيره ، كما أن ظهور الصفات القزمية المشار إليها لا يخضع فى وجوده لأية قاعدة ، ولا يمكن أن يكون تأثيره كبيراً أو واسع الانتشار ، بل هو فى الأرجح مقصور على جهات محدودة . . وعلينا أن نذكر دائماً أن حوض الكونغو هو أقل الجهات الإفريقية التى أتيحت فيها فرص للبحث الأنثروبولوجى الدقيق ، وبخاصة من ناحية الصفات الطبيعية ، كما أنه لا بد من النص أيضاً على أن حوض الكونغو كان مسرحاً لتكوين « إمبراطوريات » ، أى وحدات سياسية تحتل قسماً كبيراً نسبياً من الحوض . وهذه الوحدات السياسية خليقة أن تندمج فيها السلالات والقبائل ، وتزول معظم الفروق .

والذى يبدو من دراسة العادات والطقوس المتباينة فى حوض الكونغو ومنها المتقدم المتطور ، ومنها البدائى العتيق ، أن البانتو لم يكونوا أول من عمر هذا الحوض ، بل سبقتهم جماعات ذات « حضارات » أو ثقافات متعددة .. ولم يتم البدء فى الدراسات العميقة التى ستكشف يوماً عن تاريخ هذه المنطقة الواسعة .

وقد سبق القول بتأسيس دول فى جهات عديدة من الحوض : بعضها فى الجهات الغربية وبعضها فى الجنوب والوسط والشمال . . وفى الجنوب الأوسط

ازدهرت زمناً دولة لندا Lunda ولوبا Luba ولا نعرف عنهـا الشيء الكثير . ومن أهم الدول التي اشتهرت وكانت فى غاية الازدهار دولة الكونغو فى الجزء الغربى من حوض الكونغو ؛ وهذه الدولة قد قامت كغيرها حول قبيلة أو شعب عظيم ، استطاع أن يؤسس الدولة وينظم شئونها ويوسع رقعتها . وعلى الرغم من زوال دولة الكونغو ، فإنها تركت اسماً عظيماً، وذكراً لشعبها، لا يزال له شأنه فى الدولة الحديثة ، وقد كانت رقعتها تشمل الحوض الأدنى من الكونغو ونهر كاساى . وعندما زارها البرتغال فى أواخر القرن الخامس عشر ، وجدوها دولة منظمة تحت إمرة ملك ورث عرشه عن آبائه . . ولا نكاد نعرف شيئاً عن تاريخ هذه الدولة ، وازدهارها وأفول نجمها .

وهناك دولة بقيت إلى عهد الاحتلال البلجيكى ، ولعلها أن تكون صورة لدولة الكونغو الأولى . هذه الدولة هى دولة بوشنجو Bushungo وقد أنشأتها قبيلة عظيمة الخطر وهى قبيلة مبالى Mbale ، وهم الذين أطلقوا على أنفسهم اسم بوشنجو أى رماة الحراب ، ولعلهم رأوا أن هذا الاسم أجدر بشعب كبير يتألف من قبائل مبالى وغيرها .

ألف هؤلاء البوشنجو دولة ذات نظم ثابتة ، وتشتمل على مجلس من الوزراء يشرف عليهم جميعاً الملك . وأهم أعضاء الوزارة رئيسها ، ووزير الحرب، والرؤساء الأربعة للأقسام الأربعة التى تتألف منها الدولة . وفى الوزارة أيضاً امرأتان وكلتاهما ابنة ملك سابق ، ولإحدى هاتين المرأتين مكان رسمى ، وهى فى وقت السلم تلبس حول عنقها وتراً من أوتار القسى ، فإذا حدث ما يدعو لقيام حرب ، فإنها تنزع هذا الوتر من عنقها وتناوله ، فى جد وعزم لوزير الحرب . . وإليها فى النهاية المرجع فى تقرير الحرب والسلم . ومن بعد هؤلاء تجىء طبقات متتالية من ذوى المناصب ، بعضهم فى حاشية الملك ، وبعضهم الممثلون للقبائل وأصحاب الحرف ونحو ذلك . ويقول سلجمان إن من أهم الموظفين ما سماه « مؤرخ الدولة » وهو لا يكون إلا من نسل الملوك

ومقامه فوق مقام سائر الأسرات ، وهو الذى يحفظ تاريخ الدول ويعرف تقاليدها ، ونظمها .

وإذا عقد المجلس الملكى السامى ، فإن الملك يجلس على عرش ومن حوله وزراؤه الستة من الرجال ، والاثنتان من النساء ، وتجلس بجانبه فى مقعد أعلى ، أمه . ومنزلتها تعد أسمى منازل الجميع .

وكثير من الموظفين لهم سلطات قضائية . وهناك أيضاً اثنا عشر قاضياً للبت فى الخصومات ، وعلى الرغم من أن المفروض أن الملك هو الذى يتولى تعيين وزرائه وأعوانه وموظفى الدولة ولكنه فى الواقع لا يخرج — ولعله لا يستطيع أن يخرج — فى تعييناته عن رغبات الهيئات الاستشارية المختلفة .

والواقع أن سلطات الملك فى الشئون عامة محدودة . وسلطاته فوق معظم القبائل سلطان روحى ، فيما عدا قبيلته هو وهى قبيلة مبالا . فإنه رئيسها السياسى والروحى . وبذلك يكون لكل قبيلة وشعبة فى الدولة نصيب وافر من الاستقلال الذاتى . وهذا ما نجده عند كثير من القبائل الإفريقية وهو من أكبر أسباب استقرار الدولة . . على أن الملك برغم ذلك يتمتع بسلطان روحى خطير ، لأن المفروض أنه تتمثل فيه روح مؤسس القبيلة المسمى بومبا Bumpe ، الذى يوصف بأنه الذى يرسل الغيث ، ويجعل الشمس تسطع فى الكون وهو مصدر الخصوبة والبركة . . ولأن الملك هو الذى تسكن فيه روح هذا المؤسس المؤله ، فإنه يلقى من جميع القبائل كل إكرام وتبجيل . ويرى سلجمان أن مقامه الروحى يشابه مقام الريت ملك الشلك .

ويسود الزعم بأن الملك ينحدر من أجداد عددهم مائة وعشرون . وهنالك من يتولى قراءة هذه القائمة الضخمة فى بعض المناسبات . . ومع أن الأسماء الأقدم خرافية على الأرجح فإن سلجمان يرى أن واحداً من الأجداد المتأخرين نسبياً لا بد أنه كان شخصاً ممتازاً واسمه شمباً بلنجنجو Bolongongo وهو بمثابة البطل القومى لشعب بوشنجو ، وينسب إليه القيام بأعمال مجيدة . فهو

الذى نظم الحكومة ، وشجع الفنون والصناعات ، وحاول أن يمنع الحروب بتحريم اتخاذ القسى والسهام . وكذلك المدية التى تستخدم فى الرماية ، وهى من أخص أسلحة البوشنجو . وإلى عهده يرجع انتشار التبغ ، وابتكار زيت النخيل . وزراعة الكسافا (نوع من البطاطا) وفن التطريز . وهو فن يفوق فيه البوشنجو جميع شعوب إفريقية .

إلى الشمال من نهر الكونغو تعيش جماعات أخرى من البانتو فى إقليم جابون ، والقبائل المتحدة التى كونت جمهورية جابون تدعى شعب الفانج Fang . ويقال عن الفانج إنهم نزلوا أوطانهم الحالية من وطنهم الأصلى فى أعالى الكونغو وبحر الغزال . وأنهم لم يزالوا يجوبون الديار حتى حلوا حيث هم الآن . ويقال إن النسبة الرأسية عندهم عالية وهذا مما يؤكد قرابتهم من سكان أعالى الغزال الذين يتميزون بهذه الصفة .

أما بلاد الكاميرون فهى آخر بلاد البانتو الغربيين ، وفيها مزيج من القبائل من بانتو وسودانيين وعدد كبير من الفولا .

* * *

إذا انتقلنا بعد ذلك إلى *منطقة البانتو الشرقيين* ، وجدنا منطقة شديدة التعقيد من الناحية الجنسية ، ولئن كان البانتو مستأثرين ، ومتغلبين فى الأقاليم الجنوبية ، لا يكاد ينافسهم فيها سوى بقايا من بشمن وهوتنتوت ، وأشتات من الأقزام . إنهم هنا فى إفريقية الشرقية فى إقليم تتزاحم فيهالسلالات ، وتتعدد الشعوب . . إقليم واقع تحت تأثير المحيط الهندى وخليج عدن ، وما وراء خليج عدن من الأقطار ، فيصطدم إقليم البانتو بجماعات من الرعاة كثيرة الإغارة والتوغل ، ولا تنفك تتقدم وتغير من منطقة قرن إفريقية وإقليم السفـــانا .

هذا التأثير الأجنبى فى إقليم البانتو الشرقيين ليس بدرجة واحدة ، وهو أشد ما يكون فى منطقة البحيرات وفيما يليها شرقاً من أقاليم السفانا ، والجهات

الشبه الصحراوية . وامتدادها إلى سواحل المحيط الهندى ، أما الجهات الواقعة إلى الجنوب من بحيرة فكتوريا ، ممتدة إلى بحيرة نياسا فهى خالصة للبانتو . ولا تمسها الهجرات الشمالية إلا قليلا بالقرب من سواحل المحيط الهندى من أجل هذه الاختلافات ، التى نصادفها فى أقاليم البانتو الشرقيين ، لقد رئى تقسيم هذه البلاد إلى ثلاثة أقسام :

١ — منطقة البحيرات ، وهى تقع حول بحيرة فكتوريا .

٢ — المنطقة الشرقية ، وهى منفصلة عن منطقة البحيرات ، وتقابلها .

٣ — النصف الجنوبى ، وهو الذى يراه البعض جديراً بأن يكون هو إقليم البانتو الشرقيين حقاً .

إن أهم الاضطرابات البشرية التى تعرض لها هذا الإقليم كله هو إغارات قامت بها جماعات حامية أو شبه حامية أو مختلطة كثيراً بالدم الحامى مثل النيليين . . هذه التيارات عزلت أحياناً جماعات البانتو بعضها عن بعض ، أو اختلطت وامتزجت بها ، من أجل ذلك نرى أستاذاً محققاً مثل باومن Baumanu يفضل أن يطلق عليها اسم البانتو الحاميين[1].

ومنطقة البحيرات التى توصف أحياناً بأنها الوطن الأول للبانتو ، كانت من أكثر الجهات تعرضاً للتوغل الحامى فى أزمنة مختلفة . وهى مع ذلك منطقة شديدة التجانس من الناحية الثقافية ، ومتشابهة فى خصائصها السياسية ، وهى تتألف من عدة شعوب ، متجانسة فى تكوينها إلى درجة بعيدة . وقبل أن نتحدث عن هذه الشعوب ، لا بد لنا أن نشير إلى أن منطقة البحيرة تشتمل على مجموعتين من البانتو : مجموعة صغيرة ومجموعة كبيرة . فأما المجموعة الصغيرة فتتألف من جماعات يعيش كل منها فى عزلة ، معتصماً بأوطانه التى التجأ إليها ، كأنه لا يريد أن يندمج فى الوحدات الكبيرة . وهذه الجماعات المنعزلة لها خصائص فى شكلها تحسن الإشارة إليها . فهى تتمثل فيها الصفات

---

(١) راجع باومن ووسترمن : الترجمة الفرنسية ص ٢١٧ - ١٨ .

الزنجية بصورة قوية كأنها لم تتأثر إطلاقاً بالهجرات الحامية ، وقامتها متوسطة أو دون المتوسطة ، ترتفع فيها النسبة الرأسية فى كثير من الأحيان . . مما يوحى بأن فيها بعض دم الأقزام . وأهم هذه الجماعات :

١ – باجشو Bagishu تعيش فى الأحراج المحيطة بسفوح جبل إلجن Elgon وعددها يقرب من ١٧٥,٠٠٠ نسمة .

٢ – بانيولى Banuli .

٣ – باجوى Bagwi .

٤ – باساميد Bassamid .

وهذه الثلاث قد لا يتجاوز عددها ٢٥,٠٠٠ نسمة وتعيش فى إقليم بداما Budama فى أوغندا .

٥ – باجنبي Bagenyi .

٦ – باليجنى Balegenyi .

وهما أيضاً من سكان إقليم المستنقعات إلى الجنوب من بحيرة كيوجا ولا يتجاوز عدد السكان ٣٠,٠٠٠ .

٧ – باكنجو Baconjo ويعيشون على منحدرات جبـــال ونزورى ويبلغ عددهم نحو ٢٥,٠٠٠ .

وإلى جانب أوطانهم المنعزلة تتميز هذه الجماعات بأن لغاتها البنتوئية فيها عناصر بدائية فى نظر علماء اللغات ، كأنها لعزلتها وانقطاع السكان عن التيارات والتعامل ، لم يدركها نصيب من التطور .

هذه أهم المجموعات الصغيرة ، التى تعيش فى الأركان المنعزلة فى هضبة البحـــيرات .

أما الأقسام الكبيرة فإنها تكون وحدات سياسية كبيرة ، ذات صفات متشابهة وإن كان بعضها أكثر تطوراً من البعض . . وتشمل بلاد الباجنده ،

وبانيورو ، وبانيانكولى وباتورو وكراجوى وباسوجا ، أى أنها تحتل الجزء الرئيسى من هضبة البحيرات .

تمتاز هذه الشعوب كلها بظاهرة خاصة ألا وهى وجود عنصر حامى ، يكون جزءاً هاماً من السكان . وله اسم خاص يتميز به . هذا العنصر هو « الهما » (بضم الهاء أو كسرها) . ولا ندرى يقيناً هل كان دخول الهما فى هذه الديار دخولا سلمياً أم غزواً منظماً . ولا شك أن دخوله كان حادثاً غير قديم . ومن الجائز أن هذه ظاهرة تتجدد من آن لآن . ويتكلم الهما بلغة البانتو ، فهل هذه لغتهم التى جاءوا بها أم تراهم نبذوا لغتهم الأصلية لكى يتعلموا لغة البلاد التى نزلوها ، بل لعلهم أن يكونوا فتحوها .

تمتاز الهما مظهراً بقامتهم الطويلة ، وتقاطيعهم القوقازية ، فالأنف ضيق والشفاه معتدلة ، ولا بروز فى الفك،والعنق طويل ، والأطراف متناسبة . واللون أسمر من غير إفراط . والشعر مجعد جداً إن لم يكن مفلفلا ، لأن الغزاة من دأبهم أن يتزوجوا من نساء البلاد المغزوة . وهذا فى شعب يميل لتعدد الزوجات سيؤدى حتما إلى الاختلاط ، وأحق الصفات الجسدية بالظهور على مدى السنين صفة الشعر الزنجى ، تلك الصفة التى ثبت أنها من الصفات الغالية dominant فى الاصطلاح المندلى .

ولكن حالة الهما ليست واحدة فى « الممالك » التى أشرنا إليها . فإن الباجندة وهم شعب من الزراع المستقرين ونشاطهم يتطلب الأيدى العاملة ، وهم لذلك سرعان ما يمتصون العناصر الوافدة عليهم ، لا نجد هناك تميزاً بين الهما وغير الهما ، بل قد اندمج الهما فى السكان اندماجاً تاماً فلا تستطيع أن تميز بعضهم عن بعض ، والصفات القوقازية التى دخلت البلاد قد انسابت وسط بحر خضم من الدم الزنجى . ويعيش بين الباجنده اليوم بعض الهما حيث يشتغلون برعى الماشية لأصحابها . ولكن هؤلاء جاءوا حديثاً بوصفهم أجراء لمهارتهم فى تربية الماشية ودرايتهم بشئونها . أما الباجندة بعامة فلا تستطيع أن تميز بينهم باهما من غيرهم .

ولكن الحال بخلاف ذلك عند البانيورو حيث لا يزال الباهما هم طبقة الحكام ، ولهم النفوذ الواضح فى البلاد . ولا يزالون يحتفظون بتقاليدهم العسكرية . وهم الذين يتولون رعى الماشية ويتركون الشعب ، ويدعونه إرو Iru ، مهمة الزراعة الشاقة غير المحببة إلى نفوسهم . ولا يخلو الأمر من بعض الاختلاط بين الطبقات ؛ ولكن طائفة الهما لا تزال متميزة .

وإذا اتجهنا جنوباً نرى « ممالك » أخرى مثل تورو وانكولى وكراجوى وفى هذه الأقطار نرى التميز واضحاً ، ونرى أن الهما هم طبقة « السادة » والإرو ليسوا عبيداً بالمعنى المألوف ، ولكنهم بمثابة الخدم أو طبقة العامة ، لا يجوز لهم اقتناء الماشية ، بل يمارسون حرفة الزراعة ، ويوفرون لطبقة السادة ما يحتاجونه من غلات الأرض . ولن يكون هناك بالطبع زواج بين امرأة من الهما ورجل من العامة . . ولكن رجل الهما يستطيع أن يتزوج بأى عدد شاء ومن أى جنس شاء . وربما قصرت المرأة من الهما فى إنجاب الذرية ؛ بينما ابنة الزنج ولود كثيرة النسل . والغزاة الوافدون من أقطار بعيدة تكون نسبة الرجال فيهم كبيرة ، ونسبة النساء قليلة ، لذلك لا يلبث الغزاة القوقازيون مثل الهما أن يستوعبوا مقداراً من الدم الزنجى يتزايد على مدى الزمن . . وبمضى القرون تزول الفروق فلا يبقى إلا آثارها .

ومما يدل على أن نزول الهما فى أوطانهم الحالية شىء حديث نسبياً (لا يزيد على بضع مئات من السنين) أن المجتمع لا تزال تظهر فيه الفروق بين السكان الأصليين وبين الغزاة الوافدين :

ولا تزال تروى فى منطقة البحيرات قصة رجل أبيض الوجه يدعى كنتو Kinfu ، وفد على البلاد منذ زمن ومعه أتباعه وأنصاره وكلهم من البيض ، ذوى الوجوه السمحة الكريمة ، والأخلاق والشيم العالية ، جاءوا مسالمين وأدخلوا فى البلاد تربية الماشية وزراعة اليام والبطاطا،وغير ذلك من الخيرات وعلّموا الناس الحضارة والمدنية ، وهدوهم إلى سبيل الرشاد . وظلوا

مقيمين بين الناس فى بونيورو وبوجنده وبوسوغا الخ ينشرون بينهم العدل والأمن ، إلى أن فسدت طائفة من هذه الطوائف . فإذا كان راوى القصة من الباجنده ، فيكون الشر مصدره بونيورو . وهلم جرا . . ومهما يكن من أمر فقــد عجز كنتو وصحبه عن مقــاومة الشر ، وضاقوا به ذرعاً ، ورحلوا عن البلاد متجهين إلى الجنوب . . . واستقر بهم المطاف فى الجهات الجنوبية ، ولا ندرى هل نزلوا رواندا أم برندى أم دياراً أبعد إلى الجنوب . كل ما نعلمه أن بعض الرواة زعموا أنهم رأوهم فى الجنوب وسط الغابات ، وقد كللهم الشيب ، والناس من حولهم يمجلونهم ويصدعون بأمرهم ، وقد توافرت الخيرات وانتشرت البركات ، إلى أن شجر الخلاف وعم الشر مرة أخرى ، وأخذ الناس يقتتلون فلم يسع أهل كنتو إلا أن يرحلوا . ولم يعثر لهم بعد ذلك على أثر .

ويرى سلجمان فى هذه القصة دليلا على هجرة حامية نشرت نفوذها فى منطقة البحيرات وأدخلت كثيراً من عناصر الحضارة . ولهذا نرى فى البلاد مزيجاً من مظاهر التقدم جنباً إلى جنب مع مظاهر الوحشية والهمجية . ويضرب لذلك مثلا عند الباجندا حيث يرى من جهة كيف كان يذبح المئات من الناس بعد وفاة الملك لكى يدفنوا معه ويصاحبوه فى العالم الآخر ؛ ومن جهة أخرى نرى نظاماً سياسياً مستتباً على رأسه الملك (ويدعى كبكا) ومجلس الدولة ويسمى لوكيكو ، ومن أهم أعضائه رئيس الوزراء (كاتيكورو) ووزير العدل . . وممثل لكل مديرية من مديريات المملكة .

ولا شك أن أرقى الممالك التى تخلفت عن هجرة الهما هى مملكة بوجنده التى غلب اسمها على حماية يوجنده فى العهد البريطانى ؛ كما أصبح اسمها هو الغالب فى الجمهورية الفيدرالية الحديثة ، التى لم يكن بد من أن يكون رئيسها هو الكبكا زعيم الباجنده . . امتاز شعب الباجنده ، بأنه شعب زراعى ناجح فى مشروعاته الزراعية . والمساكن عنده كبيرة وليست مجرد أكواخ صغيرة كما هى الحال فى الجهات المدارية ، ويظهرون كثيراً من الحشمة فى ملابسهم

التى تكسو الجسم من الرأس إلى القدم . ولهم براعة فى الحرف المختلفة ، ويحسنون الأعمال الزراعية ، ولا يهتمون كثيراً بالماشية ويستأجرون لرعيها أجراء من الهما من الأقطار المجاورة :

وليس فى مجتمعهم طبقات ، وعلى الرغم من أن بعض الأسر قد ينتمى إلى الهما ، فإن هذا ليس له أهمية اجتماعية ، فهم شعب مندمج خال من أى امتياز طبقى . . ومن الجائز أن السبب فى هذا أن الهما كانوا قليلين لأن البيئة لا تلائم حياة الرعى ، أو أن الباجنده كانوا كثيرى العدد جداً بالنسبة للوافدين من الهما فسهل اندماج العناصر بعضها فى بعض .

وليس للهما لغة خاصة ، بل يتكلمون لغة البلاد التى يعيشون فيها ، أى يتكلمون إحدى لغات البانتو ، وبالطبع لا ندرى أهم الذين أتوا بهذه اللغة ، أم وجدوها فى البلاد فتعلموها من سكانها ، أم انها لغات جاءت بها هجرات أقدم . إن كل هذا مرتبط بنشأة ومصدر لغات البانتو . وهى المشكلة التى سبقت الإشارة إليها .

* هذه المجموعات من شعوب البانتو المجاورة لبحيرة فكتوريا أطلق عليها اسم شعبة البحيرات Lacustrine وإلى جانب الشعوب التى تقدم ذكرها يمكننا أن نضيف إليها رواندا وبرندى فى أعالى نهر كاجيرا وإلى الجنوب الغربى من فكتوريا ، وكذلك نياموىزى إلى الجنوب منها . . . وتمتاز رواندا وبرندى بأن المجتمع هناك يتألف من سلالتين : الأولى سلالة توتسى Tutsi وسلالة هوتو Hutu ، وهذا واضح بوجه خاص فى رواندا حيث كان التتسى يكونون الأرستقراطية التى تحكم البلاد وتهيمن على شئونها وهى لا تتجاوز ١٠٪ . والهوتو هم سواد الشعب ويمثلون نحو ٨٥٪ من السكان ، والأولون هم أصحاب الماشية . ويمتازون بالقامة الطويلة وتقاطيع زنجية ملطفة ، وأما الهوتو فهم من الزنوج الخلّص . وهم أهل البلاد الأصليون . أما الباتتسى فهم حديثو الهجرة نسبياً . وقد سادت البلاد الاضطرابات حديثاً

مع الحركة الاستقلالية ، وثارت العامة على الخاصة وألحقوا بهم أشد الأذى ، وشردوهم فى البلاد وفى الأقطار المجاورة .

* * *

إذا اتجهنا من بحيرة فكتوريا شرقاً ، لا نجد من جماعات البانتو إلا القليل ، لأن هذا الإقليم الأوسط بين البحيرة والمحيط الهندى قد نزله كثير من السلالات أحدث هجرة : مثل سلالة لوو Luo وهم من النيليين ، وسلالات أخرى من النيليين الحاميين . فحال وجودها دون امتداد البانتو إلى الشرق من فكتوريا ، إلا فى أقصى الشرق حيث نلتقى مرة أخرى بشعوب من البانتو أشهرها بلا شك كيكويو Kikuyu وكامبا Kamba . وهما — على الرغم من تأثرهما ببعض السلالات النيلية الحامية — فإنهما من صميم البانتو ، ويطلق على مجموعتهم الشعبة الشمالية الشرقية .

والكامبا من أكبر القبائل فى شرق إفريقية يعيشون على المنحدرات الشرقية من أفريقية الشرقية ما بين أعالى نهر تانا وسكة حديد يوجنده ، يجاورهم الكيكويو من الغرب والشمال الغربى . ومن الجنوب جماعات النيليين الحاميين ، الذين لا يبادلونهم حباً كثيراً . وتسود بين الكامبا النسبة الرأسية الأقل من المتوسط (٧٦) والقامة ١٦٥ سم . وينقسمون إلى عدد من العشائر الطوطمية تنتسب كل عشيرة إلى جدها المزعوم أو إلى الطوطم الذى اتخذته شعاراً . وتسود بينهم فكرة أن كل عشيرة تشابه طوطمها فى طباعه ، فإذا كان طوطمها الأسد اشتهرت بالشجاعة وإذا كان شعارها الضبع غلب عليها الجشع وهلم جرا . وشئون الحكم فى أيدى مجلس من الشيوخ . وسلطانه مقصور على إقليم محدود ، وليس هنالك سلطة عامة على البلاد كلها .

والأفراد مقسمون إلى مجموعات بحسب السن . والشيوخ الذين لهم حق الاشتراك فى المجلس وتصريف شئون العشيرة هم الذين تجاوزوا الأربعين .

ولرجل الطب مكان محترم . فهو يمارس الكهانة ، إلى جانب المعالجة ،

وربما تنبأ بما سيجرى ، ويرجع إلى رأيه فى الشئون الهامة ، وله حق التوجيه فى الطقوس الدينية والتضحية لأرواح السلف .

وقد كان الكامبا فيما مضى عراة ، واليوم يلبسون ما يشبه البطاطين رجالاً ونساء من صنع أوربا ، وأهم أسلحتهم القوس والسهم المسمم والخنجر ، ولم يتخذوا الرمح ولا الترس فى حروبهم ، وقد تعلموا بالطبع مثل غيرهم استخدام الأسلحة النارية .

والكامبا زراعيون ، وتقوم النساء بمعظم العمل الزراعى ، ويستخدمن فى خدمة الأرض فأساً من الخشب وعصا . . ولا يتخذن أبداً أدوات من الحديد لكيلا يحول ذلك دون سقوط المطر ولهم ماشية وضأن وماعز يرعاها الفتيان والشباب . ولكن الحلب تتولاه النساء . والكامبا مثل الماساى يحبون الدم ويستخرجونه من الدابة الحية كما يفعل الماساى على النحو الذى سنشرحه فى الفصل التالى .

ودينهم الأصلى يشمل الإيمان بإله خالق أعلى اسمه مولنجو Mulungo مسكنه فى السماء ، وقلما يذكرونه فى عباداتهم ، أو يقربون إليه ، ويقولون حسب ما رواه سلجمان : « إذا كان لا يؤذينا ولا يفعل بنا شراً فلماذا نقرب إليه القرابين ؟ » أما الذين يذكرون دائماً فى كل يوم فى كل مأدبة فى منزل أو وليمة تحييها العشيرة فهم السلف .

* * *

والكيكويو يشابهون الكامبا . ويقولون إنهم أتوا من ديار الأمبا الواقعة جنوب أوطانهم الحالية ، ونزلوا المنطقة المرتفعة التى يعيشون فيها . فوجدوا فيها أناساً يعيشون من الصيد لعلهم من أجداد سلالة واندروبو التى سيجىء ذكرها فى الفصل التالى .

ويشتغل الكيكويو بالزراعة ، وتربة البلاد خصبة وأهم غلاتهم الذرة . ويزرعون أيضاً أنواعاً من البطاطا والموز والفاصوليا وقصب السكر . وعلى

الرغم من أن عددهم يقرب من المليون نفس فإنهم مقسمون إلى عشائر أبوية. ولم يسبق لهم أن اتحدوا وكونوا دولة أو كان لهم رئيس أو زعيم له السلطان الكامل على القبيلة كلها. ومع ذلك فالى الكيكويو يرجع الفضل فى إنشاء جمعية الماو ماو التى دوخت الاستعمار البريطانى. وأمكن لهذه الجمعية أن تخلق تعاوناً بينها وبين سلالات أخرى فى كينيا، وإلى جهودها يرجع الفضل الأول فى نيل كينيا استقلالها.

والكيكويو يقتنون أيضاً كثيراً من الماشية، وهى مقياس الثروة فى الأوساط الريفية، ولهم أيضاً كثير من الضأن والماعز، وقبل انتشار التعامل النقدى كانت المعزة وحدة التعامل، بحيث تساوى البقرة ١٣ رأساً من الماعز. وترعى الماشية على حافة المزارع، وتأوى بالليل فى حظائر خاصة، ولكل زوجة عدد من الماعز والضأن، وهى تؤويها فى كوخها.

وللكيكويو – فى ديانتهم الأصلية – معبود يدعى «نعجاى» أخذوه عن الماساى. ومقره فى أماكن متعددة أهمها جبل كينيا، وكذلك بعض أشجار التين البرى، التى تعد شجرة مقدسة، وعندها تقدم القرابين بوساطة كبار القوم، وهذا الإله يستمع للدعوات ويستجيب لها. أما العلل والأمراض فتنسب عادة للسلف، ووظيفة رجل الطب أن يبين للناس رغبات السلف، وما يجب عمله لاسترضائها، ومن أجل ذلك كان لرجل الطب سلطان ونفوذ.

والميت تترك جثته فى العراء فى الأرض البور، أو تترك فى الكوخ فريسة للضباع. ولا يكون الدفن إلا للشيوخ وذوى الثراء. وفى هذه الحال يقوم أبناء الميت بحفر القبر قريباً من الكوخ، حيث تدفن الجثة مضطجعة بحيث يكون الرأس متجهاً نحو الغرب. بعد ذلك يهدم الكوخ فوق القبر.

ومن العادات الغريبة عند الكيكويو الولادة الرمزية للمرة الثانية، ولابد للصبية من الذكور والإناث أن يتعرضوا لهذه التجربة : فى السنة العاشرة من العمر؛ وهى تشتمل على مظاهر الولادة، كأنه تمثيل (ناقص بالطبع)

لما حدث للطفل عندما ولد ولادته الأولى ، ولا يجوز للأطفال أن تختن أو ترث ، أو تشترك فى الحفلات العامة ، إلا بعد هذه الولادة الثانية ، وإذا كانت أم الطفل ميتة جاز أن تحل محلها امرأة أخرى وهى تعتبر فيما بعد « أم البنت »[1] .

* * *

إذا اتجهنا جنوباً من بلاد الكامبا ، ألفينا أمامنا شعب تشاجا الذى يعيش إلى جوار منحدرات كليمانجاور عند الحدود الشمالية لتجانيقا (تنزانيا) . ويزعم التشاجا أن سلالتهم أسسها رجل مهاجر من كامبا ، منذ بضع مئات من السنين . وهم زراع ، ولهم براعة فى رى أرضهم حين يعوزها المطر . . وليست لهم قرى ، بل يتخذ كل رجل داره فى وسط مزرعة الموز . والزعامة وراثية يرثها الابن الأكبر للزوجة الكبرى . . وهنالك نوعان من المساكن : الطراز المخروطى الشكل المعروف ، والنوع المستطيل الذى يتخذه الماساى والختان منتشر فى كلا الجنسين كما هى الحالة عند الكيكويو والكامبا ، والأولاد لا يجوز ختانهم إلا حين يبلغ أحد أبناء الزعماء سن الختان . وفى هذا الوقت تقام حفلة ختان عامة . . وهذا يعتبر حادثاً خطيراً فى تاريخ القبيلة . والمجموعة التى ختنت معاً تمثل زمرة أو عصابة تعمل معاً إذا كان هناك مجهود حربى . وتكون طبقة حربية واحدة .

والإله الأعلى عند التشاجا يسمى رعا أو روا ، وليس من الضرورى أن يكون له صلة بالإله رع عند قدماء المصريين ، على الرغم من أن الكلمة معناها الشمس عند التشاجا . وعندهم أنه لا يشغل نفسه بشئونهم كثيراً،ولذلك فإن أكثر احتفالهم بأرواح مؤسسى القبيلة .

وهناك قبائل عديدة صغيرة فى المجموعة الشرقية للبانتو ، ولكن يهمنا أن نخص منها بالذكر الشعب السواحلى ، وهذا الشعب كما يدل عليه اسمه

(١) معظم معلوماتنا عن الكيكويو مشتقة من الرسالة التى كتبها جوموكنياتا فى انجلترا وعنوانها ، Facing Mount Kenya .

يعيش فى المنطقة الساحلية الممتدة إلى نحو ٥٠٠ ميل ما بين نهر تانا شمالا ومصب نهر روفوما جنوباً ، حيث الحدود السياسية بين تنجانيقا وموزمبيق . هذا أهم جزء فى أقطار البانتو تعرض للهجرات العربية وللنشاط العربى ، كما تعرض أيضاً لهجرة بعض سكان إقليم فارس من منطقة شيراز ، ولذلك كثيراً ما يطلق عليهم اسم الشيرازيين . وقد كان فى الإقليم أيضاً مجال لهجرات من الهند ، وأكثرها من الجهات التى يطلق عليها اليوم اسم باكستان . لكن لا شك أن الأثر العربى كان أطول وأعمق ، ويرجع إلى القرن الثامن الميلادى . وهو يمثل تجارة وانتقالات ثقافية واجتماعية ، مصدرها السواحل العربية من عمان إلى عدن . . وقد نشأت دول فى هـــذا الإقليم ، وكان آخرها دولة زنجبار ، التى اندمجت الآن فى تنجانيقا وأصبحت الدولة تدعى تنزانيا .

وبقطع النظر عن المؤثرات الدينية والاقتصادية التى جاءت نتيجة للهجرات العربية ، كان أوضح أثر تركه هذا الاتصال المستمر هو نشوء وتكوين لغة «السواحلى» ، التى أصبحت هى لغة التعامل فى شرق أفريقيا لا فى الإقليم الساحلى فقط ، بل تمتد كما يقول سلجمان من الكونغو غرباً إلى جزر كومورو شرقاً (إلى الشمال الغربى من مدغشقر) . . . وهكذا استطاع الاتصال العربى أن يوجد أداة لغوية واسعة الانتشار فى النصف الشرقى من القارة وتسهل التعامل والتفاهم بين أبنائها؛ من أجل ذلك لم تتردد حكومة تنجانيقا الحديثة عندما استقلت بشئونها أن تجعل لغتها الرسمية هى لغة السواحلى.

هذا اللسان السواحلى : فى أصله لغة من لغات البانتو . ويظن أنه مبنى على أصول لغة قبيلة جرياما Giryama . وهى تعيش إلى الشمال من ممباسا وليس بمستبعد أن يكون الاتصال الأول بالمهاجرين العرب تم فى هذا الإقليم . ثم أخذ ينتشر تدريجياً فى كل اتجاه . ونظراً لأهمية لغة السواحلى قد ألفت فيها الكتب وعملت لها معاجم ، واضطر المستعمرون لاستعمالها فى كثير من الأغراض . وهى من أهم اللغات التى تدرس فى المعاهد المخصصة للدراسات الأفريقيـــة .

ولغة السواحلى إذن عبارة عن لغة من لغات البانتو ، لكنها تشتمل على نسبة عالية جداً من الألفاظ والعبارات العربية . ولا شك أنها تكونت فى بيئة مختلطة تتكون من عرب وبانتو وإلا لما سميت بهذا الاسم العربى الصريح ؛ والظاهر أنها لغة مرنة لأنها تشتمل أيضاً على ألفاظ من بعض اللغات الأوربية (البرتغالية بوجه خاص) والحامية .

وليس المهم فى هذا ما للاتصال العربى من الأثر فى ألفاظ اللغة وعباراتها ، ولكن المهم أن الاتصال بالعرب قد أكسب الإقليم لغة قومية ، لها خطرها فى المقومات السياسية والاجتماعية . الأمر الذى يفتقر إليه كثير من الوحدات الأفريقية الحديثة التى اضطرتها ظروفها لأن تعتمد على اللغة الفرنسية أو الإنجليزية أو البرتغالية .

ولا بد أن يكون من نتائج هذا التأثير العربى بعض الانتشار للدماء العربية ، ممتزجة فى الأغلب بدماء البانتو . ومع ذلك فإن فى البلاد عدداً ليس بالقليل من العرب الصرحاء . وهم على الأرجح حديثو الهجرة ، ومتمسكون بمظاهر وتقاليد الحياة العربية ، أما سائر السكان فمن المنتظر أن يكون هناك تنوع كثير فى الصفات الطبيعية ، سواء فى لون البشرة أو طول القامة أو مقدار ونوع الشعر ، ونحو ذلك . كذلك لا بد أنه ستكون هنالك اختلافات فى مظاهر الحضارة ، مثل أنواع المساكن والأدوات المنزلية ، والحرف والصناعات والملابس والحلى ؟

وهكذا نرى أننا فى متابعتنا لتوزيع البانتو ، قد انتهينا فى الأطراف الشرقية إلى إقليم يبدو فيه تأثير السلالات القوقازية بصورة قوية . . وفى الفصول التالية سنرى أمثلة أخرى لهذه الظاهرة .

الفصل الخامس

النيليون الحاميون

— ١ —

لقد رأينا ونحن ندرس توزيع البانتو فى شرق إفريقية ظاهرة لفتت نظرنا، وهى أن توزيع البانتو إلى الشرق من بحيرة فكتوريا ليس مطرداً ، وأن هناك سلالات مختلفة تقطع استمرار التوزيع فى سياق مطرد ، كأن كتلة بشرية اندفعت كالإسفين فى وسط الإقليم ، واحتلت الجهات الوسطى التى كان من قبل يحتلها البانتو ؛ إذ لا يكاد أن يكون هناك شك أن البانتو كانوا من قبل يحتلون هذا الإقليم الأوسط ، وكان توزيعهم مطرداً من منطقة البحيرات الاستوائية إلى المحيط الهندى . ولا يمكن تفسير التوزيع الحالى للبانتو وغير البانتو فى شرق إفريقية إلا على اعتبار أن عناصر متأخرة فى الزمن ، اكتسحت الإقليم الأوسط ، تاركة البانتو عند مصب نهر تانا ، والجهات التى تليه جنوباً منفصلين عن أقاربهم حول بحيرة فكتوريا . .

هذه العناصر المتدخلة فى إقليم البانتو الشرقيين ، هم أول ما نصادفه فى طريقنا من الجنوب إلى الشمال من سلالات من طراز جديد ، يشتمل على نسبة كبيرة نوعاً من الدم الحامى . . وهذه الظاهرة التى نقابلها عند العرض السادس جنوب خط الاستواء تزداد بعد ذلك ظهوراً إلى أن تصل إلى أعالى النيل وبحر الجبل .

لا شك أن هذه العناصر كانت خطة سيرها بصفة عامة من الشمال نحو الجنوب سواء أكانت تحركاتها سلمية أم حربية ، (والثانى أرجح) . وإذا

كان امتدادها إلى الجنوب قد أبلغها إلى خط العرض السادس . فإننا نجدها فى الشمال قد تجاوزت أوطانها الخط السادس الشمالى ، وليس معنى هذا أنها تحركت من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب فى اتجاه مطرد . . بل إن منطقة انبعاثها كانت فى الغالب فى منطقة قريبة من الوطن الحامى الكبير فى قرن إفريقيـــة .

هذه هى السلالات التى جرت العــادة بتسميتها النيليـــة الحامية Nilo-Hamites . وقد كانت تدعى من قبل أنصـــاف الحاميين Half-Hamites . وقد اقترحت أسماء أخرى . ولكن استقر الرأى — ولو بصفة مؤقتة — على تسميتها سلالات النيليين الحاميين ، ولا بد أن نخص هذه السلالات بالدراسة لأن لها كيانها المستقل ولها خصائص ثقافية انفردت بها .

وعندما سميت هذه السلالات بأنصاف الحاميين كان الباعث على ذلك أن الدراسات الأولى أوهمت الكتاب أن هذه الجماعات تشتمل على نسبة عالية من الدم القوقازى . ثم تبين أن وصف تلك النسبة وتحديدها بالنصف فيه مبالغة فى حالة بعض السلالات ؛ التى وجد أنها تشتمل على كثير من الدم الزنجى ، ولذلك فضلوا اسم النيليين الحاميين .

ومع ذلك فإنه لا شك أن هذه المجموعة من الشعوب تشتمل على شىء كثير من الدم القوقازى وصفاتها الطبيعية لا تدع مجالا للشك فى ذلك على الرغم من أن هذه الصفات القوقازية تتفاوت من شعب إلى شعب . كذلك ليس من السهل أن تتبين السبل التى سلكتها تلك الهجرات ، ولا كيف حدث الاختلاط الذى أدى إلى تكوين السلالات النيلية الحامية ؛ ولا المكان الذى حدث فيه هذا الاختلاط . وكل ما يقال فى هذا الأمر مداره على الظن والترجيح ، لا على اليقين والتأكيد . وإذا جاز أن يدلى المرء برأى ، فلعل الأرجح أنه كانت هنالك منطقة تكوين : لكل من النيليين الحاميين من جهة وللنيليين (Nilotes) من جهة أخرى . والمنطقتان منفصلتان ، ولكن غير

متباعدتين ؛ ومع أن ظروف تكوين النيليين الحاميين ، والنيليين متشابهة ، غير أن بينهما من الاختلاف فى اللغات والثقافة ، ما يؤكد أن الوطن الأصلى لكل منهما كان منفصلا ، وإن لم يكن بعيداً ، عن الآخر .

كذلك لم تكن تلك الأوطان فى الأرجح بعيدة عن أوطان الحاميين ، كما نعرفها اليوم . وهذه الأوطان الحامية تحتل منطقة واسعة جنوب الهضبة الحبشية وتشمل جميع الأراضى التى يطلق عليها اسم قرن أفريقيا . وهذه الأقطار لا تزال يعمرها شعوب حامية عديدة أهمها الجلا والسومال والسيداما .

ونستطيع أن نؤكد بناء على بحوث بعض العلماء أن هذه الجهات قد تأثرت بالجفاف ، وقلت مواردها المائية فى نهاية ما يسمى العصر المطير ، المقابل للعصر الجليدى فى غرب أوروبا. إن ظاهرة نقص المطر كان لها أثرها فى جزيرة العرب ، فى دفع الهجرات إلى أطراف الجزيرة . وكذلك يجوز لنا أن نتصور ظاهرة مماثلة تم على دفعات . فى شرق أفريقية ، تؤدى إلى انتقال رعاة من القوقازيين ، إلى أوطان جديدة ، لعلها أول الأمر كانت حول بحيرة رودلف . . . حيث وجدت سلالات أخرى امتزجت بها . . ولا بد أن تتابعت هذه الموجات والهجرات ، على مدى العصور الحديثة .

وإذا كان هناك اختلاف فى الصفات الطبيعية بين شعوب النيليين الحاميين ، فإن مرد هذا إلى اختلاف الأوطان التى نزلها كل منهم ، والسلالة التى كانت تسكن تلك الأوطان ، والتى كانت تختلف فى العدد والصفات والثقافة . وهذه السلالات التى اختلط بها الحاميون هى فى الأرجح سلالات زنجية ، ولا شك أن درجة الاختلاط كانت مختلفة من مكان إلى مكان ، كما سنرى ذلك عندما نعرض لبعض الشعوب النيلية الحامية .

ومواطن النيليين الحاميين اليوم تشمل الجزء الجنوبى الشرقى من السودان ، والجزء الشرقى من أوغندا والغربى من كينيا ، والشمالى من تنجانيقا . . وجرى

العرف بتقسيم هؤلاء النيليين الحاميين إلى ثلاثة أقسام : وهو تقسيم أقرب إلى أن يكون تقسيما عرفياً :

١ – المجموعة الشمالية : تشمل الشعوب التي تعيش فى السودان الجنوبى الشرقى ، وحدها الجنوبى هو الحد السياسى بين أوغندا والسودان :

٢ – المجموعة الوسطى وتمتد – على وجه التقريب – ما بين بحيرة كيوجا غرباً إلى بحيرة رودلف شرقاً ، وتشمل الركن الشمالى الشرقى من أوغندا والشمالى الغربى من كينيا .

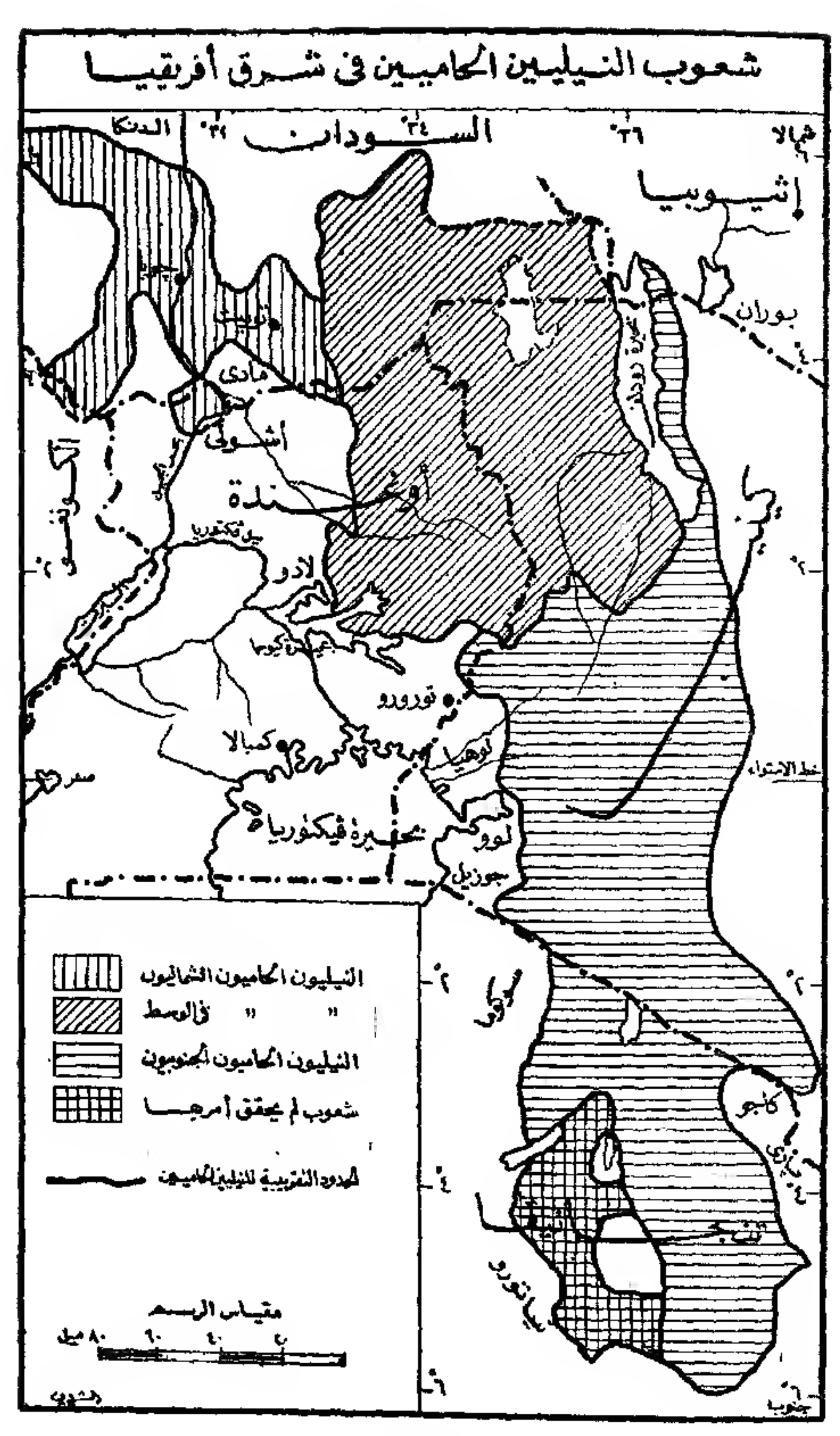
٣ – المجموعة الجنوبية تشمل الجزء الغربى من كينيا ، وتمتد إلى الجزء الشمالى من تنجانيقا . وهذا هو الجزء الذى يحف به البانتو من الشرق ومن الغرب .

وهذه الأقسام كلها تكون مساحة واسعة متصلة أجزاؤها بعضها ببعض . والمجموعة الأولى تمتد من خط عرض ٦ إلى ٣,٣٠ وتشتمل على شعب البارى فى جنوب السودان ، وبعض وحدات تتصل به ثقافياً وتاريخياً ، وواقعة على الناحية الغربية من النيل ، وإلى الشرق من البارى نجد شعوب لولوبا Luluba ولوكويا ثم اللاتوكو والقبائل المندمجة فيها ، وفى أقصى الجنوب الشرقى من السودان شعب التبوسا Toposa والديدنجا ، وكلاهما من القبائل التى هاجرت من أوغندا .

أما المجموعة الوسطى فتمثل كما رأينا معظم الإقليم الشمالى الشرقى من أوغندا ، وهى جهات يغلب عليها الجفاف فى معظمها ، وأهم الشعوب فيها لانجو[1] إلى الجنوب من نهر أسوا . وتنزو إلى الشمال من بحيرة كيوجا وإلى الشمال الشرقى منهم تعيش قبائل كاراموجنج Karamojong وجى Jie ولبوار ودودس Dodos ، وعند بحيرة رودلف شعب تركانا Turkana

---

(١) أصبح شعب لانجو لشدة اختلاطه بالنيليين يتكلم لغة المجموعة الشلكاوية . ولذلك التبس أمره على بعض الكتاب . وهو فى الحقيقة شعب نيلى حامى .



شعوب النيليين الحاميين في شرق أفريقيا
السودان
الدنكا
شمالا
إثيوبيا
بوران
مادي
أشولي
أوغندة
لادو
تورورو
كمبالا
لوهيا
بحيرة فيكتوريا
لوو
خط الاستواء
النيليون الحاميون الشماليون
" " الوسط
النيليون الحاميون الجنوبيون
شعوب لم يحقق أمرها
الحدود التقريبية للنيليين الحاميين
مقياس الرسم
٨٠ ميل ٦٠ ٤٠ ٢٠
جنوبا

(شكل رقم ٦)

والمجموعة الجنوبية تشتمل على شعب ناندى Nandi الذى يعيش فى المرتفعات الغربية لكينيا ، يليه إلى الشرق شعب الماساى الذى ينتشر بعد ذلك جنوباً إلى بلاد تنجانيقا (تنزانيا) وإلى آخر امتداد جنوبى للنيليين الحاميين عند خط العرض السادس جنوب خط الاستواء .

ويعيش إلى جانب النيليين الحاميين فى أوطانهم تلك مجموعات من الصيادين . فعند الشماليين بقايا سلالة تحترف الصيد تدعى « ليجو » Ligo وفى القسم الأوسط بالقرب من أوطان شعب دودس فى الشمال الشرقى من أوغندا جماعة تدعو تيسو Teuso ، وفى القسم الجنوبى فى أوطان الماساى يعيش جماعات الدروبو Drobo .

والجماعات النيلية الحامية كانت أصلا كلها شعوباً تحترف الرعى . ولا يزال للرعى مكانته الخطيرة فى حياتهم ، وإن انصرف اليوم أكثرهم لممارسة الزراعة بدرجات متفاوتة . وقد سبقت الإشارة أن وحدة هذه الجماعات من الناحية الأتنوغرافية تستند إلى أساس لغوى فإن هناك خصائص مشتركة سواء من ناحية معانى الكلمات أو من ناحية بنية اللغة ، وهى خصائص تميز هذه اللغات عن باقى وحدات الأسرة اللغوية الكبيرة التى ينتمى إليها سواهم من النيليين وغيرهم[1].

وهكذا نرى أن هناك عناصر ثلاثة تقرب بين هذه الشعوب ، أولها وحدة الأوطان واتصالها ببعضها البعض ، والثانى : الاهتمام برعى الماشية وبخاصة البقر ، والثالث : الوحدة اللغوية .

فإذا نظرنا إلى عناصر ثقافية أو اجتماعية أخرى ، فإننا نجد مظاهر الاختلاف تعادل مظاهر الاتفاق فعادة الختان مثلا منتشرة عند الجنوبيين وفى الوسط عند قبيلة السوك . ولا نكاد نجد لها وجوداً عند سائر الشعوب ، والرمح منتشر عند الجميع تقريباً ولكنه يختلف فى مظهره بين مجموعة وأخرى

(١) راجع هنتنجفرد Huntingford The Northern Nilo-Hametes

أما القوس فلا يوجد إلا عند البعض ، ولا يقتنى السيف سوى المجموعة الجنوبية ، وبعض الجماعات فقط تستخدم الترس ، مع اختلاف فى شكله وحجمه وقد أورد هنتنجفورد فى كتابه جداول توضح مواضع الاتفاق والاختلاف فى العناصر الثقافية . ومن الممكن للقارئ أن يرجع إليها[1].

ومن الأمور التى ذكرها هنتنجفورد، أن جميع النيليين الحاميين، لايقرعون الطبول إلا فى أوقات وظروف محدودة ، وهذا الامتناع عن دق الطبل أمر مشترك ، لا تشذ عنه قبيلة . . .

وفى المجموعة الشمالية ، أهم مظهر ثقافى واجتماعى هو « جلب المطر » ، وما يصاحبه من أهمية الزعيم الذى يشرف على ذلك ، ووجود « حجارة الغيث » rain-stones يستخدمها الكاهن المختص . وعند المجموعة الشمالية أيضاً شخصية هامة وهى « زعيم الأرض » ، الذى يعنى بخصوبة الأرض ووفرة غلاتها . . وزعامة الأرض هذه موجودة لدى الدنكا . ولكن الغريب أن المجموعة الشمالية هى الوحيدة بين النيليين الحاميين التى تعنى بجلب المطر مع أنها تعيش فى أوطان مطرها غزير ، بينما الجهات الوسطى القليلة الماء ليس فيها لزعامة المطر أى أثر .

ومن العناصر الهامة فى ثقافة المجموعة الوسطى أنها تقتنى ترساً مستطيلة ضيقة ، وسكينة المعصم ، ومسكين الإصبع ، ويضع الشخص سدادة فى الشفة وقرصاً فى الأنف ، ويكثر تصفيف الشعر ، ولهم كراسى صغيرة تستخدم أيضاً كوسائد .

والمقتنيات المادية ليس لها ميزات فنية عظيمة؛فالفخار الذى يصنعه النيليون الحاميون ليس ممتازاً ، وبعضهم ـــ مثل الماساى ـــ لا يصنع الفخار إطلاقاً ، وإذا كانت هنالك مواهب فنية ، فإن هذه لم تظهر فى صناعاتهم

---

(١) نفس المرجع ص ١٨ ، ١٩ .

على قلتها . وربما كان النتاج الوحيد الذى أبدى فيه النيليون الحاميون تفوقاً من الناحية الفنية والبراعة الصناعية ، هو الرماح المستطيلة ذات السنان الدقيقة البديعة والتى يصنعها الناندى والماساى والتى تجمع بين الجمال والفائدة العمليـــة .

ومن الظاهرات التى كانت سائدة عند جميع النيليين الحاميين ظاهرة خلع القواطع فإن هذه العادة قد ثبت وجودها عند الجميع ، سواء أكانت تعمل كعلامة لبلوغ الرشد أم كانت تعمل لغير ما سبب . غير أن عادة خلع القواطع بعضها أو كلها ليست أمراً انفرد به النيليون الحاميون .

ولكن هناك ظاهرة أخرى وهى طبقات السن . نجدها عند الجميع بدون استثناء ، وهى إن وجدت عند غيرهم ، فليس لها من النظام والأهمية ما نجده عند النيليين الحاميين ؟

ومن ناحية الصفات الطبيعية سبقت الإشارة إلى أننا يحق لنا أن نتوقع اختلافاً بين شعب وآخر ، ولكنا سنجد حتماً أن الأثر الحامى موجود لا شك فيه : وهناك أرقام أوردها هنتنجفورد وهى على قلتها تؤيد صحة ما نتوقعه . فإن النسبة الأنفية تنخفض عند الماساى إلى ٧٦ وتصل عند غيرهم إلى ٨٦ وقلما تزيد على ذلك . والنسبة الرأسية تتراوح بين ٧٠ و ٧٦ وفى القامة طول ملحوظ يزيد عما نجده بين السلالات الزنجية الصريحة أما شكل الشعر فلا يقول عنه الكاتب شيئاً ، ولكن إشارته إلى انتشار عادة تصفيف الشعر بطريقة خاصة ، تدل على أن الاختلاط القوقازى كان له أثره فى استطالة الشعر نوعاً وإن كان مظهر التجعد سائداً بين معظم القبائل .

ونظراً لأن المقام لا يتسع للكلام على كل شعب من الشعوب ، ومع ذلك فمن المفيد أن نستعرض هنا صورة لشعب أو شعبين من النيليين الحاميين ، فإننا نختم هذا الفصل ببيان موجز عن أحد الشعوب الجنوبية وهو الماساى ، وآخر عن أحد الشعوب الشمالية وهو البارى .

المـاساى :

يقول الماساى عن أصلهم إنهم جاءوا من الشمال تحت قيادة زعيم يدعى ماسينتا Maasinta . وقد استطاع هذا القائد أن يعلمهم كيف يتسلقون المرتفعات التى تعترض طريقهم ، والتى حالت دون تقدمهم نحو الجنوب ، كما علمهم كيف يقومون بوسم ماشيتهم حتى يسهل عليهم التعرف عليها . والإشارة إلى اجتياز المرتفعات تشير بلا شك إلى المرتفعات الممتدة وسط الجنوب من كينيا والشمال من تنجانيقا . وهى مرتفعات وعرة تحف بالأخدود الأفريقى الكبير . . والظاهر أن هذه القصة تحكى – على فرض صحتها – المرحلة الأخيرة من هجرات الماساى التى أبلغتهم أوطانهم الحالية ، لأن بعض العشائر قد أحصت ستة زعماء لها منذ نزلت أوطانها الحالية إلى أواخر القرن التاسع عشر . . فليس ببعيد أن احتلال الماساى لأوطانهم الحالية لا يرجع إلى أكثر من قرنين من الزمان ، ولا شك أن انتقالهم وهجرتهم كانت تمليه طبيعة عيشهم كرعاة لا يكفون عن البحث عن مراع جديدة ، تمكنهم من اقتناء قطعان جديدة . وهذه أمنيتهم فى العيش .

والماساى فى أوطانهم هذه فى عزلة ، وبخاصة فى عزلة اجتماعية ، ولا يريدون أن يشتغلوا بحرفة أخرى سوى حرفة الرعى . وقد قاسوا أشد العذاب من المستعمرين البيض وبخاصة فى كينيا ، لأنهم لم يقبلوا العمل فى المزارع ، ويخضعوا للسخرة ، وربما كان عددهم يوماً نحو مائة ألف نفس ، وقد نقص الآن إلى أقل من خمس هذا العدد .

* * *

ولعل الماساى أن يكونوا أقرب إلى العنصر الأصلى من النيليين الحاميين بسبب عزلتهم وقلة اختلاطهم ، ويوصف الماساى بالطول والنحول ، الكف والقدم ضيقتان ، والأصابع طويلة ، اللون بنى فاتح نوعاً أو داكن ، الرأس عال مستطيل ، والوجه مستطيل يمتاز بأنف معتدل دقيق ، وشفاه ممتلئة ،

ولكنها أقرب إلى الرقة ، والشعر قليل على الوجه ، كثير على الرأس ، ومجعد بدرجة معتدلة .

ويعيش الماساى فى مجتمع يتألف من عشائر ذات نظام أبوى ، اغترابية (يتزوج المرء من عشيرة أجنبية) وإذا كبرت العشيرة انقسمت إلى عشائر أصغر Sub-clans . والعشـــائر وحدات كل وحدة تتصل بصلة القرابة والنسب ، ولكنها ليست وحدات مكانية ، وإن كانت مواطنها متقاربة ، وربما كانت فيما مضى لكل عشيرة أرضها .

ولا يحدث الزواج إلا بعد أن يكبر الشبان ، ويتموا فترة المحاربين ، ويصلوا إلى مرتبة الرجولة فى نحو الثلاثين أو بعد ذلك قليلا ، كما سنرى عند الكلام على طبقات السن ، ويشتمل المهر على بعض الماشية والغنم ، ومقدار من جعة العسل honey-beer . ويدفع المهر بالتدريج ، ولا يتم الدفع إلا بعد ولادة طفل ، وهذا بمثابة تأكيد الزواج ، وبعد ذلك تستطيع الزوجة أن تنتقل إلى دارها فى منزل الزوج .

ومتى انتظمت الحياة الزوجية أعطى الرجل زوجه شطراً كبيراً من الماشية ليكون فى رعايتها . . والزوجة الثانية نصيبها أقل من الأولى ، والعادة أن الزوجة الكبرى تعطى بعض ما عندها للصغرى . . وهذه الماشية ليست ملكاً للزوجات، بل هى بمثابة أمانة عندهن حتى يرثها الأبناء .. وكل زوجة يحصل أبناؤها على ما لديها بعد وفاة الوالدين .

والمسكن عند الماساى يمثل مساحة كبيرة من الأرض ، تتوسطها حظيرة للماشية فى شكل دائرة . نصف الحظيرة مخصص للماشية وربعها للعجول والربع للضـــأن ومن حول الحظيرة تقام الأكواخ ، للرجل ونسائه وأبنائه وزوجاتهم . بحيث يخصص لكل زوجة كوخ . وإذا كان للرجل أخوة وأبناؤهم وزوجات الجميع . فإن المسكن فى هذه الحالة قد يشتمل على ٣٠ أو ٤٠ كوخاً .

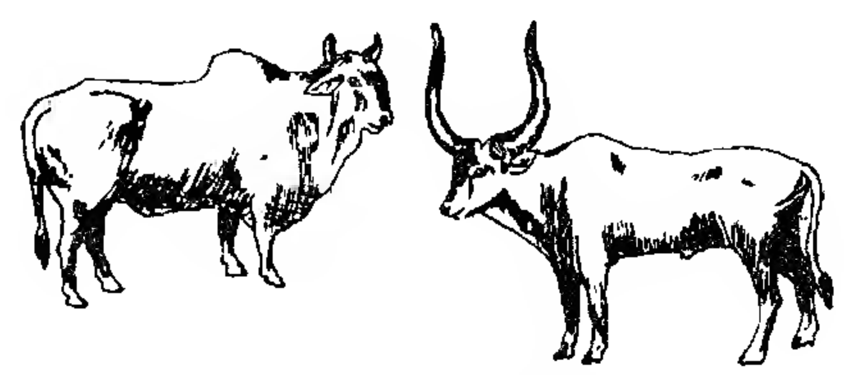
وكوخ الماساى مستطيل ؛ وطوله يزيد على عرضه مرتين وفى آخره الباب ، ويحيط بالأكواخ كلها سياج سميك من العوسج والطين ، وهنالك فتحتان فى السياج ، من ناحيتين متقابلتين للخروج والدخول إلى الحظيرة . أنظر (شكل ٧) :



كوخ الماساى

(شكل رقم ٧)

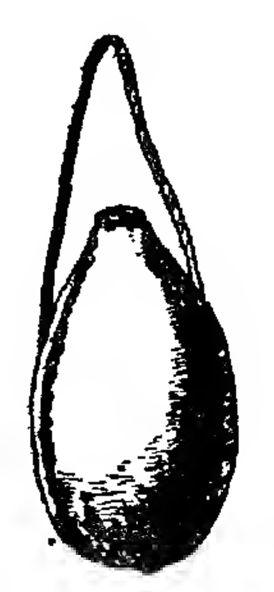
وعلى الرغم من اتساع المسكن وما يشتمل عليه من الأكواخ فإن إقامته من عمل النساء . وماشية الماساى من نوعين : الأول نحيل طويل القرون ، قليل اللبن ، والثانى قصير القرون ، سمين ذو قتب كثير اللبن ، والأول هو المفضل كما فى (شكل ٨) . والنساء يحلبن اللبن .



نوعان من الماشية فى شرق إفريقية

(شكل رقم ٨)

ومعظم العجول تخصى بعد الولادة ، وتحفظ ليكون منها الهدايا ، والهبات ، ودفع الديات والمهور ونحو ذلك ويخصص بعضها بالطبع للتناسل . أما البقر فيحتفظ بها للبن وللولادة . وربما أعطى بعضها فى المهر زيادة فى حسن التقدير .



وعاء من اليقطين عند الماساى

(شكل رقم ٩)

وقد سبق أن أشرنا إلى أن الماساى لا يصنعون الفخار ، بل يحفظون اللبن فى القرع الجاف ، الذى ينمو وحشياً ؛ فيتخذ وعاء اللّبن وللماء وغيرهما من السوائل .

ويشرب اللبن طازجاً وحامضاً ، ولا يغلى إلا للمريض . ويصنعون الزبد ولا يصنعون الجبن .

ومن أغذيتهم الدم يحصلون عليه من عنق الثور وذلك بربطه بحبل حتى ينتفخ الوريد ويستخدمون القوس والسهم فى إحداث جرح فى الوريد ، حتى يجرى منه مقدار من الدم .

وهناك إلى جانب البقر ، كثير من الضأن والماعز ، وهذه يكون أمر ذبحها متصلا بشعائرهم وحفلاتهم .

وفوق ذلك لدى الماساى بعض الإبل والحمير ، ولعلها تجلب من بلاد السومال ؟

والملبس عند الماساى مادته الرئيسية جلود الحيوان من الماعز والضأن والبقر . ينتزع الشعر منها بقطعة من الحديد ، ويطرى الجلد بالدهن ، ويضغط بالأقدام مراراً وتكراراً حتى يتشرب الجلد الدهن . وربما دبغ الجلد بعصير بعض النبات .

ويستعمل فى ثوب المحارب جلد عجل ، طوله ١٢٥ × ٧٠ سم . تخاط أطرافه بحيث يمكن أن يلبس الثوب من فوق الرأس ، فيغطى الكتف اليمنى ، وتظل الكتف اليسرى عارية .

ويكون للمحارب أيضاً حزام يحمل سيفه ، ويعلق فى الحزام من الخلف مثلث من الجلد يحمى المحارب من الشوك إذا جلس . . ويصنعون فوق ذلك نعالا من جلد الثور الغليظ ويلبسها المحاربون وغيرهم .

والرجال المتزوجون يلبسون ثياباً من نفس الطراز ولكنها أكبر حجماً ، وإذا تقدمت بهم السن لبسوا إزاراً ، خلاف الرداء .

أما النساء فيلبسن رداء كبيراً حول الأكتاف ، وإزاراً قصيراً يتدلى من الخصر . وفى الحفلات يلبس المحاربون تاجاً من الريش مثبتاً على سير من الجلد ، ويربط حول الرأس ، وأحياناً يضاف إلى هذا قلنسوة من جلد الأسد أو غيره من الوحوش . كذلك يلبس المحارب أساور وقلادات من الجلد أو الحديد . وحزاماً مطرزاً بالخرز .

وتتحلى النساء بلفات عديدة من سلك حديدى حول المعصم والجيد والســاق .

* * *

والنظام السياسى لمجتمع الماساى ، مبنى على وجود عشائر كثيرة العدد جداً بحيث يستحيل عليها أن تؤلف كتلة متحدة تأتمر بأمر زعيم واحد . ومع ذلك

فإن للماساى زعيما أو رئيساً روحياً يدعى الليبون Laibon ، وهو أقرب إلى أن يكون بمثابة الكاهن الأعظم من أن يكون المتصرف فى شئون شعبه . وهذا الليبون الموقر هو زعيم عشيرة إيزر . ومنصبه الروحى هذا تبعاً لذلك منصب وراثى . وعلى الرغم من أنه لا يمارس سلطـــة حكومية فى كل مكان ، فإنه شخص محترم يرهبه الجميع لقداسته ولأنه هو الوحيد الذى يستطيع أن يتوسط عند الإله الواحد الأعظم إنجاى En-gai ويتجاوز احترامه شعب الماساى إلى من جاورهم من الدروبو واللمبوا Lumbwa وهو أيضاً الذى ينظم الاحتفالات السنوية للإله الأكبر .

ونظراً لنظام الوراثة المطرد نرى كل ليبون حريصاً على تلقين ابنه الحرص على مصلحة الشعب وخدمته والإخلاص له . وكثيراً ما يكون الليبون ذا شخصية وذكاء ، وإدراك للأوضاع السياسية والعسكرية . وفى هذه الحالة يكون له نفوذ كبير فى توجيه نشاط الشعب ، والخروج به من المآزق الحرجة

وكثيراً ما كان تدخل الأوربيين مفسداً لزعامة الليبون . وكثيراً ما أدى إلى الاضطراب فى نظام وراثة المنصب .

وعلى العموم فى الأحوال العادية ، هو الذى يوجه الحرب أو السلم دون أن يشترك هو أو عشيرته فى القتال .

ونظام تغذيته محدد وهو لا يتناول شيئاً سوى كبد الماعز والعسل واللبن ، ولا ينبغى له أن يتعاطى شيئاً آخر .

ومن حول مسكن الليبون ، تتجمع مساكن كثير من الشيوخ والممتازين فى القبيلة . ومن عشيرة الليبون أيضاً يكون الرجال الذين حرفتهم الطب والسحر ويعالجون أمراض الماشية ، ومناصبهم أيضاً وراثية .

وهناك عشيرة أخرى رؤساؤها يرجع إليهم فى جلب المطر ، فإذا اشتد الجفاف وامتنع الغيث زمناً طويلا طلب منهم أن يتدخلوا ، فيدخلون تحت لحاف كبير من الجلد ، ويقرأون التعاويذ والأدعية والعزائم .

وهى أيضاً عشيرة غير محاربة ، ويتولى الآخرون الدفاع عن ماشيتها .

واشتهر الماساى بنظامهم الدقيق الخاص بطبقات السن ؛ وهو نظام روعيت فيه طبيعة المجتمع ويجمع بين البساطة والدقة : وأهم اعتبار فيه تقسيم العمر إلى ثلاث مراتب أساسية : مرحلة الصبى : إلى سن ١٤ أو ١٦ ؛ ومرحلة الفتوة من سن ١٦ إلى ٣٠ . ومرحلة النضج والرجولة بعد الثلاثين . . وهناك أقسام ثانوية فى كل من المرحلتين الأخيرتين . ولا شك أن الخطوة الخطيرة هى الانتقال من الصبى إلى الفتوة . وهى تتم على الصورة الآتية :

١ – حينما يكون هناك عدد كبير من الأولاد ، سنهم تتراوح بين ١٤ و ١٥ يتجمعون فى صورة عصابة ، ويطوفون بالمنازل يلتمسون الهدايا ؛ وهذه يقدمونها إلى رجل من الكبار ذوى النفوذ . ويطلبون منه أن ينشئهم ليكونوا فتياناً .

٢ – يتقبل الزعيم منهم الهدايا ويزيد فيها . ثم يشرع فى إقامة حفلة أو أكثر من الحفلات التمهيدية . ويعد الترتيبات اللازمة ليوم التنشئة Initiation والذى تتم فيه عملية الختان بوساطة ختانين مهرة من قبيلة دروبو Drobo وعندما يتجمع عدد كاف فى العشيرة ، تعمل حفلة كبيرة للمختتنين ، تحلق فيها رءوسهم ، وهذا إيذان بدخولهم زمرة الفتيان أو طبقة المحاربين .

٣ – وكل عصابة حلقت رءوسها وتم ختانها معاً تأخذ لنفسها اسماً خاصاً مثل « الأسود » أو « المغيرون » أو « السيف الأبيض » . ولا يلبثون أن يقام لهم معسكر خاص تقيمه الأمهات والبنات . ويعيش الشباب بعد ذلك فى هذه المعسكرات . وليس معنى ذلك أن كل عصابة جديدة ، ستبدأ القيام بالأعمال الحربية ؛ إن هناك طبقات أقدم منها ، وأكثر تجربة ، ولا بد أن يمضى وقت ، حتى يستطيع الرهط الجديد أن يشترك اشتراكاً جدياً فى العمل الحربى . . ولذلك تكون هنالك مراتب معترف بها فى طبقة المحاربين .

ويقضى المحاربون فى المعسكرات من ١٠ إلى ١٥ عاماً ، يرعون الماشية ،

ويقيمون الحفلات ، ويعدون الغارات . والعمل الرئيسى لطبقة الشباب هو بالطبع أن يتعهدوا الماشية ، وأن يدافعوا عنها ، وهم الذين يحلبون ألبانها فتحملها النساء والفتيات فى أوعيتها من المعسكرات إلى مساكن العشيرة .

وقبل أن يحد من نشاط الشباب ، كان من واجبهم أيضاً أن يعملوا على زيادة ماشيتهم بالإغارة على ماشية غيرهم . ولذلك كثيراً ما كانت ترى ماشية الماساى تحمل أنواعاً مختلفة من الوسم . . وهم يعدون العدة للإغارة على قبيلة أخرى فى كثير من المهارة والتخفى ، فيرسلون العيون والجواسيس . وبعضهم ربما ذهب إلى معسكر العدو يلتمس حمايته مدعياً أنه شخص من الدروبو تعرض لكثير من البغى والاضطهاد وربما كشف عن جرح لم يندمل إثباتاً لما يدعيه . فيسمح له بالبقاء ، ويقوم بخدمات . وفى الوقت نفسه يلاحظ عدد الماشية وقوة القبيلة ، ومبلغ مقدرتها الدفاعية ، ويرسل كل هــذه المعلومات إلى معسكره . . . ويظل هو فى معسكر العدو ، حتى يكون مرشداً وعضواً نافعاً فى الغارة .

ومن الغارات ما يكون صغيراً لا يشترك فيه إلا عشرات أو مئات ، ولكن إذا جد الجد ربما حشدت قبيلة الماساى جيشاً يتراوح عدداً بين ثلاثة وأربعة آلاف محارب .

ونظراً لما اتسموا به من النظام والشجاعة ، كان الماساى دائماً مبعث خوف ورعب للقبائل المجاورة . . فكانوا لذلك مرهوبى الجانب .

وبعد أن تنتهى مدة المحارب ، وقد ناهز الثلاثين ، عاد « الرجال » إلى المساكن الأصلية ويكون كل منهم قد اختار زوجته ؛ التى كانت تزوره فى الغالب فى المعسكر ، فيدخل فى الحياة الزوجية . وينضم إلى زمرة الرجال الناضجين ، ثم ينتقل مع السن إلى زمرة الكهول ، ثم الشيوخ ، الذين بيدهم تصريف شئون المجتمع »

لا شك أن مجتمع الماساى كان دائماً منظماً على أساس أنه مجتمع رعوى ،

لا يعرف ولا يريد أن يمارس الزراعة . وكل همه اقتناء الماشية وحمايتها والاستكثار منها . وليست الغارات عملا عدوانياً فى نظره ، وإنما هى وسيلة لاقتناء ماشية أكثر . وقد تتم الغارة بنجاح ، دون أن يقتل أحد ، فليس الغرض قتل العدو ، بل الحصول على ماشيته .

ومع ذلك فإن المجتمعات المتحضرة الحديثة ، التى أخذت أفريقية بأسبابها لا يمكن لها أن تغض النظر عما يرتكبـــه الماساى من غارات ، ولكن لعل من الممكن أن يتم تطوير المجتمع مع بقاء القطعان ورعايتها والذود عنها ، والاشتغال ببعض وجوه النشاط الاقتصادى فى ميادين أخرى .

وقد جاء فى سياق الكلام على الماساى ذكر لجماعات الدروبو أو الواندروبو Wandrobo وأنهم يقومون بأعمال خاصة للماساى مثل الختان وحلاقة الشعر . وذبح الماشية . وهم فى الواقع عنصر قديم ، سابق للماساى ، ولا يقتنى ماشية ، ويحترف أنواعاً من الحرف مثل الحدادة والصيد وبعض الزراعة ، وينظر إليهم الماساى بأنهم شعب منحط بالنسبة لهم . وعليه أن يقوم بخدمتهم . وليس الدروبو من الأقزام أو أى سلالة قديمة منقرضة ، بل تظهر فيهم أحياناً بعض صفات تشير بنوع من الاختلاط بالدم القوقازى . وإن كان هذا قليلا . .. وبعضهم يعيش مع الماساى والقسم الآخر مع قبيلة ناندى ، التى تشابه الماساى فى كثير من صفاتها . . وفى كلا الحالين لا يمكن اعتبار الدروبو سوى شعب زنجى دخله بعض الدم الحامى . ولعله كان يؤثر حرفة الصيد ، وبما للماساى والناندى من النفوذ ، أرغموه على أن يؤدى لهم خدمات ، بعضها يتطلب مهارات يعترف له بها الماساى ويأجرونه عليها .

الفصل السادس

النيليون الحاميون

— ٢ —

شعب البارى

فى كتابه المعروف عن الأجناس فى أفريقيا ، يعتذر الأستاذ سلجمان عن اضطراره لأن يذكر البارى ضمن كلامه عن السلالات النيلية الحامية ، مع أنهم — فى نظره — ليسوا نيليين حاميين بالمعنى الصحيح[1]. ويقول إنه اضطر لأن يحشرهم فى زمرة النيليين الحاميين ، لأنه لم يجد لهم مكاناً آخر فى كتابه . وهذا القول يرجع إلى أن سلجمان كان متأثراً بالتعريف القديم للنيليين الحاميين بأنهم أنصاف حاميين Half Hamites أى يشتملون على نسبة عالية من الدم الحامى . ولا شك أن هذه النسبة لا تتوافر لدى البارى . على أن فكرة الاعتماد فى تحديد معنى النيليين الحاميين ، على الصفات الجسدية ، قد صرف النظر عنها منذ زمن . وأصبح الاعتماد على اللغة والعناصر الثقافية الأخرى . وسنرى فيما يلى أن الاعتبارات الثقافية والاجتماعية تبرر تماماً اعتبار البارى من السلالات النيلية الحامية ، وفيهم كثير من الصفات التى رأيناها عند الماساى ، مع الاختلافات التى لا بد منها ، بحكم اختلاف الوطن ، والسلالات التى قد اختلطوا بها فى هذه الأوطان الشمالية .

البارى أهم الشعوب النيلية الحامية فى السودان، سواء من حيث عدده ، أو من حيث موقعه الجغرافى ، إذ يحتل الباب الجنوبى ، حيث يدخل نهر النيل

(١) سلجمان Races of Africa . ص ١٥١

نفسه متابعاً مجراه نحو الشمال . وتتناول أوطان البارى الضفتين الشرقية والغربية لبحر الجبل ، وإذا أدخلنا فى البارى الجماعات التى تتكلم اللغة البارية ، فإن هذه الأوطان تمتد من حدود السودان الجنوبية إلى خط العرض السادس ، وفى هذه المساحة العظيمة يحتل البارى الجزء الأوسط منها وأعظمها خطراً وفيه تقع عاصمة الجنوب السودانى جوبا .

وكثيراً ما يطلق اسم « بارى » على جميع القبائل التى تتكلم لغة البارى ، لأن هناك كثيراً من الشعوب اقتبست لغة البارى ، تعيش إلى جوارهم ولكنها مستقلة عنهم . وأهم هذه القبائل المتكلمة بلغة البارى قبيلة منداري Mandari فى الشمال ، وقبائل نيانجوارا Nyangwara وفاجلو Fajellu وكاكوا Kakwa وكوكا Kuka . وهذه الأربع واقعة إلى الغرب والجنوب الغربى .

ويروى البارى أن أجدادهم جاءوا من الشرق أو الجنوب الشرقى ؛ ولم يزالوا يتنقلون حتى احتلوا الإقليم الواقع شرق بحر الجبل ، وهناك نزلوا واستقروا ، وكانت هذه هى المرحلة الأولى فى تاريخهم . . غير أنهم لم يتركوا ليعيشوا آمنين فى أوطانهم ، بل أخذوا يتعرضون لإغارات من جماعات قوية الشكيمة ، ولعل منها أجداد الشعب الذى يدعى اليوم لوكويا Lokoya وقد كان المغيرون أشد تسليحاً ، لم يكفهم استخدام السهام ، بل هاجموا البارى بالحراب والرماح . ولم يكن للبارى رماح . بل كان سلاحهم الوحيد القوس والسهم ، فلم يطيقوا صولة المغيرين ، الذين استطاعوا أن يرغموهم على الجلاء عن معظم أوطانهم شرقى النيل والالتجاء إلى الأراضى الواقعة إلى الغرب .

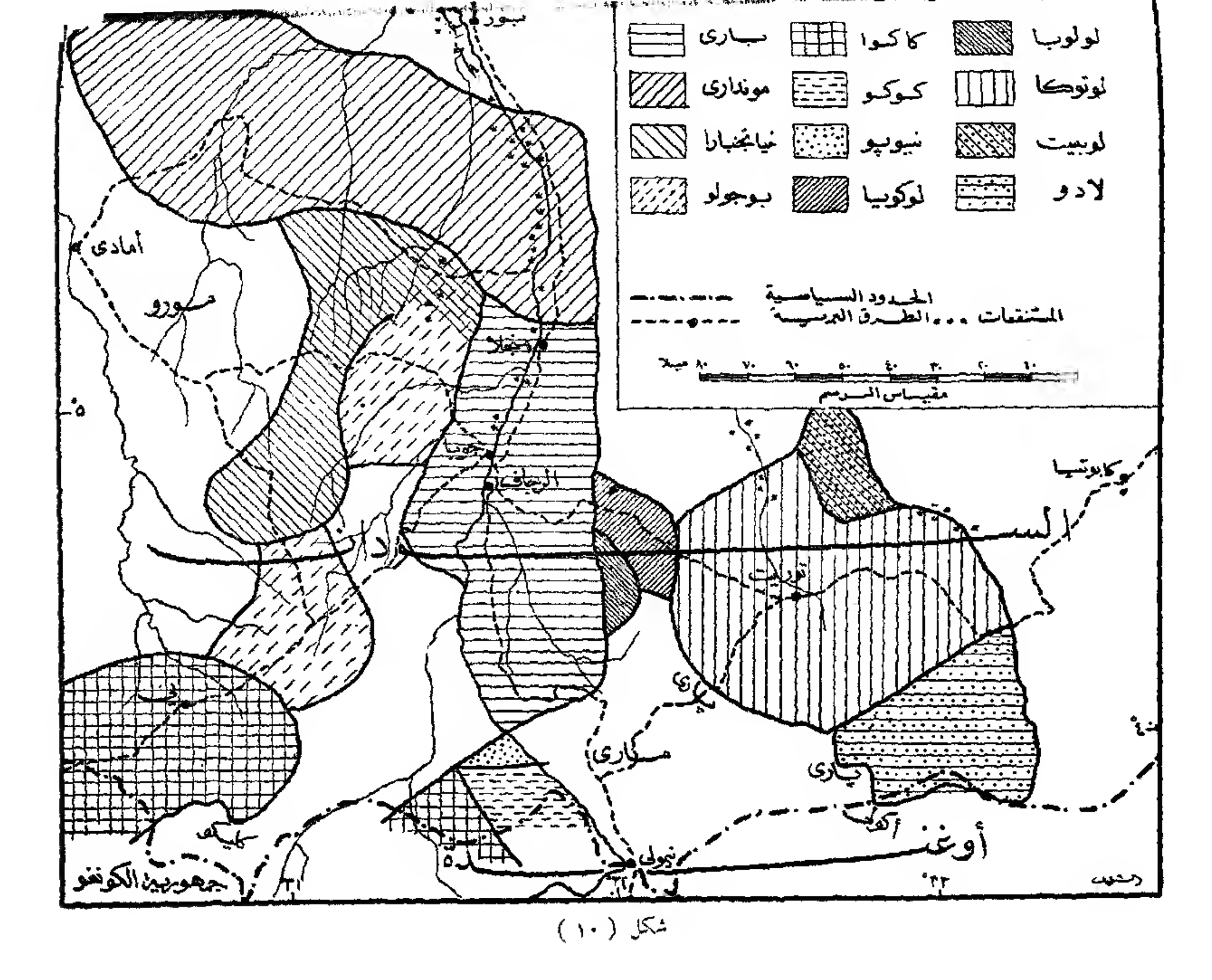
ولا يزال بين جيران البارى من النيليين الحاميين من لا يعرف من الأسلحة سوى القوس والسهم ، ولكن البارى لم يلبثوا أن تعلموا اقتناء واستخدام الرماح . وعادوا بعد زمن فاستردوا أوطانهم شرق النيل بفضل اكتمال تسليحهم . وبذلك أصبحت لهم أوطان إلى الشرق والغرب من بحر الجبل .

وقويت شوكتهم وامتد نفوذهم نحو الغرب ، حتى نشروا لغتهم بين عدد كبير من القبائل . وأصبح فى جنوب السودان شعب البارى ، وإلى جانبه شعوب تتكلم لغة البارى .

فالبارى — إذن — شعب من النيليين الحاميين ، ساقته ظروفه إلى أن يحتل الأطراف الشمالية من أوطان النيليين الحاميين . والمفروض فى سلالة البارى عند نزولها الأوطان الجديدة أن تشتمل على نسبة عالية من الدم القوقازى ؛ وعلى فرض صحة هذا الزعم ، فان الإقليم الذى نزله البارى إقليم خصيب كثير الخيرات ، ولم يكن بلا شك خالياً من السكان . ولكثرة ما كابده من أحداث جد خطيرة ، لا بد أن اضطر إلى امتصاص عناصر أخرى كانت تعيش فى هذا الإقليم . ولهذا نقصت نسبة الدماء الحامية ، وظهرت عليها نسبة الدماء الزنجية . وقد لوحظ أن الصفات الزنجية أكثر ظهوراً فى الجانب الغربى . والقامة أقصر . وهناك أيضاً ارتفاع يسير فى النسبة الرأسية إذ نكون فى الغرب قد اقتربنا من أوطان المورو وغيرهم من شعوب بحر الغزال فى جنوب السودان ، وهم يمتازون بنسبة رأسية أعلى من النيليين والنيليين الحاميين .

وأوطان البارى تشتمل على أرض فسيحة سهلة ، وبخاصة فى الجانب الشرقى ، وقد يتخلل السهل نتوءات يسيرة من الصخور البللورية ، وارتفاع السهل فوق سطح البحر فى المتوسط نحو ٥٤٠ متراً ، وتختطه بعض أودية ضحلة ، وفى وقت الجفاف يمكن استنباط الماء بقليل من الحفر فى جوانب هذه الأودية .

ويتخلل الإقليم مرتفعات لا تزيد على خمسين إلى مائة وخمسين متراً . وهى دائماً من الصخور البللورية القديمة ، ومن أشهرها شنديرو Shindiro وبلنيان Belinian . وهما على قلة ارتفاعهما لها مكان خاص عند البارى لأن أهم عشائر البارى (عشيرة بيكات) تعيش هنا ، وهى التى يكون منها الزعيم جالب المطر ؛ وكثيراً ما تعقد بجانبهما حفلات الاستسقاء .


لولوبا
كاكوا
بارى
لوتوكا
كوكو
مونداری
لوبيت
نيوبو
نيانجبارا
لادو
لوكويا
بوجولو
الحدود السياسية
المستنقعات
الطرق الرئيسية
مقياس الرسم
أمادى
مورو
توريت
أكوك
أوغندا
نيمولى
مكارى
جمهورية الكونغو
كابوتيا

شكل (١٠)

وبعض التلال المنتشرة – وبخاصة فى السهول الغربية تشتمل على مادة الحديد ، ولذلك تعيش بالقرب منها جماعات تحترف صناعة الحدادة .

وتبدو الأرض مجدبة قليلة النبت فى الأشهر الأولى من العام ، وهو موسم الجفاف ، وتكتنفها المستنقعات وقت المطر . . . والإقليم من نوع السفانا الغنية ، وتحتوى أشجاراً متناثرة وسط المساحات الهائلة من الحشيش العالى . ويبدأ موسم المطر فى أواخر مارس أو أوائل أبريل ويبلغ ذروته فى أشهر الصيف . . . وينتهى بنهاية شهر أكتوبر .

وقد عاش البارى فى هذه البيئة يمارسون حرفة الرعى ، وكانت ماشيتهم كثيرة ، ثم أدركها النقص الشديد فى أزمنة قاسية ، إما بسبب الأوبئة أو بسبب إغارة الأعداء . وقد اضطروا مكرهين إلى أن يولوا الزراعة بعض اهتمامهم .

ويورد سلجمان فى كتابه عن السودان الجنوبى رواية طريفة لبعض شيوخ البارى . يقول له فيها : « كان للبارى فيما مضى كثير من الماشية ، ولذلك لم يكن شباب القبيلة (التيتون Teton) يمكث فى القرى ، بل يهاجر إلى الكرومى (زريبة كبيرة للماشية) وكانت زراعة الذرة قليلة ، لأن تناول الذرة كان قليلا ، والناس تشرب اللبن ؛ كذلك كانوا يتعاطون ديلُنج Dilong (الخضراوات بصلصة اللحم) وكانوا أيضاً يزرعون اللوبيا والسمسم . ولكن الشباب يشربون اللبن ، والشيوخ المتخلفون فى القري يأكلون الذرة ، والفتيات كن يذهبن إلى الكرومى لكى يصنعن الزبدة ويحملنها والألبان إلى القرية .

« وكان الناس فى حالة رخاء ، وكان الكثير منهم يتزوج اثنتين أو ثلاث زوجات ، لولا خوف ما يشجر بينهن من خلاف . ولذلك فضل أكثرهم الاكتفاء بزوجة واحدة . . . فى ذلك الوقت لم يكونوا يتزوجون فى سن الشباب . أما الآن فيتزوجون وهم صغار ، ولذلك كثيراً ما يتزوجون أكثر

من واحدة »[1].

هكذا عبر الشيخ عن الفرق بين حال البارى اليوم وحالهم من قبل . . . والكرومى المشار إليه زريبة ضخمة تقام فى الأمكنة المرتفعة نوعاً ، بعيداً عن النهر ، ويمكن أن تتسع لماشية عدة قرى ، تشترك فى بنائها . هذه الكرومى لم يعد لها وجود، وكانت من قبل هى المسكن للشباب المحارب التيتون Teton يقضى فيها جزءاً من عمره . (من سن ١٧ إلى ٣١ (ويتولى رعى الماشية والذود عنها ولا يستطيع لذلك أن يتزوج إلا فى مرحلة الرجولة . بينما يقيم الرجال المتزوجون والشيوخ والأطفال فى القرى . والبنات يتنقلن بين القرى والمعسكرات يحملن الزاد والألبان .

هؤلاء التيتون طعامهم اللبن ، واللبن الممزوج بالدم المشتق من فصاد الماشية أسوة بما رأيناه عند الماساى ، ولم يعد هناك كرومى لنقص الماشية ، وتعذر الإغارة والسلب . فلم يعد هنالك بأس فى أن يبقى التيتون فى القرية وأن يبكروا بالزواج .

المساكن :

القرى عند البارى ، كما هى الحال عند كثير من سكان السهول فى أعالى النيل ، ليست عبارة عن بيوت متلاصقة ، بل هى عبارة عن « منطقة سكنى » تحتلها مساكن عديدة ، ولذلك تشتمل على مساحة واسعة من الأرض . . ومن الممكن أن نميز بين نوعين من القرى : فالقرى البعيدة عن النهر تتألف من مساكن عديدة ، كل مسكن يشتمل على كوخين أو أكثر ، ومن حولها سياج وبين كل مسكن والذى يليه مسافة صغيرة ، أى أن المساكن ليست متلاصقة ، بل كل منزل وحدة سكنية مستقلة ، أما النوع الثانى فهو القرى القريبة من النهر ، وفيها نرى المساكن أكثر تلاصقاً ، وليس لكل منزل

---

(١) ص ٢٠٢ من سلجمان القبائل الوثنية فى السودان الجنوبى
Pagan Tribes of the Nilotic Sudan

سياج يحيط به ، بل القرية كلها ربما احتواها شبه سور أو سياج من الشجر ، وهى فى هذه الحالة أقرب إلى القرية كما نتصورها .

والمسكن فى كلا الحالين يتألف من عدة أكواخ لا يقل عن اثنين ، والأغلب أن يكون أكثر من ذلك ، والكوخ من الطراز المخروطى الشكل المستدير . ومجموعة الأكواخ التى يتألف منها المنزل تكون بنسبة عدد السكان بحيث تسع الرجل وزوجاته وأطفاله ، مع تخصيص كوخ للماشية ، ومكان لخزن الحبوب وغيرها من الحاجات ، وفى العادة تكون الأرض المجاورة للأكواخ مرصوفة بالطين الممزوج بروث الماشية . وأمام الكوخ مباشرة يضاف إلى الطين قطع صغيرة من الخزف المتخلف من الأدوات المحطمة ، بحيث يكون سطحه أمتن .

وعلى الرغم من قلة الماشية ، وازدياد الزراعة بالنسبة للعهود الماضية ، فلا يزال للماشية مكان ممتاز فى اقتصاد البارى ، ولا يزال السكان يحبون اقتناء الماشية ، يحبونها حباً كثيراً لذاتها . كما يحبون ألبانها ، ويحرصون على أن يكون لديهم منها الشيء الكثير . لأنها عنوان الثروة ، ووسيلة للحصول على الزوجة ، أى أنها لا تزال أساساً للنظام الاجتماعى ، ولا بد للفقير أن يعمل بهمة فى الزراعة أو فى جهات خارج موطنه حتى يتوفر لديه مال أو محصول زراعى يستطيع بالمقايضة أن يقتنى به بعض الماشية .

ولا تزال هناك تقاليد أخرى تتصل بالماشية تدل على احتفاظ البارى بعاداتهم كرعاة ، وبعض هذه التقاليد يشابه ما نجده لدى الدنكا . مثال ذلك أن لكل رجل ثوراً خاصاً به يدعى صونو Sönö يحبه ويدافع عنه ويضع فى عنقه الجرس الذى يقود به القطيع . . وإذا أدركه العجز والهرم ، يضحى به وهو حزين آسف ، وينقل الجرس الذى فى عنقه إلى ثور صغير يخلفه . . ولا يسمح لنفسه أن يتعاطى شيئاً من لحم ثوره ، ولكن هذا مباح لأقرانه من الرجال فقط . وهذا يشبه تماماً العرف السائد عند الدنكا . . ولعل فى هذا ، ما يدل على أن كلا الشعبين ورث هذه العادة عن أجداده فى وطن قديم مشترك .

النظام الاجتماعي :

١ – ينقسم الباري إلى عشائر منفصلة اغترابية (لا يتزوج امرؤ من عشيرته) عددها يقرب من الأربعين وقد تكون عدد الرجال فيها ٧٠٠ وقد لا يتجاوز عددهم ثلاثة أو أربعة .

وعند بعض هذه العشائر – وربما كان يوماً أمراً عاماً من قبل – نظام الطوطمية ، فيكون للعشيرة حيوانها الذى تقدسه ، أسداً أو فهداً أو فيلاً أو غيره ، ومثل هذا الحيوان لا يقتل ولا يؤكل بوساطة أفراد العشيرة . وهم يزعمون أن الطوطم أخ لهم .

ولا يتزوج الرجل طبعاً من عشيرته . ويروى الباري فى ذلك قصة تدل على أنهم يدركون أن الإضواء ضار بالنسل . ويزعمون أنه فيما مضى كان هنالك الزواج بين أفراد العشيرة . فترتب على ذلك انتشار الأمراض ، وتدخل الزعماء فى الأمر ، وقسموا القبيلة أقساماً ، وحرموا الزواج داخل كل قسم وبالتالى داخل كل عشيرة .

ولعل أشهر العشائر وأجلها خطراً عشيرة بيكات Bekat ، لأن منها يكون زعماء المطر المشهورون . وربما وجد غيرهم خبراء فى شئون المطر فى عشائر أخرى . ولكن هؤلاء لا حظ لهم .

٢ – إلى جانب تقسيم الشعب إلى عشائر ، هناك تقسيم اجتماعي آخر عند الباري ، لا نجد له نظيراً عند النيليين ، وإن كان له مشابه عند الماساي . وهو تقسيم المجتمع إلى قسمين : فى كل مكان وفى كل قرية قسم يدعى لوى Lui المفـــرد (Luitat) وآخر يدعى دوبى Dupi (المفرد Dupiet) أى طبقة الخاصة والعامة ، أو طبقة الأحرار ، وطبقة الخدم .

وهناك تقسيم آخر يميز بعض الأفراد سواء أكانوا من الخاصة أم العامة . . وهذا التمييز لا يتناول إلا جماعات قليلة توصف بأنها ?ور أى طبقةالعارفين

بشئون الماء مثل جالبي المطر ومساعديهم .. وهؤلاء عددهم قليل بالطبع بالنسبة للجاهلين بشئون الماء .

وقد يكون فى طبقة الكور كثير من الدوبى .. وبالطبع لن يكون زعيم المطر إلا من طبقة لوى . غير أنه دائماً يتخذ أتباعاً من الدوبى الذين لهم دراية بمسائل الماء .

يصف سلجمان الدوبى بأنهم « طبقة الخدم » أو « طبقة وضيعة » servile class وأفرادها موجودون فى جميع العشائر ، وليسوا مقصورين على شعبة دون أخرى . والباري أنفسهم يرون أن الدوبى سلالة غير سلالتهم ، حتى من الناحية الشكلية ويصفونهم بأنهم أقصر قامة وأغلظ جسداً وأشد حمرة فى لون البشرة من الأحرار ، وأن وجوههم أعرض وعيونهم أصغر .

والأصل فى الدوبى أنهم لا يملكون ماشية ، ولا يزرعون أرضاً لأنفسهم ، بل يعملون لخدمة بعض الخاصة . فيقومون بفلح الأرض وإحضار الماء ، وقطع الأخشاب ، وتسقيف الأكواخ ، ونحو ذلك من الأعمال ، ويوصفون أيضاً بالمهارة فى طهو الطعام ، وفى صيد فيران البوص ، وينسب إليهم اختراع صنع البيرة ، كما اشتهروا بإجادة الرقص والغناء .

والظاهر أنهم يقعون من اللوى — فى أكثر الأحيان — موقع العبيد من سادتهم بحيث كان يجوز للسيد أحياناً — وإن كان هذا الحدث نادراً — أن يستبدل ببعض الماشية واحداً من أتباعه وفى الأحوال العادية يجب على السيد أن يوفر الغذاء لأتباعه ، وأن يجد لهم الزوجة — من طبقتهم بالطبع — وأن يدفع مهرها كما يدفع عنهم ضرائبهم التى تقررها الحكومة .

ولا يجوز للدوبى أن يملك ماشية أو يتزوج أكثر من واحدة ، كما لا يجوز له أن يأكل مع سيده . وفى الحفلات يتناول نصيبه من الذبيحة (جزءاً منها) ويذهب بعيداً ليتعاطاه منفرداً .

والأصل فى طبقة الأحرار ألا يتزوجوا من اللوبيات ، ومع ذلك كثيراً ما تزوج رجل من الأحرار امرأة من اللوبى ، وبخاصة إذا لم يرزق ذرية ، أو لم تعش ذرية من زوجه الحرة . وعندئذ يبادر بتحرير زوجته اللوبية . وهكذا تسرب الدم اللوبى إلى سلالة اللوى .

وليس من السهل أن نحاول تعليل هذا الاختلاف فى الطبقات . والبارى أنفسهم لديهم أكثر من تفسير واحد لوجود هذا التقسيم : فيزعمون أن اللوبى هم أقدم السكان فى البلاد ، وكانوا لا يرعون ماشية ، بل يأكلون لحم فيران الغيط ، التى يصيدونها بالشراك . فلما جاء البارى بماشيتهم ، داست الماشية على تلك الشراك حتى أزالتها . فجاء إليهم اللوبى يلتمسون ما يقتاتون به من لبن أو غيره . وبذلك صاروا يتناولون طعامهم نظير خدمات يؤدونهـــا لســـادتهم .

وهذه الروايات وأمثالها تشير إلى أن شعباً من الرعاة تغلب فيهم الدماء الحامية نزلوا بالبلاد فى زمن متقدم — ولعله ليس معرقاً فى القدم — وسخروا سكانها القدماء لخدمتهم ، وجعلوا منهم طبقة الأرقاء . وهؤلاء السكان القدماء كانوا يمتازون بصفات وتقاطيع تختلف عن صفات المهاجرين ، فكانوا أقصر قامة ، والنسبة الرأسية فيهم عالية ، يميلون إلى احتراف الصيد ، وقد يزرعون قليلا ، والأنف عريض ولون البشرة نحاسى أحمر . وهذه الصفات تدل على خليط من الزنج والأقزام ، أى السلالة التى يحق لنا أن نتوقع وجودها قبل هجرة الحاميين .

ولا شك أننا حتى فى الوقت الحاضر نرى أمثلة من البارى من الطبقات الراقية تتميز بصفات حامية واضحة . بينما كثير من اللوبى تبدو فيها الصفات الأخرى . ولعل هذه الظاهرة كانت فيما مضى ، أكثر وضوحاً مما هى اليوم ، بعد أن حدث التزاوج الذى أشرنا إليه من قبل .

وليست حالة اللوبى سيئة دائماً ، لأن خدمتهم تتناول أعمالا مرغوباً فيها مثل صنع الجعة والغناء والرقص . وكذلك يرتفع مقامهم إذا كانوا من أتباع

زعماء المطر فيمثلونه فى بعض الحفلات وينوبون عنه . كما يعاونون أيضاً البونيت أو الأشخاص الذين يعالجون الأمراض .

٣ـ هنالك طبقات أخرى خلاف الدوبى ينظر إليهم الأحرار نظرة احتقار . عددهم ليس كبيراً ، ولكن لهم أعمال ونشاط خاص . وهؤلاء هم :

أولا : طبقة الصيادين أو اليارى Yari وهؤلاء يعيشون فى قرى صغيرة ، بعيدة عن النهر . وليست لهم ماشية ولا يزرعون إلا قليلا ، ويمارسون حرفة الجمع والالتقاط والصيد بخاصة . ويصيدون كل شىء حتى الفيلة . ويؤدون لزعيمهم ضريبة من ثمر الهجليج والتمر هندى والعسل والنحل وسن الفيل . وعند الزواج يلتمسون من هذا الزعيم أن يدبر لهم الفحل والعجلة من البقر : وهو المهر الذى كان مصطلحاً عليه .

ثانياً : طبقة الحدادين ، وهؤلاء يمارسون حرفتهم خارج قرى البارى ، أو فى قراهم الخاصة : ومن أهم ما يصنعونه الفئوس للزراعة والسنان للرماح والسهـــام .

ثالثاً : طبقة صيادى النهر . وهؤلاء كانوا فيما مضى ــ وبعضهم لا يزال إلى الآن ــ يعيشون فى قرى خاصة بهم فى أكواخ أصغر حجماً .

وفى نظر هؤلاء أن الفرق بينهم وبين الدوبى كبير كما هو بين اللوى والدوبى . ومع ذلك فإن الأحرار يدعونهم دوبى ، أى من درجة عبيد الأرض .. وهم جميعاً ينكرون ذلك كل الإنكار ، ولكن الشخص الذى يتزعمهم دائماً رجل من الأحرار . . ومن الجائز أن وصفهم بأنهم دوبى مجرد تعبير ازدراء ، لأنهم بحكم حرفتهم لهم بعض الاستقلال ، ويستطيعون الاستغناء عن مساعدة الزعيم فى الحصول على زوجة ، لأن كلا منهم ينتج سلعة لها قيمتها . فالحداد قد يسهل عليه أن يجد الزباين لرءوس الحراب والفئوس ، وصياد النهر أهم سلعة ينتجها دهن فرس البحر .

هذه إذن هى طبقات المجتمع عند البارى ، منها أربع طبقات « وضيعة »

وطبقة واحدة سائدة ، وهؤلاء يملكون القطعان ولهم كل مناصب الرياسة والزعامة .

هذه الحالة السائدة عند البارى تشابه أحوالا أخري فى القارة الأفريقية ، وإن لم تكن مطابقة لها تماماً . . ويقارن بعض العلماء حالة البارى ، بحالة النانديى والماساى ، الذين يتخذون من الدروبو خدماً يؤدون لهم بعض الأعمال التى ينفرون منها . غير أن القياس مع الفارق لأن الدروبو مجرد جيران ، لهم حياتهم واستقلالهم ونشاطهم الاقتصادى . وخدماتهم للماساى مجرد عمل إضافى فهم ليسوا عبيد الأرض ، حتى ولو نظر إليهم النانديى والماساى نظرة احتقار .

وحالة البارى — مع وجود ما يشبهها فى أفريقيا- تمتاز بأن عدد الأحرار كبير جداً والطبقات الواطية قليلة بالنسبة إليهم . . ولا ننسى أن البارى يسهمون فى أعمال زراعاتهم ولا يعتمدون على الدونى . وقلة عددهم بالنسبة للأحرار[1] جعل المجتمع أكثر استتباباً فلم تحدث فيه ثورات كالتى حدثت فى رواندا . وكل ما ترتب على التطورات الحديثة أن مركز تلك الطبقات قد تحسن كثيراً . ويقول الأستاذ هويتهد Whitehead أن حالة الطبقات تغيرت لبعض العوامل أهمها :

١ — إدخال النقود منذ اتصال الشمال بالجنوب فى منتصف القرن التاسع عشر إلى الآن . فقد دخلت البلاد سلعة جديدة وهى النقود يمكن استخدامها فى الحصول على أى شىء . وأمكن بوجه خاص لطبقة الصيادين Yari أن تستفيد فائدة عظيمة لأن الاتصال الجديد كان مصحوباً برواج سلعة سن الفيل . وكان يدفع فيها ثمن لم يكن يحلمون بمثله . وكان البارى أكبر من استفاد لأنهم وحدهم يقدرون على الصيد . حتى يروى أن بعض الأحرار أخذ يقلدهم ويحترف حرفتهم .

---

(١) يزعم هيتنجفورد أن البارى كانوا منتبهين إلى خطر تكاثر للدونى . وأنهم كانوا فى وقت ما يعدمون نسلهم (راجع ص ٢٩ من Huntingford : Northern Hamites (1953)

وبدرجة أقل حدث رواج فى سلعة الحدادين وصيادي السمك . فأمكن لكل هذه الطبقات الواطية أن تحصل على النقود ، وما يمكن أن تشترى به النقود من بقر وماعز . فأصبح فى وسعهم أن يدفعوا المهور دون الالتجاء إلى الزعيم .

٢ - وهناك عامل آخر أثر فى المجتمع . وكان له أثر شديد فى طبقة الأحرار ، وذلك أن الماشية تناقصت تناقصاً مطرداً فترة من الزمن . فجميع السائحين الأوائل شهدوا بأن الماشية عند الباري كثيرة جداً وبعد ذلك تناقصت بسبب الأمراض والإغارات ، حتى جاء وقت لم يكن المهر يدفع بالبقر ، بل بالماعز والغنم . ثم كثرت الماشية مرة أخرى منذ أوائل القرن الحالى . ولكنها لم تعد للطبقات التى كانت تملكها وحدها من قبل . إذ أصبح منها عند الدوبى ، وغير الدوبى الشيء الكثير .

وفقدان الماشية فى أواخر القرن الماضى كان له أثر آخر . وهو الانصراف إلى الزراعة وزيادة العناية بها . ولم يبق ما يدعو إلى إنشاء الزرائب Kurumi فى أماكن بعيدة . لكى يعيش فيها الشباب . وترتب على ذلك أن انصرف الشباب إلى العمل فى الزراعة ، وأدخلت غلات جديدة . وأصبح الأحرار جميعاً لا يستنكفون من العمل فى الحقول .

المناصب الهامة لشعب الباري :

١ - جالب المطر : أو زعيم الماء . هو بلا شك أسمى المناصب فى النظام الاجتماعى كله . والمنصب وراثى فى أسرة واحدة فى عشيرة بيكات ، وكان مركز الأسرة ومركز الزعيم فى شنديرو Shindiru . وبقى الأمر كذلك إلى منتصف القرن الثامن عشر إذ شجر خصام حول الزعامة بين أخوين ، فانتقل أحدهما إلى قرية بلنيان Belinian ، وليست ببعيدة عن شنديرو ، ونصب نفسه زعيما آخر للمطر مركزه بلنيان Belinian .

٢ – الزعيم الثانى عند البارى . زعيم الأرض أو كما يسمونه مونيكاك Monykak وتتصل وظيفته بالزراعة والمحاصيل .

٣ – والمنصب الثالث فى الأهمية رجل الطب يسميه البارى بونيت Bunit

لا شك أن زعيم المطر أهم الزعماء وأبعدهم شأناً ، وكل زعيم مطر له كاهن أوبونيت يعمل معه . . وأسرة بيكات لها نفوذ يشمل البلاد كلها – على الرغم من وجود بعض جالبى المطر فى بعض النواحى . وأهميتهم محلية . أما أسرة بيكات فربما وصل نفوذ زعيم المطر منها إلى البلاد المجاورة فى الغرب . وتدفع لزعيم المطر هدايا بانتظام ، معظمها غلات زراعية ، وربما كان منها بعض الدواب .

أما زعيم الأرض ، فهو الخبير فى شئون المحاصيل والزراعة ، ويرجع إليه فى معظم شئون الزراعة وما تتطلبه من حفلات دينية ونحو ذلك . والعادة أن يكون فى كل قرية زعيم للأرض . وأحياناً أكثر من واحد . إذا كانت الحلة كبيرة ، والمنصب وراثى . والأصل فيه أن يكون قد تولاه رجل قام بتطهير مساحة كبيرة من الشجر وتولى زراعتها لأول مرة . وهو الذى يرشد العشيرة فى كل ما له صلة بالمحاصيل ومواعيد الزراعة وفى شئون المراعى والصيد . ويظل فى القرية دائماً لأداء هذه الوظائف ، وإذا كان هناك أرض تقسم فإنه يشرف على التقسيم . وهو يحصـــل على هدايا مختلفة ، وهو يعمل بالتعاون مع جالب المطر ، ويتفاهمان معاً على مواعيد البذر والحصاد .

أما خبير الطب (بونيت) فقد يكون ذكراً أو أنثى ، وهو يمارس حرفته بمزيج من الطب والسحر . ويكون عادة من أسرة معروفة بهذه الحرفة . . ومن عادته أن يكثر من مواساة المرضى وملاطفتهم .

ومن أهم ما يختص به مقاومة الحسد . ويلجأ إليه من أجل هذه الخدمة كل من رزق وفرة فى الماشية أو الولد. وهو أيضاًالكاهن الذىينصحويحذر من بعض الأعمال ، ويؤخذ رأيه فى كل مناسبة .

ولكل زعيم مطر كما ذكرنا بونيت يعاونه ، وكذلك لكل واحد من زعماء الأرض .

وهذه الزعامات كلها تشتمل على وظائف . فالأشخاص لهم عمل محدد . ووظيفتهم أقرب إلى أن تكون وظيفة «روحية» ritual وليست «حكومية» . ولا يعرف تماماً أن من تقاليد البارى أن يكون لهم زعيم مدنى : يتولى شئون الحكم . وفى الأغلب أن لكل عشيرة هامة زعيماً محلياً لكنه ليس بذى سلطة مطلقة . بل هو مقيد بآراء مجلس مكون من شيوخ العشيرة . . وربما حدث أحياناً — على غير قاعدة — أن ينشأ زعيم من ذوى الجاه والمال له نفوذ يتجاوز عشيرته . إلى درجة أن السلطة الزمنية قد تكون موزعة فى البارى بين أربعة أو خمسةمن الرؤساء ، ولكنهذه الحال تجىء نتيجة لعوامل شخصية وامتياز الشخص برجحان العقل والعطف وحسن التدبير . أو تكون نتيجة ظروف خاصة تتطلب اتحاداً بين عدد كبير من العشائر .

والظروف الحديثة لا تساعد على قيام مثل هذا الزعيم الكبير . وتدخل حكومة الاستعمار فى شئون البارى كما هى الحال عند غيرهم . يقوم على توجيه الأمور عن طريق الزعماء الوطنيين . ولكن الأهالى سرعان ما أدركوا أن السلطة الحقيقية فى يد الحكام الرسميين . وأنسلطة زعمائهم إنما هى مستمدة من السلطة التى يسمح لهم بها الحاكم . ولا شك أن هذه الحال كان لها أثر عميق فى النظام الاجتماعى للبارى ، إذا أفقدت الزعماء كثيراً مما كانوا يتمتعون به من النفوذ .

ومن الطريف أن هذه الحال جعلت البارى ينشئون فى مصطلحهم نوعاً جديداً من الزعامة ، ويسمونه Kimak ti Gela : الزعيم الذى له حظوة عند الأجانب . وهو من الوجهة العملية له فائدة جديدة وهى قضاء الأمور بالتوسط لدى السلطات .

طبقات السن .

يمر الشخص عند البارى كما هى الحال عند غيرهم من النيليين الحاميين بمراحل منذ عهد الطفولة . وليست المراحل محددة تماماً كما هى الحال عند الماساى . ولكنها لا تخلو من التشابه ، فالأولاد والبنات قبل أن تخلع قواطعهم يسمون لويوديات Lupudiat للأولاد وكوديسى Kodisi للبنات . . وبعد ذلك بفترة قصيرة يؤدونها فى الخدمة ، يدخلون مرحلة الفتوة Teton ثم الرجولة Temejik بعد سن ٣٥ ، والشيخوخة Mudungin بعد سن ٥٥ .

وعادة خلع القواطع شائعة عند البارى ، وهى تلعب الدور الرئيسى فى نظام التنشئة Initiation للذكور والإناث . وهى تقوم مقام الختان عند الماساى . (وليس الختان من عادة البارى) . . وقد تخلع القواطع فى حفلات منفصلة للأولاد والبنات وتحدث فى حوالى سن السادسة عشرة بالنسبة للأولاد ، أما البنات فإن تنشئتهن لها نظام خاص سنذكره فيما يلى . ويقوم بعملية خلع القواطع شخص متخصص . وعند البارى تخلع القواطع الأربع السفلى . وبعد العملية تربط الشفة بخيط فيه خرز فيحملها حتى يتم شفاء اللثة . ويحدث هذا عادة فى موسم الحصاد . والشباب الذين أجريت لهم العملية لا يعودون إلى بيوتهم ، بل يوضعون فى منزل خاص تحت رعاية رئيس القرية . وهو يتولى إطعامهم ، وبعد أن تشفى الجروح يخدمونه بضعة أشهر قبل أن يعودوا إلى ديـــارهم .

أما تنشئة البنات فتشتمل على أعمال أخرى . . إذ يجرى عليهن سلسلة من عمليات الوشم[1] قبل وبعد خلع القواطع . ففى نحو الخامسة عشر يعمل لها الوشم

---

(١) يستخدم المؤلف كلمة الوشم لتؤدى معنى Cicatrisation — وهو كالوشم تماماً عدا أنه لا تستخدم فيه مادة ملونة . والوسم (بالسين) يستخدم فى وسم الدواب ... أما الوشم فللتجميل . وهو منتشر فى إفريقية عند بعض قبائل الشرق والغرب لتزيين جسم المرأة ... ومعظم التفاصيل هنا مأخوذة عن Huntingford .

الأول فى الجزء الأسفل من الظهر . ويشتمل الوشم فى هذه الحالة على ثلاثة أسطر من النقط عن يمين وشمال العمود الفقرى . ويكون الرسم أفقياً . وفى أثناء مدة الانتظار التى تسبق إجراء هذه العملية تتناول البنات غذاء طيباً ويزورهن الأصدقاء ، وتنشد الأغانى ويدور الرقص . . ثم تتم عملية الوشم للبنات جميعاً فى ذلك الجزء من أجسامهن . وفى سن ١٧ سنة يجىء دور البطن فيجرى عليه الوشم على النحو المذكور . وبعد ذلك بعام تتم عملية الوشم الثالثة وتكون فى الظهر إلى جوار العمود الفقرى وموازية له . ومع أن الإجراءات قد تختلف عما تقدم ، غير أن الفتيات بعد هذه العملية الثالثة يطفن بالمنازل يغنين ويرقصن ويتسلمن الهدايا قبل أن يبلغن ديارهن ؛ وبعد ذلك بعام — أى فى نحو سن التاسعة عشرة — تجىء حفلة خلع القواطع . وفى سن العشرين تجرى لهن آخر عملية وشم . وهى عبارة عن سطور على جانبى الصدر تحت الترقوة . وبعد ذلك تستطيع البنت أن تبدأ حياة الزوجية الكاملة ، ومهما يكن من أمر فإنها لا تستطيع الزواج قبل إتمام عملية خلع القواطع .

وهكذا تشتمل تنشئة البنات على ثلاث عمليات وشم تسبق خلع القواطع ، وعملية وشم وحدها . أما الأولاد ، فإن خلع القواطع هو العمل الخطير الذى ينتقلون به من مرحلة الصبا إلى مرحلة الفتوة التى يقضون فيها ، من سن ١٧ إلى سن ٣٥ — ويكون الشباب الذين وصلوا إلى هذه المرحلة معاً مجموعة سن واحدة (Age-set) . تربطها أواصر الصداقة والتعاون مدى الحياة . ومجموعة السن اسمها فى لغة البارى بر Ber . وليست لها الآن صفة حربية ولكن هذا ليس معناه أنها لم تكن لها هذه الصفة فى الأزمنة الماضية ، وكل بر له اسم خاص مثل : « الغزاة » — « العصاة » — « الشجعان » — « الأخوان » . . . الخ . وأفراده يتعاونون فى معظم شئون الحياة .

نظام الزواج :

كان الزواج يتم فيما مضى فى سن متأخرة لمعظم الشبان . أى حوالى سن ٣٢ ، كما سبق لنا ذكره ، غير أن التغير فى نظام المجتمع الذى ترتب عليه زوال نظام الزراتب المشتركة Kurumi والانصراف إلى مزيد من النشاط الزراعى ، وغير ذلك من التطورات أتاحت للشباب أن يتزوج فى سن مبكرة وتتاح له الفرصة للتزوج بأكثر من زوجة تبعاً للمركز الاجتماعى والمالى .

والعادة أن يجرى الزواج بناء على اختيار الرجل . أى أن الشاب هو الذى يخطو الخطوة الأولى ولكن من الجائز أيضاً فى بعض أحوال رواها سلجمان أن يتخذ والد البنت إجراء يرمى إلى الحصول على زوج لابنته ، إذا رأى أنه شخص مرغوب فيه جداً .

والعرف يقضى بعد أن يتفاهم الشاب والفتاة ألا يتقدم الشاب بنفسه ، بل ينوب عنه البر أى مجموعة السن التى ينتمى إليها . . فينزل الجميع ضيوفاً على الوالد يوماً أو يومين ، ثم يسألهم ما خطبهم (كأنه لا يعرف) وفى الغالب لا يقبل ولا يرفض ، بل يسألهم أن يمروا به مرة أخرى . . فيعودون بعد أيام ، وتجرى الضيافة ثانية ويسألهم ما خطبهم فيخبرونه . فيقول للفتى أن يرسل أباه . وفى اجتماع الأبوين يتفق على المهر ، وبقطع النظر عن السنين العجاف التى مرت بها القبيلة . فإن المهر يتألف عادة من نحو عشر من الماشية . . وعدد من الماعز . والأغنياء يدفعون أكثر . ومن الأمثلة المشهورة على ذلك لارو لادو الزعيم فى منجلا فى وقت الدراويش دفع فى مهر زوجه ٥٠ رأساً من الماشية و ٤٠ من الماعز ، ومقداراً كبيراً من الذرة . وفى الأحوال العادية يدفع المهر على دفعات ، وبعد أن يدفع معظمه وتقترب حفلة القران يرسل العريس عوداً من البوص ، ملبساً فيه عدداً من الخواتم ، لكى يوزع فى حلقة الرقص يوم حفل الزواج وجميع أقارب الفتاة اللائى لم يتزوجن يتقاسمن هذه الخواتم الحديدية ، ثم تعقد حفلة رقص يشرب فيها كثير من الجعة .

وتظل العروس فى بيت والدها شهرين أو أكثر ، قبل أن تذهب إلى كوخ زوجها فى صحبة عجائز عليهن طلاء أحمر . ويضيفهن الزوج ويبالغ فى إكرامهن ، ويمنحهن الهدايا ، فيعدن إلى الوالد ويخبرنه أن كل شيء على ما يرام . . كذلك تعود الزوجة إلى بيت والدها عند اقتراب الوضع وبخاصة بالنسبة للطفل الأول . ولا ترجع إلى الزوج إلا بعد بضعة أشهر .

هذا هو النظام الشائع للزواج عند البارى ، وقد يكون هناك اختلاف فى التفاصيل بين عشيرة وأخرى ، ولكن معظم الإجراءات متشابهة . وقد تخطب الفتاة وهى فى سن الحداثة وقبل خلع القواطع ، ولكن الزواج لا يتم إلا بعد هذا الإجراء .

وواضح مما ذكر آنفاً أن الشباب يختار زوجته من عشيرة غريبة ، خلاف عشيرة والده . وعليه أيضاً أن يمتنع عن الزواج من أى فتاة بينه وبينها أى صلة قرابة . فلا يجوز لشاب مثلا أن يتزوج بنت خال أو بنت خالة ، مع أنها من غير عشيرة أبيه ، غير أن قرابتها من أمه تحرم زواجه منها .

وليس من الضرورى أن يمتنع الشاب عن الزواج بفتاة من عشيرة أمه — كما هى الحال عند بعض القبائل — على شرط ألا يكون بينها وبين الأم أواصر قرابة .

وهذا معناه أن الشاب الذى يبغى الزواج يجب أن يغترب ، لكن ليس معنى هذا أن يبتعد عن قريته كثيراً ، بحثاً عن الزوجة ، فإن القرية الواحدة ربما اشتملت على أجزاء من عدة عشائر .

أما تعدد الزوجات فأمر يتوقف على المال ، والظروف التى قضت بأن يبكر الشباب بالزواج لا بد أن توحى أيضاً بزوجة ثانية وثالثة . وهذا هو المثل الذى ينشده أكثر الشباب إذا استطاع لذلك سبيلا . والزعيم الغنى ربما استطاع أن يتزوج ستاً ، بل عشراً فى نظر سلجمان . أما متوسطو الحال فيكتفون باثنتين أو ثلاث . والمتواضعون يكتفون بواحدة ، وقد ذكر بيتن Beaton

أنه وجد بعض النواحى لا يزيد عدد المتزوجين بأكثر من واحدة على ١١٪ والمتزوجون بامرأة واحدة ٥٢٪ والباقى ٣٧٪ لم يتزوجوا بعد . ومع أن هذا الإحصاء قد تنقصه الدقة ، أو أنه يمثل حالة استثنائية ، فإنه يدل على كل حال إن كثيراً مما يقال عن تعدد الزوجات فى الشعوب البدائية ، يجب أن ينظر إليه بغاية الاحتراس .

والأرامل عادة يرثها الأخ الأكبر للمتوفى . ويمكن للابن إذا كان كبير السن أن يرث أرامل أبيه (عدا أمه بالطبع) . وكذلك ربما آلت الأرامل إلى ابن الخال ، وفى جميع هذه الأحوال لا يدفع لهؤلاء الزوجات مهر . والفكرة فى هذا أن هؤلاء النسوة وأولادهن قد تركن بلاعائل ، وقد سبق دفع مهرهن بوساطة المتوفى ، ولا بد أن يخلفه من يعولهن وأبناءهن وبناتهن .

ويصف هويتهد ما يحدث فى مثل هذه الحال فيقول :

« بعد أن مات رئيس الأسرة ، أخذت الأسرة ترثيه وتبكيه ستة أشهر وبعد انتهاء مدة الحداد فى الشهر السابع جاء أكبر إخوته وجمع الأسرة ، وسأل الزوجات واحدة واحدة : « من الذى يعول أطفال الفقيد ويعولكن من بعده ؟ » فأجابت ست من الزوجات : « أنت تتولى رعايتنا » . ولكن الزوجة السابعة اختارت ابن خال الفقيد » .

هؤلاء الأرامل قد يكن أرامل لا يصلحن لإنتاج ذرية جديدة . ولكن قد يكون بينهن من لا تزال فى سن الحمل . وفى هذه الحال يكون الأطفال أبناء الفقيد ، لأنه هو الذى دفع المهر .

وإذا أراد الأخ الذى ورث الزوجات تغييراً فى هذا الوضع ، فإن عليه فى هذه الحال أن يبعث بهدية (بقرة وفحلا أو بقرة وعشرة من الماعز) إلى والد الأرملة ، وبذلك يكون له الحق فى أبناء الزوجة ، الذين يولدون بعد ذلك ؛ ولكن العادة أن تظل المرأة تابعة لزوجها الميت وكذلك جميع الأطفال السابقين واللاحقين ، كما هو المتبع أيضاً عند الدنكا .

ولا بد من الإشارة إلى أن تولى الأخ شئون أرامل أخيه ، ليس وراثة ، بالمعنى المألوف ، وليس الأرامل بسبب ذلك سلعة تورث ، كما يزعم بعض المتحاملين من المبشرين وغيرهم ، وإنما هو نظام لرعاية الأسرة التى مات عائلها . . . ونظام الميراث عند البارى يتبع النظام الأبوى . . ولو كان الأمر فى هذه الحال إرثاً . لكان الابن هو صاحب الحق ؛ ولكن البارى يعلمون أن الأرامل لسن إرثاً يورث ، بل عبئاً لا بد أن يحمله أحد . والأخ فى مثل هذه الحال مفضل على الجميع . ومع ذلك فإنه ليس فى الأمر اكراه ؛ وفى الغالب يتم هذا كله بشيء من الاتفاق ، فى أثناء الأشهر التى تلى الوفاة ، والاتفاق الشكلى الذى يتم بعد ذلك علناً ما هو إلا تنفيذ للاتفاق الخاص الذى حدث قبل ذلك .

الديـــانة :

من الجائز أن الديانة عند البارى — وسلجمان لم يستطع أن يكون صورة واضحة عنها — هى مزيج من شعائر وعقائد لم تنبعث كلها من مصدر واحد . ولذلك اختلطت فيها عناصر مختلفة ، والأمر الذى حار فيه سلجمان بوجه خاص هو الكائن المسمى نجون Ngun وعلاقته أو عدم علاقته بالقوة التى تتمثل فى أرواح السلف .

ونجون عندهم هو الكائن الأسمى ، أو القوة المهيمنة . . ولكنها قوة مزدوجة : سماوية وأرضية . أو كما يقول البارى Ngun loki (الإله فى السماء) و Ngun lo kak الإله فى (باطن) الأرض . وأحياناً يبدو مما يقوله البارى أن القوتين مظهران لكائن واحد . وأحياناً نجد أن كلا منهما قوة مستقلة تعارض الأخرى ، ويتنازعان السلطان والتحكم فى بنى الإنسان . فالقوة العليا تريد أن ترى الناس أحياء يدبون على سطح الأرض ويرزقون وينعمون . أما القوة السفلى فتريد أن تجذبهم إلى بطن الثرى . ومع أن نجون لوكى حسب هذا الرأى هو قوة تعمل للخير ، فإنها أيضاً قوة قادرة تهيمن على مصائر الناس ، ولها القدرة على الحياة والموت .

ومن الظاهرات التي تعزى للقوة العليا ، المطر ، وما يصحبه من سحاب ورعد وبرق ، ولذلك نرى صانع المطر كثيراً ما يستغيث بالنجون الأعلى ، ولكنه لا يكتفي بالاستغاثة به ، بل يستعين أيضاً بأرواح أجداده ، الذين كانت لهم دراية كبيرة بأمر المطر ، وهذا بعض وجه الغرابة ، في نظر سلجمان كذلك قد يقدم قرباناً إلى إله السماء هذا ، لكي يشفي المريض أو يرفع الوباء . ولكن أحياناً يكون هذا مصحوباً بتضحية لروح السلف . ولعل ما يبدو هنا أنه نوع من التناقض ليس تناقضاً حقيقياً ، بقدر ما هو مظهر للمصادر المختلفة التي تولدت منها الشعائر والعقائد عند الباري ، وليسوا هم وحدهم الذين نجد لديهم هذا الازدواج .

أما إله الأرض فيقال إنه المختص بنمو النبات والشجر ، ولذلك توجه إليه الدعوات والتضحيات الخاصة بالزراعة والخصوبة . ويزعم البعض أنه الأخ الأصغر لإله السماء وخاضع له . وهو على كل حال القوة الأرضية وله اتصال بالقبور والشواهد التي تنصب عليها .

وهناك ثعبان أخضر (في لون النبات) خال من السم ، لا يضر إنساناً ، والناس تفرح حين تراه وتقدم له بعض اللبن ، وعندهم أنه تتمثل فيه روح النجون الأرضي وأرواح السلف . وهذه الفكرة توحي بأنهم لا يفرقون بين القوتـــين .

والأشجار الكبيرة المعمرة يشار إليها أحياناً بأنها تتصل باله الأرض ، وأحياناً بأرواح السلف . وهذه الأشجار لها حظ وافر من التبجيل والاحترام ، فلا ينبغي تسلقها ، أو الاقتراب منها إلا للتضحية . وقد شاهد سلجمان شجرة من هذا الطراز ، وقد وضع في ثنايا لحائها بعض التبغ أو بعض العسل أو الدهن لأن نجون ربما تذوق شيئاً منها ، ويحدث هذا بوجه خاص وقت مواسم الزراعة لكي تجود الغلة . وهذه الاعتبارات جعلت بعض الأشجار ينظر إليها على أنها مسكن للسلف . وهذا لا ينطبق على كل شجرة كبيرة ، بل على الشجرة التي يراها البونيت أنها ذات صفة مقدسة .

مما تقدم يبدو أن العنصرين الأولين فى ديانة البارى هما إله السماء وإله الأرض ، وأن أرواح السلف ــ وهى العنصر الثالث ــ كثيراً ما تختلط أمرها باله الأرض ، لأنها فيما يبدو لا تصعد إلى السماء ، بل تظل على مقربة من الناس . تسكن المقابر وأحياناً الشجر ، ولها مقدرة على الخير . وهذا هو الأصل ، أى أنها ترعى وتحمى الخلف . ولكن إذا لم تلق ما تستحقه من الرعاية ، فإنها خليقة أن تنزل الويل والمرض بالناس، أما الرعاية التى تطلبها فهى ألا يرتكب الناس شراً أو إثماً ، وأن يذكروا الأجداد من آن لآن ، ببعض الحفلات ، ولو كانت متواضعة .

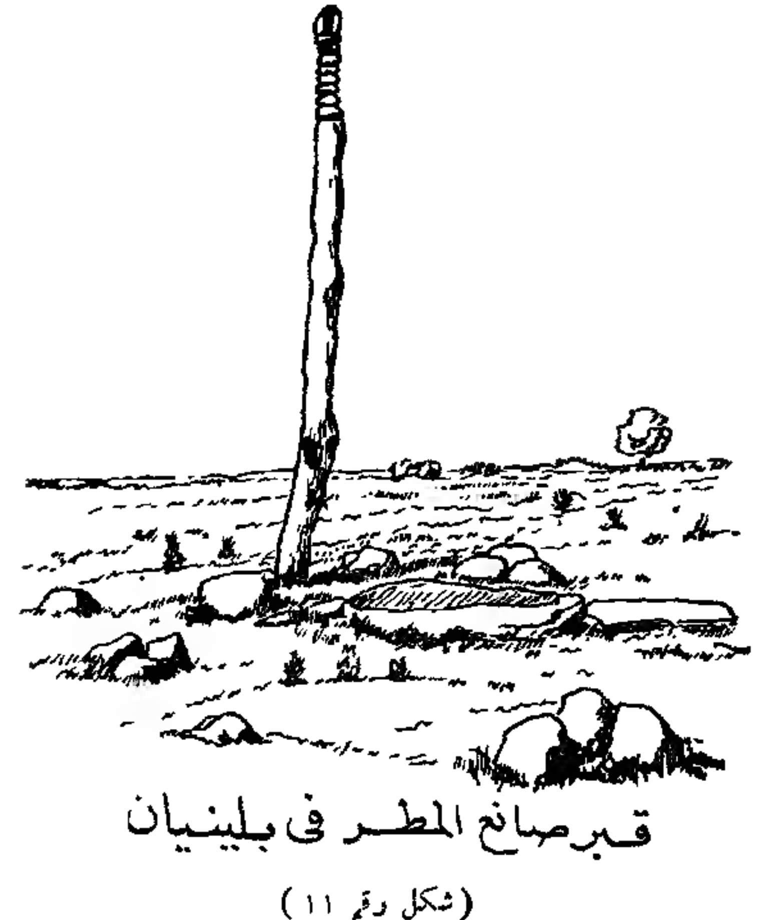
ولا شك أن أهم حقيقة نستنبطها من هذا كله أن البارى شعب متدين جداً ، وحريص أشد الحرص على أداء الشعائر والطقوس الدينية ، منتبه دائماً لما قد يتهم به من التقصير . ومستعد دائماً لما يكلف به من مظاهر التضحية والتكفــير .

الحفلات العامة وحفلة المطر بخاصة .

يتبع شدة التدين أن تكون هنالك حفلات عديدة وتضحيات ، منها حفلة الزراعة يقيمها صاحب الحقل ويذبح فيها عنزاً ، ويطبخ لحمه مع اللوبيا ويوزع على أشخاص بعينهم ، وحفلة الحصاد . . وحفلة الماشية للشكر على وفرتها وصحتها . وهذه كلها حفلات عادية موسمية ، تحدث كل عام ، وتخص شخصاً بعينه . . ولذلك لا يشترك فيها إلا صاحب الشأن وجيرته الأقربون .

وأهم الحفلات السنوية بلا شك هى حفلة جلب المطر ، وهذه لا تقام فى كل قرية ، بل لها أمكنة مخصصة . موزعة فى بعض الأنحاء ، ولكن أشهرها بلا شك ما يقام فى شنديرو وبدرجة أقل أهمية فى بلنيان : وهى تبعد إلى الشمال بنحو خمسين كيلو متراً . وكلا الموضعين على البر الشرقى عند خط عرض ٤،٣٠° شمال خط الاستواء (أنظر شكل ١١) .

هذه الحفلة تعقد عادة فى أبريل ،ومن مصلحة زعيم المطر أن يؤخرها حتى يكون موسم المطر قد اقترب حقاً . . وتبدأ السحب فى الظهور .



قبر صانع المطر فى بلينيان

(شكل رقم ١١)

ومن أهم العناصر فى هذه الحفلة :

١ ـ دواب سوداء اللون ودجاج تقدم لصانع المطر .

٢ ـ التضحية بواحدة من الدواب ويشارك هو وأعوانه من الدوبى فى تعاطى لحومها .

٣ ـ استخدام عدد كبير من حصا الكوارتس أو البللور الصخرى . وبعض أحجار أخرى من الجرانيت أو غيره . كلها صغيرة الحجم تدهن بالزيت أو بالدهن بعد أن تغسل .

٤ ـ الالتجاء ـ بوساطة صانع المطر ـ إلى روح أجداده :

هذه هى العناصر الأربعة الأساسية ، إلى جانب الدعوات والعزائم والابتهالات . . وهناك مظاهر أخرى تختلف من مكان إلى مكان .

ويروى سلجمان أن العادة كانت تقضى فيما مضى بأن زعيم المطر إذا فشل برغم التجائه إلى جميع الوسائل يوماً بعد يوم ، وبرغم ما بذل له من الهدايا والماشية ، فإن الناس تبادر بقتله . . وهذه الفكرة كانت سائدة أيضاً عند اللاتوكا . والفكرة وراء القتل ليست مجرد الانتقام من الرجل الذى حصل على الثمن ولم يسلم البضاعة ، بل لأنه أثبت أن السر المقدس قد زايله . فلم تعد له تلك القداسة التى يتمتع بها جالب المطر ، ولا ترضى عنه القوى السماوية . فيقتل لكى يخلى مكانه لزعيم مطر آخر ، وقد يكون من أقاربه .

ويروى أن بعض جالبى المطر قاوم ولم يذعن لمن يريدون قتله ، بدعوى أنه لم يقصر ، وأنه لم يعط الفرصة الكافية وتدور معركة بينه وأنصاره من جهة ، وبين الآخرين ، قد يقتل فيها أو ينتصر .

وهذه الظاهرة تشبه بعض نظائر لها لدى اللاتوكا كما ذكرنا ، وعند الدنكا والشلك كما سنرى . وبالطبع قد حرمت الحكومة هذه الأعمال العنيفة . ولم يعد صانع المطر يقتل ، ولعله أيضاً فقد بعض ما كان له من النفوذ .

ولا شك أن حفلة المطر أهم الحفلات ، ولا يراد بها أن تكون التماساً لسقوط المطر فقط ، بل أن تعم أيضاً بسببها البركات ويكثر الزرع والنسل . فهى حفلة خير للقبيلة كلها ، وهى فى الأغلب حفلة ناجحة ، لأنها تقام فى موعد سقوط المطر .

ولقد يقال إن بلاد البارى قلما تشكو الجفاف . وقلما تتعرض للجدب . وهى فى موقع جغرافى ممتاز بالقرب من نهر عظيم يجرى فيه الماء دائماً ، وبدون انقطاع . فالاهتمام بحفلات الاستسقاء ليس مما تفرضه طبيعة هذا الإقليم . بخلاف الإقليم الأوسط للنيليين الحاميين ، ما بين بحيرة كيوجا وبحيرة رودلف . فإن هذا حقاً يخشى أن يمتنع فيه المطر وأن يتعرض للجدب .

وهذا الاعتراض بلا شك وجيه ، ولعل خير ما يقال فى تفسير اهتمام البارى بالاستسقاء ، وحفلات المطر . أنها شىء تعلموه فى البيئة التى أقبلوا منها ، والتى هى فى الغالب أقرب إلى الإقليم المجدب ، إلى الشرق من أوغندا فبقيت لديهم الطقوس والعادات ، يراعونها حتى فى بيئتهم الجديدة ، الغنية بمطرها ونباتهــا .

* * *

فى ختام هذا الفصل لا يفوتنا أن نشير إلى أهمية الموقع الجغرافى لإقليم البارى . فهذا الباب الضيق المؤدى إلى أوغندا . يحف به جبال الكوكو من الناحية الغربية ، وجبال لانجيا من الناحية الشرقية . موقع استراتيجى خطير وقد تنبه الاستعمار إلى ما لهذا الموقع من الخطر ، ولم يكن الاستعمار يخفى أنه يريد أن يسيطر بصفة دائمة على السودان الجنوبى ليصله بأقطار أوغندا . . ولذلك ركز اهتمامه على شعوب هذا الطرف الجنوبى . وبذل منتهى التأييد لحركات التبشير التى اتخذت الجنوب مركزاً لنشاطها، واختاروا للبارى بالذات بعض نوابغ المبشرين ، وترك الاستعمار كل حركة التعليم والتثقيف والتوجيه فى أيدى هذه البعثات ، وأمدها بالمال ، وبعض هذا المال — إن لم يكن جله — قد حصل عليه من إيرادات أهل الشمال فكأنه جعل الشمال يدفع الثمن لتشجيع انفصال الجنوب عن الشمال ، وفى الوقت نفسه حرم على أهل الشمال أن يذهبوا إلى الجنوب إلا بترخيص خاص ، كما حرموا على كل من يدين بالإسلام أن يقيم شعائر دينه علناً ، بحيث يراه بعض سكان الجنوب . والدين المسيحى دين سمح كريم ، ولكن لم يكن المراد به أن يكون ديناً يطهر النفس ويهذب الطبع ، بل وسيلة للتفرقة بين أهل الوطن الواحد .

وقد اضطررنا لأن نذكر هذه الحقائق هنا ، لأن البارى ، وبعض جيرانهم فى الجنوب ، قد ترددت أسماؤهم فى أثناء هذه الفتن التى نفث الاستعمار سمومها بين سكان السودان ، فأضاف بذلك صفحة سوداء ، إلى ماضيه الملآن بالإفك والإثم والشرور .

ولم ينجح المبشرون كثيراً — كما أكد لى غير واحد منهم — فى تلقين أهل الجنوب مبادئ الدين المسيحى الكريم . ولكنهم بلا شك نجحوا نجاحاً هائلا فى التفرقة ، وإثارة الكراهية والبغضاء عند أهل الجنوب . مع أن هذا أكبر ما ينافى تعاليم الحب والسماحة التى بنى عليها الدين المسيحى . وقد لوث الاستعمار الدين بأن جعله أداة للوصول إلى مآربه بأحط الوسائل وأخسها .

الفصل السابع

النيليون ـ الدنكا

— ١ —

النيليون أو ما يسميه الإنجليز Nilotes مجموعة من الشعوب ، موزعة بين أوطان متباعدة فى كينيا وأوغندا وفى السودان ، وأطراف أثيوبيا الغربية . والنسبة إلى النيل هى بالطبع من صنع العلماء ، ولها ما يبررها ، لأن جميع السلالات النيلية ذات أوطان على مقربة دائماً من نهر النيل . . ولا شك أن أهم مجموعة منهم هى التى تعيش فى السودان ، وتحتل من السودان الجنوبى معظمه . وتقع فى الأقاليم الوسطى منه . بينما السلالات غير النيلية تحتل الأطراف. وهذا الجزء الأوسط ليس مجرد مساحة متواضعة فى المركز ، بل عبارة عن إقليم مترامى الأطراف يستغرق معظم حوض بحر الجبل وبحر الغزال والسوباط وأعالى النيل الأبيض . . ويمتد طولا فى مساحة تبلغ ٨٠٠ ك م من الشمال إلى الجنوب ، وقد تصل إلى نحو ٥٠٠ ك م من الشرق إلى الغرب ؛ أى أنها تحتل ما يقرب من نصف مساحة السودان الجنوبى كله .

والنيليون أينما وجدوا متشابهون فى لغاتهم وتقاليدهم وثقافتهم . وبينهم وبين النيليين الحاميين تشابه فى أمور كثيرة ، كتمجيد الماشية وإيثار حرفة الرعى ، وتنظيم المجتمع ، وطبقات السن وبعض التشابه فى العقائد والطقوس ونحو ذلك . ولكن هناك اختلافاً ملحوظاً من الناحية اللغوية ، جعل للغات الحاميين صفات مفقودة عند لغات النيليين .

وهناك تشابه فى الصفات الشكلية ترتبت على وجود عناصر قوقازية فى كلا الفريقين وإن كانت تلك الصفات أكثر ظهوراً فى بعض الشعوب النيلية الحامية مثل الماساى ، وفى الوقت نفسه ليس هناك اختلاف بين الفريقين فى شكل الرأس . فالرأس مستطيل دائماً بنسبة تدور حول ٧٣ ؛ والقامة طويلة نحيلة ، مع قلة بروز العضلات . . بينما يجاور النيليين والنيليين الحاميين جماعات زنجية أكثر دكنة وارتفاعاً فى النسبة الرأسية كما هى الحال فى الجنوب الغربى من السودان .

ونظراً للتشابه فى الصفات الطبيعية والثقافية بين النيليين الحاميين والنيليين ، يرى الأستاذ سلجمان أن الأوطان الأصلية فى كلا الحالين متقاربة . . كما يرى أن الموطن النيلى واقع إلى الشمال بالنسبة للوطن الأصلى للنيليين الحاميين .

وأهم الشعوب التى تتألف منها المجموعة النيلية هى :

١ ـ جماعة اللوو Luo فى كينيا ، وهم يكونون عنصراً هاماً فى جمهورية كينيا المستقلة ، وتمتد أوطانهم من منطقة خليج كافروندو نحو الجنوب الشرقى .

٢ ـ شعب أتشولى Achuli فى أوغندا فى الجزء الشمالى منها . بقرب مجرى نهر أسوا وإلى الجنوب منه شعب آخر يدعى لانجو Lango ، يتكلم اليوم لغة النيليين ، ولكنه فى الأصل من شعب النيليين الحاميين . ولذلك ربما وجدناه فى بعض المراجع معدوداً من الشعوب النيلية . واللغات التى يتكلم بها كل من اللوو والأتشولى واللانجو هى لهجات من لغة نيلية واحدة تدعى جانج Gang ومن للهم التنبيه على أن كلمة جانج تفيد اللغة وليست اسما لشعب كما نجد فى بعض المراجع .

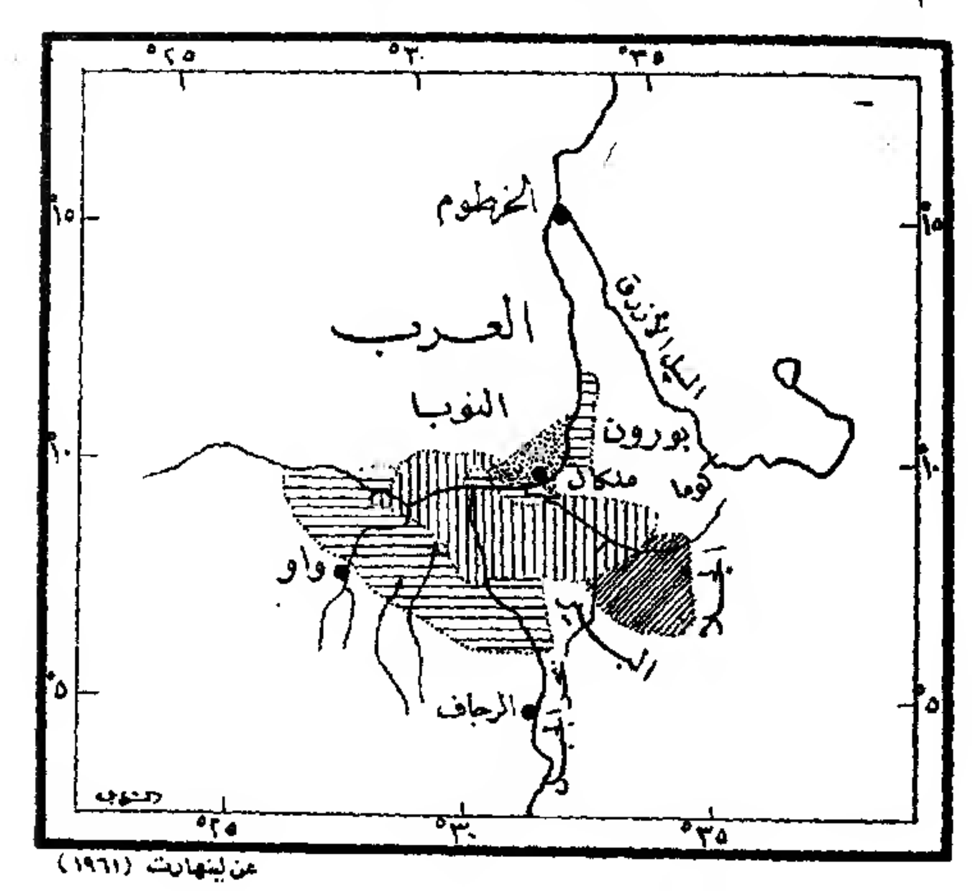
كذلك يجدر بنا أن تشير هنا إلى أن لغة الجانج تتبع مجموعة اللغات النيلية التى منها لغة الشلك ، الذين يعيشون على النيل الأبيض .

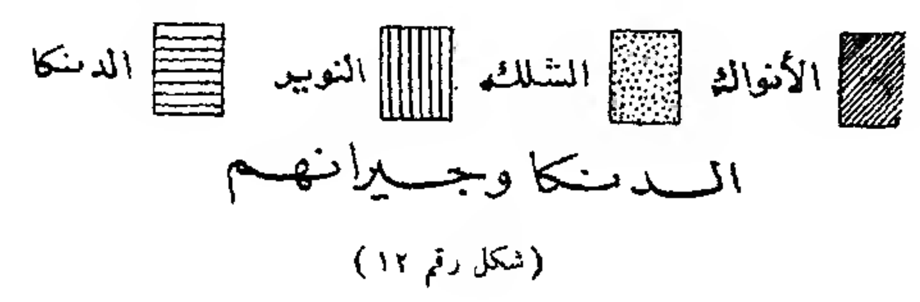
٣ ـ شعب الدنكا ، ومواطنه إلى شمال البارى . وسنتحدث عنه فيما بعد .

٤ ـ شعب النوير ، وأهم مواطنه فى الجزء الأسفل من بحر الجبل والغزال .

٥ ـ شعب الشلك . ومعظم أوطانه على الضفة الغربية للنيل الأبيض .

٦ ـ شعب الأنواك . في حوض نهر بارو من أهم روافد السوباط ، ومعظم أوطانه داخل حدود أثيوبيا (أنظر شكل ١٢) .





الدنكا وجيرانهم

(شكل رقم ١٢)

ولا يسمح المقام بأن ندرس هذه الشعوب كلها ؛ ونظراً لتشابه ثقافتها ، فإننا نكتفي بالكلام المفصل على شعبين وهما الدنكا والشلك . متبعين نفس الخطة التي عالجنا بها موضوع النيليين الحاميين بالتوسع في الكلام على شعبي الماساي والباري .

الدنكا

الدنكا أكثر عدداً وأوسع انتشاراً من أية مجموعة أخرى من الشعوب النيلية ، لكنهم لا يحتلون إقليماً مندمجاً متصلا ، بل تفصل بينهم قبائل النوير Nuer ، وتمثل أوطانهم موقعاً وسطاً تمتد من السوباط الأدنى إلى بحر الجبل ثم إلى بحر الغزال . إن المجرى الأسفل لهذه الأنهار الثلاثة يحتله النوير .

ومع ذلك فإن المساحة التي تعد من أوطان الدنكا عظيمة ، تبدأ من العرض السادس — أى إلى شمال البارى مباشرة — إلى الخط الثانى عشر الشمالى . . هذا من حيث الطول ، فيما عدا الجزء الذى يحتله النوير كما ذكرنا . أما من حيث العرض فإن مواطن الدنكا ضيقة فى الشمال ، وتلتزم الجانب الشرقى لنهر النيل الأبيض ومواضع قليلة جداً من الجانب الغربى . وهذا الجزء من أوطان الدنكا لا يزيد اتساعه من الشرق إلى الغرب على ٣٠ كيلو متراً فهم هنا جماعات نيلية حقاً تلتزم النهر ، كما هى الحال فى أوطان الشلك جيرانهم فى الغرب والجنوب .

هذا الوطن الشمالى للدنكا منعزل عن الوطن الجنوبى . . حتى يسمى سكانه أحياناً دنكا النيل الأبيض . لكن الوطن الجنوبى أعظم وأوسع ، ويشتمل على أقطار متصل بعضها ببعض ، تبدأ من السهول الشرقية فى حوض بحر الجبل ثم تمتد فى شكل مروحة إلى الشمال الغربى حتى تصل إلى شواطئ بحر العرب . ولهذا جرت العادة بتقسيم الدنكا إلى ثلاث شعب : شعبة النيل الأبيض وشعبة بحر الجبل ، وشعبة بحر الغزال . وقد حال هذا الانتشار والاتساع العظيم دون أى محاولة لتوحيد الدنكا فى نظام سياسى مشترك ، بل لقد كان هناك تشاحن وعداوات وحروب بين بعض القبائل الدنكاوية المتجاورة . وبرغم هذا هنالك اتفاق فى خصائص اللغةوالدين والنظم الاجتماعية الأساسية والاقتصادية . وإن لم يخل الأمر من اختلاف يسير بين اللهجات .

وجميع أوطان الدنكا ذات خصائص متشابهة ، فالأقطار التى يعيشون فيها

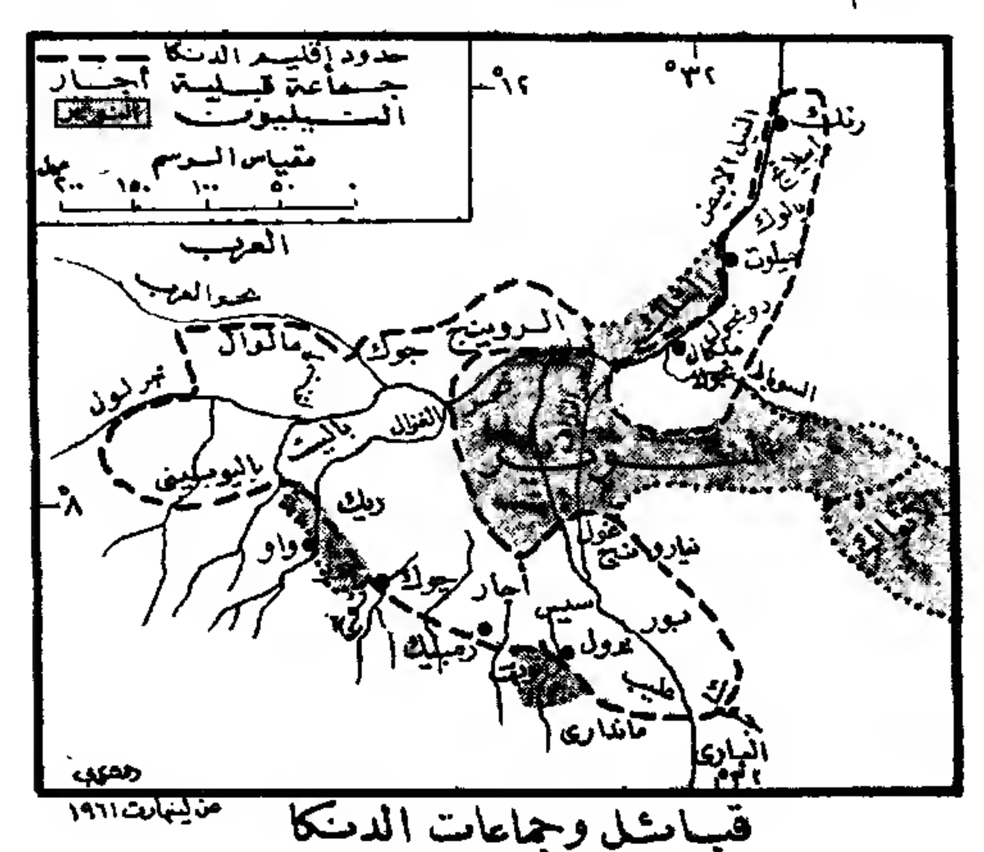
عبارة عن أراض سهلة خالية من أى أثر للجبال أو الكثبان . ولذلك كان تصريف المياه فيها متعذراً . فتنتشر فيها المستنقعات فى فصل المطر بسبب قلة الانحدار من جهة ، وبسبب طبيعة التربة من جهة أخرى ، وتزداد هذه المستنقعات ازدياداً هائلا فى الحوض الأدنى من بحر الجبل ، وحوض بحر الزراف ، حتى يتأثر نظام الحياة فى هذه المواقع . أما سائر الأقاليم التى يحتلها الدنكا . فإن الأمطار يعقبها انتشار الحشائش والأعشاب الغزيرة ، وتظل محتفظة بغزارتها ونضرتها إلى أشهر الشتاء . . ثم يجىء الجفاف الشديد فى أوائل العام إلى أوائل الربيع ، فتحترق الحشائش أو تجف جفافاً شديداً ، وتغدو هشيماً تذروه الرياح . وتجف الأرض حتى تصبح كتلة صلبة تختطها شقوق عميقة . . وفى هذا الفصل الشديد الجفاف والحرارة ، يلتمس الناس مهرباً من هذا الجفاف المنتشر ، فينزحون إلى أقرب مجرى للمياه ، ويتزاحمون على شواطئ الأنهار ، أو المنخفضات التى يتخلف بها بعض الماء .

وفى السهل الشرقى من بحر الجبل خط مستطيل من الأرض المرتفعة نسبياً يعلو بعشرات من الأمتار فوق مستوى السهول التى حوله ، ويمتد من الجنوب إلى الشمال ، كأنه جسر مستطيل منقطع فى مساحة طولها نحو مائة وخمسين كيلو متراً . . وكل جزء بارز نوعاً على هذه الصورة يسميه الدنكا دوك ، وعلى هذا المرتفع البسيط يتكاثف الشجر ، بحيث يحاكى شكل الغابات . وتتكاثر المنازل فوق مثل هذا المرتفع حتى تكون بلدة أو ما يشبه البلدة . وسيجدها القارئ على الخريطة ، يسمى بعضها دوك فايول Duk Faywel ودوك فاديات D. Fadiat ودوك عيوض . تسمية لها بأسماء أشخاص اشتهروا فى تاريخ الدنكا .

والاسم الذى تطلقه هذه الجماعات على نفسها هو جينج Djing (مفردها جانج) حرفها جيرانهم من العرب إلى دنكا والمفرد دنكاوى ؛ والاسم يدل على مجموعة كبيرة من القبائل ، مرصوصة بعضها إلى جانب بعض ؛ منفصلة بعضها عن بعض ، مستقل كل منها بحياته السياسية والاجتماعية والثقافية ،

وإن كانت كلها متفقة فى عناصر الثقافة الأساسية . كاللغة والدين والعادات والنظم السياسية والاجتماعية .

ولكل قبيلة اسمها الخاص . فقبيلة بور تعيش إلى جواو بلدة بور الواقعة على بحر الجبل والتى تحف بها المستنقعات ويبدو أن كلمة بور معناها المغمور بالمياه . وقبيلة علياب تليها إلى الشمال بالقرب من بحر الجبل ، ويقال إنها تسمى باسم جعران من الجعاوين ، التى تعيش فى الماء . وقبيلة سيك Cik



قبائل وجماعات الدنكا

عن لينهارت ١٩٦١

(شكل رقم ١٣)

التى تعيش بالقرب من شامبى مسماة باسم الرمح المقدس ، الذى تقدسه هذه القبيلة بالذات ، وقبيلة أجار Agar وتعيش إلى الغرب من نهر النعام ومركزها بلدة رمبيك Rumbeik وقد سميت بهذا الاسم ومعناه الثور المنتشر القرنين . وقبيلة توى Turi فى منطقة الدوك السابق وصفها ، واسمها معناه الرعد القاصف . . وهلم جرا أنظر (شكل ١٣) .

والحياة الاقتصادية للدنكا على الرغم من تشابهها ، ومن اعتمادها فى الجملة على حرفة الرعى ، لا تخلو من بعض الاختلاف فى جهات بعينها . ويرجع هذا الشذوذ إلى ظروف محلية ، طبيعية كانت أو بشرية . فمن الظروف الطبيعية انتشار المستنقعات فى الجزء الأوسط من الوطن الدنكاوى ، حيث يتعذر الانتقال من مكان إلى مكان ، ويتعذر بالتالى الوصول إلى المراعى ، إذ تغمر المياه مساحة واسعة من الأرض . . والدنكا الذين يعيشون فى هذه البيئة يطلق عليهم الآخرون اسم مون ثان Mon-than ، أو جماعة الثان . والثان معناه قطعة الأرض الجافة وسط المستنقعات .

كذلك نرى أن الحياة لا تعتمد على الرعى عند قبيلة سيك ، التى تعيش فى السهول الواقعة غربى بحر الجبل ما بين بور وشامبى ، فهؤلاء اختصوا بحرفة تميزهم عن سواهم ، وهى استخراج وصهر الحديد . وفى كلا هذين الحالين نرى أن الماشية لا تحتل مكاناً هاماً من نشاط العشائر ، وإنما يعتمد سكان المستنقعات على صيد السمك بوجه خاص ، وحيواناتهم قليلة ، وكذلك زراعتهم .

أما عشائر الحدادين — وهكذا يسمون فى الخرائط القديمة — فأوطانهم فى الجنوب الشرقى من بحر الغزال . . ومن الجائز أن تكون هناك عشائر أخرى من الدنكا تشتغل بصهر الحديد فى حوض الغزال ، ولكن الذين اشتهروا بذلك هم قبيلة سيك فى الغرب من شامبى والجنوب الغربى منها ، ويتخذون من صناعتهم وسيلة للمبادلة بها على ما يحتاجونه من الأشياء الأخرى ولكنهم مع ذلك لا يقتنون الماشية ، بل لعل حرفتهم الوحيدة الأخرى هى الصيد . ولقد نجد بين القبائل الأخرى أشخاصاً يعملون فى صناعة الحراب ورءوس الرماح ، ولكن هذه العشائر هى وحدها التى تشتغل بصهر الحديد وطريقتهم فى ذلك كما وصفها سلجمان أن يعملوا موقداً من الطين ارتفاعه نحو ١٧٥ سنتيمتراً ، وعرضه نحو الستين سنتيمتراً ، فى أسفله ثقوب يدخل منها الهواء . فيوضع بعض الحطب فى أسفل الموقد ، ومن فوقه مقدار كبير من

الفحم النباتى سمكه يزيد على المتر ، ومن فوقه طبقة من المعدن المشتمل على الحديد ؛ وهو يحتوى على نحو خمسين فى المائة من مادة الحديد، إلى جانب مواد أخرى ، وتغطى هذه الطبقة بمقدار آخر من الفحم النباتى ، وتستغرق عملية الصهر نحو ٢٤ ساعة ، تؤدى فى النهاية إلى رسوب كتلة مستديرة من الحديد قطرها نحو عشرين سنتيمتراً ، وهى وحـــدة المبادلة والتعامل ، فيدفع نحو عشرة من هذه الأقراص ثمناً لثور أو عجل كبير . ولا بد من دفع الخمسين أو الستين منها مهراً للزوجة ، وهذا أرخص من مهر الزوجة عند قبائل الدنكا، الذين يقتنون الماشية .

هذه المادة الحديدية ، تكون بعد ذلك بمثابة المادة الأولية ، التى تستخدم فى صنع الحراب والأسنة . وهذه بدورها تستخدم أيضاً فى المبادلة ويمكن بوساطتها اقتناء الأوانى أو الماشية الصغيرة كالضأن والماعز .

والعشائر التى تعتمد على الحديد تتزاوج فيما بينها ، وإن لم يكن محظوراً عليها أن تصاهر القبائل ذات الماشية ، غير أن قلة ما تملكه منها يجعل من المتعذر عليها أن تصاهر تلك القبائل[1] .

والأرجح أن مثل هذه الصناعة المعدنية — التى قد تتناول معادن أخرى مثل النحاس لصنع الحلى — غريبة على الدنكا ، ولعلها ترجع إلى مؤثرات ثقافية من جماعات سابقة لنزول الدنكا بهذا الإقليم ، أو جماعات آتية من الجنوب حيث يكثر معدن الحديد ، ويكثر المشتغلون بصناعته . وقد ذكر لينهرت فى كتابه عن ديانة الدنكا أن أسماء العشائر التى ذكرها سلجمان — على أنها تشتغل بصهر الحديد — ليست أسماء دنكاوية .

أما سائر الدنكا فإن قوام الاقتصاد عندهم هو بلا شك اقتناء الماشية ، وبوجه خاص اقتناء البقر ، وعلى الرغم من أن الدنكا كثيراً ما يقتنون الضأن والماعز ، ولديهم منها قطعان كثيرة ، فإن الماشية ذات المكان الرفيع فى

(١) راجع كتاب سلجمان Pagan Tribes ص ١٣٨ وما بعدها .

حياتهم الاقتصادية والروحية ، هى البقر ؛ فهى مقياس ثروتهم ومبعث فخارهم وعزهم ، ومصدر سعادتهم وبهجتهم ، وعماد مركزهم الاجتماعى ، فهى الأساس الاقتصادى للمجتمع ، فى مختلف شئونه ومظاهره ، بها تدفع المهور للزوجات ، وتدفع الدية طبقاً للنواميس والشرائع المعروفة المتوارثة ، الشيء الوحيد الذى يحسد المرء من أجله . وقليل الماشية لا بد له أن يسعى فى الحصول عليها بمختلف الوسائل . وفى عهد النظام والحكم الصارم قد يضطر الفرد لأن يعمل فى غير بلاده ، أو فى خدمة الحكومة ، لكى يجمع ما يمكنه من اقتناء ما يحتاجه من الماشية ؛ وهو لن يستطيع على كل حال شراءها من الدنكا، لأن الدراهم فى نظرهم أحقر من أن تقبل ثمناً للبقر . لكنه قد يشتريها من قبائل البقارة فى الأسواق الشمالية . . هذا ما يجرى فى حالة النظام والحكم ، أما فى حالة « الفطرة » التى اعتادها الدنكا فإن السبيل للحصول على الماشية هو الإغارة والنهب . وهذا الأمر قد يحدث الآن ما بين الدنكا والنوير أو بين قبائل مختلفة من الدنكا . ولكنه أصبح من الأمور النادرة .

ويقول سلجمان – بل وكل من كتب عن الدنكا – إن الماشية عندهم ليست مجرد مادة للحياة الاقتصادية على الرغم من أن هذا أمر له خطره ، بل لها فوق ذلك أهمية حيوية ، بل وروحية . لأنك لا ترى الدنكاوى مغتبطاً مسروراً إلا وهو يتحدث عن الماشية أو يرعاها أو يتأملها ، أو يتغنى بسيرتها . ومع أن الدنكا يزرعون الذرة الرفيعة ويتخذون منها مادة أساسية لغذائهم ، كما يزرعون التبغ ، ولهم ولع بالتدخين ، غير أن هذا النشاط الاقتصادى يعد شيئاً ثانوياً إلى جانب الماشية ، التى هى العماد الأكبر للحياة والركن الأساسى للنظام الاجتماعى كله .

وتراهم يبنون للماشية أكواخاً أضخم وأعظم مما يبنونه لأنفسهم (ويسمى لواك والجمع لويك) وفى هذه الأكواخ تبيت الماشية وسط المزارع والحشائش ، فى الوقت الذى تتوافر فيه الحشائش ، أما فى موسم الجفاف ، فتنتقل العشيرة إلى جوار الأخوار أو الجداول أو الغدران ، حيث تعيش

مع قطعانها فى أكواخ مؤقتة أو فى العراء أحياناً ، وهنا يعيش الرجال بالقرب من ماشيتهم ؛ وفى الليل توقد النيران فى موقد كبير يحرق فيه روث الماشية ، لكى تستعان بما يتصاعد منها من الدخان فى طرد البعوض كيلا يؤذى الماشية . وتربط الحيوانات إلى أوتاد من الخشب مغروزة فى الأرض ، لتكون بمأمن من أن تسرق ليلا ، ولكى تظل قريبة من موقد النار . والدنكاوى يبدى منتهى البسالة والجرأة فى الدفاع عن ماشيته ، والذود عنها .

والسلاح الذى يستخدمه الدنكا هو الرمح الطويل . وله سنان من مختلف الأشكال . ولا يختلف كثيراً عما يستخدمه سائر النيليين . وهناك حراب تستخدم فى الرماية من بعيد ومخصرة من الخشب المتين المصقول تنتهى ببكرة قطرها نحو ثمانية أو عشرة سنتيمترات ، وطولها نحو الستين أو السبعين سنتيمتراً . والحكومة لا تحول دون حمل هذا السلاح فى أى وقت يريد صاحبه . . ولا يستخدم الدنكا السيف ولا القسى والسهام ، اللهم إلا جماعات محدودة لدى قبيلة آجار ، وأكبر الظن أن هذا من تأثير اتصالهم بالشعوب الجنوبية فى حوض بحر الغزال .

النظام الاجتماعى :

ينقسم الدنكا كما رأينا إلى قبائل . وكل قبيلة تنقسم إلى عشائر . لكل عشيرة شعارها الخاص أى (طوطم) . ولا يجوز الزواج من العشيرة التى يتبعها الراغب فى الزواج . أى عشيرة الوالد . وتعيش كل عشيرة فى رقعة من الأرض خاصة بها . والمساكن تحيط بها المزارع والمراعى ، وهذا يسرى بوجه خاص فى الإقامة الدائمة فى زمن اخضرار العشب . أما فى زمن الجفاف فإن المساكن فى الموطن المؤقت تكون أشد تلاصقاً . ومع أن كلا منها ينزل فى رقعة خاصة به ، غير أنه من الجائز أن تنزل عشائر فى بقعة واحدة ، أو فى مساكن متقاربة فى أثناء « النجعة » .

والقبيلة مهما تعددت عشائرها لها نظام يؤلف بين أجزائها ، وتعرف كل

قبيلة أنها تؤلف وحدة متميزة عن قبائل الدنكا الأخرى ، لها رؤساؤها ومشايخها طبقاً للعرف المتبع . والمنصب الأكبر الذى يتقلد صاحبه الزعامة العليا ، وله نفوذروحى كبير فى القبيلة كلها وهو الذى يدعى بين بيت ، وكلمة بين Bith معناها الزعيم أو الرئيس ، وبيت معناها Bän الرمح الخاص ، لا رمح القتال العادى ، بل رمحاً له نوع من القداسة ، كأنه بمثابة الصولجان أو الرمز للقوة الروحية ، التى يتمتع بها الزعيم . مع أن هذا الرمح قد لا يختلف فى مظهره كثيراً عن شكل الرماح الأخرى ، لكن الأغلب أن تكون له صفة تميزه ، وكثيراً ماتكون سنانه مربعة ذات أشواك . وقد يكون من النوع الذى يحاكى ورقة الشجر المستطيلة .

هذا البين بيت هو الزعيم الدينى وله نفوذ كبير فى الشئون المدنية أيضاً . وهو أيضاً جالب المطر ، الذى يستطيع أن يؤدى المراسيم والطقوس التى لا بد منها لجلب المطر .

وهنا لا بد لنا أن نلاحظ مرة أخرى أن أوطان الدنكا كلها — والجنوبى منها بوجه خاص — لا يتعرض بصفة جدية للجدب والجفاف ، اللهم إلا فترة قصيرة ، وغريب أن يتزعم القوم رجل يستمد نفوذه الأكبر من عمل ليس بذى خطر كبير فى هذه البيئة . . وليس بمستبعد والحالة هذه ، أن تكون الحال هنا كما هى فى إقليم البارى واللاتوكا ، وأن يكون تمجيد جالب المطر ظاهرة مستمدة من الإقليم الأول الذى نزح منه النيليون فى شرق إفريقية ، حيث الجفاف أوسع انتشاراً والحاجة إلى إجراءات جلب المطر أشد وأعظم .

والمنصب عند الدنكا وراثى ، ومنحصر فى بعض الأسر لا يتجاوزها إلى غيرها ، وتكون الوراثة للابن الذكر ، الذى يرث بعد وفاة أبيه (أو عمه أحياناً) زعامة القبيلة ، وكل ما يتبع تلك الزعامة من النفوذ والسلطان ؛ وإلى جانب الحفلات التى تعقد لجلب المطر ، يقوم البين بيت بفض النزاع بين المختصمين ، فهو الحكم الفصل فى كل ما يشجر من خلاف ، وهو السلطة

القضائية العليا .. وهو لا يمارس السحر بالمعنى المألوف ؛ لكنه بوصفه الرئيس الديني يستطيـــع أنّ يبلغ أغراضه بأن يبتهـــل إلى الإله الأكبر نهيالك Nhialik .

وهناك زعماء آخرون يجيئون فى المرتبة الثانية بعد الزعيم الدينى ، أهمهم من غير شك هو بن ووت Bän Wut زعيم البقر . ومنصبه أعظم مما يدل عليه اسمه ، باعتبار أن البقر هى العنصر الأساسى فى الاقتصاد القبلى ، ولأنه فوق عنايته بالبقر وتنظيم شئونها العامة ، فى الانتقال من مراعى الصيف إلى مراعى الشتاء ، فإنه هو أيضاً الذى يتولى الزعامة فى الدفاع عنها ، إذا أغار مغير على القبيلة أو بعض عشائرها .

يلى هذين الزعيمين فى الأهمية : أفراد يناط بهم عمل خاص مثل بن ده راب Bän de Rap الذى يعنى بمحصول الذرة الرفيعة، ويذود عنها الطير والجراد بأساليب ووسائل مختلفة بعضها ذات صبغة عملية وبعضها من قبيل السحر .. كذلك الزعيم الذى يعنى بصيد الأسماك بن ده رك Bän de rec وكل ما يتصل بها .. وربما وجدت زعامات أخرى قليلة الخطر عند بعض القبـــائل .

ومناصب الزعامة كلها أو معظمها وراثى . فالابن يرث أباه أو عمه (إذا لم يكن للعم ابن صالح) . ولكن نظام الوراثة أدق المناصب العليا ، وأيسر خطراً فى الزعامات الصغيرة . ومنصب الزعيم الأكبر : بن بيت له أثر اجتماعى عظيم لأنه يحفظ وحدة القبيلة ويؤلف بين أجزائها وعشائرها . وهو رمز هذه الوحدة ومن غيره يتمزق شملها وتذهب ريحها ، وتزول شخصيتها ، سواء اندمجت فى قبائل أخرى أو بقيت مشردة الأجزاء موزعة العشائر مفقودة التواصل والترابط ، وتكاد أن تعد فى حكم المنقرضة لأن كيانها المستقل قد زال من الوجود .

وقد تعرضت بعض القبائل الجنوبية فى حوض بحر الغزال لغارات شديدة من الشمال بوساطة جماعات غازية ، ويزعم بعض كتاب الإنجليز أن هذا حدث

فى عهد المهدية . . فتمزقت بعض قبائل الدنكا فى بحر الغزال وفقدت زعماءها ، وأصبحت فى حالة سيئة من الفوضى ، ورأى رجال السلطة بعد المهدية أن من مستلزمات الاستقرار أن تلتئم القبائل المشردة ، وأن يجتمع كل منها حول زعيم . وقررت أن تتولى هذا الأمر بنفسها دون أن تنتظر حتى ينظم الدنكا شئونهم ويختاروا زعماءهم ، فقامت تلك السلطات بنفسها باختيار من آنست فيه روح الزعامة أو خيل لها أنه قادر على تولى الزعامة . ففرضت على كل واحدة من تلك القبائل زعيماً اختارته وارتضته وأيدته بنفوذها ، وطلبت من العشائر أن تذعن له راغبة أو كارهة. وقد ترتب على هذا خلافات ومنازعات تعبت الدولة فى علاجها .

كانت هذه حالة بعض القبائل فى حوض الغزال بوجه خاص ، ولكن هناك قبائل عديدة زعماؤها عريقون فى الحسب والنسب ولم تزعزعهم الأحداث . وهؤلاء فى العادة يستطيعون أن يرجعوا بأنسابهم إلى أجيال عديدة ومنهم من لا يزال إلى اليوم يتحدث بذكرى زعيم كبير ، كانت له خصائص البطولة الممتازة والقيادة الحكيمة .

أما نظام العشائر فأساسه تمييز كل عشيرة أو جزء من القبيلة عن سائر الأجزاء ؛ وهى فى العادة مجموعة من الأسر لها اسم واحد وطوطم واحد . وعشائر الدنكا طواطمها من الحيوان عادة مثل التمساح أو فرس البحر أو بعض الزواحف أو نحو ذلك من ضروب الحيوان والحشرات . ومن العشائر من طوطمه نبات ، أو بعض الجمادات مثل النار أو السحاب . ومن القبائل أيضاً ما هو مسمى باسم بعض الحيوان كما هى الحال فى دنكا نيل Niel ، الذين يعيشون حول خور آدار على خط عرض ١٠° شرق النيل الأبيض ، وهؤلاء شعارهم نوع من الثعابين يسمى بذلك الاسم . كما أن دنكا علياب — كما ذكرنا من قبل — يقال إن اسمهم مشتق من اسم جعران مائى . وهذه الحالة : تسمية قبيلة باسم حيوان ، أمر نادر ولكن ربما كان يرجع إلى أن بعض العشائر فى سالف الزمن قد نما وكبر حتى أصبح فى عداد القبائل واحتفظ باسمه

وكل عشيرة تحترم الحيوان الذى يمثل شعارها أو طوطمها فلا تؤذيه ولا تقتله ، ولا تمسه بسوء ، والأطفال يحترمون طوطم العشيرة التى ينتمى إليها أبوهم ، وكذلك يحترمون — ولو بدرجة أقل — الطوطم الخاص بأمهم ، إكراماً لخاطر الأم . لكن هذا أمر شخصى يخص الأسرة . أما العشيرة كلها فطوطمها واحد . وجميع العشائر تعلل الطوطم الذى اتخذته شعارها بعلة واحدة لا تكاد تختلف من عشيرة إلى عشيرة . فيزعمون أن جدهم الأول أحد توأمين ، والتوأم الآخر هو الحيوان الذى غدا للعشيرة طوطماً وشعاراً . . . هذه هى القصة الشائعة ، وقد يكون لها صور أخرى ، بأن يكون مولد الجد الأكبر مصحوباً بظاهرة خارقة للعادة ، مثل سقوط شهاب من السماء أو صاعقة تحرق الشجر ، وتوقد النار ، أو غير ذلك من الظاهرات الطبيعية غير المألوفة ، التى لا تحدث فى كل شهر أو فى كل عام . . والعشيرة إما أن تسمى باسم الطوطم أو باسم جدها الأول .

والمفروض أن احترام الطوطم من اختصاص كل عشيرة واجب تفرضه على نفسها ، والعشائر الأخرى لها طواطمها التى تحترمها . وفى العادة لا ينتظر من إحدى العشائر أن تعظم أو تبجل شعار عشيرة أخرى . ومع ذلك يحدثنا سلجمان(١) أن بعض العشائر القوية قد تغضب إذا لم يلق طوطمها كل إجلال واحترام من العشائر المجاورة ، وهذا يؤيد ما سبقت الإشارة إليه من أن بعض العشائر قد تصبح قوية الشكيمة فتفرض طوطمها على من حولها وينتهى الأمر بأن يصبح الطوطم اسماً لقبيلة بعد أن كان اسما لعشيرة .

نظام الزواج :

لا يجوز بالطبع لأى فرد من الدنكا أن يلتمس زوجته فى العشيرة التى ينتمى إليها أي عشيرة والده ، ولكنه أيضاً مبالغة فى الاغتراب ، لا يجوز له أن يتزوج من امرأة تمت بصلة القرابة إلى والدته : إن مثل هذا الزواج يعد

---

(١) المراجع السابق ص ١٥٠ .

فى نظرهم من المحرمات ، بل من الكبائر الشنيعة وبجلب غضب أرواح السلف (جوك Jok) . فإن مثل هذه المعصية تجر الوبال والدمار ، وموت الأطفال أو عقم الزوجات . . وعلى كل حال إن مثل هذا الحال لا يمكن أن يحدث ، لأن مراعاة الشعوب البدائية للعرف واجب مقدس لا يحيد عنه أحد . وعلى فرض حدوثه فإن العرف يقضى على الرجل أو أبيه أن يقدم فدية أربعة رؤوس من الماشية ، وفيها بقرة واحدة على الأقل . ويمسح جسد الأثيمين ، لتطهيرهما ببعض السوائل المستخرجة من بطن الذبيحة .

فالعرف يقضى – إذن – بأن يبحث الرجل عن شريكة حياته فى عشيرة غير عشيرته ، وليست به حاجة لأن يبحث عنها فى قرية بعيدة ، لأن القرى كثيراً ما تضم عشائر مختلفة ، وموسم الجفاف ، الذى تحتشد فيه العشائر على مجارى الأنهار يهيئ فرصة للتعارف والتفاهم : ومتى تم له الاختيار يبدأ فى الإجراءات اللازمة نحو الخطبة ثم الزواج . وهذه الإجراءات قد تختلف اختلافاً يسيراً بين قبائل الدنكا ، ولكن الجوهر فيها كلها واحد ؛ وهو يشتمل على بعض العناصر الأساسية ، مثل :

١ – استعانة العريس بلداته فى الخطبة .

٢ – رضاء الوالد (أبى الفتاة) شرط أساسى للمضى فى الخطبة .

٣ – تقديم الهدايا لاسترضاء أقارب العروس .

٤ – دفع المهر لتعويض الأسرة عما فقدته بإعطاء ابنتها لعشيرة أخرى . وليس من الضرورى أن يدفع المهر كله مرة واحدة ؛ بل يدفع أكثره ويقسط الباقى بالاتفاق بين الأبوين .

٥ – يتم الزواج فعلا بحفلة تشتمل على كثير من الموسيقى والرقص .

٦ – تظل الزوجة عادة فى منزل والدها ، حيث تسكن وعريسها كوخاً أعدّ لها . وذلك إلى أن تلد طفلا أو طفلين . تستطيع بعد ذلك أن تنتقل إلى عشيرة الزوج وتتخذ لها مسكناً فيها .

هذه هي العناصر الأساسية للزواج عند الدنكا ، وهي متشابهة بصفة عامة عند سائر القبائل ، كما أنها تشبه من وجوه كثيرة ما ذكرناه خاصاً بالباري . وهناك بعض الاختلاف بين قبيلة وقبيلة ولكن هذه الاختلافات لا تمس الجوهر . . . والعادة عند معظم القبائل الدنكاوية ، أن تبدأ الخطبة الرسمية – وقد سبقها في الغالب تفاهم شخصي بين الفتى والفتاة – بزيارة الخطيب ومعه لداته بيت العروس ، ويلتمسون بعض التبغ ليدخنوه ، فتذهب العروس وتطلب هذا التبغ من أبيها . فإذا أعطاها إياه فهذا علامة الرضا . . وتستطيع العروس بعد ذلك أن تزور أسرة الخطيب مصحوبة بأترابها أول الأمر ، ثم بمفردها بعد ذلك . ثم يجيء دور الأبوين، اللذين لا بد لها أن يتفقا على المهر . وهذا قد يختلف من قبيلة لقبيلة . فالقبيلة الغنية بماشيتها ، قد يصل المهر عندها إلى خمسين رأساً من الماشية أكثرها بقر ، ومعها غنم وماعز ، بل قد يزيد على ذلك في بعض الأحوال الاستثنائية . أما عند سكان المستنقعات ، حيث المراعي محدودة ، قد لا يزيد المهر على خمسة رءوس من الماشية بعضها بقر والبعض ثِيرَة . . ومعها بعض الماشية الصغيرة من ماعز وضأن، كذلك يقدم الخطيب زوجاً من الأسنة التي تستخدم في صيد فرس البحر . ومقداراً كبيراً من السمك ، وقدرين أو ثلاثاً من دهن فرس البحر . وفي جميع الأحوال يتعاون الوالد وإخوته في دفع هذا المهر حتى يدفع معظمه ويقسط الباقي ، ولا داعي لأن يتأخر الزواج ما دام القسم الأكبر منه قد تم دفعه .

أما عند جماعة « الحدادين » فإن المهر كما ذكرنا يتألف معظمه من أقراص الحديد . وعنصر الماشية فيه قليل جداً . وفي الغالب لن يكون فيه بقر ، بل بعض الثيرة ، والماعز والضأن .

ومتى رضي الوالد عما دفع من أقساط المهر ، قام بذبح ثور وأقام حفلة رقص يشهدها شباب القرية . ولكن الخطيب لا يشترك في الرقص ، أما العروس فتشترك فيه ، وعندما تدنو الحفلة من نهايتها ، تتجمع الفتيات ، ويأخذن

العروس ، التي تتظاهر بالتمنع ، إلى الدار التي أعدت للزواج ، حيث تجد العريس فى انتظارها ، وبذلك تتم مراسيم الزواج .

والطلاق جائز عند الدنكا ، كما هو جائز عند جميع النيليين ، وسببه فى العادة العقم ، فإذا مضى عامان أو ثلاثة ، ولم يثمر الزواج الثمرة المرجوة ، جاز للزوج أن يطلق زوجته ، وفى هذه الحالة ترد إليه الماشية ، التي قدمها مهراً ، وما قد تكون أنجبته من عجول فى تلك الفترة . . وربما فضل الزوج - إذا كان ذا سعة - أن يحتفظ بزوجته الأولى برغم عقمها ، ويتزوج امرأة أخرى ، وتعدد الزوجات ليس ممنوعاً ، ولكنه شيء نادر . فقليلون من يملكون من الماشية ما يمكنهم من اقتناء زوجة ثانية ، لهذا لم يكن تعدد الزوجات شائعاً بين النيليين .

واحتمال الطلاق يوضح لنا حكمة أخرى فى بقاء الزوجة فترة من الزمن فى منازل أسرتها حتى تنجب الأطفال ، لأنها بذلك تكون قد أثبتت زوجيتها وصلاحيتها فى صورة لا تحتمل أدنى شك . وليس الطلاق من حق الزوج وحده ، بل من الجائز أن يكون من جانب الزوجة ، بالامتناع عن معاشرة زوجها ، وعودتها إلى أبيها ، بمحض إرادتها أو إرادة والديها . وفى كلا الحالين لا بد أن يرد المهر للزوج ، كما أن الطلاق قد يحدث إذا هربت الزوجة إلى رجل آخر .

ورد المهر ليس عملا سهلا ، لأنه - وإن تسلمه الوالد - فإنه لا يحتفظ به لنفسه ، بل يوزع على أقارب الفتاة من الذكور ، ولا يحتفظ إلا ببقرة أو بقرتين ، ولا غرابة فى ذلك لأن الأقارب يتعاونون فى دفع مهر الفتى ، عند زواجه ، فلا بد لهم أن يتقاسموا مهر الفتاة أيضاً ، فإذا أريد أن يرد مهر إلى أسرة الرجل ، فلا بد من جمع الماشية من أطراف متعددة ، ومن حسن الحظ أن هذا لا يحدث كثيراً ، لأن الطلاق قليل .

وإتماماً للحديث عن تعدد الزوجات ، نلاحظ فى الأقوال التي يرويها سلجمان عادة أشار إليها . . وهى أن الشاب الذى تدركه الوفاة دون أن يتزوج

لا بد لأخيه أن يتزوج بالنيابة عنه ، قبل أن يتخذ زوجة لنفسه ، لأن الزواج أمر لا يجوز أن يحرم منه المرء حياً أو ميتاً . وهذه الزوجة تعتبر فى عرف المجتمع زوجة الأخ الذى توفى ، وأنجالها أنجاله . . وهذا العرف المقدس عند الدنكا له أساس فى الديانة . ذلك أن من أهم الشعائر الدينية عند الدنكا، تمجيد أرواح السلف 'Jok' وتقديسهم . ولابد للرجل أن يكون له نسل حتى يمجدوا روحه فإن لم يتم ذلك الرواج تظل تلك الروح ثائرة ناقمة عليهم، حتى يفعلوا .

وامتلاك الأطفال شيء مقدس عند الدنكا . ومن مظاهر اهتمامهم به أن أرملة الرجل إذا تزوجت من أخيه بعد وفاته أو من أحد أقاربه ، فإن هذا الرجل لا يعدُّ زوجاً ، بل عشيراً أو نائباً عن الزوج المتوفى . والأطفال الذين يولدون يعدون أطفال الزوج الأول . والعادة أن تلتزم الزوجة الحداد عاماً كاملا ، ثم يسمح لها بعد ذلك أن تدخل فى عصمة رجل من أقارب الزوج ، بعد أن يقدم قرباناً يسترضى به روح الزوج الفقيد .

وهناك أمر ذكره سلجمان يستحق أن نورده هنا ، وهو الإشارة إلى الاهتمام الخاص الذى يبذل عند ولادة توأمين . فى هذه الحالة يستدعى الوالد جميع أقاربه من الذكور ، ومعهم أحد الكهنة Tiet ومن الممكن أن يشهد الاحتفال أقارب الأم أيضاً من الذكور . ثم تقام الصلوات للإله الأكبر Nhiahik نهيالك ، ويذبح عجل ويمسح ببوله الأبوان والرضيعان ، ويتلى الدعاء للإله بالمعنى الآتى :

« أنت أيها الإله الأكبر نهيالك
أنت الذى خلقتهما ، وأنت الذى أتيت بهما
فلا ينبغى لأحد أن يبغضهما أو يضمر لها السوء .
أنت الذى تهب الحياة وتعطف
أنت وحدك القادر والناس عاجزون
إنا نقرب لك هذا الذبيح ، فاقبله منا ثمناً لما وهبت
وامنحهما الحياة . . . »

هذا الدعاء مما يعطينا فكرة عن شدة تدين الدنكا ، والأسلوب الذى يتبعونه فى مخاطبة الإله الأكبر ، وشتان بينهم وبين بعض النيليين الحاميين ، الذين يعالجون مشكلة التوأمين ، بقتل أحدهما ، لكى يعيش الآخر .

* * *

ولكل دنكاوى عادة عدة أسماء منها ما يطلق على الطفل عند ولادته ، ومنها ما يختاره لنفسه عندما يكبر ، ويدخل طبقة السن التى يتبعها ؛ ومن هذه الأسماء ما يدعى « اسم الماشية » وذلك أن كل شاب يبلغ سن الفتوة يكون له عجل خاص به ، ويكون اسمه الجديد مطابقاً لاسم العجل . وهذه العجول لها ميزة على غيرها . فمن ناحية الشكل تسحب قرونها بحيث ينمو أحد القرنين للأمام والآخر للوراء . كذلك هى فى العادة لها مكانة ممتازة . إذ تسير فى مقدمة القطيع . وكل فتى يعنى بعجله أو ثوره عناية فائقة ؛ لأنه يحس رابطة قوية تربطه به.ولعل هذه السنة قد أريد بها أول الأمر أن تشعر كل فتى من الدنكا بما للماشية من الخطر . . وهذه الظاهرة شائعة فى جميع الشعوب النيلية كما هى معروفة لدى من يشبهونهم فى الثقافة مثل البارى .

ومن عادة الأحداث من الدنكا أن يتبعوا الشباب فى رعى الماشية ، ليتدربوا ، ويتولى الكبار تعليم الصغار تدريجياً . فيبدأ الأطفال بجمع فضلات الماشية للوقود ؛ فإذا كبروا قليلا تعلموا كيف يحلبون البقر ، وفى نحو التاسعة من عمرهم يذهب بهم أبوهم إلى النهر أو البركة ليعلمهم صيد الأسماك . وبعد عامين أو ثلاثة يشتركون فى صيد فرس البحر . وهكذا نرى أن الرعى والصيد من اختصاص الرجال . ومع ذلك فمعظم النساء قد يحلبن الماعز أو الضأن ، وقلما يحلبن البقر .

والبنات يتعلمن من أمهاتهن أعمال المنزل من طبخ وطحن وخبز ونحو ذلك . وكذلك يقمن بجميع أعمال الزراعة ، ولا يشترك فيها معهن سوى الأحداث من الأولاد والبنات . . ومع ذلك فإن بعض قبائل دنكاريك فى بحر الغزال يقوم رجالهم بنصيب كبير فى الميدان الزراعى .

وعندما يقترب الطفل من العاشرة تخلع قواطعه السفلى ، وهى عادة رأيناها عند البارى تتم فى سن السادسة عشرة ، وتكون مظهراً لتنشئة الصبى وانتقاله إلى مرحلة الفتوة . . ولكن عند الدنكا ليس لخلع الثنايا أى معنى خاص فى نمو الطفل،ولا تقام من أجل ذلك حفلة ولا تدل على بلوغ الصبى مرحلة خاصة من العمر ، وذلك بخلاف الوشم الذى يعمل فى الجبهة والذى يكون فى سن المراهقة فإنه يدل على بدء مراحل الفتوة والدخول فى أول طبقات السن . . هذا الوشم عبارة عن سطرين أو ثلاثة من الندوب ، أى فى شكل نقط ، وهذه الندوب هى آثار جروح تعمل بسن الرمح ولا يسمح لها أن تلتئم بسرعة ، لكى يظل أثرها فى الجبهة ومن حول الرأس واضحاً دائماً . . هذه هى العملية الأساسية للتأهيل أو التنشئة Initiation عند الدنكا .

ويصحب هذه العملية أن يمتحن الشباب امتحاناً خاصاً ، فترسل المجموعة التى يراد تنشئتها فى سن ١٥ أو ١٦ سنة إلى منطقة المستنقعات حيث يعيشون نحو شهر فى العراء أو فى حفر يحفرونها ، ويحصلون على قوتهم بأنفسهم ، ويتكبدون المشقات ، ويذللون الصعوبات التى تصادفهم بأنفسهم ، وعند انتهاء الشهر يعودون إلى القرية فتحلق رءوسهم ، ويتبرع والد كل فتى بما تجود به نفسه لفتاه ، وأكثرهم يعطى ابنه ثوراً وزورقاً ورمحاً وحربة للصيد ، وأخرى لصيد فرس البحر ، وشباكاً لصيد السمك ، وحلية مما يلبس على الذراع ، من أسلاك نحاسية أو إسورة مستطيلة . والأب الغنى ربما منح ابنه بقرة أو بقرتين .

وعند عودتهم إلى القرية يكون الشباب قد اختاروا واحداً منهم لقيادتهم تبعاً لما آنسوا فيه من الشهامة والكفاية فى أثناء الإقامة فى المستنقعات . ووالد هذا الشاب هو الذى يحيى الحفلة للفريق عند عودتهم إلى القرية ، ويقدم جميع الذبائح اللازمة من الضأن . وفى هذه الحفلة يشترك هؤلاء الشبان للمرة الأولى فى الرقص ، وينتقلون بعد ذلك من قرية إلى قرية فى طابور مفرد وراء قائدهم

ويستطيعون منذ الآن أن يتحدثوا إلى الفتيات ، وبالتدريج يسمح لهم بالاشتراك في بعض المعارك إذا دارت رحى حرب .

وبذلك يدخل الأولاد أولى مراتب السن . وعدد هذه المراتب يختلف من مكان إلى مكان . وهى فى العادة حوالى ست :

١ — من نحو الخامسة عشرة إلى العشرين .

٢ — ومن ٢١ إلى ٢٦ .

٣ — ثم إلى الثانية والثلاثين .

٤ — ثم إلى الأربعين .

٥ — ثم إلى السابعة والأربعين .

٦ — ثم إلى ما يتجاوز تلك السن ويدخل الرجل فى مرحلة الكهولة والشيخوخة .

والاشتراك فى حرب أو قتال لا يكون إلا للمراتب الثلاث الأولى .

نظام الوراثة .

إن نظام الوراثة عند الدنكا فيه بعض التعقيد . على أن المهم فيه أن الوراثة تنتقل إلى الأبناء الذكور بعد وفاة أبيهم طبقاً للنظام الأبوى المتبع . ولكن كثيراً ما يبادر الوالد ، دون أن يترك الأمر إلى ما بعد وفاته ، فيتصرف فى جزء كبير من قطعانه ، فقد جرت العادة أن يهب رب الأسرة لكل من زوجاته عدداً من البقر من آن لآن بمناسبة أو بدون مناسبة . والزوجة الأولى (أو الزوجة الكبرى) Ting xit لها دائماً نصيب أكبر من التى تليها . وكلما ولدت زوجته طفلا منحت بقرة أخرى أو أكثر . ولأبناء الزوجة الكبرى نصيب أوفر من أبناء غيرها . وربما وهب الرجل صهره بعض الماشية عندما ينتقل بزوجته إلى بيته الخاص .

وهنالك نظام خاص للابن الأصغر : ويسمى كون Kun فهذا الطفل لا يرث شيئاً عن أبيه ، ولكنه يرث كل شيء تملكه أمه . وهو الذى يتولى

رعايتها وحمايتها بعد وفاة أبيه . وهذا الترتيب له فائدة عملية واضحة . ذلك أن الأبناء الكبار يكونون وقت وفاة أبيهم قد تزوجوا ، وأصبح لهم كيانهم الخاص ، ومشاغلهم الخاصة . أما الصغير ، فلا يزال يعيش فى كنف أبيه ؛ وعليه أن يرعى شئون أمه بحيث تظل هى ربة المنزل ، حتى بعد أن يتزوج نجلها الصغير .

وعلى الرغم من أن النظام الاجتماعى والاقتصادى عند الدنكا قوامه « الملكية » ، وعلى الرغم من أن الأب يعد هو المالك للقطيع ، فإنه لا يستطيع التصرف فيه كما يشاء ، فلا يستطيع أن يهبه أو يبيعه ، بل يتصرف فيه فقط طبقاً للنواميس والنظم المتعارف عليها .

الديـــانة .

لا شك أن النيليين بعامة — والدنكا والنوير بخاصة — هم من أشد الناس تديناً ، بل يذهب سلجمان إلى أبعد من هذا فيقرر أنهم أكثر شعوب السودان تديناً ، ولعله يعنى السودان الجنوبى . ولا يحدث حادث خارق للعادة أو مخالف للمألوف ، إلا كان مدعاة لإقامة الشعائر وتقديم القرابين . فولادة التوأمين سبق وصفها ، وأى ظاهرة سماوية غير مألوفة ، مثل سقوط شهاب من السماء أو ظهور مذنب أو نحو ذلك ، يبعث فى النفوس الرهبة والخشية ، ويفزع الناس إلى الإله الأكبر ، بالدعوات والصلوات والقرابين . ويضرب بعض الكتاب مثالا لذلك أن أحد الناس رأى فى حقله قرعة عسلية ، ذات حجم كبير جداً . فآمن بأن هذا من صنع الأرواح . ولم يكن بد من تقريب رأس من الماعز ، وأن يسيل دمها على تلك القرعة ، قبل أن تقطع وتؤكل . ويقال أيضاً إن بعض الدنكا فزعوا عندما رأوا الطائرات للمرة الأولى ، وروى أحد الحكام أن خمسين رأساً من الفحول قد ذبحت بهذه المناسبة .

والإله الأكبر عند الدنكا هو نهيالك السابق ذكره . وهو لفظ معناه « العلى الأعلى الذى مسكنه فى السماء » . هو الذى خلق الكون ونظمه ، وهو

الذى يرسل السحاب من السماء . ويقول لينهرت فى كتابه عن ديانة الدنكا أنهم ربما استخدموا كلمة نهيالك أحياناً كما نستعمل كلمة الإله أو الرب ، عند المسيحيين . ولكنهم يستعملون اللفظ بحيث تكون له مدلولات أخرى ، على كل حال إن نهيالك عند الدنكا هو الإله الأكبر المهيمن على الأمور العظيمـــة .

وهنالك قوة أخرى ، أشد اتصالا بالحياة العادية وهذه القوة تدعى جوك أو أرواح الأجداد مجتمعة . . وكثير من الدنكا يبدأون ابتهالاتهم بعبارة أى نهيالك ويا أرواح السلف . وهذا الترتيب له مغزاه لأنه لا شك أن نهيالك أعلى مقاماً من روح السلف . . ومع ذلك ففى المعاملات اليومية ، والأمور العادية يلجأ الدنكا إلى جوك .

وهنالك روح أو إله آخر يدعى دنج ديت Deng-Dit ومعناه المطر العظيم . وهذا الإله أيضاً يحتل مكاناً ثانوياً بالنسبة لنهيالك ، ولكنه مع ذلك متصل به ، ويرى بعض الكتاب أنهم فهموا أن دنج ديت فرع أو متولد من نهيالك . ويبدو أن كثيراً من الدنكا يختلفون فى نظرتهم إلى دنج ديت ، فبعض القبائل مثل دنكا جنوك Gnoc فى بحر الغزال يزعمون أنه ليس له أول ولا آخر ، ومعنى هذا أنه ليس لديهم عنه معلومات وافية ؛ ودنكا نيل Niel فى النيل الأبيض ، يجعلون منه كائناً قريباً من الناس ، وأنه كان يوماً على الأرض يحكم قبيلته . . وذلك يدعو إلى الظن بأنهم يعتقدون أنه بمثابة الجد الأول للدنكا ، وهذا مشابه لاعتقاد الشلك فى نيا كنج ، وإن كان أمره أقل وضوحاً من نياكنج .

وتقدم القرابين فى هياكل ، أو أكواخ عبادة shrines ؛ وهى مبعثرة فى جميع مواطن الدنكا . ويقول سلجمان إن لكل قبيلة دنكاوية هيكلا من هذا النوع ، وهو خاص بالطقوس الهامة . والحفلات الخطيرة . . وعنده تقام حفلة المطر الرئيسية ، وهو فى العادة قريب من بيت الزعيم ، وتقام فيه حفلة الحصاد ، وحفلة تدشين البن الجديد .

ولا يكاد يختلف مظهر هذا الهيكل عن الكوخ الدنكاوى المألوف ، ويكون أمامه عادة نصب ؛ وهو عبارة عن جذع شجرة صغير ، أو فرع كبير متشعب .

ويصف سلجمان أحد هذه الهياكل – وهو على حدود النوير والدنكا – ويتألف من ثلاثة أكواخ (قوطيات) متلاصقة ، أحدها خاص بدنج ديت ، بابه مقفل دائماً ، لا يدخله إلا السدنة المختصون . ومع ذلك ربما سمح للرجل الذى جاء ليقدم قرباناً ، طمعاً فى النسل ، أن يدخل ليتبرك ، ويدعو لتحقيق أمنيته ، وفى هذه الحالة يدخل الكوخ وعن يمينه ويساره واحد من السدنة . ولا يجوز أن يقرب القربان إلا بعد أن يأذن دنج ديت . ويجىء الإذن عن طريق الحارس الأول للهيكل . . ويظل الطالب فى الانتظار ولو لبضعة أيام حتى يأتى الإذن بالذبح ، ومن النادر جداً أن يرفض الطلب . وإلا كان ذلك نذيراً بكارثة تحل بصاحبه . وتضحى الذبيحة بوساطة رمح خاص محتفظ به لهذا الغرض .

ومن العادات المتبعة أن يمسح جسم صاحب الحاجة بمزيج من الزيت والتراب المقدس ، وربما أعطى حربة أو شيئاً من هذا القبيل علامة الرضا . وربما قدم صاحب الحاجة بعض التبغ يلقى به على كومة الرماد المتراكمة أمام الهيكل . . وهذا الرماد يتراكم بسبب الطبخ المستمر لقطع من القرابين . وهو يصبح كوماً مقدساً تلقى عليه محتويات المعدة والأحشاء بعد ذبح الماشية . . وتحتوى هذه الهياكل على أدوات متعددة من حراب وجرار وورق ، ويقال إن لدى دنكا أجار كراسى صغيرة من النحاس الأحمر والأصفر ، مما أتى به دنج ديت يوم كان يسكن اللويك (الكوخ) . أى يسكنه مادياً ، وبالطبع هو لا يزال يسكنه روحياً .

ويرى الأستاذ سلجمان أن هذه الرماح ذات صلة بصنع المطر وبعضها لا يستخدمه ولا يمسه أحد سوى البين بيت . وهى تمتاز ببعض الخصائص ، فهى من حديد جيد . وحول القناة أحياناً حلق من الحديد

بالقرب من النصل ، وهى بوجه عام أتقن صنعة من غيرها . ويقال فى ذلك إن دنج ديت تراءى فى المنام لبعض الزعماء ، وأمره أن يبحث عن أحسن رمح ويضعه فى الهيكل . وهذه الرماح تتجدد من آن لآن بوحى من دنج ديت وربما حدث هذا التجديد فى كل عشر سنوات . والرمح الجديد تذبح به شاه بيضاء ، ويؤكل لحمها بوساطة بعض العجائز والشيوخ من أقارب البين ، ويترك دمها على الرمح ثلاثة أيام ، ثم يغسل ويزيت ويحفظ ، وتلقى عظام الذبيحة سليمة فى النهر .

ومما يبعث على الظن بأن دنج ديت له صلة بنشأة القبيلة ، وتأسيسها ، ما يروى من أن قبيلة سيك تتحدث عنه أن له أولاداً يسمون أولاد دنج ديت وهؤلاء حلت فيهم روح . . ويعتبر هؤلاء المؤسسين لكثير من العشائر .

وبديهى أن علاقة دنج ديت بالمطر قوية ، ولذلك يتحتم على كل رب أسرة فى أول موسم المطر أن يضحى بشاة ويقدم الشكر لواهب المطر . وهنا أيضاً لا بد من إبقاء عظام الشاة سليمة ، وإلقائها فى النهر .

* * *

والدنكا يعتقدون أن للإنسان روحاً : تيب Tiep أو آتيب Atiep . وهى تفارق الجسد عند الوفاة . وتظل هائمة حول الدار ، حتى تقرب لها القرابين ، وتتم حفلات الوفاة ، ولابد لنا أن نميز بين الروح هذه وبين (جوك) روح السلف ، لأن الأولى لا يكون لها ذكر وخطر إلا بعد الوفاة مباشرة وأما بعد مدة فيقل خطرها ، وبالتدريج تندمج فى جوك ، وتصبح جزءاً لا يتجزأ منه .

والجوك عبارة عن مجموعة أرواح السلف مجتمعة .. وهذه ربما غضبت إذا أهمل أمرها ونسى ذكرها ، فترسل العلل والأمراض ، ولكنها فى الأغلب قوة نافعة تعطف على القبيلة وترعاها وتحميها . وكل دنكاوى مخلص لذكرى السلف ويحس دائماً أنها تحميه وتصاحبه فى أوقات الشدة ، وتشد ساعده إذا

طعن فريسة ، أو اصطاد فرس البحر . وكثيراً ما يفزع إليها ويستغيث بها .

* * *

وهناك طائفة خاصة من الناس توصف بأن لها هبة الاتصال بالأرواح أو يحل بجسم الواحد منها بعض الأرواح سواء أكانت روح من توفى حديثاً أم روح السلف (جوك) هؤلاء الناس يسمى الواحد منهم تيت Tiet Tiep (سواء أكان رجلا أم امرأة) وتكاد الوظيفة أن تكون وراثية . فعندما يحس الرجل اقتراب الوفاة يقول عن أحد أقاربه إن الروح ستحل فى جسد هذا القريب . وآية ذلك نوبة ارتعاش أو إغماء تعتريه ، دليلا على حلول الروح فيه

بعض هؤلاء الوسطاء لا ينظر إليهم نظرة تقدير ، بل يختلف النظر إليهم حسب مقامهم ومقدرتهم ، وشخصيتهم . والظاهر أن مركزهم الاجتماعى له بعض الأثر فى نظر الناس إليهم ، إلى جانب ما رزقوا من قوة الشخصية . فإذا كان التيت فرداً عادياً ليس من الرؤساء أو ذوى اليسار ، أو ينتمى إلى أسرة زعماء المطر ، فلا بد أن تكون له شخصية قوية لكى يثق به الناس ، ويخضعوا لأوامره . وسلجمان يصف لنا ثلاثة من هؤلاء الكهنة : أولهم امرأة ، ليست بذات خطر ، وكانت تعيش فى بلدة مالك (من دنكا كبرو) . ويتحدث الدنكا عنها صراحة أنها لا أهمية لها . والمثال الثانى رجل يدعى لوال ، من بلدة جوالا بالقرب من بور وهو من النوع الوسط ، يطاع أحياناً ، ويعصى أحياناً ، وإذا ترتب على عصيان أوامره نتائج سيئة أظهر الناس الندم وعادوا إلى استشارته وامتثال أوامره .

والمثال الثالث عند سلجمان شخص يدعى وال من دنكا علياب . وفى سنة ١٩١٠ عند ما زاره سلجمان كان يتمتع بنفوذ عظيم ، ليس مقصوراً على قبيلته ، بل كان بعض البارى والنوير يلجأون إليه فى الشدائد والملمات . ورواية سلجمان تفيد أن هذا الرجل استمد نفوذه الواسع من ثلاثة أمور : أولها شخصيته ، فإن حديثه مع سلجمان يدل على مستوى من الفهم فوق

المتوسط ؛ ويبدو أنه – فوق ذلك – شاعر يؤلف الأناشيد . ثانياً مركزه الاجتماعى ، لإنه كان يطلق عليه اسم زعيم (بين) . وإن لم يكن من كبار الزعماء فإنه على الأقل زعيم قريته . ثالثاً بعض المصادفات فقد لاحظ الناس أن كل من يخالفه أو يشاكله تحل به كارثة من الكوارث بعد زمن وجيز . وهكذا اجتمعت ظروف مختلفة لتجعل من هذا التبت شخصية روحية ممتازة . تتمتع بشهرة واسعة .

هؤلاء التبت هم كهنة القبيلة ، الذين يلجأ إليهم للتوسط فى شفاء المرضى ، ومعالجة العاقر . ورفع الوباء عن الناس والماشية . فهم الوسطاء بين الناس من جهة وبين الجوك والدنج ديت من جهة أخرى ، وقد يلجأ إليهم فى بعض الحالات الشاذة ، مثل الزواج عن جهل بين المحارم ، ونحو ذلك .

* * *

ولروح السلف تبنى هياكل خاصة : ويقسمها سلجمان إلى قسمين : الأول هيكل يحتوى قبر زعيم من الزعماء . وهذا النوع فى الغالب من القبور القديمة ؛ ومن النادر جداً أن تعمل قبور حديثة فى هيكل ، اللهم إلا لعظيم ممتاز جداً . . وهذه القبور القديمة يبنى فوق كل منها كوخ .

والنوع الثانى هو الهيكل الذى يقام بناء على إشارة أو وحى من أرواح السلف ، الذى يتراءى فى المنام لبعض الكهنة ، ويأمر بإقامة نصب . وفى هذه الحالة لا يشترط أن يكون فيه قبر . ومن هذا القبيل ما يروى من أن آپوت Apuot زعيم السمك فى قرية مالك ، مرضت أطفاله ، فرأى أحد الكهنة فى المنام روح السلف ، فأمره بإقامة مذبح shrine وهو يتألف من جذع شجرة ذات أفرع بعد تقطيع الأغصان . . فتترك على هذا المذبح العظام الجافة لبعض القرابين وكذا عظام الجرنثى (فرس البحر) ، وبعض القرع ونحو ذلك . وطلب الكاهن من الزعيم أن يقرب عنزاً سميناً ، وأن يعد النصب . ثم حفرت

حفرة ، ووضعت الدماء ومحتويات الأحشاء فى داخل الحفرة . ووضع فيها النصب وملئت الحفرة بالتراب . . وأكل اللحم ، أما العظام فتركت سليمة حول النصب لمدة شهر ، وألقيت كلها فى النهر ما عدا الجمجمة وأجزاء من العمود الفقرى . وهذه تركت عند قاعدة النصب . وأعطى الجلد للكاهن . . وصاح الزعيم عند تقديم القربان : «أى جدى العظيم لقد قدمت إليك قرباناً ، فاقبله ولا تدع أطفالى يمرضون بعد ذلك !» .

* * *

وفيما عدا الأحوال الخاصة التى تقدم فيها القرابين ، على النحو المذكور ، هنالك ظروف أو مواسم سنوية فى أول المطر أو أوان الزراعة أو الحصاد ، أو لحماية الماشية أو نجاح الزراعة ووفرة الغلة . . فى كل هذه المناسبات تقام الحفلات الدينية ، وتذبح القرابين ، فتؤكل اللحوم وترمى العظام سليمة فى النهر . وربما ترك بعض اللحم فى قدره ليلا ، كأنه نصيب الأرواح . وفى الصباح التالى يلقى بها حول النصب أو الكوخ .

وهنالك حالة واحدة ، خاصة ببعض القبائل أو العشائر ، وهى التضحية لسكان النهر وذلك عندما تنتقل الجماعات إلى حافة النهر فى موسم الجفاف ؛ فتذبح شاة قبل شروق الشمس ويترك دمها يجرى فى النهر ، وبعد أن تفارقها الروح يلقى بها فى النهر . وهذا من الأحوال القليلة جداً التى تلقى فيها الفريسة فى النهر ، كذلك التضحية للغابة لحماية المحاربين .

* * *

والدنكا يعتقدون فى البركة واللعنة : بركة الوالد لأبنائه ، أو بركة الكاهن ، أو أى شخص ذى نفوذ معترف به . وكل ما يصدر عنهم من لعنة على عدو أو آثم . . وقد يكون منح البركة بالبصق ، فيقوم الشخص الذى يمنح البركة بالبصق على رأس الطفل ؛ ثم يبصق على كفيه ويمسح بهما رأس

الصبي وصدره وظهره ؛ ثم يمسح الجسم بالتراب الناعم ، وينفخ فى أنفه وأذنيـــه .

واللعنة يصبها الشخص على بعض أقاربه أو غيرهم إذا أخطأوا فى حقه ، أو نالوه بسوء . فاذا أصابتهم اللعنة بشر ، لم يجدوا مناصاً من أن يلتمسوا من اللاعن ، أن يصفح عنهم ويغفر لهم ، فيبادر بتقريب قربان ، ويقوم ببعض الطقوس . راجياً لهم العفو والمغفرة .

كذلك يعتقد الدنكا كغيرهم من النيليين والنيليين الحاميين فى شيء يشبه الحسد Kwan وهـــذا ما يثير كثيراً من النزاع والشقاق ، إذا تعرض أحدهم لسوء ، وهو يظن أنه يرجع إلى حسد صادر من شخص بعينه .

وللدنكا طرق مختلفة لتأدية القسم ، أشهرها أن يلعق مطرقة الحداد ثم يقسم ، أو يلعق أسورة الحديد التى يلبسها على معصمه ، ودنكا أجار ، يمرون بيدهم فوق رمحهم ، ويقولون : ليقم رمحى هذا على قبرى ، إذا كنت ارتكبت هذا الأمر أو ذاك (إشارة إلى عادتهم أن ينصب الرمح على قبر الميت سبعة أيام بعد وفاته) . ولكن أغلظ الإيمان بلا شك هو القسم على هيكل دنج ديت . . .

لقد أطلنا الحديث نوعاً عن ديانة « الدنكا » . لأنها من الموضوعات التى درست كثيراً ، ومن المفيد أن يلم القارئ بشيء من التفصيل ولو بمثال واحد للعقائد والاعتبارات الروحية لشعب إفريقى . وكثير من الدنكا فى الشمال ، وبعض الجنوب اعتنق الإسلام ، وكذلك ذهب التبشير إلى ديار الدنكا ، بمذاهب مسيحية متعددة .

* * *

والأمر الهام الذى يهدينا إليه البحث . أن الدنكاوى شخص متدين ،

ويحس دائماً بالاعتبارات الروحية فى كل لحظة وفى جميع مناحى الحياة ويلتمس التفسير الروحى دائماً لكل ظاهرة[1].

---

(١) أهم المراجع عن الدنكا كتاب سلجمان وزوجته Pagan Tribes in the Nilotic Sudan, 1932 وكذلك مقالة الأستاذ إبراهيم البدرى Notes on Dinka Religion Beliefs, S.N.R. 1939 ومقا The Western Dinka : Sudan Notes and Records, 1938 : Morrison, Stubbs وبوجه خاص كتاب G. Lienhardt, Divinity and Experience, The Religion of the Dinka, 1961 .

الفصل الثامن

السلالات النيلية

— ٢ —

الشـــلك

تكلمنا فى الفصل السابق عن الدنكا . . وعددهم يقرب من المليون نسمة . . ونظراً لأهمية النيليين فى وادى النيل ، يجمل بنا أن نتناول بالدرس شعباً نيلياً آخر وهو الشلك . . لا يكاد عدد الشلك أن يزيد على ٨٠ أو ١٠٠ ألف نسمة . ومع ذلك فإن لهم فى المجموعة النيلية مكاناً ممتازاً وذلك لأنهم يكونون شعباً متميزاً قائماً بذاته . لا ينقسم إلى قبائل ، وأوطانه مندمجة متلاصقة . . بحيث تكون وحدة سياسية واجتماعية وثقافية .

هذه الأوطان تمتد من شمال قرية كاكا على الضفة الغربية للنيل الأبيض عند خط العرض الحادى عشر الشمالى . . إلى قرب بحيرة نو . . هذه هى الأوطان الرئيسية للشلك ، ممتدة على الضفة اليسرى (الغربية) للنيل الأبيض . أما على الضفة اليمنى ، التى يحتل معظمها الدنكا إلى العرض الثانى عشر . فان للشلك هناك موطن محدود . وربما كان هذا الجزء من وطنهم فى وقت من الأوقات أعظم مما هو الآن ، حسب بعض الروايات ، التى زعمت فى شىء من الإسراف أن الشلك قد انتشروا انتشاراً واسعاً وفتحوا فتوحاً فى الجزيرة . على كل حال أن هذا الوطن الشرقى قد انكمش ، بحيث أصبح عبارة عن مساحة تبدأ من شمال ملكال بقليل ، إلى الشرق من حلة دوليب بقليـــل :

وهكذا نجد أن من أهم ميزات الوطن الشلكاوى اندماجه من جهة . وملازمته لنهر النيل من جهة أخرى . وليس هنالك جزء من بلاد الشلك يبعد كثيراً عن النيل . ومعظمها مما يمكن للشخص أن يذهب إلى النهر ويمكث عنده لقضاء أي عمل يهمه ، ثم يعود إلى بيته فى نفس اليوم : وليس فى نهر النيل فى هـــذا الإقليم عقبات أو صعوبات تحول دون اجتيازه، والتيار معتدل السرعة حتى فى أوان الفيضان . ولذلك يعبره الشلك بسهولة بزوارقهم الصغيرة ، التى تتألف أحياناً من جذع نخلة دوم حفرت بعناية فى شكل الزورق — ويمكن أن تحمل اثنين — أو من حزمة من العمبج أو الطرور ، تربط بإحكام بحيث تكون الأجزاء الرفيعة منها مقدمة الزورق ، والأجزاء الغليظة تكون الآخرة . ولا يزيد طول الزورق عادة على مترين . ولا يكاد يحمل أكثر من شخص واحد .

هذا القطر الذى يعيش فيه الشلك يشتمل على بعض البلدان مثل كاكا وكودك وتنجا وفاشوده . وهذه الأخيرة هى المركز الدينى والوطنى . . وكانت فاشوده هى عاصمة الشلك ، ومركز الحكم الوطنى . . وقد التقى عندها فى أواخر القرن التاسع عشر المغامر الشاب الفرنسى مرشان . آتياً من الشرق يريد أن يحتل هذا الإقليم باسم فرنسا . وحضر كتشنر وهو سردار الجيش المصرى . ورفع الراية المصرية ذات اللون الأحمر والهلال ، التى كانت شعاراً لكل الدولة العثمانية . وكادت الحادثة تؤدى إلى سوء تفاهم أليم بين الدولتين الغربيتين . ولكن انفرجت الأزمة برجوع الضابط الفرنسى ، وعدوله عن هذه المغامرة . . ويقال أن حادثة فاشوده ، أدت إلى اهتمام حكومة السودان بتركيز الحكم الإدارى لشعب الشلك فى بلدة كودك القريبة . وبقيت فاشوده مركزاً دينياً . أما كودك فهى مركز الإدارة والتجارة ، وفيها المفتش والمأمور وغير ذلك من مستلزمات الحكم . وبلدة كودك مبنية بعيداً نوعاً عن النهر ، وأكثر مساكنها من القوطيات ، وذلك لسهولة البناء وملاءمته . ولكننا نجد فيها شوارع ومنازل متجاورة . وأبنية بالآجر ، وبخاصة المبانى

العامة ، وفى مثل هذه البلدان نجد كثيراً من « الأجانب » من عرب الشمال ، وبعض اليونان والمصريين والأرمن .

أما ملكال فإنها إذا كانت يوماً ما بلدة شلكاوية فإنها تطورت كثيراً منذ صارت عاصمة لمديرية ، ومركزاً للبحوث المائية ، ومحطة للطيران . وتنوع سكانها تبعاً لذلك وتكاثروا .

وهذه المراكز المنوعة ، وإن قدمت للشلك بعض الخدمات . ليست من صميم الحياة الأصلية لشعب الشلك ، وإنما هى من مستحدثات العصر الحديث

أما قرى الشلك الحقيقية ، فمؤلفة من منازل يحتوى كل منها على قوطيتين أو أكثر ، وهى ليست مرصوصة متلاصقة ، بل يحيط بكل منزل حقوله ، التى يزرعها ، وهى منتشرة فى طول البلاد من أولها إلى آخرها ، ولا تكاد تخلو منها بقعة .

والحقول المزروعة هى المظهر السائد فى ديار الشلك ، لأن عهد الرعى والانصراف إلى الرعى انتهى . . لقد كان الشلك رعاة ، ولا حرفة لهم إلا الرعى . وهذا زمان مضى وانقضى . . دعا لزواله فى هذا الوطن المحدود تعرضه للغارات خلاف الأمراض والأوبئة .

فأصبح الرعى يمثل مكاناً ثانوياً ، فى الوقت الحاضر ، وإن كان له مكانه المحترم بين الناس . ولا يشتغل به من السكان إلا عدد من الشباب . وليسوا فى حاجة إلى معسكرات بعيدة فى فصل الجفاف . إذ يتوفر الماء والمرعى فى الأخوار والأودية والجزر النهرية .

وهكذا قضت الظروف على الشلك أن يكونوا زراعاً ، بل أن يزرعوا أصنافاً لا تهمهم مثل القطن ، لكى يدفعوا به ضرائب الدولة ، ويشتروا به بعض حاجاتهم . ولذلك يلازمون أوطانهم السنة كلها ، وليس لهم رحلات فى موسم من المواسم طلباً للكلأ .

وفيما يلى بيان عن ترتيب المساكن والقرى فى ديار الشلك :

١ ــ المنزل : ويسمى بلغة الشلك جول GOL وهو ما يدعوه الإنجليز Homestead

هذا هو أصغر الوحدات للسكنى مما يلائم الحياة الريفية . وهو عبارة عن كوخين أو ثلاثة يحيط بها سياج وبجواره قطعة من الأرض . هذا هو منزل أسرة واحدة تتألف من زوج وزوجة أو أكثر والأبناء والبنات ، وقد يؤوى الرجل فى منزله أحد أقاربه أو قريباته للضرورة . ولكن الأصل فى المنزل أن يكون للأسرة بمعناها الضيق . والزوج الوالد هو رب الدار ، والمتصرف والمسئول . وهو الذى يملك الماشية ، ويسأل عن سلوك أبنائه . ولا بد لرب الدار أن يكون متزوجاً ، أما الفتى غير المتزوج فيعيش فى كنف أبيه ، أو ــ فى حالة وفاة الأب ــ فى كنف عمه أو أخيه الأكبر المتزوج .

٢ ــ الحلة أو الكفر PAC :

من عدة منازل يتألف الكفر . وهو ما يسميه الإنجليز Hamlet وقد يكبر الكفر أو يصغر حسب عدد المنازل التى يتألف منها . هذه المنازل موزعة حول فضاء أو ساحة وسطها زريبة معرشة (كأنها كوخ كبير) تأوى إليها فى المطر مواشى الكفر . وهذا الفضاء هو مركز الحفلات والنشاط المشترك لسكان الكفر وضيوفهم . . وسكان الكفر عبارة عن أسر تجمعها أواصر القرابة .

٣ ــ بلد أو مركز Podh :

ومن عدة كفور (عشرة أو أكثر) يتألف ما نسميه ــ على سبيل التجاوز ــ بلداً أو مركزاً ، لأنها ليس لها نظير فى بلاد أخرى . ويسميها الشلك پذ Podh وقد سماها الإنجليز Settlement ، وهى تتألف من عدة كفور قد تكون مختلفة الأنساب . وفى بعض الأحيان نرى المراكز تتداخل حدودها بعضها فى بعض . فهناك بضع مئات من الوحدات فى القطر . والواحدة لا تكاد تنفصل عن جاراتها ، فالمراكز تكاد تكون أقساماً جغرافية : وبدرجة ما اجتماعية أيضاً ، ويعرف السكان جميعاً مركزهم الذى ينتمون

إليه . ولهم فيه أحياناً نشاط مشترك فى حفلات تقام أو ما شابه ذلك . ولكل مركز شبه زعيم معترف برياسته للمركز .

ويقال إن نياكانج (مؤسس دولة الشلك ، وجدهم الأول) عند احتلال البلاد وزع العشائر فى كل مركز من المراكز . وهؤلاء تملكوا الأرض وأصبح لهم الحق الأول فيها . ثم انضم إليهم مهاجرون نزلوا فى مختلف المراكز . وصار لهم فيها مكان ثانوى . . والأوائل يدعون ديل Dyil والآخرون هم الويد Wedh والعلاقة بينهما ليست علاقة الخاصة بالعامة أو السادة بالمسودين . ولكن الانتماء إلى الجماعة الأولى ينطوى على شعور بشىء من الفخر والأهمية .

ومن هؤلاء الديل يختار عادة الجاجو Jago أو رئيس المركز . ومع ذلك فمن الجائز أن أسرة من الأسر غير العريقة قد يشتد بأسها ويزداد عددها ، فيعين زعيمها لرياسة المركز . ولكن يبقى دائماً للعريق الحسب مقامه الاجتماعى ، وتصدره فى القيام بالشعائر الدينية .

فى هذه الوحدة المركزية عناصر ضعف وعناصر قوة . فمن عناصر الضعف فيها أن الناس لتعدد عشائرهم . قد يكون ولاؤهم الأول لعشيرتهم ، ثم لزعيم المركز فى المكان الثانى . فإذا كان رئيس المركز ضعيف الشخصية ، كان ذلك سبباً فى الشقاق وتفرق الكلمة .

ومن عناصر القوة أن موسم المطر الطويل ، يجعل كل مركز فى شبه عزلة ، فيستقل بشئونه ، ويتعاون السكان فيه بما تفرضه عليهم الظروف إلى أن تتيسر المواصلات مع المركز الرئيسى .

ومن عناصر القوة أيضاً ما يحدث من التزاوج بين العشائر العريقة الحسب والحديثة النسب . ونظراً لأن القرابة تحسب فى كثير من الأحوال عن طريق الأم ، فيتبع الطفل عشيرة أمه ، ويكون لهذا أثره الطيب فى إزالة الحزازات بين العشائر . ولكن أهم ضمان لوحدة المركز ورخائه ، الزعيم القوى العاقل . . وهذا ما يدعو الشلك للاهتمام باختياره .

هذه المراكز هى الوحدات الأساسية ، أو الخلايا التى يتألف منها المجتمع أما الأقسام الكبيرة فى البلاد ، فإن هنالك إلى جانب التقسيم إلى مراكز ، أقساماً أخرى يشتمل كل منها على عدد من المراكز . . ولإيضاح هذه النقطة نذكر أن بلاد الشلك كلها تنقسم إلى مديريتين :

الأولى هى المديرية الشمالية ، وتسمى جر Gerr . . وتنقسم إلى ستة أقسام : وسنورد هذه الأقسام مكتوبة باللغة العربية والإفرنجية .

١ ـ مومو	Muemo	٢ ـ دلال أجاك	Delal-Ajak
٣ ـ أتودوى	Atodwoi	٤ ـ دتوك	Detwok
٥ ـ جلبانى	Golbany	٦ ـ فاشوده	Fashoda

ثانياً ـ المديرية الثانية : لواك Luak وأقسامها خمسة وهى من الشمال للجنوب .

١ ـ واو	Wau	٢ ـ ملاكال	Malakal
٣ ـ ديتم	Detim	٤ ـ فانيكانج	Fanyikang
٥ ـ تنج	Tung		

فبلاد الشلك عبارة عن مملكة تنقسم إلى مديريتين . . وكل مديرية مقسمة إلى وحدات . وكل وحدة مقسمة إلى مراكز عديدة .

ويقال إن هذه الأقسام من صنع نياكانج نفسه . ولكن لم يكن لها خطر كبير فى الأزمنة الأخيرة من الوجهة السياسية ، وإن يكن هنالك تقاليد مأثورة تفيد أنه إذا جد الجد فإن هذه الأقسام تتعاون معاً لدرء الخطر . والوحدات المذكورة متجاورة . وقد استغلت هذه التقسيمات فى الإدارة الحديثة . أما فى الأزمنة القديمة ، فكانت الوحدات لا تعمل معاً إلا فى ظروف نادرة .

والوحدات الست الأولى تؤلف كما رأينا المديرية الشمالية (جر Gerr) وتؤلف الخمس الأخرى المديرية الجنوبية أو لواك . ولهذا التقسيم بعض الأهمية الدينية فى الطقوس والحفلات . ولكن ليست له أهمية سياسية أو أى

مغزى إدارى . والحد بين المديريتين خور يصب فى النيل يدعى خور آريباجور . واقع إلى الجنوب من فاشوده . والزعيم الرسمى للمديرية الشمالية هو زعيم مركز جلبان بالقرب من فاشوده . أما الزعيم الرسمى للمديرية الجنوبية فهو زعيم Debalo kwom ، إلى الجنوب من فاشوده . ويلاحظ أن كلا الزعيمين يعيش بالقرب من فاشودة مركز الملك . فالمركزان القريبان من فاشوده اكتسبا أهمية خاصة لقربهما من مقر الرت Reth .. وهناك أيضاً أهمية خاصة لمن يحكم آخر قسم فى الشمال فى مومو ؛ وفى آخر الجنوب فى تنجا . . . كأنهما بمثابة حراس الثغور . .

وفاشوده بالطبع هى أهم الجميع ، فهى مركز الملك نفسه وهو بلغة الشلك يدعى رث Reth ؛

الأقسام الاجتماعية :

أولا : يتألف الشعب الشلكاوى من الوحدات الاجتماعية الأربع الآتية :

١ – كوارث Kwareth ، وهى عشيرة الملك نفسه ، والمفروض أنها منحدرة من نسل نياكانج نفسه . الجد الأكبر الذى قاد الشعب من أوطانه الأصلية إلى أن أنزلهم بديارهم الحالية . والعشيرة موزعة فى أنحاء البلاد . ولا يتولى الملك إلا عضو منها ، بشرط أن يكون والده قد تولى الملك .

وهى تنقسم إلى أربعة أقسام :

١ – الملك نفسه ، أو الرث .

٢ – نيرث : الطبقة الثانية التى تلى الأولى فى الأهمية وهى تتكون من أبناء وبنات الملك الحالى أو الملك الراحل .

٣ – نيارث : أبناء أبناء الملك ، ويكونون الطبقة الثالثة .

٤ – حفداء أبناء الملك . ويكونون الطبقة الرابعة .

ونلاحظ فى القسمين الأخيرين أنه لا ذكر للبنات فى الطبقة الثالثة والرابعة ، وذلك لأن بنات الملك لا يتزوجن . لكيلا يكون لهن من نسلهن من يزاحم فى تولى الملك .

وقد انتشرت عشيرة الرث فى جميع أنحاء البلاد حتى صارت لها الأغلبية فى كثير من المراكز . وتولى أفرادها زعامة المركز بفضل ما لديهم من الثروة ، بحيث يستطيعون أن يتزوجوا بكثير من الزوجات ، فتتسع عصبيتهم وتنمو . . ومن جهة أخرى ، فإن الرث نفسه إذا آن لإحدى زوجاته أن تضع مولوداً فإن التقاليد المرعية تقضى بأن ترحل الزوجة إلى أهلها فى المركز الذى تنتمى إليه . وهناك تضع جنينها ، الذى ينشأ ويترعرع فى كنف خاله . . وقد يكون حسن الحظ ويزاحم على تولى منصب الرث . أو يغدو على كل حال شخصاً هاماً فى المركز لأنه من الطبقة الثانية فى العشيرة الملكية .

ثانياً : فى الطبقة الثانية بعد عشيرة الملك تجىء أرورو Ororo . وهى عشيرة منفصلة عن عشيرة الملك . ولكن أصلها من العشيرة المالكة . ثم حرمت حقوقها فى بعض العهود . وهذا على كل حق من حقوق الرث إذا شاء أن يحرم أى أسرة أو فرع من عشيرته . والملك يتخذ منهن دائماً بعض زوجاته ، ولا يتميز الأرورو عن سائر العشائر إلا بأن لهم دوراً خاصاً فى بعض الطقوس التى لا بد من إجرائها عند تنصيب الرث الجديد أو عند وفاته .

ثالثاً : يجىء فى المرتبة الثالثة بانج رث Bang Reth أو حاشية الملك وأتباعه المقربون وهم إما متطوعون للخدمة أو أسرى فى الحروب أو من نسل ارتكب آباؤهم جريمة القتل . فضم الأبناء إلى الحاشية . حيث يقومون بجميع الخدمات الزراعية والمبانى وكل ما يلزم للملك من خدمات . وهم لا يكونون عشيرة متصلة النسب ، ولا يتزوج منهم الرث لأنه يعدهم من المقربين إليه وإذا توفى الرث ذهب فريق منهم لخدمة مقبرته. ويمنحهم الرث بعض الماشية على سبيل المكافأة .

وهذه الأقسام محدودة بحكم نشأتها ووظيفتها .

رابعاً : أما القسم الرابع ويسمى كولو Kolo فهم الذين يتألف منهم معظم الشعب وعشائرهم تبلغ نحو المائة ، وكل عشيرة منها تعد نسبها عن طريق

الأب والجد إلى بعض أتباع نياكانج ، أو إلى بعض الزعماء الذين هاجروا إلى البلاد قديماً . أو كانوا من السكان الأصليين قبل هجرة نياكانج نفسه .

التنظيم السياسى والإدارى :

أهم ما يمتاز به الشلك هو وحدة النظام السياسى ، التى تنتظم البلاد من أولها إلى آخرها ، ووجود زعامة عليا لشخص واحد مقدس هو الرث ؛ فى شخصه تتمثيل المملكة والبلاد وأقسامها وكل من فيها من العشائر على اختلاف أنواعهـــا .

وتبعاً للرواية السائدة عند الشلك ، فإن الزعيم الحالى هو الواحد والثلاثون منذ نياكانج ، ذلك الزعيم الأول الذى نظم البلاد وقاد شعب الشلك إلى هذا الوطن الجديد ، ووزع العشائر وأنزلها فى منازلها . ووضع السنن والتقاليد ، التى لا تزال مرعية إلى اليوم ، وهو الذى تنتقل روحه فتسكن جسم كل رث . ولا تزال ذكراه تؤلف القوة العظيمة التى تربط الشعب برباط روحى متين . . .

والمفروض أن الرث هو الحاكم الأعلى والمتصرف فى جميع شئون البلاد والعباد ولكن سلطانه يتمثل فى سلطته الروحية . لأن السلطة الزمنية يحد منها تعذر المواصلات وبعد المسافات، ولذلك لا بد له أن يعتمد كثيراً على حكام المراكز (جاجو) .

وقد كان الكتاب يظنون أول الأمر أن الرث يحكم الشلك حكماً مباشراً وله السلطة العليا فى البلاد . وهذا صحيح من الوجهة النظرية فقط ، أما من الوجهة العملية فإن حكم الرث يطبق تطبيقاً هيناً . والمفروض أن الرث يستطيع إذا شاء أن يتدخل فى تعيين حكام المراكز . ولكنه فى الواقع لا يفعل شيئاً من ذلك ، بل يكتفى بإقرار اختيار من يقع عليه اختيار رؤساء الكفور . وهؤلاء الجاجو هم العنصر الفعال فى إدارة شئون الشعب ، لأنهم فى موضع يمكنهم من الاتصال المباشر بالناس ، وعليهم واجبات روحية مقدسة نحو شخص

الرث . وهذه يؤدونها دائماً عندما يذهبون إلى فاشوده . . ولا يصبح تعيين زعيم المركز نهائياً إلا بعد أن يعقد له الرث بيديه عقدة القميص : lan ؛

ولعل هذه المرونة فى النظام السياسى ، التى تأخذ بعين الاعتبار آراء زعماء الأسر وزعماء الكفور وزعماء المراكز ، لها فضل كبير فى وحدة الشعب وتماسكه .

* * *

ولسنا بحاجة للتوسع فى الحديث عن ديانة الشلك : فإن عناصرها الأساسية تتألف من الإيمان بالإله الواحد . ومن تمجيد وابتهال للسلف . أما الإله الواحد فاسمه جوك Jok وهو اسم يشبه ما يطلقه الدنكا على السلف . وقد افترق أجداد الشلك عن أجداد الدنكا منذ زمن ، ونمت كل ديانة فى شعبها منفصلة عن الشعب الآخر . وإذا كان الاسم واحداً ، فإن له عند الدنكا مدلول . وعند الشلك معنى آخر . وعند الشلك الإله الذى خلق العالم وبيده كل القوى والخصائص الربانية : واسمه جوك . وعندهم أنه فى السماء . ومع أنهم يبتهلون إليه أحياناً . . ولكن أكثر ما يبتهلون ويلتمسون المعاونة ويقربون الذبائح هو لروح السلف الممثلة فى روح نياكانج ، فإليه يتجهون دائماً بالصلوات والدعوات عندما يحزبهم أمر أو يحل بهم خطب .

والمفروض أن نياكانج قد جاء إلى أرض الشلك فى ظاهرة كونية أو طبيعية عنيفة ، وعندما أدركته المنية . قبض فجأة وانتقلت روحه إلى الرث الذى يليه . والمفروض أن كل رث تحل فى جسده روح نياكانج ، فجدير به أن يظل دائماً سليم الجسم والعقل حتى لا تتأذى تلك الروح الغالية التى تسكن فى ذلك الجسد . . أما إذا اعترى ذلك الجسد الإعياء ، ونالت منه العلل أو السنون ، فلا بد من إجراء ينتقل بواساطته الروح إلى جسد الرث الجديد .

هذه الظاهرة هى التى تتمثل فى نظرية « الملك المقدس » . وهى منتشرة عند عدد من الشعوب فى إفريقية وبوجه خاص عند البارى واللاتوكو والدنكا والشلك . . وكلها تنص على أن الزعيم يجب أن يقتل إذا بدا عجزه عن أداء

وظيفته . وقد حرمت السلطات بالطبع مثل هذه الوسائل وعلم الناس أن هذا مما لا ترضاه السلطة فتجنبوا ارتكابه علناً . بحيث لم يصل إلينا وصف لمشاهدة هذه الظاهرة رأى العين . وقد رأينا أن نكتفى بمعالجة هذا الموضوع بإشارة يسيرة ونحن نتكلم عن الشلك لأن « قتل الرث » موضوع أفاض فيه سلجمان وزوجته ؛ ومع ذلك فمن الجائز أن هذا الأمر قد انتهى ، وغشيته سحب النسيـــان .

الفصل التاسع

بعض شعوب السودان الجنوبى

شعب الآزندى

لقد وصلنا فى دراستنا للسلالات النيلية ، إلى نهاية انتشارها الشمالى عند خط عرض ١٢° . ولكنا فى تتبعنا للسلالات المختلفة فى السودان الجنوبى تركنا بعض أقاليم لم نتحدث عنها ولا عن طبيعة سكانها ، فقد رأينا أن المدخل الجنوبى الأوسط للسودان يحتله البارى وله أوطانه فى شرق وادى النيل وفى غربه . ويلى البارى فى الشرق شعوب مثل اللاتوكا والتبوثا وأكثرهم من النيليين الحاميين . وفى الناحية الغربية من أوطان البارى نجد شعوباً تتكلم لغة البارى ، وتشبههم ثقافياً واجتماعياً . . فإذا مضينا فى اتجاهنا نحو الغرب وصلنا إلى الجزء الجنوبى من حوض بحر الغزال ، المتاخم لأعالى روافد نهر الكونغو . ها هنا نرى مساحة واسعة جداً فى السودان الجنوبى الغربى . وفى الشمال الشرقى من الكنغو . وهى تقع فى مركز وسط بالنسبة للقارة الإفريقية ، فى هضبة متوسطة الارتفاع . . وتحتلها مجموعة من الشعوب المختلفة عما كنا بصدده عند الحديث عن النيليين والنيليين الحاميين . . ومن أشهرها قبائل مورو ، وماضى وبونجو ومندو والمكاركه والزاندى والمنجبتو ، وغيرهم . . .

وهذه المساحة العظيمة من جملة الجهات الإفريقية التى انتشر فيها ذباب تسى تسى ، المسبب لمرض النوم ، وعلى الرغم من ذلك فقد احتشدت فيها فى القرون الثلاثة الأخيرة ، جماعات مختلفة من أقاليم الكونغو ، وأواسط إفريقية ودارت بينها اشتباكات ومنازعات . . وأخذت جماعات تتشكل فى مختلف

الجهات ، ثم تتحلل ، تظهر ثم تختفى ، تستقل ثم تندمج . . ولا تزال آثار هذا التشتت والتمزق واضحة ، بحيث يتعذر معها رسم خريطة لتوزيع الشعوب فى هذا الإقليم الكبير[1] (شكل ١٤) .

ومع ذلك ففى وسط هذه الفوضى العظيمة استطاع شعب واحد : وهو الآزندى ، أن يدمج أقطاراً عديدة ، وأن يخضعها لنظام اجتماعى وسياسى مشترك . وأن ينشر بينها لغة واحدة . وذلك بفضل الطوائف الحاكمة فى الآزندى المسماة آفنجره ، وبفضل براعتها الحربية والإدارية .

إن الشعوب التى اندمجت فى الآزندى كانت كلها من المهاجرين ، الذين ملأوا هذا الإقليم وافدين إليه كما دكرنا من أعالى الكونغو وأواسط إفريقية . ولكن لم يكن بينهم أحد من النيليين أو النيليين الحاميين . . أو البانتو . وهؤلاء لم يؤثروا فى حضارة الزاندى ولم يتأثروا بها ؛ وعلاقاتهم بعضهم ببعض لم تكن يوماً علاقة مودة وصداقة . ولا يزال هذا الإحساس سائداً فى علاقات الدنكا والآزندى ، برغم الجوار فى حوض بحر الغزال .

ونظراً لاختلاف السكان هنا عن سائر جهات السودان . فمن الممكن أن نعتبر هذا الإقليم امتداداً لحوض الكونغو ثقافياً واجتماعياً .

وسنكتفى فى هذا الفصل بالحديث عن الآزندى . وهم على كل حال من الأهمية بحيث يفوقون جميع العناصر الأخرى مجتمعة .

والآزندى موزعون بين الكونغو ، والسودان ، وإن كان هذا الانقسام نتيجة أحوال سياسية خارجية . وكذلك هناك عدد من الآزندى فى إقليم كان يدعى إفريقية الفرنسية الاستوائية ؛ وهو الآن يدعى جمهورية وسط إفريقية ، وأكثر الآزندى فى بلاد الكونغو يدعون المانجبيتو Mangbetu وهو اسم للعشائر الحاكمة ، ويقابل اسم الأفنجره Avungara : وهى العشائر الحاكمة فى الإقليم السودانى .

---

(١) يتضح ذلك للقارىء من مراجعة الخريطة الملحقة بكتاب
Baxteer & Butt: The Azande and Related Peoples, 1953.

ولا بد لنا أن نشير إلى أن اسم الآزندى كثيراً ما يختلط باسم تلك العشائر أو باسم بعض الشعوب المندمجة فى الآزندى مثل الماكركا Macarca والأصوب أن ندعوها باسم الآزاندى Azande . والشخص المفرد يدعى زاندى . لأن الألف الممدودة من علامات الجمع . ولا بد لنا أن نشير أيضاً إلى الاسم الذى أطلقه الجغرافيون العرب فى العصور الوسطى ، على سكان أواسط إفريقية : وهو اسم نيام نيام ، الذى اشتقت منه كلمة النمنمية ، وكان أولئك الكتاب لا يميزون بهذا الاسم شعباً بذاته ، بل مجموعة سكان الإقليم الأوسط ، الذى يشمل الكونغو وأعالى النيل ، والذى اشتهر سكانه بالنمنمية . وبذلك يكون إطلاق هذا الاسم على الآزندى دون غيرهم خطأ . والأوفق أن نضرب صفحاً عنه . ونكتفى بتسمية الشعوب بأسمائها .

وكان الكتاب الأوائل فى القرن التاسع عشر يزعمون أن الآزندى يتجاوز عددهم مليونين من الأنفس ، وبعضهم تجاوز تقديره ثلاثة ملايين . والإقليم الذى يسكنه الآزندى معرض كما قلنا لمرض النوم . ومن الجائز أن يكون تناقص السكان راجعاً لذلك ، أو لظروف أخرى سنذكرها فيما يلى . أما التقدير الحالى فأكثر تواضعاً ، وهو يجعل عدد الآزندى نحو ثلاثة أرباع مليون نفس : منهم ٥٠٠,٠٠٠ فى أعالى الكونغو . و ٢٧٠,٠٠٠ فى حوض بحر الغزال الأعلى ونحو ٢٠,٠٠٠ فى جمهورية إفريقية الوسطى .

ومن الأمور التى لاحظها بعض الباحثين — ولها تأثيرها بلا شك فى تناقص عدد السكان — أن نسبة الأطفال للأمهات فى تناقص . ويعلل ذلك الأستاذ الفرنسى ليلنج بأن هذه الظاهرة نتيجة استئثار الأغنياء كبار السن بالزوجات الشابات مع تعدد الزوجات ، وانتشار مرض الزهرى . وعلى الرغم من أن تجارب هذا الكاتب ترجع إلى زيارته للإقليم البلجيكى والفرنسى ، فإن هذه الظاهرة قد لوحظت فى السودان أيضاً ، والآزندى هناك يعزونها إلى انتشار الرذيلة ، بسبب فقدان الشعائر القديمة . . ولعل السبب فى الحالين واحد !

واللغة التى يتكلم بها الآزندى وبعض من يلوذ بهم من القبائل لغة واحدة ،

وإن تعددت لهجاتها . وهناك فوضى لغوية بين مجموعات صغيرة تحيط بأوطان الزاندى . وأكبر الظن أن الذين يقتبسون لغة الآزندى فى ازدياد مطرد . والبعض ينتهى به الأمر إلى أن يدعى أنه آزندى . وهذا يفسر لنا أن بعض القبائل التى كان لها شأن خطير عند زيارة شوينفرت لهذه الجهات فى منتصف القرن التاسع عشر ؛ قد انقرضت أو تضاءل حجمها بدرجة كبيرة .

* * *

لقد رأى سلجمان أن يميز هؤلاء الجنوبيين بأن وصفهم بأنهم مجموعة متوسطو الرءوس . . ولا شك أن ما ذهب إليه سلجمان صحيح ، تنطق بصحته المقاييس الكثيرة التى عملت فى مختلف الجهات .. وما لاحظه شوينفرت نفسه فى أثناء إقامته بين الآزندى . وإذا ذكرنا أن كثيراً من سكان الإقليم نزحوا إليه من الكونغو ، ولعل هذه الموجات ترجع إلى زمن بعيد . فليس من الخطأ أن نقول إن هذه الموجات حملت صفات سكان الكونغو إلى أعالى الكونغو وإلى أعالى بحر الغزال ؛ فالصفات الطبيعية تختلف كثيراً عما رأيناه لدى النيليين والنيليين الحاميين .

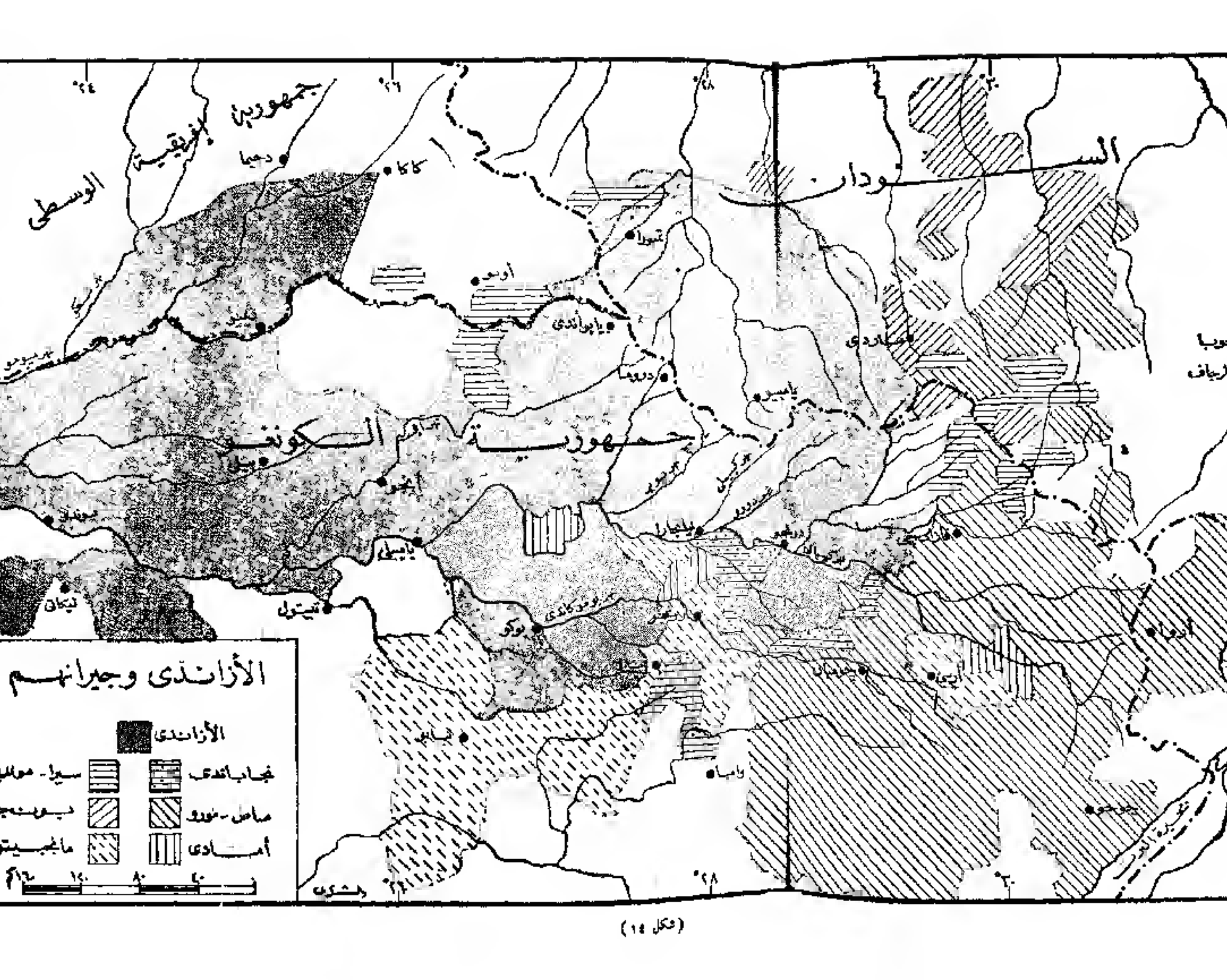
الرأس متوسط العرض تصل النسبة الرأسية فى المتوسط إلى ٧٩ ، وهذا الرقم يشير إلى أن هناك كثيراً ممن وصفهم شوينفرت بأنهم عراض الرأس جداً ؛ النسبة الأنفية ٨٢,٥ والقامة متوسطة تبلغ ١٦٧ سم فى الرجال و ١٥٧ فى النساء . وهذه الأرقام توحى بأننا هنا إزاء سلالات امتصت كثيراً من دماء الأقزام ، فاكتسبت بذلك ارتفاع النسبة الرأسية . ومما لاحظه شوينفرت أن طول الجذع غير منسجم مع طول الأطراف السفلى . أى أن الأرجل أقصر مما ينتظر بالنسبة لطول القامة . وهذه كما أوضحنا فى الفصل الأول من أهم خصائص الأقزام . وعلى العموم يمتاز الجسم بالمتانة ومرونة العضلات ويضعهم شوينفرت فى مقدمة سكان إفريقية ، كما أنه فى أثناء الحرب العالمية الأخيرة ، أريد تجنيد بعض العمال من الزاندى لبعض المشروعات الدفاعية .. فأرسل لهذا الغرض ألف رجل ، لم يرفض منهم سوى ٥٪ بسبب ضعف البنية

ويرى بعض الكتاب أن الزاندى من أذكى سكان إفريقية جنوب الصحراء . ولاحظوا أن له شغفاً بأشياء عديدة ، وأكثرهم يرى أن أهم خصال الزاندى :

١ — النظام والاحترام .
٢ — الروح الحربية والنظام العسكرى .
٣ — مهارة فى العمل بأيديهم . وسرعة تقليدهم للأوربيين .
٤ — قوة الاحتمال والشجاعة .
٥ — مظاهر النظافة .

ومن الأمور التى يشمئز منها المراقبون : شراهة الزاندى فى تناول طعامه، وإقباله على التهام الطعام العفن ، واللحم الفاسد؛ ومع ذلك يجب ألا ننسى أن الحيوان فى هذه الجهات قليل نادر . والماشية معدومة بسبب ذباب تسى تسى . والحيوانات الوحيدة « الأليفة » هى الكلب ، وهو من فصيلة خاصة لا يكسوها الشعر . وبضع دجاجات هزيلة عجفاء . وهو لا يتورع عن أكل لحم الكلب . كما أنه يصيب بعض لحم الصيد ، ولكن مورد الغذاء الأكبر هو الزراعة .

والزاندى مسرف فى الأكل إذا أصاب طعاماً ، يكاد يزدرد طعامه بدون مضغ . ولكنه يصبر على الحرمان إذا لم يجد طعاماً . ولا يعرف السكر ، وإن كان يعرف الجعة . . ولا حاجة بنا إلى الإشارة إلى ما اتهم به الآزندى من جنوحهم للنمنمية . فقد مررنا من قبل بسلالات تعزى إليها هذه العادة . ولم نقف عند هذا الأمر طويلا . . وعلى فرض أن هناك منطقة انتشرت فيها النمنمية ، وأنها تمتد من الكونغو إلى أعالى بحر الغزال ، فإن أكبر الظن أنها لم تكن يوماً ما عادة عامة شائعة فى طول الإقليم وعرضه . وهى بلا شك لم تكن عامة فى ديار الآزندى . وكثير من السكان ينكرون أن أمراً كهذا يمارسه أحد . ولا شك أن هذا أمر لم يعرفه الافنجرة فى أى عهد من العهود . ومهما يكن من أمر فإن الاتصال بين الشعوب ، لا بد أن قضى على هذه العادات ، فى الجهات القليلة التى كانت تمارس فيها .



الأزاندى وجيرانهم
الأزاندى
نجابانديى
سيرا - مو
ماض - مورو
بونجو
أمادى
ماجبيتو
جمهورية إفريقية الوسطى
السودان
جمهورية الكونغو
دجيما
كاكا
تمبورا
ياوندى
يامبيو
ناجيرو
مارادى
دروما
ليكاتى
تيتول
بامبيلى
نياجارا
نوكو
أدوا
٢٤°
٢٦°
٢٨°
٣٠°

(شكل ١٤)

ويمارس الآزندى التدخين . ويزرعون التبغ ؛ وأحياناً فى خلسة يزرعون بعض القنب وعند الآزندى كلمة خاصة فى لغتهم لكلمة التبغ . بينما الشعوب المجاورة تستخدم كلمة تبغ ؛ والنساء تدخن أسوة بالرجال ، والكل يستخدم فى التدخين بيبة طويلة تبلغ ثلاثة أقدام . ومعظم الدنكا يأخذ من بيبته نفساً طويلا عميقاً ، يدوخ بسببه لحظة ، ومع الحب الشديد للتدخين يزعم الزاندى أنه يدخن دفعاً للبرد والرطوبة .

وهم يخشون البرد والرطوبة . ولا شك أن الإقليم معرض لانخفاض الحرارة الشديد بالليل ، بسبب مناخه القارى ، البعيد عن الأثر الملطف للمحيطات ، البعيدة عنه بعداً شديداً .

والزاندى ينظر إلى الجماعات التى تمشى عراة نظرة ازدراء . وهم لذلك يحتقرون الدنكا ؛ ومع ذلك فإن ثياب الزاندى بسيطة . والزى الأساسى عندهم قطعة من النسيج ، الذى يتخذونه من لحاء الشجر ، وهم يلبسونها بين الرجلين ويربطونها حول الوسط . وهذا الثوب لا يقبل الغسيل ، بل يلبس حتى يبلى ، وقد يتخذ هذا الثوب من الجلد ؛ وهناك نوع من الثياب يتخذ من جلد الوعل الصغير ، على شكل فوطة طويلة تحمى صاحبها من رطوبة الحشائش العالية . ولا تزال تستعمل . . وقد أسرع الزاندى بتقليد الملابس الأوربية ، وانتشرت حتى بين طبقة الآفنجرة . ولكن النسيج المتخذ من لحاء الشجر لا يزال له مكانه فى « الرسميات » .

وفى الرجلين يلبس الآزندى نعلا من الخشب أو الجلد ، ولكنه فى الأغلب يفضل السير حافياً . أما على الرأس فقد برع الزاندى فى صنع قبعات من الخوص . وهذه تنسج بمهارة فى الشعر . ويحدث أن يكون بين الزاندى أشخاص شعرهم طويل نسبياً ، فيترك ولا يقص بوصفه هبة من امبورى Mbori الإله الأعظم .

والجلد يمسح بالدهن أو الزيت خوفاً من التشقق ولا شك أن البيئة تتطلب ذلك لأن الجفاف فى ديار الآزندى شديد جداً .

وعلى الرغم من خوفهم من البرد ينام الآزندى فى أكواخهم عراة ، ويتخذون وسائد من الخشب لرءوسهم . والظاهر أن النوم دون ثياب . يراد به المحافظة على الثياب . وهذا يضطرهم إلى إيقاد نار فى الكوخ للتدفئة .

ولا يوجد وشم أو تشويه للجسم بصفة عامة . وإن كانت الأذن أو الأنف تخرق أحياناً ويوضع فيها حجر أو خشب . وللتزين تتخذ عقود وبعض الأساور من النحاس حول المعصم .

ولا تخلع القواطع فى الوقت الحاضر فيما يبدو ، ولكن ربما قاموا ببرد جزء ما بين اثنتين من القواطع العليا المتوسطة ، على شكل الحرف V للتجميل . وقد أصبح الختان عاماً (للرجال فقط) .

ومهارة الآزندى فى كل ما يصنعونه بأيديهم ظاهرة يشهد بها كل من كتب عنهم . فهم يتقنون صنع الأسنة والرماح والخناجر والحراب والترس . ونتاجهم مشهور بالدقة والمتانة . ويحسنون صنع السلات والحصير والفخار . وكذلك يذيبون المعادن من خاماتها الطبيعية ويقومون بنحت الخشب والعاج . . ولهم براعة فى صنع التماثيل .

وهم فوق ذلك لم يهملوا فن الموسيقى ، وبرعوا فى صناعة أنواع من الدفوف والقيثارات والطنابير . ويتقنون صناعة الطبول .

وعلاوة على الأكواخ المتقنة التى يبنيها أكثر الناس متوسطى الحال . يبنى الزعماء والملوك منازل واسعة ، وجيدة البناء والجدران مزينة بالرسوم تستخدم فيها ثلاثة ألوان : الأسود والأبيض والأحمر . وقد ذكر شوينفرت أن إيوان الملك منزا Munza كان طوله ثلاثين متراً وعرضه ١٥ مترا وارتفاعه عشرة أمتار .

ولا شك أن هذه البراعات الفنية تذكرنا بما رأيناه من التقدم الفنى فى الجانب الغربى من إفريقية، بينما الجهات الشرقية خلت من هذه المواهب الفنية . وإن كانت كما يذكر الكثير من الكتاب قد ارتقى تفكيرها الدينى كما برعت فى فن تربية الماشية !

ويلخص الكاتبان باكستر و بت[1] تاريخ الآزندى، بأن أساس السكان فى هذا الإقليم الواسع فى أعالى الكونغو والغزال ، كان عبارة عن جماعات متفرقة من الأقزام ، وقليل من الزنج مبعثرين متفرقين بأعدادهم فى هذه البيئة الواسعة التى تبدأ بالغابات الكثيفة فى الجنوب وتنتهى إلى الحشائش العالية فى الشمال . . ويبدو أن هذا الإقليم تعرض لبعض الضغط من الجنوب والشرق من بعض سلالات البانتو ، ولكن هذا الضغط لم يلبث أن تلاشى أمام الموجات المتتالية من الغرب من عناصر سودانية غربية ، وقد ترتب على هذه الموجات الزاندية انتشار سلالات جديدة ، واندماج القديم فى الجديد ، وتوحيد الثقافة . وتكوين ممالك منظمة فى هذه المساحات الواسعة . وكثيراً ما كانت هـــذه الموجات بقيادة عشائر ممتازة فى صفاتها ومهارتها الحربية . وآخر هذه الحملات هى التى كان يقودها الآفنجرة ، ولعل الأمور استتبت فى صورة مستقرة فى أواخر القرن الثامن عشر فلم يكد يجىء القرن التاسع عشر حتى كان لعشائر الآفنجرة السيطرة التامة على الجهات الشمالية . . ويقابل ذلك دولة المانجبتو Mangbetu فى الجنوب . وبعد ذلك جاء الحكم الأوربى . . وبعد الاستيلاء التام على بلاد الآزندى ، كان هناك تذبذب فى الإدارة ، فتارة يسلبون الآفنجرة حقوقهم ، ويحرمونهم كل سلطة ، وتارة يبدلون من سلوكهم ويحاولون استرضاءهم .

وبلاد الآزندى بمعناها الواسع فى الكونغو والسودان تمتد من خط العرض الثانى جنوب خط الاستواء إلى خط العرض السادس الشمالى فى حوض بحر الغزال . ومن خط طول ٢٣ إلى خط طول ٢٩ شرق جرينتش . . أنهارها وجداولها عديدة ، بعضها يتجه شمالا بشرق نحو بحر الغزال ، والبعض يتجه جنوباً بغرب نحو نهر أويله من روافد النيجر ويحف بهذه الأنهار شجر كثيف ولكن معظم الأراضى أشجارها متباعدة وبعضها حشائش عالية يصل ارتفاعها

(١) The Azande and Related Peoples by Baxter and Butt, 1953.

إلى ثلاثة أمتار ، وربما وجدت فى الجنوب بعض الغابات الكثيفة ، والتربة بوجه عام خصبة .

وليس للآزندى كما ذكرنا حيوان سوى الكلب الأقرع والدجاجة العجفاء ، يستخدم الأول فى الصيد والثانية لإنتاج البيض . وحال مرض النوم دون وجود ماشية من أى نوع ولا يذكر الزاندى أنه كانت لهم ماشية فى أى وقت من الأوقات .

فكان من حظهم وفرة الأرض الطيبة ، التى استطاعوا أن يظهروا فيها براعتهم فى الزراعة . وأقصى ما يتمناه الزاندى أن تكون له مزرعة عظيمة ، وزوجة أو اثنتان ، وقليل من العبيد لمساعدته فى الزراعة . وهو أيضاً يقوم بالطبع بواجباته الزراعية كاملة ، ويرتاح للعمل الزراعى ، حتى الآفنجرة الذين يأنفون من سائر الأعمال اليدوية ، لا يترددون فى تولى إدارة مزارعهم ، وتوجيه العمل الزراعى فيها .

والمطر متوافر فى جميع أوطان الآزندى ، ومن الممكن حتى فى أشهر الجفاف (نوفبر — مارس) أن يجد الناس ماء فى مجارى بعض الجداول . وإذا جفت تماماً ، فمن الممكن استنباط الماء بأقل مجهود حفر فى جوانب الوادى .

ويقوم الآزندى بالزراعة فى المواسم الملائمة ، مع شئ من المرونة فى مواعيد البدء بالزراعة والحصاد . وهم يبذلون كل جهد فى أعمالهم الزراعية ، بقدر ما وسعهم الجهد مع اتباع نظام الزراعة البدائية ، الخالية من التسميد . ولعل انعدام الماشية من الأمور التى حالت دون التفكير فى التسميد . . ولذلك فإن الزارع من الزاندى يكتفى بزراعة ثلاثة محاصيل تبدأ مثلا ببعض البقول مثل الفول أو الحمص يليه الذرة . ثم السمسم . وهذه الغلات الثلاث تكفى لاستنفاد قوة الأرض ؛ فينصرف الزاندى إلى تطهير أرض جديدة لزراعة تلك الدورة أو ما يشابهها من جديد . . . أما الأرض التى سبقت زراعتها فتترك بوراً خمس أو ست سنين لتسترد خصوبتها . ومن حسن حظ الزاندى

أن الأرض متوفرة ، وفيها متسع للزراعات الجديدة دائماً ، ولكل زوجة مزرعتها . تنهض بأعبائها من إعداد وبذر وحصاد ، ويساعد الرجل فى بعض الأعمال الشاقة . ومن الممكن أحياناً أن تتعاون زوجتان ، فتساعد كل منهما الأخرى فى حقلها . وهناك بعض التنويع فى الغلات حسب الإقليم . وبذلك تتنوع المحاصيل : فيكون فيها الذرة بأنواعها والفول السودانى والبطاطا ، والكساڤا والقرع العسلى ، وقد أدخلت زراعة المانجو من الكونغو ونجحت :

واللحم قليل جداً ، مع أن شهوة اللحم عظيمة ؛ ولذلك يحاولون استيفاء حاجتهم من اللحم بالصيد خصوصاً فى موسم الجفاف . . وليس فى الجداول سمك كثير لأن أكثرها يجف بعض العام ، ولكنهم لا يتورعون عن تعاطى أى نوع من اللحم ، ما عدا لحم حيوانات الطواطم :

والمرأة فى المجتمع الزاندى تقوم بأعباء تفوق ما يقوم به الرجل . ومع ذلك فإن منزلتها فى المكان الثانى ؛ ودون منزلة الرجل بكثير ، بخلاف ما نجده عند الحاميين . فالمرأة فى المجتمع الزاندى هى خادم الرجل ، ولا تأكل حتى يفرغ هو من تناول طعامه . . وفى بعض الروايات أن مركز المرأة الزاندية فى تحسن ، ولعل هذا نتيجة اختلاط الزاندى ببعض الحاميين أو الأوربيين .

ولقد كان مجتمع الآزندى قائماً على نظام خاص يتولى فيه السيادة ومناصب السيادة عشائر الآڤنجره Avungara . . . وجميع الزعامات فى البلاد موزعة بين أفراد العشيرة مع تدرج فى المناصب ، من زعيم قرية إلى زعيم ناحية أو مركز إلى زعيم إقليم . إلى الملك نفسه . . ونظام الوراثة للابن الأكبر ، الذى يرث أباه أو قد ينفصل أحياناً ويؤسس مملكة جديدة . . وقد كان لهذا النظام أثره فى انتشار الزاندى .

وهكذا كانت الحال فيما مضى إلى أن جاء عهد الحكم الإفرنجى ، وألغيت هذه النظم ، فلم يعد هنالك ملوك . وقد يكون هناك زعماء يعملون مع السلطة ولكن ليسوا من الآڤنجرة : ومع ذلك فإن الآڤنجرة لا يزالون يقومون

بنشاطهم الاقتصادى وبعض النشاط الاجتماعى . وربما تطورت الأمور بما يضمن لهم القيام ببعض النشاط فى المجال القيادى أيضاً .

* * *

الديانة عند الزاندى تبدو كأنها تتألف من عناصر مختلفة ، متفاوتة الأهمية ، وكذلك اختلفت الآراء فى أهمية الديانة فى حياة الزاندى . . وسنورد فيما يلى أهم العناصر التى ذكرها الكتاب فيما ذكروه عن تلك الديانة .

١ ــ التوكا (Tuka) :

عندما يبنى الزاندى كوخه يجعل فى وسطه شيئاً كالمحراب أو النصب لذكرى والده Tuka . وهذا النصب عبارة عن كومة من الطين ثبت فيها عمود من الخشب مفتوح أعلاه بما يشبه السبت ، حتى يمكن أن تلقى فيه الهبات . والمفروض أن هذا النصب يتلقى بعض الهبات من آن لآن . ولكن يقال إن الآفنجرة وحدهم هم الذين يهتمون بهذه الشعائر ، ويقدمون لآبائهم شيئاً كل يوم . أما سائر الآزنده فيكتفون بهدية كل موسم .

٢ ــ أجاليزا The Agalisa :

هؤلاء عبارة عن أرواح شريرة تختبئ وراء الصخور أو الأحجار وتؤذى الآزنده فى تجوالهم منفردين . . ولا يعرف أن هنالك أى صلوات أو عبارات لتقلل من أذاها . إنما هى مجرد عقيدة .

٣ ــ مبورى Mbori الكائن الأعلى :

يقال عن الآزندى إنهم يعبدون كائناً أعلى اسمه مبورى . ويقولون إنه على كل شىء قدير ، وإنه خلق الأرض والهواء والنار والماء والحيوان وسائر الكائنات . . وإلى جانب هذه الفكرة الراقية ، تحيط باسم مبورى خرافات وأساطير ، لا ترقى لمستوى التفكير فى الإله الواحد .

ويقال إن الفكرة السامية التى تحيط باسم مبورى جاءت نتيجة التعاليم

المسيحية . . وليس للزاندى كهنة أو قسس أو هياكل أو طقوس ، أو مظاهر تقديس خاصة بهذا الإله .

ومن الجائز أن مبورى يمثل ثقافة دينية تأثرت بها بلاد الزاندى زمناً ؛ ثم أحاطت بها الخرافات بعد ذلك .

ويؤمن الآزندى بضروب عديدة من السحر والشعوذة شرحها شرحاً وافياً الأستاذ برتشارد[1].

(١) يرجع فى أمور للزاندى إلى كتاب سلجمان ؛ وكتاب باكسترويث السابق ذكره ومقالات الأستاذ برتشارد وخصوصاً :

Evans-Pritchard: Witchkraft, Oracles and Magic among the Azande, 1937.

الفصل العاشر

شعب النوبا

عندما تكلم الأستاذ سلجمان عن القبائل ذات النسبة الرأسية المتوسطة فى السودان الجنوبى أشار أيضاً إلى أن هذه المجموعة الجنوبية تقابلها أيضاً مجموعة شمالية ، فى الجهات المتاخمة لأوطان النيليين الشماليين مثل الشلك والدنكا . هذه العناصر تشمل شعب النوبا غرب النيل الأبيض ، وعدداً من القبائل فى جنوب أرض الجزيرة ، جنوب خط العرض الثانى عشر ، مثل الإنجسنا والتورناسى والبرون ، وأودك ومبان . . . وتمتاز أوطان هذه القبائل كلها بأنها ذات طبيعة جبلية ، فاستطاع السكان أن يعتصموا بالجبال ، إذا ما أغار المغيرون على السهول . وبذلك احتفظت هذه القبائل بثقافاتها ولغاتها ، وإلى حد كبير بدمائها . . وبقيت تغلب عليها الصفات الزنجية . فى أقطار مشرفة على المؤثرات العربية ، والأوطان العربية .

والقبائل التى تعيش فى أرض الجزيرة صغيرة العدد ، ونكتفى هنا بالإشارة إليها . ولكن النوبا فى جنوب كردفان أجل خطراً وأكثر عديداً ، ويؤلفون شعباً هاماً من شعوب السودان ، ولذلك يجمل بنا أن نتحدث عنه بتفصيل أكثر .

أوطان النوبا : تقع الأقطار التى يسكنها النوبا فى القطاع الجنوبى من إقليم كردفان ، فى مساحة من الأرض تبلغ زهاء ٣٠,٠٠٠ من الأميال المربعة ، ما بين دائرة العاشرة جنوباً ودائرة ١٢,٣٠° شمالا . وأخص ما تمتاز به هذه الرقعة من الأرض وجود مرتفعات مبعثرة فى جميع أنحائها من غير نظام

خاص ، وهى التى يطلق عليها اسم « الجبال » ، أو جبال النوبا . وتتألف هذه المرتفعات من كتل جبلية صغيرة أو كبيرة قد يصل ارتفاعها إلى ١٥٠٠ متر فوق سطح البحر . ولكن أكثرها دون هذا الارتفاع بكثير . وتفصل ما بينها أودية عريضة أو سهول فسيحة ، تبعاً لاقتراب الجبال وتباعدها .

بين منطقة الجبال هذه ونهر النيل مسافة عرضها يتراوح بين ٧٠ و ١٠٠ ميل ؛ كلها أرض سهلة أما شمال بلاد النوبا فإن طبيعة الإقليم الجبلية لا تنتهى بانتهاء مواطن النوبا ، بل تستمر إلى سائر كردفان ، ولو أن الجبال الجنوبية فى الجملة أكثر ارتفاعاً ، وأكثر تقارباً . . فاستحقت بذلك اسم « الجبال » .

تمتاز هذه البلاد — عدا طبيعتها الجبلية — بخاصية أخرى ترتبت على وجود الجبال ، وهى ازدياد سقوط الأمطار فيها بالنسبة لما يحيط بها من الأقطار شرقاً وغرباً ، كذلك تكثر فيها العيون والينابيع ، وسط الجبال وفى سفوحها ، والأرض التى حولها . . وفوق ذلك فإن المرتفعات أوفر عشباً ومرعى وشجراً.

فللإقليم الذى نحن بصدده إذن خصائص تميزه عن الأقاليم التى تحيط به ، وهذه الميزات الطبيعية يقابلها من الناحية البشرية خصائص تميز السكان عمن حولهم من الجماعات فإلى الغرب من جبال النوبا تسود الثقافة العربية والدماء العربية بين جماعات من رعاة البقر أمثال الحبانية والرزيقات وغيرهم ، وإلى الشرق من جبال النوبا — بعد أن تجتاز شريطاً ضيقاً يكاد أن يكون خالياً من السكان — نصل إلى مواطن الشلك التى تمتد إلى نهر النيل الأبيض ، وهذه الحالة نراها سائدة من جهة الجنوب أيضاً ، حيث نجد بعض الشلك وجماعات النوير وغيرهم من القبائل النيلية .

أما شمال بلاد النوبا ، فإننا نرى حالة أخرى أقل وضوحاً وتحديداً . فكما أن جبال النوبا فى جنوبى كردفان لا تنتهى فجأة فى الشمال ، بل تظل الجبال موجودة فى صورة أقل وضوحاً فى سائر المديرية ، كذلك نرى تشابهاً بين سكان كردفان شمال الجبال مباشرة وبين النوبا من حيث المظهر والسحنة

والتقاطيع . . والفرق بين كردفان الشمالى والجنوبى (وطن النوبا) فرق ثقافى أكثر منه جنسى . فقد استطاعت المؤثرات العربية أن تترك أثراً واضحاً فى سكان الشمال . فأصبحوا جميعاً يدينون بالإسلام ويتكلمون العربية ، حتى لقد وصلت هذه المؤثرات العربية إلى صميم الأطراف الشمالية من بلاد النوبا ، بل وبين النوبا أنفسهم فى جهات مثل دلنج وكادورو . وتتناقص المؤثرات العربية كلما اتجهنا جنوباً .

فسكان الجبال يمثلون سلالة مستقلة عن الجماعات التى تحيط بها . وهى تعد مجموعة وطنية قديمة ، سكنت هذا الإقليم منذ زمن بعيد ، وليست حديثة العهد بأوطانها ، كما هى الحال فى الجماعات النيلية : وقد أتاحت لهم أوطانهم الجبلية نوعاً من الحماية ، فأمكنهم أن يكونوا نسبياً فى مأمن من إغارة المغيرين وعدوان المعتدين . ولو أن هذا اضطرهم لالتزام الجبال . . .

ولطبيعة الجبال أثر آخر فى السكان . بأن كانت بمثابة ملجأ تعتصم به الجماعات الهاربة اللاجئة من الأقطار المجاورة ، ويترتب على هذا أن يكون هناك تنوع واختلاف فى الصفات الشكلية نظراً لدخول عناصر مختلفة فى أزمان مختلفة ، والتجائها إلى هذه الحصون الطبيعية . فعلى الرغم من أن الصفات الزنجية هى السائدة ، فإننا لا نرى لها ذلك الانسجام والاطراد الذى نشاهده بين الدنكا أو البانتو . فالنسبة الرأسية أعلى مما نجده بين الزنج ، ويقول سلجمان إن ٦٠٪ من السكان لهم نسبة رأسية متوسطة ، وباقى السكان يزيدون على المتوسط أو يقلون عنه بمقادير متساوية .

والقامة أيضاً وإن غلب عليها الطول . فإنها أقل فى المتوسط عما نجده عند النيليين . كما أننا نجد نمواً فى العضلات لا نجد له نظيراً بين جيرانهم من السلالات النيلية . .

وهذا التنوع هو ما نتوقعه فى البيئات الجبلية دائماً . سواء نظرنا إلى الصفات الجسدية أو الثقافية أو الاجتماعية ، لأن الجبال تعزل الجماعات بعضها عن بعض ، وتحول دون الاتصال والاندماج . ولذلك تختلف العادات

واللهجات ، وكثير من مظاهر الحياة ، وهذا التنوع بين النوبا أشد وضوحاً في الثقافة منه في السلالة لأن الأساس الجنسي واحد للجميع وهو الدماء الزنجية . . أما الأصول الثقافية فهي منوعة بين أتباع السلالة الواحدة . وقلة الاتصال تؤكد الفروق والاختلافات .

ويقدر عدد النوبا بنحو ٥٠٠,٠٠٠ نسمة . وهم مقسمون إلى نحو خمسين قبيلة أو وحدة قبلية منفصلة . وسكان كل جبل أو هضبة يدركون أنهم يختلفون عن غيرهم ومتميزون عن سواهم ، وقد يبلغ عدد أفراد القبيلة الكبيرة ما بين ٢٠,٠٠٠ و ٤٠,٠٠٠ كما هي الحال في قبيلة تورو ويصل العدد في القبائل الصغيرة إلى ما بين ألف وخمسة آلاف نسمة ؛ فقبيلة تلليّ عددها ٣٦٠٠ وقبيلة تاباك نحو ألف نسمة .

والعرب يطلقون عليهم اسماً واحداً وهو النوبا . ولا ندرى تماماً هل هذه التسمية قديمة أو جديدة ، بل نحن لا نعرف على وجه التحقيق أن لها صلة باسم النوبة سكان شمالى السودان وجنوبى مصر ، وليس من السهل أن نتصور كيف انتقل الاسم من الشمال إلى الجنوب على بعد الشقة ، واختلاف السلالات . وليس من الضرورى أن يكون تشابه بعض الألفاظ أو اللهجات كما نرى سبباً في تسمية متشابهة لسكان الإقليم كلهم .

والنوبا أنفسهم يدركون أنهم شعب له خصائصه التي تميزه عن جيرانه ، ويسمون أنفسهم أحياناً سكان الجبال . وحتى إذا لم يكن لديهم اسم خاص ، فإنهم يحسون أنهم منفصلون . ومتميزون عن سواهم .

وربما وجدنا بين النوبا اليوم كثيراً من الأفراد الذين يستخدمون لفظ نوبا ، ويصفون أنفسهم بأنهم نوبا . ولكن هذا جاء من غير شك نتيجة تأثير الحكام الذين يطلقون عليهم هذا الاسم . فهم يستخدمونه مجاراة لغيرهم . ولكن الذين درسوا القبائل النوباوية عن كثب ، لم يجدوا أن لهذا اللفظ أصلا وطنياً في أية بقعة من البقاع .

وإلى جانب تعدد القبائل والنظم الاجتماعية ، نرى النوبا يمتازون بتعدد اللغات واللهجات ، حتى لقد قيل إن عدد اللغات بين النوبا يعادل عدد الجبال . وهذا قول لا يخلو من الصواب ، وإن كان أيضاً لا يخلو من المبالغة . وقد استطاع علماء اللغات أن يرجعوا لغات النوبا إلى ثلاثة أصول رئيسية ، أطلقوا عليها الأسماء الآتية : (١) السودانية (٢) البانتوئية (٣) النوبية . فكل قبيلة تدخل لغتها ضمن نوع من هذه الأنواع الثلاثة . مثال ذلك نرى أن النوع الأول (السوداني) هو السائد بين كرنجو ونيما Korongo, Niyma والنوع الثاني (المشابه للبانتو) Bantoid هو السائد عند قبائل هيبان Heiban وأوتورو Otoro وتيرا Tira ، والثالث (النوبي : المشابه للغة النوبة) بين سكان دلنج وكادورو . . والنوع الأول يسود المنطقة الغربية والثاني الشرقية ، والثالث الأطراف الشمالية .

وهذه الأقسام الثلاثة الكبيرة قسمت إلى لغات تتفرع من كل قسم ومجموعها كلها عشر لغات تتفرع كل منها إلى لهجات متقاربة .

وقد اختلف الباحثون في أمر اللغات النوبية وكيف وصلت إلى شمال الجبال . وقد لاحظ العلماء ما بينها وبين لغات الدنقلاويين والبرابرة من التشابه القوى . ونظراً لأن انتشارها مقصور على الجهات الشمالية . فقد ذهب البعض، ومنهم الأستاذ سلجمان، إلى أن هذا يرجع إلى تأثير جماعات نوبية أتت من الشمال . ونشاط النوبيين وانتشارهم أمر معروف . ولكن الأستاذ وسترمان يستبعد أن تكون اللغات النوبية نتيجة تأثير أجنبي آت من الشمال ، ولا يعدو أن يكون تأثيراً تجارياً . وبعض العلماء يذهب إلى أن هذه اللغات النوبية ترجع في كلا الحالين (في الشمال والجنوب) إلى أصل إفريقي قديم ظل محتفظاً بكيانه في بلاد النوبة في الشمال ، وفي جبال النوبا في الجنوب . . ولا بد أن يكون هذا رأى جرينبرج ، لأنه يربط بين لغة النوبيين في الشمال والنوبا في الجنوب . مهما بدا لغير المتخصصين من اختلاف بين تلك اللغات .

والقبائل المتجاورة يزداد بينها الاختلاط ، ويقتبس بعضها ألفاظاً من

الآخر ، وكثيراً ما يصبح السكان قادرين على الكلام باللغتين ، وأحياناً بثلاث إذا أضفنا إليها اللغة المشتركة الناتجة من نفوذ الثقافة العربية ، ويطلق عليها اسم « نوبى عربى » . وتوشك هذه أن تكون هى لغة التخاطب Lingua Franca فى جميع البلاد .

وقد كان الاختلاف اللغوى على أشده ، عندما كانت كل قبيلة معتصمة بأراضيها ، وتوجس خيفة من الاختلاط بغيرها . وقلما كانت تنزل إلى السهول التى تفرق بين الجبال . . . أما فى الأوقات الحديثة ، بعد أن استقر النظام ، ووجدت حكومة مركزية تبسط نفوذها على الجميع ، وتستطيع أن تمنع العدوان . أخذ الناس يزداد تعاونهم وانتقالهم من مكان إلى مكان . . وانتشارهم فى الجهات السهلة المجاورة لجبالهم . . .

وقد امتازت الأزمنة الحديثة بانتشار السكان لسببين : الأول يرجع إلى أن اطمئنان القبائل جعلها تجرؤ على احتلال بعض الأراضى السهلة ، حيث التوسع فى الزراعة ممكن ميسر . والسبب الثانى أن الحكومة نفسها فرضت على بعض القبائل أن تنزل إلى السهول ، عقاباً لها على ما اقترفت من العصيان أو التمرد . ومعظم هذه القبائل قد استردت بعد ذلك أوطانها الأصلية ، ولكنها احتفظت بنشاطها فى الأراضى السهلة أيضاً .

ولاشك أن إكراه قبيلة من النوبا على النزول من جبالها ضايقها كثيراً ، لأن هذه الهجرة المفروضة عليها بالقوة ، لم تحرم القبيلة من معاقلها الطبيعية فقط ، بل حرمتها من الأماكن التى تقدسها لاتصالها بشعائر دينهم وتقاليدهم .

والآن على الرغم من أن عهد الهجرة بالإكراه قد انتهى ، وفى وسع أى قبيلة أن تعيش فى جبالها أو على السفوح والمنحدرات إذا شاءت ، نرى كثيراً من القبائل أخذت تتوسع وتحتل مساحات جديدة ، ومع احتفاظها بجبالها ، فإنها تميل الآن لأن توسع أوطانها ، باحتلال بعض الأرض السهلة المجاورة ، حيث المجال أوسع للنشاط الزراعى .

وصفوة القول إنه فى الزمن الماضى كان العامل الأول فى حياة سكان الجبال هو مسألة الأمن والدفاع ، وفى الوقت الحاضر أصبح العامل الأول اقتصادياً ، وهو الرغبة فى التوسع الزراعى . ومع أن الجبال تمتاز بوفرة مائها ومرعاها ، فإن السهول المجاورة ، وإن نقصت مواردها المائية قليلا ، تشتمل على مجال للتوسع الزراعى ليس متوفراً فى البيئة الجبلية المحدودة .

* * *

والنظام الاجتماعى لدى النوبا يشتمل على وحدة « العشيرة » وهى تتألف من الأشخاص الذين تربطهم أواصر القرابة ؛ ومن كل مجموعة من العشائر — وهى فى الغالب متجاورة — تتألف وحدة اجتماعية كبيرة ، يدعوها الكتاب قبيلة ، ولو أنه ليس هنالك لفظ بهذا المعنى لدى السكان ، بل لديهم كلمة تدل على سكان كل جبل من الجبال ، مرتبطين بشىء من التعاون يرجع إلى وحدة الثقافة وبعض التقاليد .

والعشائر — بوجه عام — لا تتغير ؛ وأكثرها عشائر أبوية ، تنحدر من آباء من قديم الزمان ، وإن لم يكن دائماً من السهل أن يتذكروا إلا عدداً محدوداً من الأجداد . وهناك فى الجزء الجنوبى عشائر « أموية » أى أن انحدارهم عن طريق الأم . ومن الجائز أن تنقسم العشيرة إلى قسمين . فيصبح كل قسم بمثابة عشيرة مستقلة . وهذا يحدث فى الغالب فى حالة الزواج المحرم . فتقسم العشيرة إلى قسمين ، وتكون الزوجة فى أحد القسمين وزوجها فى القسم الآخر ، لأن الزواج محرم على أفراد من عشيرة واحدة .

ونظام الطوطمية موجود ، فى معظم العشائر . ولكنه آخذ فى الزوال ، ومع ذلك فإن لكل عشيرة اسمها الخاص . وعاداتها وتقاليدها فى الطعام ، والامتناع عن أكل بعض الحيوانات .

الحياة الاقتصادية :

قوام الحياة الاقتصادية لدى النوبا الزراعة ؛ أما صناعة الرعى والصيد ، فعلى الرغم من مزاولتهما ، وتنظيمهما ، لا تحتلان إلا مكاناً ثانوياً . . . أما الصناعات فقليلة الخطر وبخاصة الصناعات التى يمارسها الرجال ، مثل الحدادة والنساجة ، والخشب المزخرف . فهى فى الأغلب صناعات دخيلة ، تعلمها النوبة حديثاً من العرب أو غيرهم . بخلاف الصناعة النسوية ، مثل الفخار فهى أصيلة عند النوبا .

لكن الزراعة هى الحرفة الأولى التى اختص بها الرجل والمرأة ، وهى التى تدل على قيمة الرجل وعلى براعته . ويقول نادل[1] إن البراعة فى الزراعة شيء ضرورى حتى لأولئك الذين يمارسون حرفة روحية هامة مثل قسيس القرية : الكوجور Kujur ، والزراعة السائدة هى الطراز البسيط ، الذى يدعى زراعة الفئوس Hoe agriculture ، أى التى لا يستخدم فيها المحرات بل نوع من الفئوس مستطيلة اليد، ونوع من المسحاة أو الجاروف ، وتستخدم بعض الآلات فى إعداد التربة ، وعزق الأرض . وهنالك بعض أنواع من الفئوس تستخدم فى إعداد أرض للزراعة ، لم تكن زرعت من قبل .

والأدوات كانت من قبل مصنوعة من الخشب ، ولكن فى الأزمنة الحديثة ، تستخدم أدوات لها يد من الخشب ، ونصل من الحديد ، ويشترونها من الأسواق المجاورة .

وتستخدم أيضاً أنواع من العصى المدببة فى تطهير الأرض فى المدرجات الضيقة على منحدرات الجبال ، وفى الأرض الخفيفة الرملية ، قد يستخدم نوع من الفئوس له يد طويلة (٢ إلى ٣ أمتار (لعمل الحفر التى تلقى فيها البـــذور .

وبوجه عام نرى أن نظام الزراعة عند النوبا يتأثر تأثراً شديداً بالبيئة

---

(١) S.F. Nadel فى كتابه The Nuba, 1947 – ص ١

الطبيعية . . والاختلاف فى أساليب الزراعة يرجع إلى محاولة السكان أن يعنوا بمقتضيات كل بيئة . وهناك نوعان من البيئة . الأولى بيئة المرتفعات العالية ، ذات الطبيعة الهضبية ، تشتمل على مساحات كثيرة صالحة للزراعة . أما الثانية فبيئة التلال الواطئة نوعاً ذات الصخور الناتئة الكثيرة ، التى ليس بينها مسافات ، تتسع للزراعة ، داخل الأرض المرتفعة نفسها .

ويعتبر الطراز الأول بيئة زراعية جبلية ، وإن لم تكن الزراعة فيها مقصورة على الجبال وحدها . فى هذه البيئة الجبلية نرى أن للنوبة ثلاثة أنواع من المزارع أو الحقول . وهى التى يدعونها :

١ — المزارع المنزلية House farm .
٢ — مزارع المنحدرات Hill-Side .
٣ — المزارع البعيدة .

وتمتاز كل من المزارع المنزلية ومزارع المنحدرات بأنها تجعل على شكل مدرجات ، والأولى تكون عادة ملاصقة للمنزل . والثانية على المنحدرات غير الآهلة بالسكان ، أو بعض الأودية القريبة . وفى كلا الحالين تكون المزارع داخل المنطقة الجبلية . أما المزارع البعيدة ، فهى كما يدل عليها اسمها واقعة فى السهول المجاورة ، أو بعيداً — بعداً نسبياً — عن المساكن .

وبديهى أن شعباً يعتصم بالجبال ويألفها ، ويتخذ منها موئلا وملجأ من أخطار الإغارة ، يؤثر أن تكون مزارعه قريبة من منزله . . ولا ينزل إلى السهول إلا إذا زال الفزع وانتشرت الطمأنينة . فالبيئة الزراعية عند النوبا فيها شىء من المرونة ، تنكمش وقت الفزع أو احتمال الخطار . وتتسع بعد أن يزول الخطر . ولعل هذا شىء تكرر مراراً فى حياة النوبا . وظاهرة طبيعية طالما تعرضوا لها ، فلا محل لما يزعمه نادل من أن هذه هى المرة الأولى التى يتخذ فيها النوبا « مزارع بعيدة » ، بل الأقرب إلى العقل أن هذه ظاهرة تكررت مراراً فى تاريخهم الطويل .

وليس اتخاذ « مزارع بعيدة » أمراً منتشراً لدى جميع القبائل ، لأن بعضها لا يزال محافظاً على الأسلوب القديم . كما هى الحال عند سكان الجبال الغربية ، الذين لا يزال أكثرهم يفضل اتخاذ مزارع قريبة من منازلهم . : ولعلهم ليست بهم حاجة للتوسع فى السهول لوفرة الأرض فى داخل المرتفعات .

والاعتماد فى الزراعة يكون دائماً على المطر ، ومع ذلك فهناك بعض المزارع تعتمد على الرى . وهى عبارة عن قطع صغيرة من الأرض مجاورة لبعض الينابيع ، أو الآبار أو الجداول ، وهذا النوع موجود عند جميع القبائل . والمزارع فى هذه الحالة تخصص عادة لزراعة التبغ أو البصل . والرى فى هذه الحالة يكون بنقل الماء آلياً من المورد الأصلى إلى المزرعة الصغيرة .

ومن المشاهد أن اتساع الزراعة ، وانتشارها من الجبال إلى السهول المجاورة ، كثيراً ما يدعو إلى التجاوز عن زراعة المنحدرات ، أن تحل محلها الزراعات البعيدة . أما المزارع المنزلية ، فإنها تظل محتفظاً بها .

ويختص كل نوع من المزارع بطراز خاص من المحاصيل . فالمزارع المنزلية المجاورة للمساكن تخصص لمحصولات محدودة من الذرة الشامية والرفيعة وبعض الغلات الغذائية ، مثل الفلفل الأحمر . والقثاء ، والبطيخ والقرع واللوبيا ، وبعض التبغ .

ومزارع المنحدرات تخصص عادة لأنواع أخرى من الذرة الرفيعة ، والسمسم والفول السودانى واللوبيا .

وفى مزارع السهول تزرع جميع الغلات السابقة ، كما يزرع فيها بعض القطن فى الوقت الحاضر . وهو من النوع متوسط التيلة . وعلى الرغم من تعدد المحاصيل فإن أهمها بكثير هو الذرة الرفيعة بأنواعها ، والذرة الشامية بقدر الإمكان . والنوبا يميزون بين الأنواع المختلفة من الذرة الرفيعة . فمنها نوع خفيف ينضج بسرعة ، ونوع كثيف بطىء النضج ، والنوع السريع مفضل فى المزارع المنزلية ، وفى الأرض ذات التربة الرملية ؛ حيث يتم نضجه بعد

امتناع المطر . وهذا النوع منتشر فى الجهات الشمالية حيث التّربة خفيفة وموسم المطر أقصر :

أما فى الجنوب عند قبيلة مساكين وتالودى ومورو وكرنجو ، حيث التّربة ثقيلة وموسم المطر أطول ، فإن السكان متخصصون فى زراعة نوع غليظ من الذرة يسمى كرجى Kurgi ومن مزايا هذا النوع أنه يحتمل التخزين زمناً طويلا . (عامين أو ثلاثة) بينما الأنواع الخفيفة ، لا تحتمل التخزين أكثر من عام واحد . وسنرى أن تخزين الحبوب من أهم ما يعنى به النوبا .

* * *

وتختلف أنواع المزارع من حيث الحجم — كما هو منتظر — وأصغرها بالطبع المزرعة المنزلية . وتقع بجوار المسكن مباشرة ، ومساحة المزرعة قلما تزيد على ٥٠٠ متر ، وهذا يرجع بالطبع إلى أن المساحة الزراعية فى الجزء الآهل بالسكان من الجبال محدودة .

أما مزارع المنحدرات فإنها تتراوح فى العادة بين نصف وثلاثة أرباع الفدان ، وقلما تتجاوز هذا المقدار . وهى ليست موجودة لدى جميع المزارعين ، بل نرى كثيراً منهم ، يفضل المزارع فى الأراضى السهلة :

ومزارع السهول تختلف فى الحجم ما بين فدان وفدان ونصف ، وقد تزيد على هذا القدر فتصل إلى ثلاثة ، بل إلى خمسة أفدنة . كما هى حال بعض المزارعين فى دلنج . ومزرعة السهول قد تكون مندمجة متصلة بحيث تكون قطعة أرض واحدة ، أو قد تتألف من قطع — ثلاثة إلى خمسة — منفصلة : واختلاف حجم المزارع فى السهول يرجع إلى قدرة الزارع وبوجه خاص يرجع إلى عدد زوجاته ، وقد أثبتت المشاهدة أن المزرعة المندمجة أفضل من المزرعة المجزأة مع تساوى الحجم :

وفيما يلى جدول تقريبى أورده الأستاذ نادل ليدلل به على الأهمية النسبية للمحاصيل فى الاقتصاد النوبى . فى ثلاث قبائل اختارها : وهى هيبان وأوتورو وتيرا .

	هيبان	أوتورو	تيرا
سن الفلاح	٣٥	٤٠	٣٥
عدد الزوجات	١	١	١
عدد الأطفال	—	١	—
مزرعة منزلية	١	١	١
مزرعة المنحدرات	—	٤	—
مزرعة بعيدة	٣	٢	١
الذرة الشامية	قليل جداً	٢ سبت	٤ سبت
الحبوب الخفيفة	٢٤ سبت	٨ سبت	٤ سبت
الحبوب الثقيلة	—	١ سبت	٦ سبت
السمسم	٢ سبت	١ سبت	٢ سبت
الفول السودانى	١ سبت	٣ سبت	—
فول	٢ سبت	١ سبت	٢ سبت
قطن	—	—	٢ كيس

ويجرى قياس الغلة كما نرى بالسبت (وهو نحو نصف الأردب عند معظم القبائل ، وثلث أردب عند بعضها . وهذه المقادير الموضحة فى الجدول هى التى أودعت المخازن . . ويجب أن يضاف إليها ما يستهلك قبل التخزين (أى ما بين ديسمبر إلى مارس) وهذا القدر قد يتجاوز الأردب .

وأهم شىء يبدو من الجدول السابق هو أن زراعة الحبوب تحتل المكان الأول، وأن المزروعات الأخرى تجىء فى المكان الثانى ، ومقدارها محدود ، كما أن المزارع الذى رأى من المصلحة أن يزرع جانباً من أرضه قطناً ، يبيعه فى السوق كان لا بد له أن يضحى ببعض المحاصيل الزراعية ، لأنه يستطيع أن يشترى بالقطن حاجته من سائر الغلات .

والمزارع المنزلية تختلف عن غيرها لأنها ينالها شىء من التسميد ، وسمادها مستمد من فضلات المنزل ، ومن روث الماشية ، لأن كثيراً من

المساكن يحتفظ فيها ببعض الغنم والماعز . وفى الأغلب الخنازير أيضاً . والعادة أن تقوم المرأة والأطفال الصغار بجمع فضلات هذه الحيوانات ، تضاف إليها قمامة الدار ورماد الموقد . . ويخلط هذا كله بعضه ببعض ، وفى أول موسم المطر ، عندما يكون النبات صغيراً ، ينثر هذا السماد على التربة كل يوم ؛ وبعد أن يكبر النبات ، ويصبح من المتعذر إجراء هذه العملية ، يكوم السماد بجانب الدار ، ويستخدم قبل بدء موسم الزراعة . وهكذا يكون التسميد على مرحلتين قبل الزراعة ؛ وفى المرحلة الأولى من نمو النبات .

وفوق ذلك فإنه بعد أن يحصد الحب ،تطلق الماشية فى الحقل بعد أن تستحضر من مراعيها لكى تأكل فضلات النبات، وتترك فضلاتها فى الأرض.

هذا التسميد البدائى منتشر عند النوبا ، وهم مدركون فائدته ، ولكنهم لا يستطيعون تعميمه فى جميع أنواع المزارع . وقلما يستخدمونه فى المنحدرات أو السهول مع علمهم بفائدته ، بل يتبعون فى المزارع غير المنزلية ، الطريقة الشائعة فى إفريقية المدارية وهى طريقة الزراعة المتنقلة ، التى تقضى بالانتقال لأرض جديدة عندما يلاحظون نقصان الغلة نقصاناً شديداً فى الأرض التى يزرعونها . . ومع ذلك فإنهم يتبعون فى زراعتهم نوعاً من الدورة الزراعية . فيبدأون بزراعة السمسم أو الفول أو اللوبيا ، ثميزرعون الذرة بعد ذلك : عاماً بعد عام ، حتى تظهر على الأرض علامات الضعف ، فيتركون الأرض بوراً مدة تتراوح بين خمس وست سنوات .

والقطن ، وهو المحصول الجديد ، يزرع عادة فى الأرض الجديدة ، التى لم يسبق لها أن زرعت ، فيزرع سنة أو سنتين لا أكثر . وبعد ذلك يزرع السمسم أو بعض البقول ثم الذرة . . أو تترك الأرض بوراً لمدة سنة . والظاهر أن هذه الإجراءات المختلفة هى علىسبيل التجربة، حتى يتبين الزارع أيها أفضل

والعادة أن النوبا يزرعون الأرض حتى ينقص محصولها بنحو ٥٠٪ وبعد ذلك يتحولون عنها إلى أرض جديدة ، لم تسبق زراعتها — بقدر ما تسمح

الذاكرة – أو أرض قد هجرت من قبل . وليس لديهم نظام مطرد فى المدة التى يعودون بعدها إلى أرض سبقت زراعتها . لأن أكثر النوبا يفضل دائماً أن يزرع أرضاً جديدة من أن يعود إلى أرضه التى سبق أن زرعت ، ثم هجرت .

كذلك ربما زرع أحدهم أرضاً لمدة قصيرة (سنتين مثلا) ثم هجرها لأنه وجد المحصول أقل مما كان ينتظره دون أن يفكر فى الأسباب التى دعت إلى نقص المحصول . وقد يهجر الأرض أحياناً لأن الجراد أغار عليها .

والخلاصة إن هناك نزعة لتفضيل الأرض الجديدة ، وتطهيرها تمهيداً لزراعتها ، على العودة إلى الأرض القديمة . وذلك أحياناً لأوهى الأسباب ، أما السبب الحقيقى الذى يدعو النوبا إلى ذلك والذى يدفعهم دائماً إلى اقتناء الأرض الجديدة . فهو وفرة هذه الأرض ، التى لم تسبق زراعتها ولو أن الأرض كانت محدودة ، والجديد الذى لم تسبق زراعته كان نادراً أو معدوماً لما كان للزارع مندوحة عن الالتجاء إلى أرضه القديمة والحرص عليها .

ويقول نادل إن هذا التنقل الكثير يمثل نزعة جديدة . وهذا صحيح ، لأن الناس أخذوا حديثاً ينزلون من الجبال ويقبلون على زراعة السهول . وميدان الزراعة فى السهول أوسع وأعظم . ولا يزال فيها متسع للراغبين . وسيجىء اليوم الذى تمتلىء فيه السهول بالمزارع ، وعندئذ لا بد للنوباوى من الانتفاع بكل جزء من أرضه .

والمألوف أن يبدأ النوباوى تطهير الأرض الجديدة ، قبل موعد الزراعة بزمن طويل ، بل أحياناً قبل أن يجىء أوان حصاد الزراعة القديمة ، فينطلقون بفئوسهم ومساحاتهم إلى الأرض التى يرغبون فى زراعتها فى الموسم المقبل ، فيأخذون فى قطع الشجر وتطهير الأرض من النبات ، وإحراق ما يتبقى فى الأرض . وقد يترتب على إزالة الشجر تعريض التربة لخطر التعرية ، عندما يأتى موسم المطر ، وبخاصة فى الأرض ذات الانحدار – ولا تكاد حتى

السهول أن تخلو من بعض الانحدار – وبعض النوبا يتخذ بعض الإجراءات لحماية التربة ، بترتيب الأرض فى صورة مربعات ، أو بعمل خطوط عالية نوعاً ، لتحول دون اجتراف التربة . ولكن هذه الأعمال ليست شائعة ، وظاهرة تعرية التربة منتشرة انتشاراً واسعاً .

مع ذلك فإن جميع النوبا شديدو العناية بالزراعة عناية فائقة . ومن الممكن أن نعدهم من أحسن القبائل الزنجية اهتماماً بالزراعة . وإن كان بعضهم أكثر نجاحاً من بعض ، وهذا ربما رجع إلى اختلاف فى جودة التربة . وربما رجع لأن الشباب يقضون مدة طويلة فى رعى الماشية قبل الانصراف إلى الزراعة ، أو لأن الشبان فيما مضى كانوا يؤلفون الطبقة المحاربة ، التى لا تشتغل بالزراعة ، ولا يزالون متأثرين بهذا التقليد . فيقضون شطراً من العمر دون عمل جدى ، قبل أن ينزلوا إلى ميدان الكدح الزراعى . ومن مظاهر الحياة الجديدة أنها خلقت فرصاً فى غير الأعمال الزراعية ، كخدمة الحكومة أو الهيئات المختلفة . . كذلك نشأت زراعات جديدة مربحة مثل القطن والشطة والبطيخ . . وكلها مما يمكن بيعه . ولكنها جديرة أن تصرف كثيراً من الناس عن الزراعات الأساسية .

والأرض عند النوبا ملك للرجال ، سواء أكانوا يزرعونها اليوم أم سبقت لهم زراعتها . وكل فرد فى حوزته أرض يزرعها أو سبقت له زراعتها ، يكون له حق الملكية الكاملة عليها يتصرف فيها كما يشاء ، ويستطيع أن يهبها لورثته أو يتركها لهم بعد موته ؛ والمرأة لا تملك الأرض إلا عند عدد محدود من القبائل التى تتمسك بمبدأ الوراثة عن طريق المرأة . ولكن عند الكثرة العظمى من قبائل النوبا ، الأرض ملك للرجل ، وقد يشير بعضهم إلى أرض على أنها أرض زوجته فلانه، وليس لهذا التعبير معنى إلا أن هذه الزوجة هى المكلفة بزراعة هذه الأرض . وهى عادة المزرعة المنزلية .

وكل أرض يملكها شخص تميزها دائماً علامة تحددها : مثل سطر من الحجارة ، أو جذوع شجر ، أو سياج من العوسج ، أو شريط من الحشائش

أو نحو ذلك . وإذا ترك المرء أرضه بعد أن استنفد زراعتها ، وخلفها بوراً ، فإنها تظل ملكاً له على الرغم من مضى عدة أجيال دون أن يعود إلى زراعتها لا ينازعه فى ملكيتها أحد .

فالأرض إذن إن كانت مزروعة أو سبقت زراعتها فإن لها دائماً مالك معروف،أما الأرض التى لم يسبق لأحد زراعتها فإن لها حالة خاصة . ويمكن أن نقسمها إلى قسمين ، أرض فضاء بعيدة عن أراضى جميع القبائل ، ولا يسكنها أحد ، فهذه وحدها هى التى يمكن أن يقال إنها أرض حرة لا يملكها أحد وليس لأى القبائل ميزة أو أحقية فى امتلاكها ، وهناك نوع من الأرض الفراغ لا يملكها شخص بعينه ، ولكنها مجاورة لأراضى قبيلة من القبائل ، لذلك كان لهذه القبيلة وحدها حق التوسع فيها ، أى أنها هى « المجال الحيوى » للقبيلة التى تجاورها . وتعد ملكاً مشاعاً للقبيلة كلها . ويجوز لأحد أفرادها أن يقتطع منها قطعة ليزرعها فتصبح ملكاً له . ولا نعرف إذا ما كان لدى النوبا نظام خاص ينظم مثل هذا التوسع ، اللهم إلا العرف السائد بينهم . فالعرف وحده هو الذى يمنع شخصاً من أن يسرف فى الإغارة على الأرض المشاع ، ويأخذ منها فيسرف ؛ ولئن وجد مثل هذا الشخص الطماع فلا شك أن لدى النوبا وسائل يحدون بها من طبعه السيئ بالاحتكام إلى بعض قادتهم ورؤسائهم . . ومثل هذا الطمع يجب أن يكون نادراً ، لأن الرجل لا يستطيع أن يستولى على أكثر مما يستطيع أن يزرع :

ومن الجائز أن تنشأ فى المستقبل مشكلات حول الملكية ، متى شغلت الأرض كلها بالزراعة والزراع . وقد بدأت فى بعض الجهات تظهر علامات لهذا . وتحدثنا نادل (ص ٢٧) : أن هناك بعض جهات اختفت فيها الأرض الفضاء . . وفى بعض الأحيان ليس من مصلحة الزارع أن يستولى على أرض جديدة . لأنها بعيدة عن مزرعة المنزل . فإن معظم الزراع فى الوقت الحاضر ، يظلون فى مساكنهم فى الجبل . ويذهبون كل يوم إلى المزرعة البعيدة يشتغلون بالنهار ، ويعودون فى المساء إلى ديارهم .. فليس من المصلحة أن يتوغلوا بعيداً

من أجل حيازة أرض جديدة ، اللهم إلا إذا قرروا الانتقال كلية إلى المزرعة البعيدة ؛ وقليل من أقدم على هذه الخطوة إلى الآن .

وحيازة الأرض عند النوبا تتم بإحدى طرق أربع :

١ ـ تطهير الأرض وزراعتها .

٢ ـ الوراثة .

٣ ـ بالشراء . وهذا يكون عادة فى المزارع المنزلية لأنها محدودة .

٤ ـ الاستعارة أو الهدية .

النشاط الزراعى فى مختلف الفصول :

جميع الأعمال الزراعية من إعداد الأرض ، وغرسها وتعهدها وحصادها . . . الخ . تشغل وقت الزراع فى نظام متصل يستهلك الجزء الأكبر من السنة . ولا يكاد يختلف من قبيلة إلى قبيلة إلا اختلافاً طفيفاً ، لأن ظروف الزراع متشابهة بدرجة عظيمة . وإذا كان هناك اختلاف يسير ، فإنه يرجع إلى اختلاف طفيف فى موسم المطر الذى قد يبدأ مبكراً فى الجنوب قبل الشمال . أو اختلاف فى التربة . أو لانشغال السكان بنواح أخرى من النشاط الاقتصادى خلاف الزراعة . فالمورو مثلا يعشقون الصيد ، فيخصصون الفترة الأولى من موسم المطر للصيد ، وعند قبيلة نيما ، حيث موسم الجفاف أطول نوعاً ، يتغيب الرجال فى أعمال يؤجرون عليها فى بعض الجهات . فيختلفون قليلا عن غيرهم . ولكن هذه الاختلافات طفيفة .

ويمكن أن نعتبر نظام السنة الزراعية عند قبيلة أوتورو هو الحالة الوسط التى يمكن أن نتخذها مثلا لما يجرى فى معظم بلاد النوبا .

فى أواخر شهر أبريل يتساقط أول المطر . فتلين التربة بسبب ذلك ، ويسهل العمل فى الأرض . وفى أثناء الربع الأول من مايو تطهر الأرض من بقايا الزراعة السابقة ، وتقتلع بقايا السيقان والجذور وتكوم أكواماً صغيرة

وتحرق . ويتولى الرجال عادة تطهير المزرعة البعيدة ، والمرأة تتولى إعداد المزرعة المنزلية . وبعد التطهير تحاط الأرض بسياج من العوسج ، إذا كان هناك خطر من عدوان الماعز .

بعد ذلك ينتظر الزارع بضعة أيام ، حتى يحل موسم المطر بصورة جدية . وعند ذلك ينهمك الجميع فى نشاطهم الزراعى . وهذا يبدأ عادة بالمزارع البعيدة ، ثم القريبة . ويعمل كل مزارع من الصباح الباكر ويظل يجد طول النهار ، فيقسم الأرض إلى مربعات ، ويبدأ بأحدها ثم ينتقل إلى غيره . ويحفر فى أرض المربع حفراً عديدة ، يضع فى كل حفرة عدداً من البذور ويدوسها برجله حتى تندمج فى التربة . ومن الممكن أن تتم هذه العملية فى يوم واحد لأرض مساحتها $\frac{1}{8}$ فدان . وفى ظرف أسبوعين تتم زراعة المزرعة البعيدة المكونة من فدانين . وهذا يوصلنا إلى نهاية شهر مايو .

وفى أوائل يونيه ، يبدأ نشاط جديد ، وهو استئصال الحشائش الطفيلية ، وإعادة بذر الأرض التى لم ينم فيها نبات ، أو التى اكتسح المطر بعض بذورها ، وتطهير الأرض من الحشائش ، يستمر معظم الموسم الزراعى . . ويشغل جزءاً كبيراً من وقت الزارع وزوجته . . والمرأة ترجع إلى المنزل مبكرة لترعى واجباتها المنزلية . ويتبعها الرجل فى آخر اليوم ومعه أدواته الزراعية وبعض الحطب .

ولا تمضى الأيام الأولى من شهر يونيو حتى تكون هذه الزراعة الأولى ، وهى زراعة الحبوب فى المزارع البعيدة ، قد تمت . بعد ذلك تبدأ الزراعات فى مساحات أصغر : كزراعة الذرة الشامية بجوار المنزل ، والسمسم على المنحدرات أو فى المزارع البعيدة . كذلك اللوبيا والفول السودانى ، فى مساحات صغيرة هنا وهناك ، وبينما العمل يجرى فى هذه الزراعات الصغيرة ، فإن العمل فى مزارع الحبوب لا يهمل ، وهو يشتمل على أمرين ، تطهير مستمر من الحشائش ، ونقل بعض الشجيرات التى سبق أن زرعت متلاصقة : كل خمس أو ست فى حفرة واحدة .. فينقل منها اثنتان أو ثلاث إلى مكان خال

من الزرع ، أو فى حافة المربع ، وفى أواخر يونيو يكون هذا العمل قد أنجز أكثره ، ويتفق ذلك مع فترة امتناع للمطر تدوم بضعة أيام .

ثم يتجدد المطر ، ويعود النشاط ، وتطهر حقول الحبوب بهمة من الحشائش : والجماعات التى تزرع القطن تبدأ عملها فى هذا الوقت أى فى أوائل شهر يوليو .

وفى شهر أغسطس يتم التطهير الثالث من الحشائش ، وهذا يعمل باليد ، لأن الأرض طرية لينة . فتنزع الحشائش باليد مباشرة . وفى هذا الوقت يزرع التبغ ، وفى أواخر أغسطس تكون الحبوب التى زرعت فى مايو قد أخذت فى النضج . ويمكن جمع بعضها للأكل . كذلك تؤكل أوراق اللوبيا ، كما تجمع بعض أنواع من الحشائش ، لإطعام الماشية .

وفى هذه الأثناء يجرى أيضاً كثير من الجمع والالتقاط لبعض الجذور والثمار الوحشية . وفى سبتمبر تجىء فترة راحة أخرى ، لأن الحقول بعد التطهير الثالث ، لا يكاد تنمو فيها حشائش دخيلة إلا القليل . ولا خوف على النبات وقد أوشك أن يتم نموه . . وبعض الزراع ينتفع بهذا الوقت ليبدأ بتطهير قطعة أرض جديدة ، تطهيراً جزئيا ،فيقطع أغصان الشجر ، ويقتلع بعض الشجيرات والحشائش ، ويتركها لترعاها الماعز .

وآخر سبتمبر يتم نضج معظم الحبوب .وبخاصةالنوع الخفيف ،ويحصد بعض المزارع القريبة من المنزل . ويوضع بعض المحصول فى وعاء (بصفة تقاوى للمستقبل) والباقى يخصص للطعام ، ويجمع منه حسب الحاجة .

أما المزارع البعيدة ، فعندما تنضج فيها الحبوب يتبع فيها أولا عملية الحزم والربط ، وهى أن تربط ثمانية أو عشرة سيقان معاً ، وذلك بأن يلف عليها أحد العيدان بمثابة حبل ، وتكون العقدة على ارتفاع خمسة أقدام ، ليسهل فيما بعد قطع الأجزاء العليا التى تحمل الحب ، وأيضاً لكى تبقى السيقان قائمة ، فلا تسقط بسبب ثقل الجزء الأعلى منها .

وفى نهاية سبتمبر وأول أكتوبر يكون السمسم أيضاً قد نضج ، وطريقة حصاده أن تجمع النباتات كلها وتربط على شكل حزم ، فى كل حزمة من ٤٠ إلى ٥٠ عوداً ، ثم يقتطع الجزء الأعلى (الذى يحمل الحب) ويوضع على الصخر ليجف :

وهكذا يمضى شهر أكتوبر فى أعمال الحزم والربط للحبوب والسمسم ، وفى نهايته يمكن جمع محصول الفول السودانى أيضاً . وشهر أكتوبر بوجه عام يعد أهدأ من الأشهر السابقة . ومعظم الرجال يكتفى بأن يذهب إلى الحقل مرة واحدة فى كل يومين أو ثلاثة .

أما حصاد الحبوب ، وهو أهم أعمال الحصاد ، فيبدأ فى نوفمبر . فتقطع الأجزاء العليا وتحمل إلى المنزل حيث تجفف فى العراء . إذ قد انتهى موسم المطر ، ويجب أن يتم هذا العمل فى أول ديسمبر حين يبدأ تقطيع الحبوب الثقيلة ذات النمو المتأخر . ثم تجمع اللوبيا ، ويبدأ جمع القطن أيضاً .
وبعد الحصاد مباشرة تطلق الماشية فى الحقول لتأكل السيقان المتخلفة . وفى هذا الوقت (منتصف ديسمبر) يشرف الموسم الزراعى على نهايته .

يبقى أمام المزارع أشهر يناير وفبراير ومارس ، وهى أشهر « تشطيب » فالمحصول يتم جفافه بالتدريج ، ثم يحمل إلى الجرن . حيث تتم دراسته وتذريته ، ثم يجمع الحب ، ويكدس فى مخازن الحب . . وفى أثناء ذلك تتم أيضاً عمليات تطهير الأرض الجديدة ، والقديمة ، وإحراق الحشائش والأعشاب .

ونهاية السنة الزراعية عند النوبا قريبة جداً من أوائلها ، فلا يكادون يفرغون من تخزين الغلات ، حتى يجىء شهر أبريل ،ونبدأ السنة الزراعية من جديد . فسنة النوبا كلها نشاط ، ولو أن هذا النشاط بدرجات متفاوتة طوال العام ، فهو شديد جداً فى الفترة من منتصف مايو إلى سبتمبر . ولكنه أقل حدة فى سائر الأشهر . وفى هذه الأشهر الأقل نشاطاً بحكم العمل ، يجرى

نشاط كثير فى المجال الاجتماعى ، إذ تقام حفلات الرقص والغناء والمصارعة . وهذه الحفلات قد تقام بمناسبة انتهاء أحد المواسم : مثل موسم الغرس أو الحصاد ، ولكنها قد تقام لغير مناسبة خاصة .

وبعض هذه الحفلات له صفة التوقيت ، أو تحديد الموسم ، وقد يشرف بعض القسس على هذا عند بعض القبائل . ولكن الحقيقة أن النوبا يعرفون تماماً دورة السنة . ويعرفون من مظاهر الطبيعة اقتراب موسم المطر ، ولذلك تمشى أعمالهم على وتيرة منتظمة ، فإنهم يسيرون طبقاً لتقويم زراعى ، وإن لم يعرفوا التقاويم والأشهر .

* * *

بعد تمام الحصاد تخزن الحبوب فى صوامع من الطين أسطوانية الشكل ، تقام عادة على قواعد من الحجارة حماية لها من بطش الجرذان والنمل . وهذه المخازن قد تبنى بمفردها ، أو تبنى داخل المنزل ، أو الكوخ المعد للطبخ ، وتتعدد المخازن بتعدد المحاصيل ، وربما تعددت أيضاً بتعدد الزوجات ؛ ليكون لكل زوجة مخزن للمحصول الذى أسهمت فى إنتاجه . . ولكن هناك أيضاً — وفوق كل شىء — المخزن الكبير الخاص بالأسرة كلها . وبينما تتصرف الزوجة فى نصيبها بإطعام الأسرة منه أو بالبيع . . فإن المخزن الأكبر يحتفظ به إلى النهاية ، ويكون التصرف فيه من شأن رب الأسرة . وهذا المخزن هو عماد الأسرة الأكبر على مدى العام ، وعندما يملأ يحسب حساب ما يحتويه بمنتهى الدقة ، بوساطة السبت فيعرف الرجل مقدار المخزون تماماً ، ويستطيع أن يعرف هل يفى بجميع أغراض الأسرة أم لا . وهم يفخرون بوفرة المحصول ويعلنون ذلك للخاص والعام ، وامتلاء المخزن الكبير إلى الحافة ، يكون فرصة لحفلة خاصة يشرب فيها الكثير من المريسة . وليس هنالك سنة معينة لادخار الحب من السنين الوافرة المحصول للسنين العجاف . . كل ما هنالك أن المحصول إذا كان وافراً جداً . كان هذا سبباً فى زيادة الإنفاق فى مظاهر

البذخ والكرم . . فإذا جاءت السنون العجاف أحياناً ، فإنه يجد مشقة كبيرة ليدرأ خطر الحرمان .

* * *

والاشتراك فى العمل الزراعى بين الرجل والمرأة ، يصحبه بعض التخصص فى توزيع العمل ، فالعمل الشاق مثل إعداد الأرض وإقامة السياج حولها ، يكاد يكون مقصوراً على الرجل . كذلك نجد أن المزارع القريبة ترجح فيها كفة المرأة بعكس المزارع البعيدة . وهذا بالطبع لأن المرأة يجب أن تظل بقدر الإمكان قريبة من المنزل ، بحكم وجود الأطفال وبعض الماشية من جهة ، ولأن على المرأة واجبات منزلية أخرى مثل إعداد الطعام والشراب (المريسة) .

ولكن هذا لا يمنع أن هناك مرحلة فى الزراعة ، لا بد للزوجين أن يشتركا فيها لكى تتم بسرعة ، كموسم الغرس والحصاد . وإذا كان للرجل أكثر من زوجة، فإن هذا لا يغير من هذا النظام كثيراً ، لأن لكل زوجة مزرعتها القريبة من المنزل ؛ وفى المزارع البعيدة تشتغل كل زوجة فى حقل منفصل عن الحقل الذى تشتغل فيه ضرتها . والرجل هو حلقة الاتصال ، ويشرف على كل هذا النشاط .

وهناك أعمال زراعية يستحب فيها أن تتم بسرعة . ولمثل هذه الأعمال يجب تجنيد أكبر عدد من المعاونين . وهذا ضرورى بوجه خاص فى موسم الحصاد . فيلجأ النوبا فى هذا إلى نوع من النظام التعاونى بحيث يتعاون الجيران طبقاً لعرف متبع ، وذلك بأن يطلب صاحب المزرعة معاونة من معارفه أو أبنائهم وبناتهم . وذلك لمدة يوم واحد ، ثم يتكرر هذا من آن لآن حسب حاجة الزارع ومقدرته ، إذ لا بد له أن يوفر لهم بعض الطعام ، وبخاصة بعض الشراب ، والمزارع المتواضع يرتب هذا النظام مرتين أو ثلاثاً فى السنة ، أما الغنى فينظمه ست أو سبع مرات ، وقلما يلجأ إلى هذا التعاون إلا فى الحصاد ، وأن استخدم فى بعض القبائل أحياناً فى موسم الغرس :

ولا بد من الإشارة إلى أن البنات فى كل أسرة تساعد والديها ، إلى أن يتزوجن ، أما الأولاد قبل سن الزواج ، فلا يؤدون عملا زراعياً يستحق الذكر ، لأن لهم عملا آخر وهو الرعى . وفى موسم الزراعة يعيشون عادة فى معسكر خاص Cattle Camp . وربما زرعوا حول معسكرهم هذا قطعة من الأرض ، من أجل غذائهم فقط . ويرى البعض أن قلة اشتراك الأولاد فى الزراعة ، هو من بقايا عهد الرعى ، يوم أن كانت تربية الماشية عملا أهم مما هو الآن ، أو لعله بقية العهد الحربى ، عندما كان الشباب يدخرون للرعى وللحرب . . .

ومهما يكن من أمر ، فإن الشباب لا يكادون يقتربون من سن الزواج (١٦ – ١٧ سنة) حتى يزداد اشتراكهم فى العمل الزراعى ، فيقومون بمساعدة والدهم ، أو خالهم إذا كانوا خاضعين لنظام نفوذ الأم . وبعد أن يخطب الشاب فتاة من بعض العشائر ، فلا بد له أن يقوم بعمل منتظم فى حقل صهره . ومثل هذا العمل يعد بمثابة جزء من المهر .

إلى الآن لا نجد عند النوبا « عمالا زراعيين » أى أجراء يشتغلون بصفة دائمة فى أرض غيرهم . وهذا على الرغم من وفرة الأراضى .

وليس هنالك طبقة عبيد ، تعمل لطبقة السادة . . ويبدو أن فكرة الحصول على عبيد للعمل قد اتخذت فى الماضى صورة خاصة أشار إليها نادل فى كتابه عن النوبا[١] .

فقد جاء وقت كان فيه النوبا يقتنون بعض الرقيق بطريق السلب أو بطريق الشراء . ولكن لم تكن هناك تجارة رقيق بالمعنى المعروف . اللهم إلا عند قبيلتين : هم نيما ودلنج .. والموقع الجغرافى للقبيلتين قد يفسر ذلك لأنهما فى آخر الشمال الغربى ، إلى جوار أراضى العرب من البقارة .

أما أغلبية قبائل النوبا فكانت تتبع مع الرقيق نظاماً خاصاً وهو نظام

---

(١) نفس المرجع ص ٥٥ وما بعدها .

التبنى adoption بحيث يصبح الرقيق جزءاً من الأسرة ، تربطه بها أواصر القرابة . . ويعمل فى خدمتها كواحد منها ، وله عليها الحق أن تدفع له المهر إذا تزوج وتعطيه قطعة أرض لنفسه ، وأكبر الظن أنه عندما حرمت تجارة الرقيق ، لم يسبب هذا التحريم أية مشقة لقبائل النوبا .

* * *

الصيد : فى الحياة الاقتصادية للنوبا ، ليس للصيد الآن أهمية كبيرة من ناحية التغذية . ولكنه لا يزال ظاهرة اجتماعية لها خطرها فى حياة كل قبيلة ، وليس من المنتظر بعد أن توسع الزراع فى زراعتهم ، أن تظل وفرة حيوان الصيد على ما كانت عليه . . فباتساع « العمران » والزراعة ، تنكمش المساحة التى تتجول فيها الحيوانات الوحشية ؛ وتضطر للنزوح إلى أراض بعيدة . لذلك أصبح الصيد مقصوراً على أنواع محددة : بعض الوعل ، والأرانب البرية ، ودجاج الوادى ، والقطط البرية وبعض القردة الصغيرة ، وفيران الغيط التى تصاد بكثرة بعد الحصاد .

وسلاح النوبا الأصلى هو الرمح والهراوة ، والدرقة ، وهم لا يعرفون القسى ولا السهام ، ولذلك كانوا عاجزين عن صيد الفيلة ، وغيرها من الحيوانات الضخمة ، وربما تسنى لهم فيما مضى ، أن يصيدوا أسداً أو فهداً ، بوساطة رماحهم ، وهذا أصبح اليوم من الأمور النادرة .

وقد أدى دخول العناصر الآتية من الشمال إلى وجود بعض أسلحة نارية ، أكثرها بنادق قديمة مما اشتراه النوبا من بعض الجماعات العربية .

وموسم الصيد هو عادة فصل الجفاف (نوفبر – مارس) ولكن الصيد لا يكاد ينقطع طول العام إلا فى شدة موسم الزراعة (يونيه – سبتمبر) حين لا يكون لدى النوبا وقت لأى عمل آخر ، حتى أن بعض القبائل تحرم الرقص والحفلات والصيد فى ذلك الموسم تحريماً دينياً .

ومن الجائز أن يذهب الرجل بمفرده للصيد ، مسلحاً بأسلحته العادية .

وبخاصة إذا كانت لديه بندقية . لكن أكثر الصيد تؤلف له جماعة يقودها واحد منها . . ولا يشترك فى الصيد غير الشباب دون كبار السن أو النساء .

ولا بد للشاب المشرف على الزواج أن يقود حملة صيد ، لكى يحصل على بعض الغنائم التى يقدمها جزءاً من المهر ، كذلك لا بد للشاب الذى يوشك أن تعمل له عملية الوشم أن يقود حملة للحصول على الأرانب البرية التى لا بد أن تقدم جلودها للكبار .

* * *

حرفة الرعى :

يرعى النوبا طائفة من الحيوانات المنزلية ،وهى الضأنوالماعز والبقر ، والخنازير والدجاج ؛ وبعض الرؤساء قد يكون لديهم بعض الخيل أو الحمير أيضاً . . وليست كل هذه الحيوانات موجودة عند جميع القبائل على السواء . فالجماعات التى تأثرت بالاختلاط بالعرب مثل دلنج وكورنجو وتيرا ليس لديها خنازير . وفى الجبال الشرقية تقل الماشية (البقر) بينما هى فى الجنوب أهم الحيوانات المستأنسة . والمورو مثلا يعدون حقاً من رعاة البقر ، إلى جانب اشتهارهم بالزراعة .

والعادة أن تحفظ الخنازير والدجاج فى المنزل ، ولا ترعى بعيداً عنه ، ولذلك كان رعيها متروكاً للنساء ، أما سائر الماشية فإن رعيها موكول للشباب والرجال وحدهم يقومون بجلب الماشية ، حتى ولو كانت من الماعز والبقر ، القريب من المنزل ، أو الحقل الذى تعمل فيه النساء .

والذكور من الماعز والغنم والخنازير تخصى وهى فى السنة الثانية أو الثالثة . ثم تسمن للذبح ، غير أن العناية بالماشية والإلمام بوسائل تربيتها ليس من الأمور التى يمتاز بها النوبا مما يؤكد أنهم شعب زراعى قبل كل شىء .

---

(١) الوشم ظاهرة شائعة لدى النوبا رجالا ونساء . وتترك ندوباً بارزة فى الجسم ، لتدل على الجلد وقوة الاحتمال للرجال ، وهى من قبيل التجميل للنساء .

وقد رأينا فيما تقدم أن النوبا يقتنون الخنازير ، ما عدا قبيلتين أو ثلاثاً متأثرة بالعرب . أما سائر القبائل فإنها تربى الخنازير ، ولا نجد فى السودان شعباً آخر يربى هــذا الحيوان سوى الانجسنا Ingassana ، الذين يعيشون فى المرتفعات الجنوبية من أرض الجزيرة . . وبيئتهم مشابهة لبيئة النوبا . . ولكن بين أوطانهم وأوطان النوبا أراض سهلة تسكنها شعوب أخرى ، لا تقتنى الخنازير إطلاقاً . . ولعل بلاد الانجسنا والنوبا كانت وقتاً ما متصلة ، متشابهة الثقافة ، وقد تشاركها فى ثقافتها الأراضى التى تقع بينها . . وفى هذه الحال يكون ميدان تربية الخنازير واسعاً متصلا . أما الآن فان الأراضى الواقعة بينهما يحتلها الشلك والدنكا ، وبعض الجماعات العربية ، وهذه كلها لا تعرف الخنزير .

على أن الخنزير ليس بحيوان ذى شأن ، وهو عند النوبا أقل بكثير من الماعز ، وفى الوقت الذى كان سعر الرأس من الماعز ٢٠ قرشاً ، لم يكن ثمن الخنزير يزيد على خمسة قروش . ويبدو أن العدد أيضاً قليل جداً ، وإذا كان التأثير العربى قد أدى إلى فقد الخنازير تماماً عند عدد غير قليل من القبائل . فلا بد أن مصيرها إلى الزوال .

أما العناية بالماشية فإنها تستحق الذكر . وفى موسم المطر تأوى الماشية إلى زريبة أو معسكر خاص ، بعيداً عن المزارع والقرى . وفى موسم الجفاف ، وبعد أن يتم الحصاد ، فإن الماشية تجلب إلى قرب القرية أو المزرعة ، وذلك لعدة أسباب ، منها أنها تطلق فى الحقول ، لتأكل السيقان المتخلفة من زراعة الذرة بخاصة وسائر الزراعات بعامة ، ولحمايتها من الحيوانات المفترسة التى تكثر فى الحقول بعد موسم الزراعة . وكذلك لحمايتها من المغامرات البشرية ، التى كانت شائعة فيما مضى . ولوفرة المياه فى الجهات الجبلية بعد أن تتناقص أو تجف فى السهول . وصفوة القول أنها تجلب إلى قرب القرية من أجل التغذية والسقاية والحماية ، وقد أخذت بعض القبائل تعنى بصنع الزرائب فى السهول

بحيث تتوفر لها الحماية اللازمة ، فيمكن إبقاء الماشية هناك معظم السنة ، ولا يؤتى بها إلى الجبال إلا لتأكل فضلات الزراعة .

وترعى الماشية فى مراع مشتركة ، لا يملكها شخص بعينه ، والقبائل المتجاورة ترعى فى إقليم واحد . وفيما مضى من الزمن كانت المراعى تقام حول سفوح الجبال ، أما الآن وقد أخذت الزراعة تنتشر فى السهول فإن المراعى أخذت تتراجع أمامها إلى الأرض السهلة . وفى المرعى القديم كان الرعاة يبنون كوخين أو ثلاثة من الحجارة والطين ، وفى داخل الكوخ بيت للرعاة ، وعددهم فى العادة نحو خمسة أو ستة ، وتبيت معهم الماشية الصغيرة من ضأن وماعز ، أما الماشية فتبيت فى كوخ آخر . وفى كل صباح تساق الماشية إلى السهول لترعى ، ثم تعود فى المساء لتبيت ، ولا يزال هذا النوع من المعسكرات موجوداً لدى الموردو ، أما سائر القبائل فإنها أخذت تتوغل فى السهول طلباً للمرعى ، بسبب ضغط النشاط الزراعى ؛ وأصبحت الزرائب تبنى من طراز أخف ، وتصنع من الحطب والخشب والطين والعشب ، وقد كبر حجمها عما كانت عليه من قبل ، بحيث تشتمل على سبعة أو ثمانية أكواخ للرعاة . وحظيرة للماشية . . وفى العادة يكون الرعاة من قرية واحدة ، وإن لم يكونوا من أسرة أو عشيرة واحدة ، وكل شاب يرعى ماشية أسرته . وربما عنى أيضاً بماشية بعض الأقارب . . والرعاة عادة متفاوتون فى الأعمار ، والصغـــار يكلفون بالأعمال الأقل خطراً مثل نظافة الحظائر ، ورعى الضأن والماعز . أما الكبار فيرعون الماشية الثقيلة ، ويذهب بعضهم إلى القرية لإحضار الزاد من آن لآن .

ويجرى حلب الماشية فى الصباح والمساء ، أما الماعز فتحلب فى الصباح فقط ، وليس شرب اللبن أمراً محبوباً عند جميع القبائل . فبينما يحبه المورو نرى هيبان وكوألب وأوتورو لا يعبأون به كثيراً ، ويحفظ الحليب فى وعاء من اليقطين ، خلاف الذى يستعمل فى المعسكر . ويحمل اللبن بعد ذلك إلى القرية كل بضعة أيام . ولا بد من تخصيص جزء كبير من اللبن لصنع الزبدة ،

التى يدهن بها الشباب جسدهم . وهذا أمر شائع عند جميع القبائل على اختلاف نزعاتها ، سواء أكانت ممن يحب شرب اللبن ، أم ممن لا يعبأ بشربه .

وكان اقتناء الماشية فيما مضى ، كثيراً ما يتم بوساطة الإغارة على القبائل المجاورة ، ولكن هذا العهد قد انتهى . ومن الجائز الآن أن يحصل شخص على رأس من الماشية بوساطة السرقة ، ولكن هذا العمل تحف به المشقات ولا تحمد عقباه . . أما الوسيلة المشروعة الآن للحصول على الماشية ، فهى بطريق المبادلة بأنواع أخرى من الماشية ، أو بالشراء وبخاصة من الأسواق العربيـــة :

والبيع والشراء بالنقد وبالحبوب لا يزال أمراً قليل الحدوث ، وإنما الأغلب أن يستبدل المرء البقر بالعجول أو بالماعز . لأن بعض القبائل تفضل البقر ، والبعض يفضل العجول . وليس شراء البقر بالنقود أمراً سهلا .

والأسعار فى مثل هذه الأحوال مصطلح عليها . فالمعزى التامة النمو هى فى زعم المستر نادل (وقد نشر كتابه فى سنة ١٩٤٨) وحدة الحساب فى الأسعار ، وهى تعادل سبتاً من الذرة أو نصف سبت من السمسم وتساوى بالنقد عشرين قرشاً . . والبقرة تعادل ثورين عند معظم القبائل ما عدا هيبان وأوتورو التى لا تشرب اللبن وتفضل الثيرة على البقر .

وكثيراً ما يعمد النوبا إلى تحويل الزائد من غلاتهم الزراعية إلى ماعز أو بقر ، لأنهم بذلك يقتنون سلعة أطول بقاء من الحبوب التى يدفعونها ثمناً . وهى فوق ذلك سلعة تأتى بنسل ولبن . وهى فى الوقت نفسه عنوان بارز على الثروة والجاه . ومع ذلك لا نرى النوبا يستغلون هذا الاتجاه إلى أقصى إمكانياته ولذلك لا نراهم يزيدون حجم القطع كثيراً ؛ وهو فى المتوسط حوالى عشرة رءوس من البقر وستين رأساً من الماشية الصغيرة . . وبعض قبائل الجنوب فقط هى التى يصل قطيعها إلى ٣٠ أو ٤٠ رأساً من الماشية خلاف الضأن والمـــاعز .وهكذا نرى أن النزعة الزراعية هى الغالبة . والنوبا يقتنون الماشية

فى الغالب لأغراض خاصة ، كأن تعطى للأولاد على سبيل الهبة أو لأولاد الأخت ، أو للمساعدة فى دفع المهر[1] أو الدية . . كما أن ذبح الماشية واجب فى الحفلات ذات الصفة الروحية ، أو فى الحفلات الخاصة ، حين يريد الشخص إظهار مكانته فى المجتمع .

الصناعات الأخرى :

بالإضافة إلى الزراعة والرعى نجد أن للنوبة حرفاً أخرى ، وهذه تبين لنا إذا نظرنا إلى ما يقتنونه فى الحياة . وهذه من السهل أن نذكرها : فهناك المنزل وهو عبارة عن مجموعة أكواخ تصنع من الحجارة والطين ، أو من الطين والخشب مغطاة بسقف من الحطب المرصوص بدقة وإحكام . وإلى جانب المنزل كومة من خشب الوقود ؛ وفى داخل المنزل أدوات الزراعة معلقة فى السقف أوعلى الجدار . وبعض الرماح والفئوس ، وبندقية (ليست من صنع النوبا) ، وبعض الأسبات والأوعية الفخارية ، واليقطين الجاف الذى يحفظ فى كوخ الطبخ ، ويحفظ فيه الزيت واللبن ، وأخيراً ما قد يكون لدى الناس من ثياب (وبعض القبائل لا يلبس فيها الثياب كثيراً) وهى إما أن تكون من الجلد أو ثوب على الطراز العربى . وهناك أيضاً العنجريب بمثابة سرير للنوم عند كثير من القبائل ، ولعلهم أخذوه عن العرب .

هذه أهم المقتنيات التى نجدها لدى النوبا .

ولا بد أن كان النوبا يوماً ما يصنعون بأيديهم كل ما يحتاجونه ، أو يتبادلون الأشياء مع جيرانهم الأقربين . أما الآن فمن الجائز أن يشترى المرء كثيراً مما يحتاجه من التاجر العربى المتجول ، أو صاحب دكان فى القرية .

ويمكننا أن نميز الآن ثلاث وسائل للحصول على ما يحتاجه النوباوى من

---

(١) يختلف المهر عند النوبا وهو يقدر فى المتوسط بنحو ٨٠ عنزة . هذا مجرد قيمة تدفع بالماعز والبقر والحبوب والرماح والفئوس وكل شىء له قيمة . وعلى ذلك لا بد للخاطب أن يعمل فى مزرعة والد العروس مدة قد تطول .

هذه الأمتعة : فهو إما أن يصنعه هو أو متعاوناً مع زوجته . أو يتخصص بعض النوبا بنوع من الصناعات ، ويبادلها مع الآخرين . أو يشترى من التاجر ما لا يصنعه النوبا أو ماتت صناعته عندهم .

والمنزل الذى يبنيه النوبا ممتاز وإن كان من نوع الأكواخ أو القوطيات المعروفة ، ولكنها تبنى بإتقان ، وكثيراً ما تستخدم فى بنائها الحجارة . وبناء الصوامع لتخزين الغلة يتم بمهارة ودقة . أما أدوات الزراعة . فكانت فيما مضى تصنع من الخشب ، والآن يشترى النوباوى فئوساً مصنوعة من الحديد .

والسرير الذى ينام عليه النوباوى كان فيما مضى من طراز بسيط : أما الآن فقد استبدل به العنجريب العربى ، وكثير من النوبا متخصصون فى صناعته .

وثياب النساء كانت فيما مضى تصنع من نسيج مشتق من لحاء الشجر أو الجلود . أما الجيل الجديد فيقتنى قطعاً أخرى من القماش الملون المستورد :

والملح الذى كان فيما مضى يصنع بوساطة الأهالى ، يشترى الآن من دكان التاجر العربى . ولعل هذا التاجر العربى هو أكبر أداة للتحول — إن لم نقل التقدم — الاقتصادى عند النوبا .

ولكن هناك حرفة لا تزال محلية صرفة وهى صناعة الفخار ، وهى حرفة نسائية صرفة ، بل هى مقصورة على طائفة من النساء تخصصن فيها . والمرأة هناك تعمل فى شبه « مصنع » وهو عبارة عن كوخ من القش . . ويصنع الفخار فى حفر ضحلة فى الأرض ، تغطى بورق شجر مبلول ثم توضع عليه عجينة الخزف ، وتسوى باليد ، ثم تحرق بعد أن تجف . وهناك بعض التخصص المحلى ، فالأوانى قد تكون مستطيلة ، بيضية ، واسعة أو ضيقة : والناس تشترى ما تحتاجه من هذه الأوانى ، كما يروق لها .

* * *

ونختتم حديثنا عن النوبا ، وقد اضطررنا لبعض الإسهاب فى العرض ، لأننا هنا بإزاء شعب يحترف الزراعة ويمارسها بكل همة وجد ، بعد معالجتنا

فى كثير من الفصول ، للرعاة وحبهم لقطعانهم . وكأن النوبا جزيرة زراعية فى وسط بحر من الرعاة .

وليكن ختام الحديث إشارة يسيرة إلى الحياة الروحية عند النوبا . إنهم كما نرى فى موقعهم الجغرافى معرضون للنفوذ العربى والإسلامى ، وقد تأسست إلى الشمال منهم ، ومتاخمة لحدودهم ، دولة عربية إسلامية وهى دولة تقلى . . . ومن أجل ذلك لم يكن بد من أن يكون النفوذ العربى كبيراً ، على الرغم من أن الاستعمار طبق على « الجبال » القاعدة التى طبقها فى الجنوب بأن يحرم على العرب ممارسة شعائر دينهم علناً ، وغير ذلك من المضايقات ، كما أن الاستعمار ملأ الإقليم بالمبشرين تعميا للسياسة التى مارسها ، غير أن هذا كله لم يحل دون توغل النفوذ العربى فى جبال النوبا .

أما المعتقدات الروحية الأصلية عند النوبا ، فإنها تتركز فى الاعتقاد بأن لكل عشيرة « روحاً » ، وأن هذه الروح « تحل » أحياناً فى جسم فرد من أفراد العشيرة وعلامة « الحلول » أن هذا الفرد الممتاز تعتريه نوبات من رعدة أو رعشة ، ووجوم ونوع من الغيبوبة ، ينطق فى أثنائها بكلمات وعبارات يمكن تأويلها بحيث تصبح نوعاً من التكهن بأحداث ، أو التوصية بأعمال . والمفروض أن « الروح » هى التى تتكلم والشخص ما هو إلا الأداة التى تنقل الرسالة الروحانية . . وهذا الشخص الذى تعتريه هذه النوبات يراقبه رجال العشيرة المحنكون ، ليتأكدوا أنه حقيقة قد اختارته الروح لكى تحل فيه من آن لآن ، وعند ذلك ينادون بأنه « كوجور » Kujur كبير تمييزاً له من غيره الذين لم ينضجوا ولم يصلوا إلى المرتبة الروحية العليا .

وفى بيئة متنوعة فى لغاتها وثقافتها ، وأحوالها الاجتماعية ، لم يكن بد أن يكون لظاهرة الكوجور صور متنوعة فى العشائر المختلفة . ولكن أساسها واحد ، وهو صلاحية بعض الأفراد لأن تحل فيهم روح العشيرة : وهؤلاء هم القادة الروحيون ، والعظيم منهم الذى يقر له الناس بالفضل الروحى ،

يكون هو « الكوجور الأعظم » . . ولا تكاد تخلو قبيلة من شخص ينطبق عليه هذا الوصف . وإلى جانب « الكوجور الأعظم » الذى يلجأ إليه فى الملمات هنالك كهنة من درجة أقل خطراً يمارسون أعمال الطب وشفاء المرضى ، وجلب المطر ، والعمل (روحانياً) لوفرة المحاصيل والغلات الزراعية .

* * *

وحسبنا ما تقدم من شرح لشئون شعب النوبا وأهميته . وإذا توغلنا بعد ذلك شمالا خرجنا إلى الأقاليم التى يسودها العرب والسلالات القوقازية ، وقد اضطررنا لكى نواصل الحديث عن السلالات الزنجية ، أو التى تغلب فيها الدماء الزنجية إلى أن نتناولها الواحدة تلو الأخرى ، فوصل بنا الأمر إلى أن وصلنا إلى دار النوبا . ولكن لم يزل أمامنا شعب واحد ، إلى الغرب من دار النوبا ، ومنحدر نوعاً إلى الشمال وهو شعب الفور الذى سميت به مديرية دارفور . وشعب الفور ما هو فى الواقع إلا جزء من الشعوب والقبائل العديدة المنتشرة فى مديرية دارفور . . وتمتاز أوطانه بما يحيط بها من الجبال العالية وهى جبال مرة . ولن نطيل الحديث عن الفور ، والحديث عنه جدير أن يلحق بالحديث عن السلالات العربية أو المستعربة . فإن الفور وإن كانت لهم لغتهم الخاصة ، فإن هذه ظلت مجرد رطانة . وقد اعتنق الفور الإسلام ، واقتبسوا اللغة العربية . وفيهم عنصر ممتاز يدعى الكنجاره ، ويمثل سلالة عربية خالصة .

فلا مناص لنا من أن نختم الحديث عن السلالات الزنجية ، التى شغلت الفصول السابقة ، وأن ننتقل إلى الحديث عن السلالات القوقازية .

---

(١) تناول الكلام على النوبا الأستاذ سلجمان ، فى كتابه عن أجناس إفريقية . وتناوله بتوسع فى كتابه عن القبائل الوثنية فى السودان . . . وأخرج الأستاذ نادل كتابه عن النوبا فى سنة ١٩٤٨ ، بعد أن عاش فى البلاد زمناً ليس بالقليل ، كما أن لنادل مقالات أخرى فى مجلة السودان فى مدونات Sudan Notes and Records (S.N.R.) . وعلى الرغم من النقد الذى وجه إلى كتاب نادل ، فإنه مرجع واف مفصل عن جميع قبائل النوبا .

الفصل الحادي عشر

السلالات القوقازية

حينما نعرض للسلالات القوقازية فى إفريقية ، لا بد لنا أن نحصر الكلام على الشعوب التى سكنت إفريقية منذ الأزمنة المتقدمة، أى الإفريقية الصحيحة، مع صرف النظر تماماً عن العناصر الدخيلة، التى تسمى « البيضاء » . . وأكثرها فى إفريقية جنوب خط الاستواء ، هذه عناصر غريبة تعيش فى غير أرضها ، دخيلة لم تنشأ ولم تتطور فى إفريقية ، ولم تعرفها البيئة الإفريقية ، إلا كعناصر عدوانية ، لا تمت للسلالات الإفريقية بسبب . ونحن إذا أغفلنا الكلام عن هؤلاء الدخلاء ، لا نفعل أكثر مما فعله علماء الأجناس ، فى كتبهم وفصولهم عن إفريقية ، كما نجد ذلك فى كتابات هدن وسلجمان وأضرابهما . فإن وجود الإنجليز والبوير والجرمان فى جنوب إفريقية يمثل أحداثاً سياسية ، لا حقائق أنثروبولوجية .

وقد رأينا فى الفصول الأولى من هذا الكتاب ، أن الجنس الزنجى وما يشابهه من سلالات ، قد اتخذ القارة وطناً منذ عهد بعيد ، سواء وفد إليها من الخارج ، كما يرى أصحاب الرأى القديم ، أو نشأ فى صميم القارة ، كما ينادى أصحاب الرأى الحديث . . غير أن السلالات الزنجية على قدم عهدها بالقارة ، لم تنتشر فيها كلها ، بل كان أكثر انتشارها فى الأقاليم الوسطى والجنوبية . ولعلها لأسباب جغرافية طبيعية ، لم تجد دافعاً يدفعها إلى الأقاليم الشمالية .

أما العناصر القوقازية ، فإن قلة من الكتاب قد تزعم بأنها من أصل

إفريقى . والكثرة من العلماء ترى أن القوقازيين دخلوا إفريقية من الجهات الشرقية والشمالية الشرقية للقارة ، والقوقازيون كما يعلم طلاب علم السلالات ، منتشرون فى معظم القارة الأوروبية والنصف الشمالى من إفريقية ، وفى قارة آسيا من أقصى الغرب إلى شبه جزيرة الهند ، وبعض « جيوب » أخرى فى أندونسيا وماليزيا والجهات الشرقية من القارة . وهذا بالطبع بصرف النظر عن الانتشار الذى ملأ القارة الأمريكية .. وهو شىء يتجاهله علماء الأجناس كما يتجاهلون وجود البيض فى إفريقية .

وقد اصطلح علماء الأجناس على أن يقسموا القوقازيين فى إفريقية إلى قسمين : الحاميين والساميين . ومع أن هذين الاسمين مأخوذان من العهد القديم ، فإن دراسة الأجناس قد تبنت الاسمين فقط (دون مدلول الاسمين) لأنهما اسمان جريا على الألسنة ، ولا بأس فى استخدامهما فى التمييز بين المجموعتين الكبيرتين من سكان إفريقية القوقازية .

ومع ذلك فإن التمييز بين الساميين والحاميين يوشك أن يكون هنا أيضاً تمييزاً لغوياً . فالحاميون هم الذين يتكلمون لهجات ، يرى علماء اللغات أنها من أسرة لغوية واحدة ، أصلها من جنوب آسيا وجاءت فى عصر متقدم ، بحيث لم يبق لها أثر الآن فى تلك القارة . أما الساميون فهم الذين يتكلمون لغات مشتقة من جزيرة العرب فى وقت يوصف بأنه متأخر نسبياً .

على أن الأستاذ جرينبرج[1] ، وهو من أهم أساتذة اللغات بعامة والإفريقية بخاصة ، قد جعل اللغات السامية والحامية أسرة لغوية واحدة . . وقسمها إلى خمسة أقسام : (١) المصرية القديمة (٢) السامية (٣) البربرية (٤) الكوشية و (٥) لغة تشاد[2] . . . وأطلق عليها اسم الأسرة الإفريقية

(١) راجع مقاله فى كتاب African Cultures, 1962 إخراج الأستاذين Bascom, Herscovits

(٢) لغات عديدة حول بحيرة تشاد أكثرها فى نيجيريا وأشهرها لغة الهوصا ، وكانت دائماً توصف أنها لغة « حامية » . . وعدد هذا الفرع المسمى « تشاد » يزيد على المائة لغة كما يقول جرينبرج ص ١٩ نفس المرجع .

الأسيوية Afro-Asiatic ، وأراد أن يتجنب عبـــارة حامية لأسباب بدت له . . والذى يهمنا هنا أن عالماً كبيراً من علماء اللغات ، قد استطاع أن يقرر وجه القرابة بين لغات الجماعات القوقازية فى إفريقية ، بحيث أمكنه أن يجعل اللغة العربية واللغات البربرية فى شمال إفريقية أعضاء فى أسرة واحدة : والأقسام التى ذكرها جرينبرج يهمنا منها بوجه خاص ، أنه أمكنه بأساليبه العلمية الخاصة أن يربط بين المصرية القديمة ، وبين اللغات السامية . كما أنه ميز بين الكوشيه فى شرق إفريقية وبين لغات البربر فى شمال القارة .

وهذا التقارب اللغوى يعكس إلى حد ما التقارب فى الصفات الطبيعية . لقد يصادف المرء فى مطالعاته كتاباً يحاولون عبثاً أن يفرقوا بين الساميين والحاميين ، فى صفاتهم . فلا يبلغون ببحثهم شيئاً نقبله ؛ وهذا يبدو جلياً عند الذين يحاولون أن يجدوا وجوهاً للاختلاف بين سكان شمال إفريقية الذين يتكلمون لغة بربرية أو لغة عربية ، وكثيراً ما يزعم البعض أن كثيراً ممن يتكلمون العربية فى شمال إفريقية ما هم إلا بربر مستعربون ، والصحيح فى نظر كثيرين أن الحاميين والساميين من أسرة جنسية واحدة ، كما هى الحال فى لغاتهم . . ولذلك لا حرج علينا ونحن نتكلم عن السلالات ، أن نفرد فصولا عن بعض الشعوب التى تتكلم اللغات « الحامية » ، وأخرى عن أصحاب اللغات السامية . ولكن حيث يمتزج السكان فى بعض الأقطار ، لا بد لنا أن نتخذ القطر كله موضوعاً واحداً ، نتكلم عن خصائصه الطبيعية والثقـــافية .

* * *

وعلى الرغم من احتراسات الأستاذ جرينبرج لا يزال الكتاب عن السلالات الإفريقية يتحدثون عن الحاميين والساميين فى فصول مختلفة ، ولا بد لنا لأجل الوضوح أن نحذو حذوهم ولنبدأ الكلام عن الحاميين .

كما أن جرينبرج يفرق بين اللغات الكوشيه واللغات البربرية ، يميز علماء

الأجناس بين الحاميين الشرقيين والشماليين ، ولا شك أن الاعتبارات الجغرافية تبرر مثل هذا الإجراء .

* * *

الحاميون الشرقيون :

يرى الأستاذ سلجمان أن المجموعة الشرقية تشتمل على :

١ ـ المصريين القدماء والحديثين برغم ما قد دخل مصر حديثاً من مهاجرين جدد .

٢ ـ البجـــه .

٣ ـ النوبيـــين .

٤ ـ الجـــلا .

٥ ـ السومـــال .

٦ ـ الدناكل .

٧ ـ الأثيوبيين ، برغم اختلاطهم بعناصر سامية وزنجية .

أما المجموعة الشمالية ، فتشمل :

١ ـ جماعات البربر فى برقة وطرابلس وتونس والجزائر ، وهؤلاء يسمون أحياناً المجموعة الليبية .

٢ ـ بربر مراكش .

٣ ـ سكان الصحراء مثل الطوارق والتبو .

٤ ـ العولا فى نيجريا وما يليها .

٥ ـ الجوانش Guanche عنصر انقرض وكان يسكن جزر كناريا .

وهذا التقسيم كما قلنا مفيد على علاته ، لأنه يتيح لنا فرصة لأن نتحدث عن الشعوب المختلفة ، وإن كنا لن نوفيها كلها حقها لضيق المقام من جهة ، وقلة معلوماتنا عن بعضها من جهة أخرى .

وقد احتشد الحاميون بعدانتقالهم فى موجات متتاليةفى الجزء الشرقى من

القارة ، الذى يلى بوغاز باب المندب والذى يسميه كثير من الكتاب «قرن إفريقية» . . وتتدافع الموجات عبر البوغاز ، وتتدافع الشعوب ، وتحتل الأقطار المختلفة . . على مدى قرون عديدة . حتى لم يبق فى أوطانها الأسيوية إلا بقية لم تلبث أن اندمجت فى عناصر ثقافية أخرى فى الجنوب العربى .

والمتحفظون من الكتاب لا يذهبون بهذه الحركات والموجات ، التى ترتب عليها احتشاد الحاميين الشرقيين فى شرق إفريقية ، إلى أبعد من القرن العاشر قبل الميلاد .

وإذا صرفنا النظر عن الآثار التى ترتبت على الاختلاط بعناصر زنجية بحكم الموقع الجغرافى ، وبحكم الغزو والسبى . نرى أن هذه السلالات متشابهة حتى أن سلجمان كان يرى الشبه قوياً جداً بين المصريين القدماء ، وبين البجه ، وأورد فى كتاباته صوراً كثيرة توضح ذلك[1].

والصفات قوقازية : بمعنى أن الشعر مموج فى العادة ، والأنف دقيق أو متوسط ، بارز فى كثير من الأحيان ؛ والشفاه مليئة غير منقلبة . وبروز الفك فى حكم العدم . والقامة متوسطة . والجسم نحيل والرأس والوجه بيضيان، والشعر غزير على الرأس ، قليل على الجسم ، ولون البشرة متأثر بالاختلاط بعناصر جنوبية . . لكن الأصل فيه أن يكون أسمر ، سمرة خفيفة فى معظم الأحيان ، وداكنة فى أحيان أخرى :

السومال :

شعب السومال أول ما يصادفنا حين نغادر الأقاليم الزنجية فى شرق إفريقية ، ونتجه شمالا ، ولذلك نرى أن بعض السومال يعيشون فى كينيا فى الإقليم المتاخم لسوماليا . . فأوطانهم تبدأ من المجرى الأسفل لنهر تانا على الدرجة الثانية من درجات العرض الجنوبى ، وتتجه الأوطان نحو خليج عدن ،

(١) مقالة الأستاذ سلجمان فى مجلة J.R.A.J. لسنة ١٩١٣ وعنوانها :
The Hamitic Problem in the A.-E. Sudan.

وأكثرها داخل فى الوقت الحاضر فى جمهورية سوماليا .ما عدا إقليم جيبوتى ، الذى يدعى السومال الفرنسى . كما أن هناك مساحة ضخمة تشمل الجنوب الشرقى من أثيوبيا ، أى منطقة أوجادين وما يجاورها . والسوماليون يودون تعديل الحدود بينهم وبين أثيوبيا ، ولكن الحكومة الأثيوبية متمسكة بهذه الأراضى ؛ مع أنها كانت مستعدة للتنازل عنها لإيطاليا فى سنة ١٩٣٥ إتقاء لشر موسيلينى وحكومته . ولكن أثيوبيا تأبى أن ينضم السوماليون الذين عندها إلى إخوانهم .

وبلاد سوماليا تشمل جميع الإقليم الذى يدعى قرن إفريقية ، ومساحة الجمهورية واسعة ، ولكنها ضعيفة الموارد ، والمياه فيها قليلة ، وكثير من الجهات تغلب عليها الطبيعة الصحراوية . والمساحات الصالحة للزراعة محدودة . ولا بد أن تبذل جهود جبارة لزيادة الموارد المائية ، التى يمكن تدبيرها بشيء من التحكم فى مياه نهر جوبا ونهر شبلى . وهذا لن يكون سهلا إلا بالتفاهم مع إثيوبيا لأن الأجزاء العليا للنهرين تقع داخل الحدود الأثيوبية .

أما سائر السكان فيمارسون حرفة الرعى . . وأكثر الماشية التى ترعى الإبل والضأن والماعز .

ويبلغ تعداد أمة السومال أكثر من ثلاثة ملايين . وكان يسودها النظام القبلى . والسكان موزعون بين سبع قبائل : وهى در واسحاق — وهما فى الإقليم الشمالى — وداروط وهوية أولى وهوية ثانية ودجل ، وحمروين[1] والقبيلتان الأخيرتان ، تعيشان فى الجنوب وتمارسان الزراعة والحياة المستقرة . أما الخمس الأولى فإنها تتبع نظام القبائل وتنقسم كل قبيلة إلى عمائر ، ثم إلى عشائر وإلى بطون ، وأصغر وحدة هى العاقلة ، وهى التى يلزمها دفع الدية عما يرتكبه أفرادها من جرم . وبفضل النهضة الوطنية قد ضعفت العصبية القبلية جداً .

---

(١) هكذا فى بحث لويس فى عدد يوليو سنة ١٩٥٩ فى مجلة Africa . أما سلجمان فيقول إن السكان ينقسمون إلى قسمين : الساب وهم مجموعة دجل وهنوين . والسومال وهم دير — هاويا — وجادابرسى ودارود .

وهذه الأقسام القبلية موزعة فى سائر الوطن السومالى ، وقرابة الدم تجمعها بما فى ذلك سكان أوجادين ، وشمال كينيا . . وهذا هو الذى يفسر لنا حرص جمهورية سوماليا على أن تسترد أوطان الشعب السومالى كاملة :

* * *

الجـــلا :

هذا الشعب الحامى يعيش فى الجنوب والجنوب الغربى من أثيوبيا . وليست له أوطان خارج الإمبراطورية الأثيوبية ، وهم يدعون أحياناً بأسماء أخرى مثل إلم وأرما وأدومر . ويقال إنهم نزلوا أوطانهم هذه فى القرن السادس عشر . ولعل الصواب أن هذا الإقليم كان خالصاً للحاميين منذ زمن بعيد ، ولكن الجماعات التى دعيت باسم الجلا وصبغت السكان بهذه الصبغة هم الذين جاءوا فى الهجرة الحديثة .

وصفاتهم الطبيعية لا تخرج عما ذكرنا عن الحاميين عامة سوى أن شعبة منهم تدعى برانا Borana ألوانها أقل سمرة من سائر الجلا ، وفيما عدا ذلك يوصف الجلا بأنهم متجانسون فى أشكالهم والقامة طويلة (متوسطها ١٧٢ سم) والجبهة عالية وعريضة ، ويزعم سلجان أن الوثنية هى الغالبةوإن كان فيهم مجموعات إسلامية ومسيحية .

وعلى الرغم من أن الجلا يعيشون فى أثيوبيا ويخضعون للنظم الأثيوبية من الوجهة النظرية ، ويكونون فرقة الفرسان فى الجيش . فإنهم مع ذلك ظلوا محتفظين بكثير من تقاليدهم ونظمهم الاجتماعية .

وفى الجلا نجد أن البورانا وحدهم هم الرعاة ، ولا يمارسون الزراعة ، وينتقلون بماشيتهم فى موسم الجفاف ؛ والماشية الرئيسية هى البقر ، ومنها الماشية الدقيقة مثل الضأن والماعز ، ولكن لديهم أيضاً بعض الإبل بحكم مجاورتهم للسومال . . أما سائر الجلا فحرفتهم الأساسية هى الزراعة ، ومع ذلك يحبون اقتناء الماشية وتربيتها . . ويملك الزارع المجتهد قطيعه ويحاول أن

بجعله كبيراً بقدر جهده . والزراع من الجلا يستخدمون فى زراعتهم نوعاً من المحراث البدائى يجره ثور أو جمل .

ونظراً لأن الجلا هم الشعب الحامى الوحيد الذى لا يزال شطر كبير منه ، ولعله أكثره ، محتفظاً بديانته ، فإن هذا أمر يجعل لعقائده الحالية أهمية خاصة لعلها تعطى فكرة ولو قليلة عن الديانة الأصلية للحاميين . . على فرض أن الموجود يحتفظ ببعض عناصر العقائد القديمة .

والجلا يعتقدون فى كائن أعلى ، يدعى واك (ويرادف معنى السماء) ولديهم أيضاً اعتقاد فى رب وربة — من المرتبة الثانية — اسمهما أجلى Oglie وأتيتى Atete . ويقوم رب كل أسرة بدور القسيس فى المناسبات الدينية ، وفى أول الشهر القمرى يقدم قرباناً لقمر الشهر المنصرم، ويبتهل إليه أن يتوسط لدى قمر الشهر الجديد ، لكى يعمل على تنمية الثروة ووفرة الغلات والماشية . . . الخ . وهناك ضروب من الحيوان لها حظ من التقديس مثل الثعبان ، والتمساح والبوم . وإن لم يكن هناك دليل على أنها من نوع الطوطم . . وعند الجلا الجنوبيين ، على وجه الخصوص ، نوع من التكريم الدينى لشجرة التبلدى ، فيصب اللبن على عروقها مرة فى كل شهر ، ويضحون لها فى العام مرة بكبش أسود . وهناك أنواع أخرى من الشجر تلقى بعض التكريم مثل شجرة التين الوحشية . . وبعض العشائر شعارها شجرة خاصة ، ويسمون باسمها ، ولا يسمحون بقطعها .

ويستعينون على التكهن ، والعلم بما خفى من الأمور . بالتضحية ببعض الماشية ، واختبار ما تحتويه معدتها . . . كذلك عندهم عادة « التطير » ، أى التكهن المبنى على طيران الطير الذى يطلقونه لهذا الغرض ، ومن أهم شعائرهم الدينية شيء يدعى فى لغتهم واداجا Wadaga وهو عبارة عن صلاة جماعية ، ويقدمون مع الصلاة بعض القرابين ، ويتناولون وليمة مشتركة ويقدمون جزءاً منها للإله واك .

وكان من شعائر الجلا نوع من الحج – حرمته حكومة أثيوبيا – يحجون فيه إلى بلاد واليجالبزوروا شخصاً يدعونه أبامودا Abba Muda (أبو التبريك) وهو شخص يعدونه بمثابة الزعيم الديني لجميع الجلا ؛ ويقال عنه إنه يأوى إلى غار فى مكان سحيق ، وفى صحبته ثعبان . وكان يلقن الحجاج الذين يقصدونه مبادئ دينهم وعبادة واك ، وتقاليد الجلا التى يجب أن يلتزمها كل منهم ، ومنها معاداة الديانات الأخرى كالإسلام والنصرانية ، ثم يمسح على رءوسهم ببعض الزبدة . فينصرفون بعد ذلك إلى أوطانهم ، ولم يكن يشترك فى الحج سوى الرجال ، والمنتظر من كل أسرة أن تبعث بأحد أفرادها مرة فى كل ثلاثة أجيال .

ونرى فى هذا الوصف ، الذى ننقله عن الأستاذ سلجمان ، أن عناصر مختلفة لا بد أن أثرت فى ديانة الجلا ، فهناك مزيج من عبادة رب أعلى ، إلى عبادة القمر ، إلى تقديس الشجر . . إلى أنواع من الشعوذة والطيرة . مما يدل على أن هذه العناصر – وكثير منها موجود فى جماعات متفرقة فى أقطار كثيرة – قد تجمعت من مصادر مختلفة ، وتكونت على مدى أزمنة طويلة .

وتتألف ملابس الجلا من إزار من الجلد ، ورداء يسمونه الثوب : وهو عبارة عن قطعة كبيرة من القطن . . وربما جعلوا حول الكتفين شيئاً من فراء الغنم ، أو جلد الفهد . وأهم سلاح يحملونه حربتان ورمح ثقيل ودرقة مستديرة .

والشائع عند الجلا أن يتزوجوا زوجة واحدة ، فيما عدا البورانا . . والمهر يؤدى بالماشية . والأسرة تتبع النظام الأبوى ، وللوالد سلطة الحياة والموت على أطفاله ، وقد يقضى ببيع بعضهم عبيداً إذا شاء . والابن الأكبر هو الوريث الشرعى . والمرأة لا ترث[1] .

---

(١) راجع كتاب سلجمان عن أجناس إفريقية (١٩٥٧) ص ١٠٦ – ١٠٩ .

سكان إثيوبيا :

إن الكلام عن الجلا ساقنا إلى الحديث عن إثيوبيا . لأن أوطان الجلا كلها واقعة داخل الإمبراطورية الإثيوبية ، وكذلك يعيش كثير من السوماليين أيضاً داخل الحدود الاثيوبية . وفى سائر أطراف الجمهورية شعوب مثل الأنواك والبرتا وغيرهم لهم ثقافات مختلفة ومتنوعة ، فإن الإمبراطورية الاثيوبية تضم عدداً كبيراً من العناصر الحامية والزنجية ؛ ولكن نواة الإمبراطورية هو العنصر الأثيوبى ، الذى يعيش فى الهضبة الحبشية التى يزيد ارتفاعها على ألف متر فوق سطح البحر ، وهؤلاء لا يكادون يبلغون أكثر من ٣٥٪ من سكان الإمبراطورية،ولكنهم هم الذين يهمنا أن نتحدث عنهم هنا ، وندعوهم الاثيوبيين .

إن الاثيوبيين موزعون فى جهات تجره فى الشمال ، والأمهارة وجوجم فى الوسط . وشوا فى الشرق . وهضبة الحبشة كتلة عالية متسعة المساحة . تتخللها أودية عميقة ، تجعل الاتصال متعذراً بين أجزائها ، ولذلك كانت الهضبة الحبشية شبيهة بالبيئات الجبلية ، التى اعتصمت بها الجماعات من آن لآن ، واتخذت من شعابها وأركانها أوطاناً آمنة يتعذر على العدو المغير أن يصل إليها أو يزعجها .

ولقد رأينا من قبل أن البيئات الجبلية يكثر فيها تنوع السلالات ، وتنوع الثقافات لأن ضعف الصلة بين نواحي الوطن ، حال دون الاندماج . ولذلك لا يدهشنا أن تتعدد السلالات والثقافات فى هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف ، حتى أن الاثيوبيين أنفسهم تتألف منهم أقسام سياسية خطيرة فى تجرة وفى أمهاره ، وجوجم ، وشوا ، يكاد كل قسم منها أن يكون مملكة مستقلة . لولا أن رئيساً من بينها أبدى من الهمة والمقدرة ما جعل الآخرين يدينون له بالطاعة ، ولذلك سمى الإمبراطور فى العادة باسم نجستا نجست أو ملك الملوك .

والسلالة الاثيوبية التى تهيمن على دولة إثيوبيا فى الوقت الحاضر ، قد تكونت على مدى قرون ، بوساطة هجرات دخلت الهضبة واستقرت فى أرجائها ، من الجائز أن يكون الجنس الزنجى قد دخل الهضبة منذ آلاف السنين ، لاجئاً أو هارباً من الجماعات الحامية التى أخذت تتدفق عبر باب المندب . والأرجح أنه لم يكن يأوى إليها بأعداد كبيرة . ولكن من الممكن أن الحاميين الذين دخلوا الهضبة فيما بعد لم يجدوها خالية . . وهؤلاء الحاميون أتوا فى موجات متتالية وسواء أدخلوا الهضبة راغبين أم هاربين . فلا شك أن انتقالهم إليها قد جعلهم على مضى القرون هم العنصر الراجح فى تكوين السكان ، ولعلهم امتصوا القلة الزنجية ، التى سبقتهم إلى سطح الهضبة ، بحيث أصبح التكوين الجنسى للأحباش يتألف من نحو ٧٥٪ من الحاميين ونحو ١٥٪ من الدم الزنجى ، ونسبة أقل ولكنها هامة جداً من الساميين .

وهجرة الساميين إلى أثيوبيا تعد حادثاً بعيد الخطر فى تاريخها . إنه لا يمكن أن يكون أثَّر كثيراً فى شكل السكان لأن التشابه قوى بين الحاميين والساميين كما رأينا . ولكن التأثير ظهر فى نواح ثقافية واجتماعية عديدة . إننا لا نكاد نعرف شيئاً عن تاريخ أثيوبيا قبل دخول الساميين فيها . . وتاريخ دخول الحضارة السامية لا نعرفه إلا على وجه التقريب . . ويبدو من الروايات الأثيوبية أن هذه الهجرات السامية لا بد قد وقعت فى حدود القرن العاشر قبل الميلاد . وفى أساطير بعض الشعوب فى منطقة السفانا إشارات إلى تأسيس مملكتهم بوساطة مهاجرين من اليمن .

والإثيوبيون يقولون إن البيت المالك فى أثيوبيا ينحدر من ملكة سبأ . . وصفوة القول إن هجرات متتالية أتت من بلاد اليمن ، ووجهتها هضبة الحبشة ، وقد توالت هذه الهجرات على مدى قرون عديدة ، وإلا لما أمكن أن تحدث الأثر الثقافى العميق فى هذه الأوطان الإفريقية ، التى لم تلبث أن اصطبغت بالصبغة السامية ، وأخذت إثيوبيا تظهر فى التاريخ ، وكانت لها صلات بالبطالمة ، وغيرهم من حكام وادى النيل .

أما الأثر الثقافى الأكبر ، فيتمثل فى انتشار لغة سامية سبأية ، تدعى لغة الجعز ، فى منطقة تجره ، وبرزت فى زمن متقدم مدينة اكسوم كمركز للحضارة أولا وللديانة فيما بعد . وظلت هى العاصمة الدينية زمناً طويلا ، بل إنها لا تزال تحتفظ بطابعها الدينى إلى وقتنا هذا ، غير أن لغة الجعز باتت مقصورة على الشئون الدينية . وذلك أن لغة جديدة تدعى الأمهرية ظهرت فى القرن الثالث عشر ، وأصبحت هى لغة القصر ، وقد تغير المركز السياسى من إقليم تجره إلى إقليم أمهاره . ونظراً لسهولة اللغة الأمهرية إذا قورنت بلغة الجعز ، إلى جانب أن إقليم أمهارا ، أكثر توسطاً ، وأيسر اتصالا بسائر المديريات ، من أجل هذا انتشرت الأمهرية وأصبحت هى اللغة الرسمية للدولة ، وتكتب بالخط الأثيوبى الذى أدخله اليمنيون إلى البلاد . وهذه اللغة الأمهرية ليست سامية خالصة ، بل دخلتها عناصر من لغات حامية وغيرها ولكنها بامتصاصها للعناصر الحامية لم تتحول كما زعم سلجمان إلى لغة حامية ؛ بل لا تزال عضواً هاماً فى اللغات السامية . وهى إلى جانب اللغة العربية ، واللغة التجرينية ، أهم اللغات السامية الحية ، والتى ظلت حية قروناً عديدة إلى وقتنا هذا .

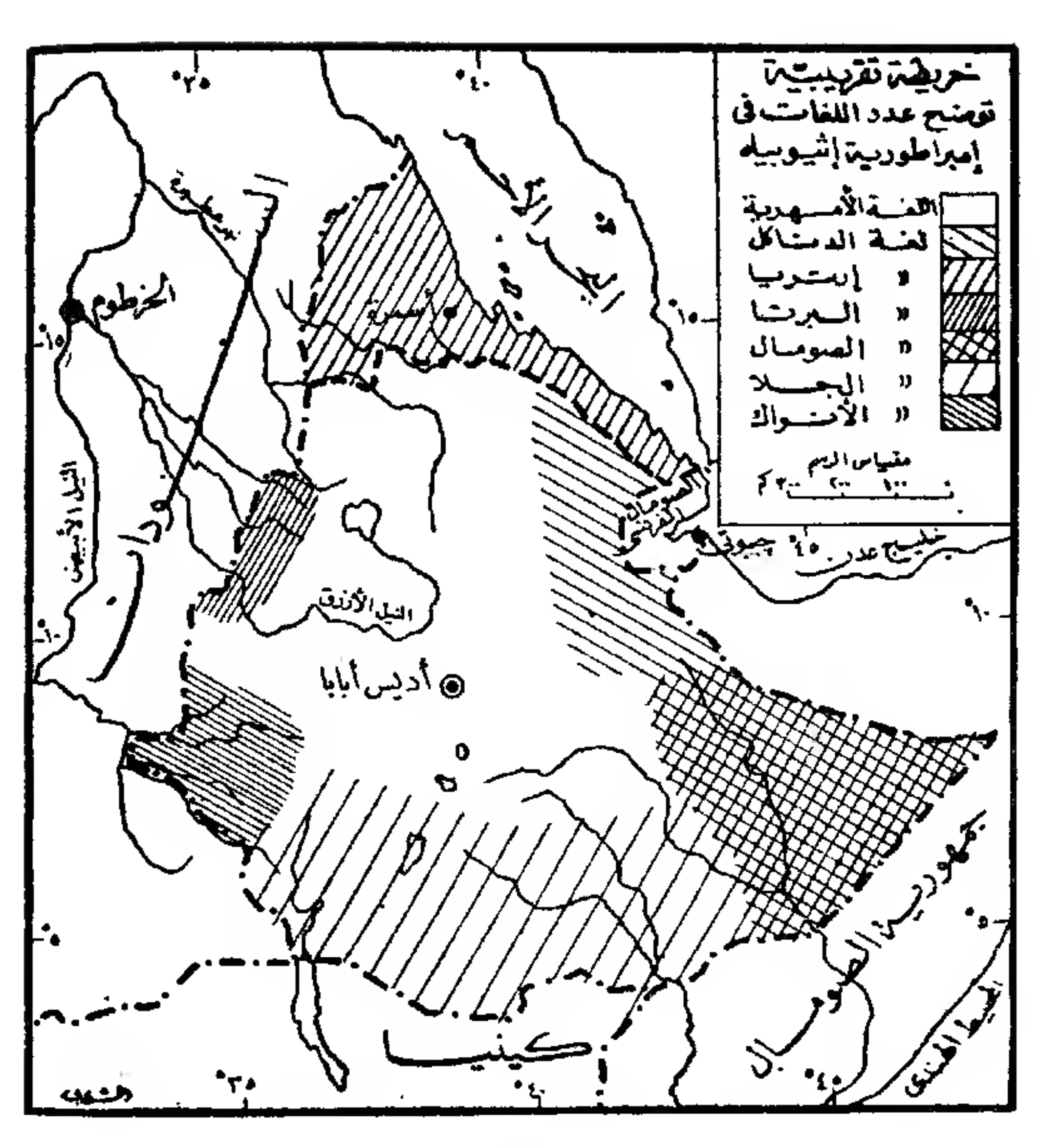
ويتكلم اللغة الأمهرية فى أثيوبيا نحو خمسة ملايين من السكان ، ويتكلم باللغة التجرينية ، (وهى المشتقة من الجعز) نحو ١½ مليون فى الإقليم الشمالى من إثيوبيا . وهنالك خمس لغات سامية أخرى[1] فى إثيوبيا ليست بذات خطر .

وهكذا نرى الهجرات اليمنية قد طبعت أثيوبيا بالطابع السامى ؛ وأكبر الظن أنها كانت هجرات سلمية أو قريبة من أن تكون سلمية ، فقد ترتب عليها اتصال مطرد بين اليمن وأثيوبيا ، انتقلت فى غضونه بعض عناصر الحضارة مثل زراعة البن ؛ ولا شك أن تشابه البيئتين فى كل من اليمن وأثيوبيا

---

(١) راجع مقالة إدورد ألندرف فى

The Semitic Languages of Ethiopia, by Edward Ullendorff, in Africa (April, 1955).



خريطة تقريبية
توضح عدد اللغات في
إمبراطورية إثيوبيه
اللغة الأمهرية
لغة الدناكل
« إستريا
« البرتا
« الصومال
« الجلا
« الأتراك
مقياس الرسم
الخرطوم
النيل الأزرق
النيل الأبيض
أديس أبابا
خليج عدن
جيبوتي
البحر الأحمر
كينيا
جمهورية الصومال
المحيط الهندي

(شكل ١٥)

ساعدا على ربط الإقليمين ، وتوطيد العلاقات والصلات ، وإن كانت أثيوبيا فيما بعد رأت أن تهاجم بلاد اليمن وتستولى عليها فترة من الزمن ، كما يحدث بين الأقارب .

وقد اقتبست أثيوبيا الدين اليهودى ، ولعله لم يتجاوز منطقة محدودة فى الشمال . وربما كان من بعض مهاجرين من اليهود : إذ لا يزال هناك فى الإقليم الجبلى فى الشمال طائفة من اليهود يسمون الفلاشا Falasha ويقدر عددهم بنحو ٣٠,٠٠٠ ويصفهم سلجمان بأنهم كانوا مستقلين ولهم « ملوكهم » يزعمون أنهم من نسل داود . ولكن هذا انتهى فى سنة ١٨٠٠ حينما ضمتهم إليها مملكة تجره . . وعلى العموم يعيشون فى شبه عزلة لا يتزوجون إلا منهم ، ولا يتزوجون أكثر من واحدة ، ويحرمون على أنفسهم أن يدخلوا منزل شخص مسيحى ، وينقسمون إلى ثلاثة مذاهب كل منها يشرف عليه قسيس خاص . ويصومون مرتين فى الأسبوع ، و ٤٠ يوماً قبل عيد الفصح ، وفى ديانتهم بعض تقاليد وثنية :

أما المسيحية فقد جاءت إلى أثيوبيا فى منتصف القرن الرابع على يد قسيس يدعى فرومنتيوس ، الذى عين أول أسقف لإثيوبيا . ولم تلبث الكنيسة الحبشية أن اتصلت بالكنيسة المصرية : وأخذت عنها كثيراً من طقوسها وعقائدها ، بل لقد كان البطريرك المصرى فيما مضى هو الذى يعين رئيس الكنيسة الحبشية وكان يدعى « أبونا » إلى أن استقلت الكنيسة الحبشية منذ عهد قريب .

الفصل الثانى عشر

البجه (البجاه)[1]

١ — مواطنهم وأقسامهم

لا شك أن مواطن البجه فى الوقت الحاضر أضيق مساحة ، مما كانت عليه فى الأزمنة الغابرة . ومواطنهم اليوم تتألف من الأراضى الواقعة بين البحر الأحمر شرقاً ، ونهر عطبرة ، ثم النيل الأكبر غرباً ، وتمتد من المنحدرات الشمالية للهضبة الحبشية فى الجنوب إلى نهاية مديرية أسوان فى الشمال :

أراض فسيحة شاسعة — وإن كانت أقل من أوطانهم القديمة : وبيئة فيها تنوع كثير وإن غلبت على معظمها صفة الشدة والجهد . . وهذا التنوع يشمل التضاريس ، وسقوط المطر ، وما يترتب على ذلك من تنوع النبات والحيوان .

ولعل اختلاف التضاريس هو أكبر عامل طبيعى يؤثر فى الظاهرات الطبيعية الأخرى . وأكبر مظهر لاختلاف التضاريس هو وجود تلك السلاسل الجبلية الممتدة من الجنوب إلى الشمال موازية وملاصقة للبحر الأحمر ، مرتفعات متصلة الحلقات .

---

(١) الاسم المتداول اليوم للبجه هو بكسر الباء ، وهذا تطور حديث ، ومن المألوف على مضى الزمن أن تتحول الحركة من الضم إلى الكسر . وقد كان المتقدمون من الكتاب ، كالمسعودى وابن سليم الأسوانى والمقريزى يكتبون الاسم بضم الباء وبعدها ألف وهاء . والظاهر أن الاسم قديم جداً ، لأن شعب البجة كان معروفاً للمصريين القدماء باسم المازوى أو الماجوى ؛ ومبادلة الباء بالميم أمر ليس غريباً فى اللغات السامية كما هى الحال فى مكة وبكة .

وفيما عدا هذه نرى مرتفعات البحر الأحمر ممتدة بمحاذاته تلتصق به أحياناً ، حتى لا يكاد يفصلها عنه شيء ، وتبتعد أحياناً عنه ، فتترك بينها وبينه سهلا ساحلياً ضيقاً ، عرضه يتراوح بين ٢٠ و ٣٠ كيلومتراً .

فتضاريس الوطن البجاوى إذن ذات اتجاهات شمالية جنوبية ؛ أولها من ناحية البحر ذلك الشريط الساحلى المنخفض ، وهو ليس سهلا ساحلياً بالمعنى الصحيح ، بل عبارة عن أرض منحدرة نحو البحر ، وقليلة الارتفاع عن سطحه وهذا الشريط الساحلى ضيق فى القسم الأعظم من الجهات الداخلة فى السودان ، ولكنه أكثر اتساعاً ، فى الجزء الداخل فى حدود مصر .

كذلك جبال البحر الأحمر ، ليست كلها متساوية فى الارتفاع والوعورة ، وهى تزيد على الألف وخمسمائة متر ، فى الكتلة الواقعة جنوب فجوة طوكر ، والواقعة شمالها مباشرة .

هذه المرتفعات الساحلية هى أهم ظاهرة تضاريسية فى الوطن البجاوى ، ولها آثار مناخية خطيرة . ومن الأماكن المرتفعة فيها بلدة أركويت (١٠٩٣ متراً) وسنكات (٨٧١ متراً) وتهاميم (٦٤٧ متراً) وتلجوارب (٥٣٩ متراً) ، وكلها متقاربة .

أما البلاد الساحلية أو شبه الساحلية ، فيمثلها عقيق فى أقصى الجنوب ، ثم طوكر (إلى الداخل قليلا) وسواكن ، وبور سودان ، ودنجوناب ، وعيذاب ، وبرنيس ، (وهما بلدتان بائدتان) .

يلى الجبال من الغرب انحدار فجائى أو تدريجى ، وهو على كل حال أسهل من الانحدار الشرقى نحو البحر الأحمر . ثم نصل بعد ذلك إلى منطقة أدنى إلى السهولة وتنحدر بالتدريج نحو نهر النيل ، وفى كثير من المواضع تختطها أودية قلما تجرى فيها المياه فى الوقت الحاضر ، مثل وادى العلاقى ورافده وادى قبقبة .

---

(١) بالقرب من موقع عيذاب القديم مرسى صغير يدعى مرسى حلايب .

وبعض الجهات فى هذا الجزء المنخفض لها أسماء اشتهرت بها ، مثل سهل البطانة بين النيل الأزرق والعطبرة ، وتمثله بلدة القضارف فى الجنوب وأبو دليق فى الوسط . ثم يليه من جهة الشمال صحراء العتمور والعتباى الممتدة إلى القطر المصرى .

وقد أثرت الجبال من غير شك فى سقوط الأمطار ؛ وبذلك أصبح لبلدة مثل دنجوناب Dongonab مطر يبلغ نحو ٤٠م ، وهى محاذية لوادى حلفا التى لا يسقط عليها مطر قط . وفى عقيق نحو ١٤٠م ، وفى كرورا ٢٨٣ م . وفى بور سودان ١١٠م ، وسواكن ١٨٠م .

أما الجهات المرتفعة مثل سنكات وتهاميم فطرها ١٣٤م ، ١١٣م على التوالى .

ومن الدراسات المناخية الممتعة فى هذا الإقليم مقارنة مواسم المطر ، إذ نرى أن بعضها صيفى وهو الواقع على مرتفعات تنحدر نحو الغرب ، والبعض شتوى ، وهو الواقع على المرتفعات التى تنحدر نحو الشرق ، والجهات الساحلية مطرها شتوى ، وإن شذت بعض الجهات لأسباب خاصة ، كما هى الحال فى سواكن وطوكر ، إذ ينالها بعض المطر الصيفى أيضاً ، ولعل هذا بسبب موقعها من الفجوة التى يجرى فيها خور بركة إذ تتسرب فى الصيف بعض التيارات الجنوبية عن هذا الطريق ، ومطر الصيف على كل حال أغزر من مطر الشتاء .

أما سهل البطانة فطره أغزر ، وفى الجنوب نرى القضارف . ومطرها يبلغ ٦٧٦م (ومطرها صيفى) وأبو دليق (٥٥ ١٥°) : ومطرها ٢٠٨م (أكثر من الخرطوم وهى على نفس خط العرض ومطرها ١٦٠م) .

ولهذه الأمطار أثر فى السهول مختلف عن أثرها فى الجبال ، لأن المطر فى المرتفعات ذات الحرارة المنخفضة أعظم أثراً وأطول . وما يفقد بالتبخر منه أقل بكثير مما يفقد فى السهول . ولشدة قرب هذه المرتفعات من البحر

الأحمر . يغشاها زمناً طويلا غطاء كثيف من الضباب والندى . له أثر كبير فى غزارة الحياة النباتية ، بل لعله السبب الأكبر فيما تمتاز به تلك المرتفعات من وفرة النبات ، وفرة لا يبررها مقدار ما يتساقط عليها من الأمطار . أما الإقليم الجنوبى ، فى مثل كسلا والقضارف على حدود أرتيريا ، فإنه يمتاز بمطر أغزر من الأقطار التى تحاذيه على نهر النيل .

وهكذا نرى فى مواطن البجه تنوعاً ملحوظاً فى التضاريس والمناخ والنبات وإذا كانت تغلب عليها قلة المطر عامة . والطبيعة الصحراوية تسودها فى الشمال ، فإنها لا تخلو من جهات يغزر نباتها فى بعض فصول السنة ، ويتنوع فيها سقوط المطر بين الصيف والشتاء ، هذا عدا الأنهار التى تجرى المياه فى بعض أجزاء منها مثل خور بركة وخور الجاش ، والأنهار التى تجرى بالقرب منها مثل العطبرة .

فالبيئة قاسية فى جملتها ، ولكنها أقل قسوة مما يتوهمه الإنسان لأول وهلة .

ومع التسليم بأن النصف الشمالى شديد الجدب ، لكن يخفف من جدبه انتشار الآبار فى مختلف أنحائه ، وإن كانت المسافات بين الآبار تزداد كلما اتجهنا شمالا أو غرباً . ولذلك كان امتلاك الآبار من أهم العناصر فى حياة البجه الشماليين .

فى هذه البيئة ، إذن ، تعيش جماعات البجه ، منذ عصور طويلة ، وقد نظموا حياتهم على المنوال الذى تفرضه خصائصها الطبيعية ، فأصبحوا جزءاً لا يتجزأ منها .

وينقسم البجه إلى أقسام أربعة رئيسية ، ويصح أن نطلق على كل قسم منها اسم قبيلة ، لأن بين أفراده عصبية ، ولكل منها زعيم (ناظر) : وهذه الأقسام هى البشاريون فى الشمال ، فى تلك البيئة الجبلية الصخرية القليلة الماء والكلأ ؛ كما يحتلون معظم الإقليم المسمى صحراء العتباى .

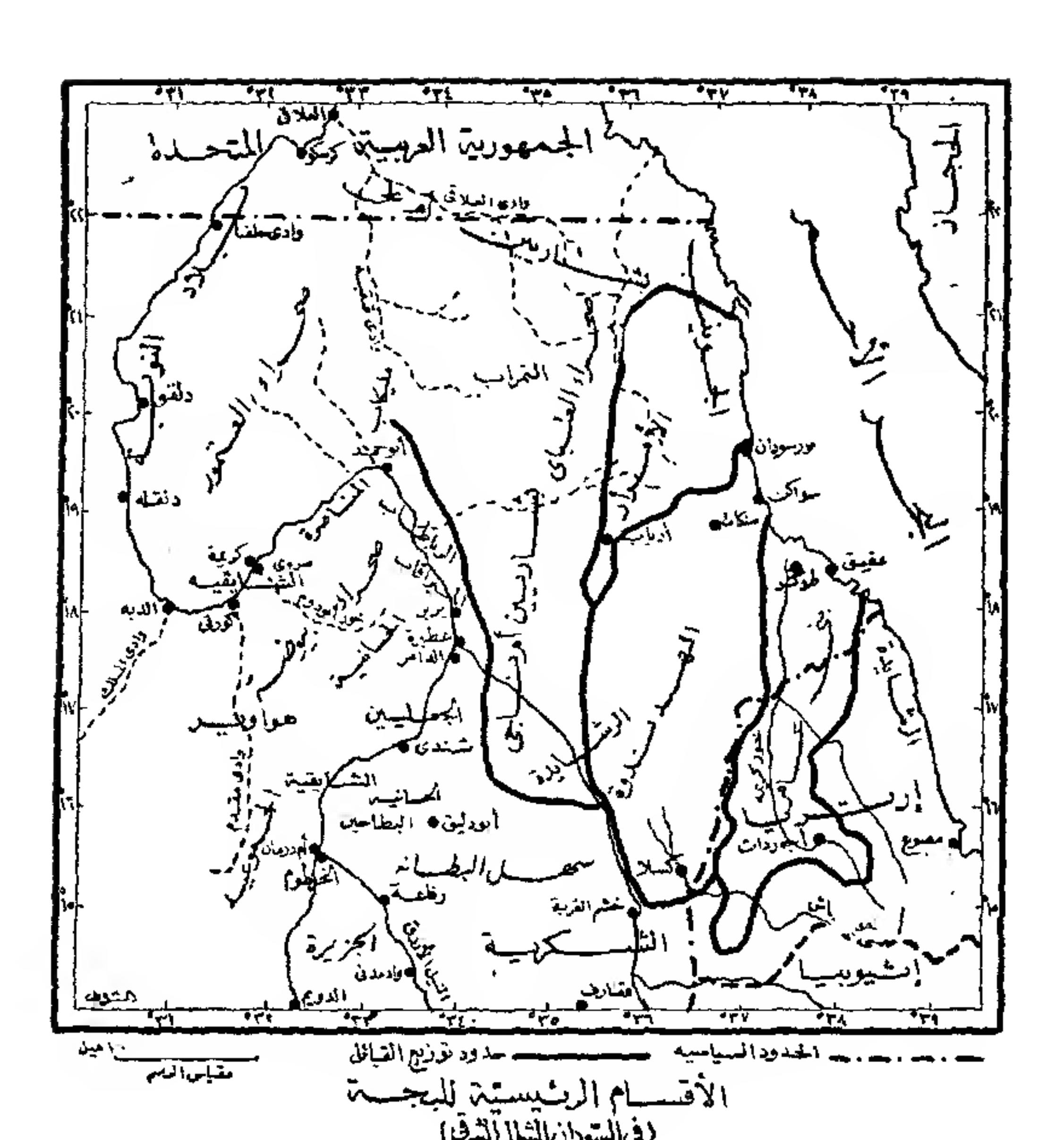
يليهم من الجنوب الأمَرْأرُ ، يمتدون بانحراف فى اتجاه من الجنوب الغربى فى مسمار على الخط الحديدى ، إلى الشمال الشرقى ، فى اتجاه بور سودان .

ويليهم جنوباً الهدندوه ، وهم أكثر البجه فى السودان عدداً ، ويمتدون من سواكن إلى سنار ، وفى الأرض المجاورة للخط الحديدى الممتد بين البلدين ، وبذلك أصبحوا يحتلون دلتا الجاش ، ويعيشون على شواطئ العطبرة المجاورة لهم على خط عرض ١٥° ، وأخيراً نجد إلى الجنوب الشرقى جماعة بنى عامر ، ويمتدون من طوكر شمالا إلى داخل حدود إرترية فى الجنوب .

وهنالك جماعات أخرى من البجه ، أو قبائل صغيرة ، مثل الأشراف والأرتيقا والكميلاب ، والحالنقا وغيرهم . بعضهم يدور فى فلك القبائل الكبيرة ، ويرتبط بها . ولكن أكثرهم يدعى الاستقلال ويحاول أن يثبت ما له من الأهمية والخطر ويحدثنا عن أبطاله القدماء ، وما كان لقبيلتهم من علو الشأن وسمو المقام فى العصور الغابرة . . وليس فى دعواهم هذه وجه غرابة ، لأن نظام القبائل من طبعه عرضة للتقلب والتطور على مدى الأزمنة ، فيعلو شأن بعضها حيناً من الزمن ، بفضل أسرة قوية الشوكة ، كبيرة الثروة . ثم لا تلبث بعد ذلك أن يدركها الضعف بسبب الحروب أو الأمراض ، أو سوء القيادة ، فيضعف أمرها ، ويقل عددها ، وهذه الظاهرة واضحة فى تاريخ القبائل العربية نفسها فى جزيرة العرب ، ولا عجب إذا رأيناها لدى البجه أيضاً .

يتكلم البجه لغتهم الحامية ، وهى المسماة التبداوى (أو بداويت) ويستثنى من هذا معظم العشائر الجنوبية من بنى عامر ومن يجاورهم من الجماعات القليلة التى تتكلم لغة تجره (الخاصة) وهى لغة سامية منتشرة فى أرتريا وشمال بلاد الحبشة ، وإن كان بعضهم يتكلم اللغة التبداوية .

وأكثر البجه يعرف اللغة العربية إلى جانب معرفتهم لغة التبداوى أو تجره . ولكن العربية ليست لغتهم الأصلية ، على الرغم من أن بعضهم يحتفظ بشىء يسمونه « نسبة » وهى ورقة مكتوبة أو حديث محفوظ يرجع بهم إلى « قريش » فالدين الإسلامى المنتشر بينهم ، واللغة العربية ما هى إلا أثر من آثار النفوذ العربى الذى دخل فى عهد متأخر نسبياً إلى أوطانهم ، ويوشك أن



الأقسام الرئيسية للبجة
(في السودان الشمالي الشرقي)

(شكل ١٦)

يكون من المحقق أن هذا النفوذ العربى وصل إليهم من الشمال والشرق .

ويصف بعض الكتاب البجاوى بأنه جاف الطباع ، شديد النفور من الناس ، بل يذهب بعضهم إلى وصفه بالتوحش وإن لم يكن لهذه الكلمة مدلول صريح . غير أن الكتاب الإنجليز من موظفى حكومة السودان يخالفون هذا الرأى . والذى يطالع مقالاتهم يأنس منهم تحيزاً للقبائل البجاوية وبعض التحامل على العرب ، فيؤكد لنا مثلا مستر نيوبلد الفرق بين العربى والبجاوى بمقارنة يوازن فيها بين طباع كل من الفريقين فيقول : إن (الفزى) Fuzzy وهو وصف مشهور عند الإنجليز للبجه مشتق من طريقتهم فى تصفيف الشعر) عاش فى مرتفعات البحر الأحمر أربعين قرناً على الأقل ، أما العربى فإنه « دخيل » منذ العصور الوسطى وللبجه أخبار شفوية وأساطير أبطال ترجع بسيرهم إلى نحو ١٢٠٠ سنة على الأقل ، والعربى يحب التجمع والاختلاط ، وهو ثرثار بخلاف ما اشتهر عنه ، أما الفزى فيحب العزلة ، نفور من الناس ، قليل الكلام ، وليس كالعربى ، عبداً للتقاليد الاجتماعية الضيقة ، والتقاليد القبلية السائدة . وهو كثير التسامح والتساهل فى اتخاذ أصدقاء من الأجانب ، وفى التشكل بكل بيئة جديدة . وحبه للعزلة الذى يتوهم الناس خطأ أنه يرجع إلى طبع وحشى ، ليس فى الواقع وليد الخوف ، أو لإحساسه بأنه غريب عن سائر الناس ، بل هو خلق يرجع إلى طبيعة البيئة الجبلية ، التى لا تساعد على التجمع والاختلاط ، فهو ليس مبغضاً للغرباء والأجانب ، بل ألف العيش بنفسه ، فلا يجد لهم مكاناً فى دائرة حياته ، والبادية العربية تبعث على التجمع والمخالطة : حتى عند الوهابيين ، الذين اشتهروا ببساطة العيش ، نرى الأفراد تتجمع للحديث والغناء والسمر حول النار أو فناجيل القهوة العديدة التى يستوعبونها ، أما سكان البحر الأحمر — فيما عدا بنى عامر — فلا يميلون إلى إنشاء قرى أو مساكن مجتمعة فى ساحة كبيرة ؛ وبيوتهم المكونة من « البرش » ، أو الحصير الممدود على عيدان محنية ، يقوم كل منها بمفرده ، أو كل بيتين معاً ، أو ثلاثة ، على رأس بعض الأودية أو الأخوار ؛

ولا يكاد السائح المتجول أو الطائر المحلق فى السماء ، يستثير منهم نظرة أو التفاتة . . . هكذا يعيشون فى جيوب وزوايا وسط التلال أو الهضاب ، حيث لا يراهم العالم ، على غذاء من اللبن والحبوب ، وقليل من اللحم والسكر فى زمن الرخاء ؛ وعلى اللبن وحده تقريباً بينما تنتابهم الكوارث ، من الجراد أو الجدب أو الطاعون[1] » .

ومن الجائز بالطبع أن الحياة — قروناً عديدة — فى جوار هذه البيئة الجبلية قد علمت البجه أن المعيشة المنفردة فى أعالى الأودية لها أيضاً قيمتها من ناحية الدفاع سواء فى ذلك ما كان دفاعاً ضد أعداء من غير البجه ، أو من البجه أنفسهم ، ولا بد لنا أيضاً أن ندخل فى حسباننا ما طرأ على هذه البيئة من التغير منذ العصر المطير إلى وقتنا هذا ، فإن كثيراً من الأودية المتغلغلة فى الإقليم الصحراوى ، تدل على وفرة من الماء ليس لها اليوم وجود ، وقد اضطر السكان لتفضيل رءوس الأودية فى المرتفعات ، لأن الأمطار سرعان ما تصبح نادرة أو معدومة فى الجهات المنخفضة .

على أن حالة الانفراد والتشتت فى شعاب الجبال وثناياها ، وإن لم تزل قائمة ؛ قد تأثرت من غير شك تأثراً شديداً بالاتصال بالعمران ، وبالمشروعات الزراعية التى تمت فى طوكر ودلتا الجاش ، وفى نمو مدينة كسلا والقضارف ، وما يصحب ذلك النمو من اشتباك المصالح ، واحتشاد العناصر المختلفة . وقد استجاب البجه إلى هذه التطورات ، فأخذوا يتخذون قرى على ضفاف القنوات ، ويحتلون أحياء من بعض المدن . وأخذ كثير منهم يشتغل بالزراعة وفى مختلف الحرف . .

ومعظم المتنفعين بمشروعات الرى فى طوكر وكسلا هم من البجه ؛ ومع التسليم بأن مستواهم فى الإنتاج الزراعى ليس عالياً ، فإنه مع ذلك ليس

---

(١) راجع ص ١٤١ وما بعدها من كتاب
Hamilton. The Anglo-Egyptian Sudan from within

منحطاً ؛ ومما يثبت قابلية البجه للتشكل بالبيئة الجديدة أنهم استطاعوا أن يتحولوا من بدو رحّل إلى زراع مستقرين ، وأن يقبلوا على هذا العمل الجديد الذى لم يعرفوه ولم يألفوه .

المراحل التاريخية للبجة :

قدمنا أن البجه عريقون فى القدم ، فى أوطانهم الحالية ؛ ومن الجائز أنهم أول من سكن هذا الإقليم ، الذى يحتلونه اليوم ؛ فإن تشابه صفاتهم واطراد أشكالهم الطبيعية لا يدع مجالا للظن بأنهم قد دخلتهم عناصر أخرى ، اللهم إلا القليل جداً ، الذى جاء عن طريق بعض القوافل التجارية فى الأطراف الشمالية ، أو عن طريق الاتصال بالحبشة فى الأطراف الجنوبية . وقد مرت بهذا الإقليم وسكانه أدوار نستطيع أن نسردها على سبيل الاجتهاد ؛ وإن كانت تعوزنا بعض التفاصيل ، لأن الدراسات الأثرية لم تتسع بعد لكى تشمل هذه الأقطار النائية المنعزلة .

١ — فى العصر القديم السابق للتاريخ كان هذا الإقليم على الأرجح أغزر مطراً ونباتاً مما هو اليوم . وكانت طوائف من الحيوانات المختلفة تمرح فى أرجائه وجوانبه ، وفى سهوله ومرتفعاته . فكان الصيد متوفراً وفرة عظيمة . ولا شك أنه كان يشتمل على حيوانات مثل الزراف ، وقطعان من الوعول ، بل والفيلة أيضاً ، وغيرها من حيوانات الصيد ، مما لا يكاد يكون له أثر فيها اليوم . كانت البلاد جنة لمحترفى الصيد . ولا شك أن هذه كانت حرفة السكان فى ذلك الزمن البعيد .

٢ — ثم أخذت الأقاليم تحس الجفاف ، ويقل صيدها ونباتها تدريجياً . وقد ترتب على ذلك هجر بعض الجهات القليلة العشب ، التى أخذت تغلب عليها الطبيعة الصحراوية . والتجأ السكان بالتدريج إلى الجهات الأوفر ماء ، القريبة من المرتفعات أى فى النصف الشرقى من البلاد التى يحتلها البجه الآن . ولكن بقى لهم بعض الاتصال بالشمال عن طريق الأنهار ، وبعض المسالك

التي تخلفت فيها مياه فى صورة آبار ؛ أو فى الأودية مثل العلاق :

٣ – ولا شك أن هذه الحالة دامت طويلا ، وكانت فيها الجهات الصحراوية أقل سكاناً ، حتى مما هي عليه اليوم ، ثم جاء الدور الذى مر بجميع الجهات الصحراوية ، فى إفريقية ، حين أدخلت الإبل إلى هذه القارة للمرة الأولى . ونحن نعلم أن الإبل دخلت مصر فى العهد الفارسي ؛ وانتشرت بعد ذلك بالتدريج . . ولا بد أنها تسربت إلى الجنوب بسرعة . والروايات التي تروى عن بعثات قمبيز إلى الجنوب ، التي لم تصادف النصر دائماً ، إن صحت فإن بعض هذه الحملات قد أدخلت الإبل إلى الجنوب ؛ فى وقت كان البجه قد عرفوا كيف يربون الماشية وإن كانت ماشيتهم من أنواع أخرى . ولا بد أن البجه قد أدركوا ما للإبل من الفائدة ، فأقبلوا على تربيتها فى عناية فائقة . ولا ندرى حتى على وجه التقريب متى بدأ البجه يربون الإبل . ولكن براعتهم فيها اليوم تدل على أن عهدهم بها ليس حديثاً[1].

ومهما يكن من شيء ، فإننا نستطيع أن نرجح أن اقتناء الإبل كان بمثابة ثورة فى حياة البجه ، إذ مكنهم من استعمار الجهات البعيدة ، واجتياز المسافات الشاسعة ، ومنحهم وسيلة لتعمير أقطار كانوا هجروها من قبل ومصدراً جديداً للغذاء . فقد حدث – إذن – فى صحراء العتباى ، بصورة مصغرة ، ما حدث فى صحراء ليبيا والصحراء الكبرى بصورة أكبر .

٤ – وفى أثناء هذا كله اتصل البجه بسكان وادى النيل ، واقتبسوا من حضارتهم ، وتعلموا الزراعة واستئناس الحيوان . وكان من أهم مناطق الاتصال وادى العلاق وما يليه من جهة الجنوب ، حيث معدن الذهب المشتق من عروق الكوارتس .

---

(١) كانت لبلاد البجه صلات بالجزيرة العربية ترجع إلى زمن قديم جداً . ولكن ليس هنالك دليل على انتقال الإبل إلى بلادهم مباشرة عبر البحر فى ذلك الزمن البعيد . ولو أنها وصلت إليهم قبل العهد الفارسي لانتقلت منهم إلى مصر لما بين البلاد من الروابط القديمة . وقد وجدت بالصحراء الشرقية بعض آثار قديمة لبعض الإبل . ولكن هذه قد لا تعدو مثالا شاذاً لبعض الدواب الوحشية .

وقد أثبت سلجمان أن البجه والمصريين القدماء من سلالة واحدة ، أو سلالات متقاربة ، وعلى الأخص سكان مصر الجنوبية الذين لم تمتزج دماؤهم كثيراً بالمهاجرين من آسيا عن طريق برزخ السويس . وقد اعتمد سلجمان فى إثبات رأيه هذا على مقارنة الجماجم ، فوجد تشابهاً تاماً بين أشكال المصريين القدماء ، ومنهم بعض الملوك ، وبين أشكال البجه الذين يعيشون فى أوطانهم الحالية[1] فالشعبان من أصل واحد ، وإن كانت طبيعة البيئة قد سلكت بالمصريين طريقاً وأسلوباً فى الحياة ، وسلكت بالبجه طريقاً آخر . وانفصلت أوطان الفريقين فترة من الزمن إلى أن نشأت بينهما صلات لم يكن منها بد بحكم التجاور .

ولا يتسع المجال هنا لشرح المراحل المختلفة لاتساع الصلات بين الشمال والجنوب . وحسبنا أن نذكر أن الدولة القديمة لم تحاول أكثر من إرسال البعثات التجارية إلى الأقطار الجنوبية . ولكن الدولة الوسطى ذهبت إلى أبعد من هذا ، فأمعنت فى التوغل فى بلاد النوبة ، وتأسست دولة فى الجنوب تتصل بالشمال اتصالا سياسياً وثيقاً ، وامتد سلطان الدولة الجنوبية إلى أراضى النيل الأزرق ، وبذلك صارت جميع أوطان البجه مجاورة لهذه الدولة الواسعة الأرجاء ، ذات الثقافة المشتركة . فلم يكن بد من أن يسهم البجه فى بعض نواحى الثقافة المصرية ، ومنها الديانة التى ظلوا متمسكين بها إلى العهد المسيحى

ومع أن مسألة استخراج الذهب ، هى التى يرد ذكرها على الألسنة ، بوصفها العامل الأساسى فى الاتصال بين المصريين والبجه ، فإن تجاور الأوطان كان له أثر أكبر . وقد كان استخراج الذهب من مظاهر اتصال المصريين بالأقاليم الصحراوية الشرقيةوالتوغل فيها . لأن أهم المناجم واقع فى وادى العلاقى والجهات التى تليه جنوباً إلى الإقليم الذى تمتد فيه السكة الحديدية اليوم بين مسمار وسنكات ، وآثار هذه المناجم لا تزال قائمة إلى اليوم .

---

(١) راجع مقالة سلجمان فى مجلة J.R.A.I. لسنة ١٩١٣ .

٥ – وعنى البطالمة بالأقاليم الجنوبية أيضاً ، واهتموا باستنباط الذهب ، بعد أن تعطل فترة من الزمن بسبب الاحتلال الفارسى . ومن المعروف أيضاً أنهم كانوا يجلبون الفيلة من الجنوب لاستخدامها فى الحرب ، واستطاعوا أن يستألفوها ويروضوها ، مع أن الفيل الإفريقى لم يستأنس بواساطة الإفريقيين أنفسهم . وقد كانت لهم عناية بتجارة البحر الأحمر ، ولذلك أنشأوا على السواحل السودانية بعض الموانىء ، من أشهرها برنيس بالقرب من الحدود المصرية الحالية ، والعقيق Ptolomais Epitheras بالقرب من طوكر .

٦ – وهذه الموانئ ظلت قائمة فى العصر الرومانى ، ولكن أهميتها أخذت تنقص بالتدريج ، لأن الرومان لم يكن لهم مأرب فى مناجم الذهب أو الفيلة ، إذ كانت تجارتهم أوسع مدى وانتشاراً . فلم يكن البحر الأحمر بالنسبة لهم سوى طريق إلى المحيط الهندى . ومكنهم تقدم الملاحة من الاتجاه من مصر إلى جنوب البحر الأحمر رأساً ، ومنها إلى المحيط الهندى ، دون حاجة إلى التزام الشاطئ ، والمرور بكل مرفأ . ولم يكونوا حريصين على التجارة التى يجمعونها من موانئ السودان ، بل كان جل همهم غلات الهند . وكان اتصال الرومان بالبجه مقصوراً على الشماليين منهم الذين يعيشون فى مصر أو على تخوم مصر فى شمال السودان . وكانوا يطلقون على هؤلاء اسم البلميا . . Blemmye وإن كان هناك شك فى أن هؤلاء هم البجه أو جماعة أخرى .

فى ذلك العصر كانت دولة أكسوم فى شمال الهضبة الحبشية قد نمت وقويت شوكتها ، وأخذت تغير على البجه من جهة الجنوب ، وتدور بين الفريقين منازعات تثور حيناً وتهدأ أحياناً . وهناك لوحة ترجع إلى القرن الأول للميلاد ، كتب عليها ملك من ملوك أكسوم كتابة يزعم فيها أنه انتصر على البجه . وزحف على مصر ، ويقول نيوبولد إن هذه أول مرة فى التاريخ يذكر فيها البجه باسمهم المعروف اليوم ، والظاهر أن هذا الملك لم يذهب بعيداً فى زحفه نحو مصر . والأرجح أن انتصاره على البجه لم يكن نصراً دائماً ترتب عليه إخضاعهم لسلطانه فترة من الزمن ، بل مجرد غارات لا بد أن

تحدث بين دولة مستقرة ، وبين قبائل على حدودها لا تقبل الاستقرار أو الخضوع ، بل من دأبها هى أيضاً أن تثور وأن تغير .

وحكام مصر فى العهد الرومانى عانوا أيضاً بعض المشقة فى إخضاع البجه الشماليين ، لأن كل الدول المتحضرة تحاول دائماً أن تخضع القبائل الواقعة على حدودها ، وتسعى فى أن تفرض عليهم قيوداً تنافى مشاربهم فى الحياة ، ومما زاد الحالة تعقيداً أن المملكة الحبشية من جهة ومصر من جهة أخرى سادتهما الديانة المسيحية . بينما ظل البجه متمسكين بعبادة إيزيس ، التى اقتبسوها عن المصريين القدماء وظلوا إلى القرن السادس يقاومون كل محاولة لتحويلهم عن وثنيتهم .

٧ ـــ لم يكن بد من أن تنتصر المسيحية فى النهاية . ففى القرن السادس أخذت تنتشر بينهم تارة من الشمال عن طريق بلاد النوبة ، وتارة من الشرق عن طريق الموانئ ، التى يجتمع فيها البجه بطريقة سلمية مع الوافدين من مصر من التجار والعمال . ونستطيع أن نتصور أن جميع البجه الذين كانت لهم صلات مباشرة أو غير مباشرة مع مصر والنوبة والحبشة قد اعتنقوا المسيحية بالتدريج أما الذين يعيشون فى جهات منعزلة فظلوا على وثنيتهم .

٨ ـــ وفى القرن السابع بدأ ظهور الإسلام فى الشمال ، ثم أرسلت البعثات لفتح المناجم القديمة ، وقاوم البجه توغل الإسلام حيناً من الدهر . وتعود القصة سيرتها الأولى كما حدث فى ظهور المسيحية ، فالاختلاط فى الشمال وفى الموانئ أدى إلى التعارف ثم التزاوج . واستمر انتشار الإسلام فى القرن العاشر وما بعده حتى اعتنقه الجميع ، ومما ساعد على ذلك أن طريق الحج فى ذلك الوقت كان يصل إلى ميناء عيذاب ، فى آخر حدود مصر وأول حدود السودان . ومنها إلى جده ، ويقال إن سبب تفضيل عيذاب أنها بعيدة عن إغارات الصليبيين الذين نقلوا فى ذلك العهد سفنهم إلى البحر الأحمر : وقرب عيذاب من جده يجعلها موضعاً ملائماً لاختراق البحر الأحمر :

وقد اندثرت عيذاب بعد ذلك تماماً[1] وانتقل نشاطها إلى بلدة سواكن ، وهى أيضاً واقعة فى أرض البجه . ولكن لم يؤسسها البجه ؛ ونحن نجهل تاريخ تأسيسها ، ولعله يرجع إلى العهد الفرعونى أو البطلمى ، وإن كانت الروايات الحديثة تعزو تأسيسها إلى عرب الجنوب ، وعلى الأخص الحضارمة .

وقد اشترك فى تعمير سواكن عناصر عديدة غير البجه[2]، الذين لم يكن لهم فى تعميرها شأن يستحق الذكر . وأهم هذه العناصر العرب ، سواء من الشمال أو الجنوب . . ولذلك وصفت بأنها مدينة عربية أكثر مما هى بجاوية . ومنذ القرن الخامس عشر أخذت تؤمها السفن القادمة من المحيط الهندى ، من آن لآن ، وقصدها تجار من حضرموت ، واليمن ، والهند ، والصين ، والبرتغال . واستولى عليها العثمانيون فى سنة ١٥١٧ وأصبحت ملحقة بمصر . وازدهرت تجارتها وظلت تلعب دورها الخطير ، إلى أن قررت حكومة السودان أن تنشئ بور سودان فتحول إليها كل النشاط التجارى الذى امتازت به سواكن . وأصاب البلدة الأخيرة ركود لا يزال مخيماً عليها إلى اليوم .

وعلى الرغم من أن البجه ظلوا محتفظين بطابعهم فى العهد العربى : والكثير منهم الذين كانوا يعيشون فى الجبال والجهات البعيدة لم يخضعوا لأى نفوذ أجنبى . فإن رؤساءهم ، بل وكثيراً من عامتهم ، قد اتصلوا بالعرب وشاركوا الرؤساء ، على الأقل ، فى النشاط التجارى ؛ وتزوج كثير من التجار العرب بنساء من البجه وأقاموا بينهم ، حتى اندمجوا فيهم . ولم يكن بد من أن يتأثر البجه بالإسلام والثقافة العربية تأثراً شديداً . فلم يلبثوا أن أصبحوا جميعاً مسلمين لا يدينون بأى دين آخر . والكتاب الأوربيون مثل نيوبولد وسلجمان

---

(١) كانت الحملة التى أرسلها الظاهر بيبرس سنة ١٤٢٦ إلى عيذاب من أهم العوامل فى تخريبها . وقد دعاه إلى ذلك أن بعض رؤساء البجه استولوا على بضائع مرسلة إلى مكة .

(٢) لا بد لنا أن نذكر أن سواكن تتألف من جزيرة ملاصقة للساحل ومن البر المجاور لها والميناء الجزرية هى سواكن الحقيقية ، وهى التى لم يؤسسها البجه أما البلد المجاور لها على البر ، فقد عاش فيه البجه ، وهو جزء من أوطانهم .

لا يفتأون يذكرون أن الإسلام لدى البجه لم يؤثر فيهم تأثيراً عميقاً وأن بقايا الوثنية لا تزال شائعة بينهم ، مثل الختان الفرعونى للنساء ، وعادة دق الأجراس عندما يولد طفل . ولكن عادة دق الجرس وقت الولادة لها أثرها فى مصر أيضاً ، ووجود بقايا وثنية بعد اعتناق الإسلام أو المسيحية ظاهرة ليست مقصورة على البجه ، بل نجد لهذه الظاهرة أمثله فى مصر ، بل وفى أوربا نفسها بحيث لا يكاد يخلو منها قطر من الأقطار .

أما الثقافة العربية فقد تأثر بها البجه أيضاً ، كما تأثروا بالإسلام . فأصبح أكثرهم يعرف العربية معرفة تامة، وعلى الرغم من احتفاظهم بلغتهم «التبداوى» فإن هذه اللغة قد تسرب إليها قدر كبير من الألفاظ العربية ، كما أثرت العربية فى بعض الصيغ النحوية للغة التبداوية .

٩ ـ وهكذا تمت ـ بفضل هذه الأحداث التاريخية المتعاقبة ـ المراحل الأساسية فى تكوين البجه كما نعرفهم اليوم ، وفى تشكيلهم على الصورة التى نراها ، كما تم تقسيمهم إلى الأقسام الرئيسية التى سبق ذكرها . ومعظمها يرجع إلى وقت حديث . ما عدا الأمرأر الذين كانوا معروفين بهذا الاسم وقت اتصال البجه بالعرب فى القرن التاسع الميلادى . أما البشاريون والهدندوه ، فقد كان تكوينهم على الصورة التى نراها اليوم فى أوطانهم المعروفة إلى الآن حدثاً جديداً .

ولعل أكبر تطور فى العهد الحديث (أى منذ منتصف القرن الثامن عشر) هو ظهور البشاريين والهدندوه فى حالة الاتساع والسيطرة على الإقليم الذى يحتلونه اليوم ، قد انتشر البشاريون جنوباً حتى اخترقوا العطبرة واحتلوا الجزء الشمالى من سهل البطانة وجعلوا عاصمتهم أو مركز الرئاسة لهم فى بلدة بعلوك على العطبرة ، وبذلك أصبحت أوطانهم تمتد من خط العرض السادس عشر جنوباً إلى الثانى والعشرين شمالا . أى من سهل البطانة إلى تخوم مديرية أسوان والصحراء المحاذية لها من الشرق ، وهى مساحة تبلغ نحو ٥٠,٠٠٠ ميل مربع ويجاورهم من الجنوب العرب الشكرية ومن الشرق الهدندوه والأمرأر ه

وقد اتسع وطن الأمرأر أيضاً من الجهات الجبلية فى الشرق إلى السهول الواقعة شمال العطبرة ، أى إلى الوطن البشارى الحالى ، وعلى الرغم من بعض الاختلاط والتزاوج بين الفريقين ، قامت منازعات حول المراعى والمزارع فى هذا الإقليم بين الفريقين ، ولم يفصل نهائياً فى هذا النزاع إلى اليوم .

أما الهدندوه فكانوا قبيلة قليلة الخطر إلى منتصف القرن الثامن عشر . ولكن الحروب التى دارت بين مملكة الفنج والحبشة ، وأضعفت نفوذ الفنج فى الأقاليم الواقعة حول كسلا Taka وإلى شمالها ، قد أتاحت فرصة للهدندوه فأخذوا ينتشرون ويزداد نفوذهم حتى أصبحت أوطانهم تمتد إلى الأقطار التى يحتلونها اليوم . وأصبحوا أكبر قبائل البجه فى السودان . فى ذلك الوقت كانت دلتا الجاش منطقة مستنقعات وأعشاب وشجر ، تؤمها السباع ، وقد طهرت هذه الأراضى وزرعت بعد ذلك بمختلف المزروعات ما بين ١٨٤٠ ، ١٨٧٠ ومن بين مزروعاتها القطن .

وهذا الازدياد السريع فى عدد الهدندوه ، وفى خطرهم ، وبروزهم لأول مرة كأكبر مجموعات البجه ، لا بد أنه يرجع إلى تغلبهم على عدة وحدات صغيرة وإدماجها بعضها فى بعض وتزعمها بواساطة القبيلة الغالبة .

١٠ ــ ثم جاء عصر المهدية ؛ وقد كان الحكم المصرى قبله سهلا لينا ، لم يحاول الحكام أن يخضعوا البجه لحكم صارم دقيق ، ينافى ما ألفوه من الحرية ولذلك لم يقم من البجه لمعاونة المهدية سوى بعض الهدندوه بقيادة عثمان دجنة ، ولم تكن ثورتهم فى الغالب عطفاً على المهدى وأنصاره ، بل لأسباب أخرى ، ويزعم نيوبولد أنهم قدموا خدمات للجيش ونقلوا بإبلهم حملة ولوازمها عبر الصحراء ، ولم يكافأوا على ذلك المكافأة التى كانوا يرجونها . ولذلك ثار عثمان دجنة وأصحابه وناصروا المهدية فترة من الزمن ثم تخلوا عنهم بعد ذلك بالتدريج ، حتى قبل فتح السودان الأخير أما سائر القبائل : الأمرأر وبنى عامر والبشاريين ، فلم يشتركوا فى الثورة اشتراكاً يستحق الذكر .

الحياة الاجتماعية :

نظمت شئون البجه بعد عهد المهدية تنظيما تدريجياً . وجعل لكل قبيلة رئيس (ناظر) يتولى شئونها العامة ، ويكون حلقة الاتصال بين الحكومة وبين القبيلة . وإذا أحسن اختيار الناظر ، وكان رجلا محترماً من قبيلته ، ينتمى لأسرة سبق لها أن كانت ذات مركز ممتاز ، انقادت له القبيلة . وسارت الأمور على ما يرام . وقد تعلمت الحكومة بالتجربة أنه لن ينفعها أن تفرض على البجه أى ناظر تحبه ، ما لم يكن محبوباً من القبيلة ، معترفاً له بالسيادة . وقد أسندت النظارة الآن إلى أسربعينها ، وأصبح المنصب وراثياً تقريباً .

وليس من الممكن أن نحصى عدد البجه تماماً فى الوقت الحاضر ، ولكنا نستطيع أن نقدرهم تقديراً تقريبياً والأرقام الآتية المستقاة من نيوبولد وغيره تمثل لنا حالة هذه القبائل فى الوقت الحاضر على وجه التقريب ، واختلاف عددها يرجع غالباً إلى طبيعة البيئة . فالجهات الشمالية أقل سكاناً بوجه عام من الجنوبية ، حيث المطر أغزر ، ومشروعات الرى أتاحت مورداً جديداً للعيش .

فالبشاريون فى الشمال (أم على) يعيشون بين البحر الأحمر وأسوان . وعددهم يبلغ نحو ١٢,٠٠٠ نسمة ، لهم تجارة مع مصر فى الإبل التى يبيعونها لكى يشتروا حاجتهم من الحبوب وغيرها . وبعضهم يشتغل فى مناجم الذهب بوادى العلاقى ، ويدر عليهم ذلك بضعة آلاف من الجنيهات سنوياً .

أما بشاريو الجنوب (أم ناجى) فيتركزون حول العطبرة والجهات التى حوله وعددهم يقدر بثمانية آلاف نسمة ، وأرض البشاريين واسعة فسيحة تبلغ نحو ٥٠,٠٠٠ من الأميال المربعة . لكن تغلب عليها الطبيعة الصحراوية .

والأمرأر يعيشون فى مساحة تبلغ نحو ١٠,٠٠٠ ميل مربع ، بعضها فى الجبال وبعضها فى السهول . وأرضهم أكثر مطراً من أرض البشاريين ، وزراعتهم أكثر . منهم نحو ٣٠٠٠ نسمة يشتغلون ويعيشون بصفة دائمة فى

بور سودان ، وهم الذين يزودون المدينة وسكانها بحاجتهم من اللبن والسمن ، ويعملون فى الميناء .

أما سائر الأمرأر فيعيشون فى المرتفعات غربى بور سودان ، والمنحدرات التى تليها إلى الغرب ، وتمتد أوطانهم إلى العطبرة ، ويمارسون فى هذه المساحات حرفتى الرعى والزراعة . ويبلغ تعدادهم حسب تقدير ساندرز ٤٥,٠٠٠ يملكون نحو ٣٠,٠٠٠ رأس من الإبل ، وبضع مئات من البقر ، ونحو ١٢٠,٠٠٠ رأس من الضأن والماعز ، ولكن هذه الأرقام كلها تقريبية .

وهم ينقسمون إلى ١٢ قسما (بدنه) ونحو ثمانين عشيرة :

أما الهدندوه فعددهم الآن نحو ١٠٠,٠٠٠ أو أكثر ، ينقسمون إلى أربعين بدنه ، وعدد كبير من العشائر ، والشماليون منهم رعاة ، ولكن الجنوبيين يمارسون الزراعة فى الأودية الواقعة غرب سنكات ، وفى دلتا الجاش ، وقد أمكنهم أن يجنوا بعض المال من النقل بوساطة إبلهم ، وعلى الأخص قبل إنشاء سكة حديد كسلا . ولهم فوق ذلك بعض التجارة ، كما يستغلون نخيل الدوم ، وكذلك يبيعون السنا المكى ، والألبان والجلود ، والفحم النباتى والسمن ، والحصير المصنوع من ألياف النخيل .

أما بنو عامر فى السودان فلا يزيد عددهم على ٣٠,٠٠٠ نسمة . ولعل هذا العدد إذا أضيف إلى الشطر الآخر الذى يعيش فى أرتريا يبلغ ثلاثة أمثال هذا القدر أو أكثر قليلا ، وهم أهدأ عيشاً من سائر البجه ، ومواطنهم فى طوكر ، وحوض بركة مكنتهم من الانتفاع بمشروعات الرى :

هذه مقارنة موجزة لحالة البجه ، بأقسامهم المختلفة ، وإذا استثنينا الجماعات التى تعيش فى مدن ليست من صنعهم ، يمارسون صناعة وأعمالا تناسب بيئة خلقها غيرهم كالزراع فى طوكر وكسلا ، والعمال فى بور سودان (وفيما مضى سواكن) أو التجار المقيمين إلى جوار أسوان . نرى سائر البجه يعيشون جماعات صغيرة فى رءوس الأودية ، عيشة تغلب عليها الشدة ،

ولا عمل لهم إلا رعى ماشيتهم . ولا يعرفون القرى الكبيرة ، بل يعيشون عيشة العزلة ، فى بلاد يشتد حرها فى الصيف ، وبردها فى الشتاء . فى بيوت من الحصير (البرش) غذاؤهم اللبن ، وقليل من الحبوب . وبعض اللحم من آن لآن ، وفى سني الجدب يقاسون مرارة الحرمان .

هذه البيئة القاسية التى تتعرض لنوبات من الجدب والقحط فى بعض السنين كما حدث فى عام ١٩٤٩ ، قد صبغتهم بصبغتها القاسية ، وتمرسوا بها ، حتى أصبحوا جزءاً منها ، بعد أن عاشوا فيها آلاف السنين. فأصبحوا ولهم جلد كثير على تحمل الشدائد وشظف العيش ، يجتزئون بالقليل من الزاد إذا تيسر ، ويصبرون على الحرمان إذا جاءت سنوات الجهد والمشقة . ومظهرهم الطبيعى يتفق مع هذه الظروف القاسية .

القامة تمتاز بالنحول والرشاقة : متوسطة الارتفاع أو فوق المتوسط بقليل والبشرة سمراء تضرب إلى الحمرة ، تشتد سمرتها فى بعض الأحيان . والرأس مستطيل باطراد .

الشعر مموج أو مجعد قليلا . وإن بدا غير ذلك ، بسبب طريقتهم فى ترجيل الشعر وربطه على صورة خاصة . كأنه حزمة من الحطب أو الدريس . وإذا كان الشعر مجعداً جداً كان ذلك دليلا على الاختلاط ببعض العناصر الزنجية . وهذا قليل لدى البشاريين والأمرأر ، الذين وقتهم عزلتهم الطويلة من الاختلاط والامتزاج ، والنسبة الأنفية معتدلة أو متوسطة دائماً . وليس هنالك بروز فى الفك أو أى مظهر آخر للصفات الزنجية المعروفة . وقد سبقت الإشارة إلى ما يراه سلجمان من الشبه القريب بين البجه والمصريين القدماء .

والأمر الذى يلفت النظر فى البجه جميعاً على اختلاف قبائلهم وأوطانهم أنهم لا تصلهم بالبحر أدنى صلة ، فليست لهم سفن أو قوارب أو زوارق . ولا يعرفون حرفة الصيد البحرى . فيهملون بذلك مورداً للغذاء هم فى أشد الحاجة إليه . وعلى الرغم من أنهم يرعون إبلهم على ساحل طوله ٤٠٠ ميل ،

وقد تشرب إبلهم قليلا من ماء البحر أحياناً ، فإن البجه أنفسهم لا يلقون إلى البحر بالا : وقد طافت بالسواحل جماعات عربية ، واشتغل بعضها بصيد اللؤلؤ فى دنجو ناب وغيرها من الجهات . غير أن البجه لم يتعلموا شيئاً من ذلك . وموانئهم العديدة أنشأتها شعوب غير البجه . وعلى كثرة السفن والنشاط البحرى بوساطة المصريين والبطالمة والعرب اليمنيين والحضارمة والهنود والصين ، فإن البجه لم يكترثوا لشيء من هذه الأعمال البحرية . ولم يحاولوا أن يتعلموا صنعة من الصناعات العديدة التى تتصل بالنشاط البحرى .

وفيما يلى أوصاف لحياة البجه الشماليين ، وتنطبق فى جملتها على سائر البجه ، لاحظها مستر كلارك[1] الذى عاش فى بلادهم فترة من الزمن .

المسكن :

تقضى حياة البداوة بأن يكون المسكن خفيفاً ، يسهل نقله وبناؤه . ولذلك نرى فى جميع مواطن البجه الشماليين ، أن البيت السائد هو البدجاو Bidigau أو البرش المصنوع من الحصير ، وإقامة المنزل وتقويضه من عمل النساء ، وليس للرجال تدخل فى ذلك ، بل يعد من غير اللائق بالرجل أن يقوم بهذا العمل ، اللهم إلا إذا كان المنزل لضيف أو لرجل مريض ، حيث لا ينبغى للنساء أن يظهرن .

وهذا المنزل يتألف كله تقريباً من الحصير . والسقف المصنوع من هذه المادة ، يتألف من طبقة واحدة أو طبقتين ، طبقة داخلية ، من الحصير الدقيق الصنع ، والخارجية وهى من حصير أغلظ وأسمك ؛ وينصب هذا السقف مفرداً أو مزدوجاً على أعواد منحنية فى الطرفين . وفتحة المنزل أو بابه من الجانب الشرقى فى العادة ، ولكن قد تكون من جهات أخرى .

وجوانب المنزل ليست كلها من الحصير ، بل تغطى أجزاء منها من الداخل أكسية من الصوف (كل كساء يسمى شملة والأمامى منها الشرقى)

---

(١) فى Sudan Notes and Records مجلد ٢١ (لسنة ١٩٣٨) الجزء الأول .

من الصوف الرمادى ، والخلفى أسود اللون ، وتصنع هذه الشملات من صوف الغنم أو شعر الماعز .

والأثاث بالطبع غاية فى البساطة ، فالفراش أيضاً من الحصير الدقيق ، ومن تحته الحصير الغليظ وفى المنزل أيضاً أدوات القهوة ، وبعض القدور ، وأوعية من الجلد أو الخوص أو اليقطين لحفظ الماء واللبن ، وغير ذلك .

وفى وقت الظعن تكون الأكواخ صغيرة منخفضة ، وفى الإقامة الطويلة تكون أكبر وأعلى ، لا ينفذ منها ماء المطر ، وهى من هذه الناحية تفضل بيوت الشعر التى للأعراب . ولا نجد عند البجه اليوم تلك البيوت من الأدم التى أشار إليها المقريزى ، ولعله كان واهماً .

الختان :

عند البجه ، كما هى الحال عند العرب والنوبة ، الختان شائع للأولاد والبنات ، وهى فى الأولاد عملية سهلة يسيرة لا تكاد تختلف عما يحدث فى مصر . ومن الجائز أن تعمل والطفل فى حوله الأول أو الثانى ، ويطهر مكان العملية بالشحم الساخن .

أما ختان الفتاة فعملية قاسية ، فى معظم الأحيان . فهنالك نوعان أو طريقتان : الأولى وهى طريقة الختان السنى ، وهى لا تختلف عما يحدث فى مصر . والطريقة الثانية ، التى تدعى الختان الفرعونى . وهى توشك أن تكون عملية جراحية ، تعمل عادة فى الحول السادس إلى الثامن ؛ وتقطع فيها الأشفار العليا من الفرج وجزء من الأشفار السفلى ، وقد وصفها الأستاذ سلجمان وصفاً مستفيضاً ، وقد أكدها أيضاً المقريزى إذ يقول : « وأما النساء فمقطوع أشفار فروجهن ، وأنه يلتحم حتى يشق عنه للمتزوج . . . . »[1].

---

(١) راجع الجزء الأول من الخطط ، طبع مصر سنة ١٣٢٤ هـ ص ٣١٥ ؛ وهذا النوع من الختان منتشر عند بعض القبائل الأخرى من غير البجه ؛ ونسبته إلى الفراعنة ليس لها سند تاريخى معروف .

المراهقة :

عندما يكبر الغلام عند البجه بحيث يستطيع أن يرعى بعض الغنم ، يعطى خنجراً ، فإذا بلغ ١٤ أو ١٥ سنة أعطى سيفاً ودرقة ، اعترافاً ببلوغه مرتبة الرجولة . والظاهر أنه ليس هنالك حفلات مشتركة كبيرة يجتمع فيها الصبية معاً عندما يبلغون هذه المرحلة من العمر كما يحدث لدى القبائل الجنوبية من النيليين وأنصاف الحاميين ، كذلك ليس هنالك نظام لتصنيف المجتمع طبقات بحسب السن .

مركز المرأة :

من المعروف أن المرأة عند كثير من القبائل الحامية تتمتع بمركز ممتاز . وهذه الحالة قد لاحظها ابن بطوطة لدى الطوارق فى الصحراء الغربية ، كما لاحظها الكثير عند الحاميين الشرقيين . وعادة الميراث التى تقضى بأن يرث الرجل ابن أخته ، هى بعض مظاهر أهمية المرأة . والفتى يعلو شأنه بعلو شأن خاله ، وفى أهمية الخال فى الأحاديث والقصص والأغانى عند كثير من الشعوب السامية والحامية ، ما يدل على أن عادة الاعتزاز بالأخت وأولادها عادة قديمة عند كثير من الشعوب ؛ وعلى الأخص الشعوب الحامية . . وحياة الصحراء بطبعها تعطى المرأة شأناً ومنزلة خاصة ، حين يغيب الرجل أياماً فى التجارة أو الغارة ، ولا بد للمرأة أن تنهض بكثير من الأعمال فى غيابه .

وسواء أكانت أهمية المرأة مما استلزمته طبيعة البيئة أم كانت عادة منتشرة لسبب آخر ؛ فلا شك أن المرأة عند البجه كان لها فيما مضى مكان ممتاز . ولكنها لم تصبح لها اليوم المنزلة الممتازة التى كانت لها من قبل ؛ وإن بقيت من ذلك بقية فى بعض النواحى الاجتماعية .

ويقول كلارك فى مقاله المذكور إن المرأة قلما تعاقب أو تلقى جزاء رادعاً إذا ارتكبت منكراً ، ويزعم أنه أراد مرة أن يوقع عقاباً صارماً بامرأة شابة كان سوء سلوكها سبباً فى تخاصم وشقاق وتضارب بين طائفتين من البشاريين :

فطلب تقديمها للمحاكمة الجنائية ، فاحتج أعيان البشاريين وطلبوا منه أن يسمح لهم بأن يعاقبوها عقاباً داخلياً . فسألهم ما نوع العقوبة التي يقترحونها ، فأجابوا أنهم سيقصون شعرها ، ويلزمونها أن تقوم بطحن الحبوب .

وعند البجه – وعلى الأخص البشاريين – لا تقوم المرأة بحلب الماشية ، وقلما تقوم برعيها . وهذه الحال تختلف عما هو سائد عند جيرانهم من العرب مثل الرشايدة ، الذين يشتدون فى معاملة النساء ، إذ يشترك نساؤهم فى أعمال الرعى وحلب الماشية ، وفى كثير من ضروب النشاط ، وقد تضرب المرأة عند الرشايدة ، ولكنها لا تضرب لدى البجه ، وإن كان ذلك لازماً لها فى بعض الأحيان عن جدارة واستحقاق .

وتنحصر أعمال المرأة عند البجه فى القيام ببعض الصناعات مثل عمل أوعية من الجلد وتحليتها بالودع ، ونسج الشملات من صوف الماعز أو الغنم أو وبر الإبل ، ويقمن بتزيين الرحال التى يجلسن عليها حين تنتقل بهن الإبل من مكان إلى آخر . وكذلك ينسجن الأسرة ، التى تصنع من الخوص ، وتربط بسيور من الجلد . وفى وقت « الخريف » أى موسم المطر يصنعن السمن من الألبان المتوافرة فى ذلك الوقت من السنة .

فيما مضى كانت للمرأة فى الميراث مكانة ملحوظة ، إذ كان الولد يرث خاله ، وقد كان لدخول البجه فى الإسلام أثر فى تغيير هذه العادة ، فأصبح الأبناء يرثون آباءهم . ولكن صحب هذا التحول حرمان النساء من الميراث تماماً . لأن المرأة إذا ورثت انتقل ما ترثه إلى قبيلة أخرى . وكان من أهم الأسباب فى تركيز الميراث فى ابن الأخت ، أن الأخت كانت متصلة بأخيها ، فيظل الإرث فى القبيلة أو العشيرة ولا يخرج منها . والظاهر أنهم يخشون من توريث البنت لئلا ينتقل إرثها إلى العشيرة الأخرى التى تتزوج منها .

الزواج :

وجوه الشبه كثيرة بين الزواج لدى البجه وعند القبائل العربية . وأبناء

العمومة أو الخؤولة مفضلون دائماً ، ولا يعطى الرجل ابنته لزوج غريب إلا بعد استئذان أقاربها الصالحين للزواج ، والصداق يحدده العرف السائد . وهو عند البشارين العلياب لا يقل عن ثلاث من الإبل ، وثلاث من الغنم ، جزء للأب وجزء للأم وجزء مساو للخال الأكبر . كذلك يقدم الخطيب هدايا مختلفة من الأقمشة والأسلحة وما إليها .

هذا بالطبع هو أقل صداق وتبعاً لمقام الزوجة والزوج يرتفع الصداق إلى الضعف أو إلى أكثر من الضعف . وتبدأ الخطبة عادة بأن يقدم الخطيب هدية من البن والسكر أو بعض الماعز . وهذه الأشياء ترد إليه إذا لم يكن طلبه مقبولا . فإذا تمت الخطبة ، يقدم الصداق الذى يقضى به العرف ، ويعطى للزوج والزوجة ناقة عشراء وتكون بداية عهد الزوجية .

وتقوم نساء الحي ببناء بيت الزوجية الجديد :

وبناء المنزل يشتمل على إعداد الأبراش والشملات اللازمة ، وتركيبها وتحليتها بالأصباغ والألوان برسم دوائر وخطوط عليها ، وفى النهاية يحلى مدخل المنزل بحلية تصنع من الألياف الصغيرة من نخيل الدوم ، وهذه تربط فوق المدخل ، ويعلق بها حبل على صورة مقود الناقة ، وخف صغير مما يلبسه الأطفال الذكور . والغرض من هذا جلب السعادة للزوجين ، بأن يولد لهما الأطفال الذكور ، والإبل الإناث ، وهذا بالطبع منتهى السعادة وأقصى ما يتمناه الزوجان . غير أن هذه التعويذة (التى تدعى سنكواب Sankwab) لا تعمل إلا لمن يتزوج للمرة الأولى .

ويجرى الطلاق عند البجه طبقاً للعرف السائد عند العرب ، ولكن لديهم عادة خاصة تدعى « التعليق » أى أن يطلق الرجل زوجته بشرط يفرضه عليها ، فإذا لم يستوف هذا الشرط لا يجوز لها الزواج من رجل آخر ، بل تظل معلقة . كأن يفرض عليها مثلا ألا تتزوج من رجل يشك فى أنه عشيقها ، وأنه هو السبب فى فسادة الزيجة الأولى .

احترام الحم والحماة .

يحترم الزوج حماه وحماته احتراماً شديداً يذكرنا بما هو سائد عند الدنكا ، بل لعله أقوى عند البجه منه عند أية جماعة أخرى . ويبلغ بالختن هذا الاحترام درجة تجعله لا يستطيع الجلوس فى حضرة الحم ، ويتجنب حماته كل الاجتناب

دق الطبول .

ومن عادة الأمرأر أن أقرب الناس إلى الميت يحرم على نفسه أن يجلس على فروة إذا ركب بعيره وذلك من مظاهر الحداد . فإذا كان الفقيد من الرؤساء أو من فى طبقتهم دق له الطبل مرة واحدة ، ثم لا يدق بعد ذلك عاماً كاملا ، ويطلق على الطبل اسم النحاس ، وهو الاسم الشائع فى السودان ، وذلك لأنه عادة يتكون من قاعدة كروية من النحاس شد عليها غطاء من الجلد ، ولا يدق الطبل عادة إلا فى ثلاث مناسبات : الأولى بعد وفاة فقيد عظيم ، والثانية للدعوة إلى الحرب ، والثالثة لحفلة عظيمة تهم القبيلة كلها . ولا يجوز مطلقاً أن يدق النحاس لسبب تافه ؛ لأن له تأثيراً شديداً فى نفوس الناس . ويتهيج له الجميع حتى الشيوخ الطاعنون فى السن . فلا يكاد الطبل يدق حتى تثور الحماسة فى القلوب وترهف الأعصاب ، وتجرد السيوف من أغمادها . ولكل قبيلة طريقة أو نغمة خاصة فى دق طبولها ، تميزها عن غيرها .

الحياة الاقتصادية

الزراعة .

ليس من المنتظر فى بيئة تغلب عليها الصفات الصحراوية فى معظم جهاتها أن يكون فيها للزراعة شأن كبير ، ومع ذلك هنالك جهات متفرقة أمكن أن تنشأ فيها حياة زراعية . وبقطع النظر من التطورات الحديثة التى جاءت نتيجة لتنظيم الثروة المائية المحدودة لكل من خور بركة ، واستخدامها فى رى نحو ٣٠,٠٠٠ من الأفدنة ، وفى خور الجاش لرى مقدار معادل ، وما ترتب على

ذلك من نمو الزراعة فى منطقتى طوكر وكسلا ، فإن البجه قد مارسوا الزراعة فى جهات متفرقة ، وعلى الأخص فى الجنوب ، وعلى ضفاف العطبرة ، وفى بعض الأودية والأخوار ، وفى سهل البطانة حيث يجود المطر من عام لعام ، وإن كان من عادته أن يخلف الظنون فى بعض السنوات .

والزراعة بوجه عام لا تمارس بحماسة وإخلاص ، شأن البجه فى ذلك شأن جميع الرعاة فى جميع الأقطار . ومن الجائز أنهم لم يكونوا يمارسونها مطلقاً ، أو كانوا يكلون أمرها إلى الخدم والعبيد . ويمكننا أن نقسم الزراعة بحسب أنواع الحقول إلى أربعة أقسام :

١ – فى الأقاليم الوسطى الشبيهة بالصحراوية بقع منعزلة ؛ إذا جادها الوسمى ، ألقى الزارع بالحب فى الأرض ، ثم يعود إليه بعد ثلاثة أشهر لعل الطبيعة أن تكون قد قامت بالواجب فأنبتت الزرع فاستغلظ فاستوى على سوقه . وهذه الزراعة وسط الفيافى ، كثيراً ما تتعرض لها الإبل السائمة ، فترى فيها مرعى شهياً خصباً فتلتهمها عن آخرها . فيصيح صاحبها ويضج بالشكوى مطالباً صاحب الإبل بغرامة كبيرة ، وهذا من أهم أسباب التقـــاضى .

٢ – على ضفاف نهر العطبرة ، يمكن للبجاوى إذا شاء أن يستفيد من فيضان النهر ، فينتظر ريثما يهبط الفيضان ، ويزرع الشواطئ والجزر ، كما يحدث على طول نهر النيل . غير أن هذا العمل يتطلب مجهوداً زراعياً خاصاً ، إذ لا بد له من تطهير الأرض من الأعشاب ، وإعدادها إعداداً خاصاً . ولا يقبل على بذل مثل هذا المجهود إلا من اعتاد الإقامة على شواطئ النهر زمناً طويلا ، كما هى الحال فى إقليم النوبة ، ولذلك يقوم البجاوى بواجباته الزراعية هنا فى شىء من التراخى .

٣ – لذلك نراه يؤثر الزراعة فى سهل البطانة نفسه ؛ وللشواطئ النهرية ميزة أنها لا تتوقف فيها الزراعة على المطر ، لأن الفيضان يدع التربة فى حالة من الرطوبة تمكن من زراعتها ، ولكن سهل البطانة له ميزاته أيضاً ، وهى

خصوبة التربة ، ووفرة المحصول لأقل مجهود يبذل ، بشرط أن يتوفر للزراعة مقدار — ولو معتدل — من المطر . والبشارى فى سهل البطانة متفائل دائماً ، وقد يهمل زراعة الأراضى الجزرية على شواطئ العطبرة ، أملا فى سقوط المطر وجنى محصول وافر فى سهل البطانة ، وقد يخيب ظنه فتفلت منه الزراعة فى الإقليمين معاً ، ويضيع عليه ما عساه أن يكون بذره من الحبوب . والسبب الأساسى ، الكامن وراء تفضيل السهل على الشواطئ هو بغض العمل اليدوى ، الذى يحتقره البدو عامة . وليس بمستغرب أن نجده لدى الأمرأر والبشاريين .

وتشبه الزراعة فى سهل البطانة ، زراعة الأقطار الجنوبية المتاخمة لحدود الحبشة ، حيث المطر أغزر وأوفر ، وسقوطه أقرب احتمالا ، ولذلك نرى أن حظ الهدندوه وبنى عامر من الزراعة أكثر من حظ سائر البجه :

٤ — والنوع الرابع من الزراعة ، هو ما يجرى فى دلتا بركة والجاش ، وهنا تعتمد الزراعة على الفيضان . وقد نظمت الزراعة هنا حديثاً تنظيما خاصاً ، وبدأت زراعة دلتا الجاش فى عهد محمد على ، ثم استمرت فى النمو والزيادة بعد ذلك . ويقول الأستاذ نيوبولد إن الهدندوه فى إقليم الجاش يقبلون على الزراعة إقبالا لا بأس به ؛ ولئن لم يكونوا زراعاً من الطراز الأول ، فإن ما يقومون به فعلا يعد تقدما عظيما بالنسبة إلى أعمالهم قبل ذلك . وفرق كبير بين شعب اعتاد الزراعة منذ آلاف السنين ، وبين قبائل بدوية لم تكن تقبل على الزراعة إلا عن كراهية واضطرار .

وأهم ما يزرعونه الحبوب ، وعلى الأخص الذرة الرفيعة . وفى الأقاليم الشمالية . حيث الزراعة قليلة والمحصول ضئيل ، نرى البشاريين وغيرهم مضطرين كل عام إلى شراء حاجاتهم من الحبوب للطعام ، ولكى تستخدم بمثابة التقاوى عند الزراعة . أما فى الجنوب فإن البجه قلما يحتاجون إلى شراء الحبوب للقوت أو للزراعة .

ويصف لنا كلارك بعض المراسم المتبعة فى الزراعة ؛ فيقول إن البجه يقربون قرباناً فى الحقل قبل بذر الحبوب ، فيذبحون عجلا أو جملا أو كبشاً

أو معزى ، تبعاً لمقدرة الزارع وسعة الأراضى التى يملكها ، وبعضهم ينصب هودجاً ، فتعدوحوله الرجال على ظهور الإبل ، والنساء تزغرد ؛ وبعضهم — ذوو النزعات الدينية — يلتزمون الصيام فترة من الزمن ، وآخرون يكثرون من الصلاة —صلاة الاستسقاء — والدعاء والتسبيح .

فإذا اقترب وقت الحصاد ، ضربوا لذلك موعداً لا يخلفونه ، وفى هذا العمل بالذات يبدى البجه نشاطاً كبيراً ، ويتسابقون أيهم يجنى غلته قبل صاحبه . ومن عادتهم أن من ينتهى من محصوله أولا يصيح بجاره : « الأرنب جاءتك » وهكذا حتى يبقى آخرهم وهو الذى وصلت إليه الأرنب ،فيضحك الآخرون منه وربما كانت هذه بقية عادة قديمة . . وهكذا نرى أن البجه — وإن تقاعسوا أو تكاسلوا فى أعمال الزراعة — يبدون نشاطاً هائلا وقت الحصــاد .

الرعى :

على الرغم من احتراف الزراعة ، وتعدد أنواع المزارع ، وضرورة الغلات الزراعية لاستكمال التغذية ، فإن الرعى هو الحرفة الأساسية لجميع البجه ، على اختلاف قبائلهم وأوطانهم ، وقد ازدادت ضروب النشاط الاقتصادى تعدداً وتنوعاً فى الأزمنة الحديثة ، وأصبحت تتناول البيع والشراء ، والتجارة فى مختلف مظاهرها ، وتتناول استغلال بعض الغلات الطبيعية ، كما تتناول العمل فى الموانئ وفى الخدمة العامة (الجيش وما إليه) ، ولكن هذه النواحى المختلفة لم تستطع أن تخفى الحقيقة الأساسية وهى أن البجه شعب من الرعاة ، وإن تعددت وجوه النشاط فيه وتنوعت . ومن الممكن أن نتصور أنهم جاء عليهم حين من الدهر لم يكونوا يحترفون حرفة أخرى ، بل كان جل اهتمامهم ونظام حياتهم مركزاً حول القطعان والعناية بها والدفاع عنها فإذا ثار نزاع حول أرض ، فذلك لأنها مرعى لماشيتهم أو فيها آبار لسقاية دوابهم ، وإذا أغاروا على جيرانهم فإن أهم أسباب الخصام الحصول على قطيع

أو الثأر لعدوان على قطيع ، وإذا كانت الروح الحربية هي الخلق الذي يجب أن يربى فى كل فرد ، فذلك لأن حياة الرعى تتطلب التأهب الدائم للذود عن القطيع ، ورد العدوان عنه . والطمع والجشع ، لا يتخذ إلا صورة واحدة ، وهى الرغبة فى الاستئثار بأكبر عدد ممكن من الإبل . فالحياة كلها مركزة حول شيء واحد ، وإن ظهرت فى مظاهر مختلفة .

ومن المرجح أن البجه قد عرفوا الزراعة والزراع زمناً طويلا ، دون أن يمارسوا تلك الحرفة أو يقلدوا من يحترفها . ولا شك أنهم منذ زمن طويل جداً ، عرفوا فائدة الغلات الزراعية ، وعلى الأخص الحبوب ، وحصلوا عليها واستخدموها فى غذائهم ، دون أن يفكروا فى استنباطها بأنفسهم ، وحسبهم أنهم كانوا يحصلون عليها بإحدى وسيلتين : إما بالإغارة ، إذا كان الزراع – كما هى الحال فى كثير من الأحيان – جماعات مستضعفة ، متفرقة ليس بينها تضامن وتعاون ، ولا نظام دفاعى يمكنها من الذود عن أرضها ؛ وإما بالبيع والشراء ، بأن يعطوا ما يفضل عن حاجتهم من الماشية ويحصلوا فى نظيرها على حاجتهم من التمر أو الحبوب .

ظل البجه حيناً من الدهر يحصلون على حاجتهم من غلات الزراعة بإحدى هاتين الوسيلتين ، ولا تزال المبادلة عنصراً هاماً إلى اليوم فى حياتهم ، تمكنهم – وعلى الأخص سكان الشمال – من الحصول على جزء غير قليل من قوتهم الضرورى .

ولا نعرف على وجه التحقيق متى ولا كيف أخذ البجه يمارسون الزراعة ، مقلدين جيرانهم ، من المستقرين ، الملازمين لحقولهم ومزارعهم ، ولكن ظاهر الأمر يدل على أن ممارسة البجه للزراعة ليست بالأمر القديم ، المعرق فى القدم ، لأن تقاليدهم وشعائرهم ومختلف عاداتهم ، كلها تشير بأن مجتمعهم موطد الأسس فى حياة الرعى . فالدية تدفع بالإبل ، وكذلك المهر ، وفى جميع مظاهر الحياة الاجتماعية الأساسية ، نرى الإبل وسائر أنواع القطعان تحتل مكاناً هاماً ، فنحن إذن أمام مجتمع قد تطور فى العصور الحديثة بعض

التطور ، ودخلته ألوان مختلفة من النشاط الاقتصادى ، ولكن أركانه الأساسية لا يزال قوامها الرعى والعنصر المهيمن عليها تلك القطعان الضخمة من الإبل والغنم والماعز .

والإبل بالطبع هى أهم هذه الحيوانات ، وأعلاها شأناً ؛ وليست القطعان الأخرى سوى أجزاء متممة للثروة الحيوانية . ولا وجه للمقارنة بينها وبين الإبل فى الأهمية . والقبيلة التى تنقص إبلها أو تبيد تتعرض لكارثة محققة ، ولن تلبث زمناً طويلا حتى تذهب ريحها ، ويضطرب كيانها ، ولا بد لها بعد ذلك من أن تندمج فى قبيلة أخرى أو تتعرض لفناء محقق .

والأرجح أن الإبل لم تأت إلى البجه عن طريق البحر الأحمر مباشرة ، فإن الاتصال بين جانبى البحر فى هذه المنطقة لم يكن ميسوراً فى الأزمنة المتقدمة ، وأكبر الظن أن انتشار الإبل كان من الشمال إلى الجنوب ، أى أنها وصلت إلى بلاد البجه بعد أن وصلت إلى القطر المصرى وبعد انتشارها فى صحراء مصر ، فى عهود البطالسة والرومان .

وأيا كان الوقت الذى تعلم فيه البجه اقتناء الإبل — إلى جانب ما كان لديهم من الماشية قبل ذلك — فإن إدخال الإبل إلى بلادهم صادف تربة خصبة ، إذا صح هذا التعبير ، لانتشارها ورعايتها . وقد كان البجه بلا شك رعاة بارعين قبل أن تدخل الإبل ديارهم ، فلما أخذوا فى اقتنائها لم يلبثوا أن ألفوها ، وأبدوا فى تربيتها براعة فائقة لا تقل عما أبدته أى قبيلة عربية ، اشتهرت بتربية الإبل . ومن الجائز بالطبع أن البجه قد عرفوا بعض القواعد الأساسية لتربية الإبل من الجماعة أو الجماعات التى أخذوا عنها هذا النوع الجديد من الحيوان . لكن لا شك أنهم زادوا كثيراً على ما تعلموه ، وتخصصوا فى تربيتها على طريقتهم وأساليبهم ، وبذلك اختلفت طرقهم عما هو متبع لدى الكبابيش مثلا ، ولدى غيرهم من القبائل ذات الإبل التى تعيش فى الجانب الغربى من النيل .

لم يلبث البجه بعد أن اقتنوا الإبل أن أدركوا الصفات الأساسية التى تميز

بعضها عن بعض ، وأن الوراثة عنصر هام فى تربيتها ، وفى تأكيد بعض صفاتها الممتازة . وهنالك بالطبع صفتان أساسيتان : السرعة من جهة ، والمقدرة على حمل الأثقال ، وأن كلتا هاتين الصفتين لا بد من توافرهما . وكان من الجائز أن تتجه تربية الإبل نحو الجمع بين هاتين الصفتين ، بأن تكون الإبل ذات سرعة معقولة ، وفى الوقت نفسه تستطيع أن تحمل أكبر مقدار ممكن من الزاد والمتاع . غير أن نظرية البجه فى تربية الإبل ، جعلتهم يدركون أن الجمع بين هاتين الصفتين على الوجه الأكمل يوشك أن يكون مستحيلا ، لأن إبل الحمل ، يجب أن تكون قوية العضلات ، ضخمة السنام ، وبالجملة ثقيلة الوزن إلى درجة بعيدة ؛ بينما الهجن السريعة العدو يجب أن تكون خفيفة ، قليلة الشحم ؛ حتى تكون سريعة الحركة إلى أبعد مدى .

لذلك نرى البجهقد اتجهوا فى تربية الإبل وجهتين : الأولى تربية الإبل السريعة جداً ، والأخرى تربية الإبل القوية الثقيلة التى تحمل أمتعتهم إذا انتقلوا من مكان لآخر . فأخذوا يربون إبلهم بدقة وعناية حتى يصلوا ، بطريق التوريث ومراقبة التناسل، إلى استنباط هذه الصفات . وبذلك انقسمت الإبل لديهم إلى هذين النوعين .

والإبل السريعة عند البجه تلقى عناية خاصة ، لعلها أعظم مما يبذل من العناية فى تنشئة النوع الآخر . وتبدأ العناية بها بمراقبة النسل ، فلا يسمح للناقة السريعة أن تنسل إلا من بكر سريع . وكل فصيل يولد تكون شجرة نسبه معروفة ومحفوظة والعناية التى تبدأ باختيار الوالدين ، تستمر بعد الولادة ، فى جميع المراحل ، إذ لا بد من تدريب الفصيل فى السنوات الأربع الأولى من عمره ، وإلا تعذر أو استحال تدريبه بعد ذلك . ومتى تم تدريبه أصبح صالحاً للركوب ولقطع المسافات البعيدة فى سرعة قد تبلغ أحياناً سرعة الخيل . واشتهرت الهجن البجاوية بذلك فى مصر والسودان ، وتحرص الحكومتان على اقتنائها لجميع الأعمال التى تتصل بمراقبة الحدود ، وكانت فيما مضى لها مكان فى نظام الجيوش . ولا شك أن الدافع الأكبر الذى حدا بالبجه إلى العناية

بالسرعة ، هو ما لها من الشأن الأكبر فى الحرب وفى الكر والفر ، وفى الانقضاض الفجائى على العدو . فهى تقوم بالدور الذى تقتنى له الخيل فى البلاد العربية . وليس من السهل على البجه أن يربوا الخيل فى أوطانهم التى لا يتوافر فيها العشب إلا فى جهات متباعدة . والقبائل العربية التى تقتنى الخيل تضطر لأن تخصص لها عدداً من الإبل لتحمل القوت اللازم لها ، فى أثناء قطع المسافات البعيدة فى الصحراء ، ولا شك أن فى هذا تعطيلا لعدد كبير من الماشية ، وإذا أمكن أن تعمل الإبل عمل الخيل ، فإن هذا أوفق لبيئة البادية .

وهذه الإبل — عدا ما اشتهرت به من السرعة — تعد مطية سهلة الركوب ، لا يحس راكبها نصباً ولا عناء ، ويستطيع أن يقطع المسافات البعيدة ويقضى على ظهرها الأيام الطوال دون مشقة ، لأنها عُودت منذ الصغر أن تمشى مشية مستوية سهلة ، فى خطاها السريعة أو المعتدلة . ونظراً لطبيعة البيئة التى تجمع بين المسالك الوعرة فى الجبال والفيافى الواسعة فى الصحراء ، اعتادت هذه الإبل أن تسلك الطرق الجبلية المنحدرة والممرات والثنايا الحجرية ، من غير مشقة ، وهى ثابتة الخطا ، لا يخشى عليها أن تزل بها الرجل أو تتعثر فى الأحجار والمنحدرات والشعاب الضيقة ، وهى ميزة قلما نجدها فى الخيل .

لا شك أن الإبل السريعة تحتل المكان الظاهر البراق من حياة البجه ، فالنشاط الحربى والرياضى والحفلات لها فيها المكان الواضح الممتاز . وهى أيضاً التى شكلت المجتمع ، بأن جعلته يجمع بين التفرق فى مختلف الأنحاء والأودية المنعزلة والتجمع السريع إذا كان هنالك حاجة للمّ شمل القبيلة وتجميعها لغرض من أغراض الحرب أو السلم . ولكن هذا يجب ألا ينسينا أن قوام الحياة الاقتصادية هو الإبل الأخرى ، التى تستخدم فى الحمل ، وهى التى تدر الألبان الغزيرة . وتساعد فى انتقال العشيرة من موطن إلى موطن . وهى العماد الأساسى للاقتصاد القومى ؛ وهى التى تستخدم فى نقل السلع والغلات الزراعية فوق حملها الأبراش للخيام والأمتعة والأوانى . وهى عماد النشاط التجارى ، يؤجرها البجه للنقل فى الصحراء للحكومتين المصرية والسودانية ، حيث

تنعدم وسائل النقل الأخرى . وقد تؤجر للأفراد أو للبعثات ، وهى بذلك تكون مورداً من أهم موارد الرزق . ولذلك لا تقل عناية البجه بها عن عنايتهم بالإبل السريعة التى تستخدم فى الذود عن القطعان ، وحماية الممتلكات .

فالعناية بالإبل إذن تشمل النوعين ، وإن كانت الهجن السريعة أقرب إلى قلوب البجه ، لأنها موضع افتخارهم ، ولأنهم يصطحبونها ، وتلازمهم فى أسفارهم ، ويركبونها حتى فى غير أوقات الانتقال من مرعى إلى مرعى ؛ وكثيراً ما يكون للرجل هجينه المفضل يعرفه باسمه ، ويصاحبه فى غدوه ورواحه . وبين الاثنين علاقة وصلة ، لا يتسنى وجودها بين الرجل وبين الإبل التى تحمل الأثقال .

على الرغم من هذا كله يعنى البجاوى بإبله كلها ، ويعرف طباعها وخصالها ، وهو طبيب بعللها وأمراضها ؛ ويسميها فى كل مرحلة من حياتها باسم خاص ، كما يفعل العرب تماماً . ولكل قبيلة علامة تكون على كل جمل أو ناقة ، وتعرف بالوسم ، يميز إبل كل قبيلة عن إبل القبائل الأخرى . وهى علامة واضحة لا يمكن إخفاؤها أو سترها . وقد تكون على العنق أو البطن أو أى جزء آخر من جسم البعير أو الناقة . وإلى جانب العلامة الأساسية الخاصة بالقبيلة ، تضيف كل جماعة أو أسرة علامة أخرى خاصة بها ، وكثيراً ما تكون هذه العلامة الإضافية هى لأسرة الأم إذا كانت الأم من قبيلة أو عشيرة أخرى ، وهذه بقية أخرى لنفوذ الأم بين البجه . وفى أثناء البيع والشراء والمبادلة تضاف علامات أخرى ، بحيث يمكن للخبير أن يطالع على جسد الجمل تاريخه فى صورة مصغرة ، ولو أن بعض البشاريين يكتفون بعدد صغير من العلامات : علامة فى أعلى الساق ، وأخرى على العنق تحت الرأس مباشرة .

ويعالج البجه إبلهم بطرقهم البدائية ، حيث لا تتوافر وسائل العلاج الحديثة . والكى من أهم الوسائل التى يلجأون إليها . وقد يستخدمون السكين فى استئصال كتلة مريضة من اللسان أو أى جزء آخر من الجسم .

ورعى الإبل فى بيئة كالتى يعيش فيها البجه تستدعى بالطبع كثيراً من التنقل ، فإن الإبل على الرغم مما اشتهر من قدرتها على أن تقطع أياماً وليالى من غير طعام أو ماء . ليس معنى هذا أنها قليلة الطعام والشراب بوجه عام . والصحيح أنها يلزمها الكثير من الغذاء ، وقسط وافر من الراحة فى المرعى ، قبل أن تشرع فى رحلة طويلة . وإذا كثرت الإبل فسرعان ما تستنفد المرعى القريب ، ولا بد أن تساق إلى مرعى آخر . فإذا استنفدت المراعى القريبة فى موطن من المواطن ، فلا بد من الانتقال بها إلى موطن يبعد عن الأول بعشرات الأميال . ومن الجائز للقبائل القليلة التى تعيش على حافة نهر كبير كالعطبرة أن تظل قريبة من مواطنها الأصلية ، حيث لا تعدم الماء والمرعى . ولكن القبائل التى تقيم فى جوار الجبال ، وهى الجهات التى كان لها فضل كبير فى تشكيل حياة البجه الاجتماعية والاقتصادية ، لا بد لهم أن يتحولوا عن موطن إلى آخر تبعاً لـما يقتضيه البحث عن المرعى .

وفى السهول الممتدة شمال العطبرة إلى القطر المصرى ، حيث يغلب الجفاف ، ويقل الماء الجارى أو ينعدم ، نرى الآبار بعيدة بعضها عن بعض ، وكثيراً ما كانت ملكية هذه الآبار مجالا للنزاع بين القبائل . ونظراً لقلة هذه الآبار نرى حولها زحاماً لا يكاد ينقطع ليلا أو نهاراً ، وعلى الأخص فى الليل . فلا تكاد تفرغ جماعة من رى ماشيتها ، وملء قربها ، والمضى فى سبيلها حتى تجىء جماعة أخرى . ولا ينقطع الغناء والنشيد فى أثناء هذا كله .

وإلى جانب الإبل يربى البجه قطعاناً كبيرة من الضأن والماعز . ويطلقون عليها اسم الماشية الدقيقة (الصغيرة الحجم) إذا قورنت إلى الماشية الجليلة وهى الإبل . والماعز كما هو معروف أكثر احتمالا لخشونة العيش من الضأن .

ويربى البجه ، إلى جانب الإبل والضأن والماعز ، قطعاناً من البقر . وهذه الثروة الحيوانية ليست مقصورة على قبيلة من القبائل ، بل يشترك الجميع فى تربية البقر ، وإن كان بعضهم أغنى من البعض . وبديهى أن تربية البقر

لا تتاح إلا لسكان الأقطار التي يتوافر فيها المرعى فترة طويلة من السنة ، ولا سبيل إلى اقتناء البقر بوساطة سكان العتمور أو العتباى ، أو الأقاليم الشمالية بصفة عامة . ولكن نظراً لأن أوطان البشارين قد اتسعت وامتدت إلى نهر العطبرة ، فإن هذه القبيلة أيضاً استطاعت أن تمتلك قطعاناً من البقر ، وإن كانت أقل بكثير مما يقتنيه الأمرأر أو الهدندوه أو بنو عامر ؛ أو القبائل الصغيرة من البجه مثل الحالنقا والأرتيقا . ولكنا مع ذلك لا نستطيع أن نسمى البجه رعاة بقر أو بقارة بالمعنى المعروف ، لأن البقر ليست هى الماشية الرئيسية لمعظمهم ، وأكثرهم لم يفكر فى اقتنائها إلا فى العهود الحديثة(١). والجماعات التى تملك قطعان البقر ، هى فى العادة نفس الجماعات التى تمارس الزراعة : وكثيراً ما ترى قطعانهم فى سهل البطانة ترعى العشب ، وهى تشتمل على مزيج من الإبل والضأن والماعز والبقر والحمير . وهكذا نرى أن ماشية البجه أكثر تجانساً فى الشمال ، حيث تغلب تربية الإبل ، ثم تزداد اختلاطاً وتنوعاً كلما اتجهنا إلى الجنوب . . . ولعل فى تنوع الثروة الحيوانية فى الجنوب ، ما يفسر لنا تفوق البشارين الشماليين فى تربية الإبل على جميع البجه .

وللبجه عادات خاصة تتصل باللبن وحلب الماشية ، منها أن الرجال كما ذكرنا من قبل هم الذين يحلبون الماشية ، وينكرون من الزبيدية والرشايدة (وهم عرب من اليمن حديثو الهجرة إلى السودان) أنهم يسمحون للنساء بحلب الماشية . ومنها أنهم لا يحلبون فى أوعية من الفخار ، وإن كان لدى كثير منهم أوعية فخارية . والوعاء المفضل لحلب الألبان هو اليقطين ذو القشرة السميكة ، أو أوعية الخوص ، وهى تصنع من الخوص الرفيع جداً . ويقول سلجمان إنهم ربما استخدموا قربة من الأدم لهذا الغرض أحياناً ، ولكن هذا نادر .

(١) يقول الأستاذ سلجمان فى مقاله The Hamitic Problem (مجلة JRAI سنة ١٩١٣ ص ٦٥٤ وما بعدها) إن بعض البجه يعدون البقر ماشية حقيرة ، وهذا القول ينطبق بوجه خاص على الأمرأر . وقد يتعداهم إلى غيرهم .

ومن عاداتهم أيضاً أن الرجل بعد الحلب لا يجوز له أن يذوق قطرة منه قبل أن يتناول منه شخص آخر جرعتين أو ثلاثاً . ومن أكبر الوصمات أن يرتكب رجل هذا الأمر المنكر ، مهما بلغ به الظمأ . وهم يصفون هــذا العمل المستهجن ، بقولهم : « فلان حلب وشرب »(١).

الصناعات :

حياة البداوة وكثرة التنقل لا تساعد على نشوء صناعات كثيرة ، فالصناعة مقصورة على الأشياء الضرورية . ومن الجائز أن تصنع أشياء قلائل لكى تباع فى أسواق بعض المدن للراغبين فى اقتنائها . والمادة الأولية بالطبع محدودة ، وأكثرها مشتق من النبات أو الحيوان . وأهم النبات نخيل الدوم ، وشجر السنط ، وأهم الغلات الحيوانية الشعر والصوف والوبر والجلود . والألبان بالطبع لصناعة السمن ، وليس هنالك مجال كبير لزيادة الإتقان والتفنن فى الصناعة ، إذا كانت الهمة متجهة إلى الفائدة العملية دون سواها . ومع ذلك فإن الطبع البشرى لا بد أن يكون له أثره ، ولذلك لا يخلو الأمر من بعض العناية بالتجميل .

ومن أهم أنواع النسيج ، صنع الشملات . وهى تصنع عادة من شعر الماعز ، وأحياناً من صوف الغنم ، ولكن أكثر ما يستخدم فيه الصوف هو لتجميل الشملات أو الأوعية الجلدية . وهذه الصناعة كما سبق ذكره من أخص عمل النساء .

وقد اشتهر بعض الأمرأر فى صناعة البرذعات والأكوار للإبل ، وجميع البجه يعترفون لهم بالبراعة فى هذه الصناعة . كما اشتهرت بعض العشائر البشارية بالمصنوعات الجلدية ، وبدبغ الجلود ، وبعض هذه المصنوعات قد تجد سبيلها إلى أسواق أسوان .

ويستخدمون فى الدباغة القرَد ، المشتق من شجر السنط ، فيقطعون

---

(١) سلجمان فى نفس المقال والموضع .

فروع الشجرة التي تحمل القرَد ويتركونها لتجف . ثم يتخذون أحواضاً من الطين ويملأونها بالماء ، ويجعلون فيها القرد بنسبة رطل من القرد لكل قربة من الماء وفي هذا المحلول يضعون الجلود ثلاثة أيام ، ثم يغيرون الماء . وهذه العملية تتكرر ثلاث مرات . تستخرج الجلود بعدها وتغسل بالماء مراراً . ثم تملأ بالطين وتعلق على الشجر لتجف ؛ وبعدأن يتم جفافها تؤخذ من الشجرة وينفض عنها التراب وتفصل وتخاط على شكل قرب . وتستخدم في حفظ الماء ونقله من مكان إلى مكان ، ويبقى أثر الدباغة في القربة فترة من الزمن ، ثم يزول بالاستعمال . ولا شك أن القرب المصنوعة على هذه الصورة من أحسن وأنسب الوسائل لحفظ الماء ونقله .

وإذا كانت الجلود تستخدم في صنع أوعية لحفظ السمن ، فإنها علاوة على عملية الدبغ ، لا بد لها من أن تعالج بوساطة نباتات أخرى تجعلها أشد اندماجاً ، بحيث لا ينفذ منها الدهن .

والبجه بوجه عام شعب لا تزال تغلب عليهم الصفة العسكرية ، والطبع الحربي الذي أملته البيئة والكفاح للمحافظة على النفس والمال . وشجاعتهم وقوة احتمالهم مضرب الأمثال . وعلى الرغم من أن حكم القانون أخذ ينتشر ؛ وقل النزاع بين القبائل ، غير أن هذه الروح لا تزال سائدة فيهم ، متغلغلة في نفوسهم . وسلاحهم الرئيسي هو السيف للهجوم ، والدرقة للدفاع ؛ وقلما يستخدمون الرمح . أو القسي والسهام ، ولكنهم يحملون في منطقتهم خنجراً منذ الحداثة ، ويظلون محتفظين به ، وليس هناك دليل على أن هذه الأسلحة ، باستثناء الدرقة ، هي من صنع أيديهم ، وليس في أوطانهم معدن الحديد . ولذلك لا بد لنا أن نقرر أنهم يشترون سيوفهم وخناجرهم عن طريق البيع والشراء . ويبذلون جهداً ملحوظاً في العناية بها ويحرصون على اقتناء أجودها وأحسنها ؛ ومن الجائز ، بل المرجح ، أن سلاحهم فيما مضى كان الرمح ، سلاح أهل الجنوب ، ولكن السيف جاءهم من الشمال ، أو من جزيرة العرب عن طريق البحر الأحمر ، فلم يلبثوا أن وضح لهم ميزة السيف على غيره من

ضروب الأسلحة . فأقبلوا على اقتنائه . وكثيراً ما يطلق الواحد منهم على سيفه اسماً خاصاً ، كعادة فرسان العرب . ويروون قصصاً عن بعض السيوف وحدّتها ، وكيف سقطت على الحجر ، فقطعتـــه من أعلاه إلى أسفله وهلم جرا :

وتظهر النزعة الحربية للبجه حتّى فى لهوهم ولعبهم . فيرقصون رقصاتهم الحربية على دقات الطبول ، وأناشيدهم وأغنياتهم تردد قصص أبطالهم . وإذا اجتمعوا فى المساء حول أكواخهم ، أو حول نار من حطب السنط ، أحاطوا برجل يضرب الرباب ، ويغنيهم الأناشيد الطويلة عن بطل من أبطالهم القدماء .

الفصل الثالث عشر

النوبيون

جاء ذكر النوبيين مراراً فى الفصول السابقة فى مناسبات عديدة ، وعلى الأخص عند الإشارة إلى مستعمراتهم فى مختلف أنحاء السودان ، غير أن الأوطان الرئيسية للنوبيين هى بالطبع تلك الأراضى الملاصقة لنهر النيل من شمالى أسوان إلى بلدة الدبة وكورتى ، يستقلون أحياناً بهذه الجهات النهرية لا يشاركهم فيها أحد ، ويجاورهم أحياناً — كما رأينا من قبل — جماعات عربية

فالنوبيون فى أوطانهم الأصلية شعب نهرى ، يلتزم وادى النيل التزاماً شديداً ، قل أن نجد له نظيراً فى أى جزء آخر من الوادى . وذلك لاشتغالهم بالزراعة من جهة ، ولأن الطبيعة الصحراوية للأقاليم المتاخمة للنهر شرقاً وغرباً ، أرغمت السكان على مضى القرون الطويلة أن تظل ملتزمة للنهر ، وللمساحات القليلة الصالحة للزراعة التى تحف به .

ولهذا الإقليم المستطيل الضيق مقدرة كبيرة على امتصاص العناصر الغريبة التى دخلته من آن لآن ، وعلى تمثيلها تمثيلا كاملا حتى تندمج اندماجاً تاماً فى سائر السكان ، وقد تلقى النوبيون على مدى آلاف السنين ألواناً من السلالات والجماعات ، نزلت ديارهم مهاجرة أو غازية ثم لم تلبث أن استولت عليها البلاد وأدمجتها فيها . وهذه الخاصية وإن كانت معروفة فى مصر ، فإنها أكثر ظهوراً فى الديار النوبية .

وليست هذه المساحة الطويلة التى يعيش فيها النوبيون ،مطردة فى مظاهرها الطبيعية ؛ فعلى الرغم من أنها تتفق فى أنها جزء من وادى النيل يقرب طوله

من الألف كيلو متر ، فإن طبيعة الوادى تختلف من مكان لآخر . فالإقليم الجنوبى من الدبة إلى أبو فاطمه وكرما ، يشتمل على واد سهل متسع ، يغطيه الفيضان ، فى كثير من أجزائه وفى ذلك ما يساعد على بعض المشروعات الزراعية ، والنهر هنا سهل الملاحة معتدل الجريان. وإلى الشمال من أبو فاطمه يبدأ ما يسمى الشلال الثالث ، وهو يكاد أن يتصل بالشلال الثانى ، فى مساحة تقرب من ٤٠٠ كيلو متر ، تكتنف النهر فيه سلاسل عديدة من الجنادل وتتعذر فيه الملاحة ، وتقل المساحات القابلة للزراعة قلة تذكرنا بإقليم المناصير ، وإلى الجنوب من وادى حلفا إلى جنوبى أسوان ، يعتدل مجرى النهر مرة أخرى ، وتكون الملاحة فيه سهلة ميسورة ، وهكذا نرى الأوطان النوبية النهرية تشتمل على ثلاثة أقاليم رئيسية ، إقليم سهل فى الجنوب ، وآخر فى الشمال ، يتوسطها إقليم وعر كثير الجنادل والعقبات .

والصحراء كما ذكرنا تحد الإقليم شرقاً وغرباً ، وتحصره فى نطاق ضيق جداً ، وهى صحراء وعرة ليس فيها ما يغرى سكان الوادى بالحركة أو الانتقال إليها ، فإذا ازدحم سكان الوادى بسبب النمو الطبيعى فلا مندوحة لهم عن التماس أسباب العيش فى الجهات الجنوبية أو الشمالية من الوادى ، متبعين مجرى النهر صعوداً أو هبوطاً ، ولكنهم ، مهما شطت بهم الديار ، يحنون دائماً إلى تلك الأوطان الضيقة المحدودة . ويودون أن يعودوا إليها متى استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، وإذا لم تفسدهم الحضارة فى البلاد التى ينزلونها بعيداً عن أوطانهم ، فإنهم يظلون محتفظين بطابعهم وطباعهم ، التى تمتاز بالبساطة والاقتصاد والهدوء ، والتعاون فيما بينهم ، والرعاية لأقاربهم فى أوطانهم الأصلية ، وكثير من القرى النوبية الفقيرة تعيش اليوم بفضل ما يصلها من المساعدات المادية من رجالها الذين يعملون فى مختلف الجهات فى مصر والسودان ويوشك ألا يكون لبعضها مورد آخر يستحق الذكر .

ولا بد لنا أن نقرر فى بدء هذا البحث ما نعنيه بالنوبيين ، فالنوبة شعب قديم ، عريق فى القدم . لازموا أوطانهم الحالية بضعة آلاف من السنين ،

وقد نزل العرب ديارهم وخالطوا السكان وصاهروهم ، فأضيف النسب العربى الجديد ، إلى النسب النوبى القديم . وقد سبق للنوبيين فى تاريخهم الطويل أن دخلت بلادهم عناصر مختلفة واندمجت فيهم . وظل النوبيون برغم ذلك متمسكين بثقافتهم وبلغتهم الخاصة ، مما يدل على أن الهجرات العربية لم تكن من القوة بحيث أزالت الثقافة النوبية . ولذلك رأينا أن معالجة موضوع السودان الشمالى معالجة علمية ، تقضى علينا أن نجعل من النوبة مجموعة مستقلة عن المجموعات الأخرى . لأن النسب العربى مشترك بين جميع أبناء الوادى ، ولكن لبعضهم مميزات انفرد بها وفى ذلك ما يبرر النظر إليهم كوحـــدة قائمة بذاتها :

* * *

والنوبة – بوصفهم شعباً يعيش فى أوطانه الحالية – لم يلق من العلماء ما يستحقه من الدراسة ، سواء من الناحية الإثنولوجية أو الاجتماعية . وذلك على الرغم من كثرة ما كتب عن بلاد النوبة فى الأزمنة القديمة وعن لغتهم وما لها من الاتصال بلغات تشبهها من قريب أو بعيد فى جهات أخرى من حوض النيل ؛ وعن الآثار التى اشتمل عليها هذا الإقليم الأوسط من نهر النيل ومقارنتها بالآثار فى نواح أخرى من الوادى ؛ وعن المقابر وما اشتملت عليه من العظام والجماجم . والمقارنة بينها وبين السلالات المعروفة فى الشمال والجنوب ، كتبت فى هذه الموضوعات وأمثالها الفصول الطوال(١)، أما

---

(١) نورد هنا بعض المراجع عن هذه الدراسات على سبيل المثال لا الحصر :

1) The Archaeological Survey of Nubia.

(نشرته مصلحة الآثار فى عدة مجلدات :

2) Seligmann : The Hamitic Problem. J.R.A.I., 1913.

3) Hillelson : Nubian Origins, S.N.R. Vol. XIII, pp. 137–148.

4) Kirwan : A Survey of Nubian Origins S.N.R. Vol. XX, p. 47.

5) G.W. Murray : English-Nubian Dictionary (1923).

6) Junker and Shafer : Nubische Texete.

وصف النوبيين فى الوقت الحاضر فكان دائماً يعالج فى بضعة أسطر لا تسمن ولا تغنى .

هذه البحوث القيمة والجهود العلمية الضخمة ، حاول أصحابها أن يكشفوا عن الأطوار المختلفة التى مرت ببلاد النوبة وعن أصل اللغة النوبية ، وهل هى تمثل لغة وطنية قديمة نشأت فى البلاد أو لغة دخيلة جاء بها عنصر دخيل فى عصر من العصور . وعن الصلة بين الثقافة النوبية فى الشمال وفى إقليم مروى فى الجنوب . ولا يستطيع منصف أن يزعم أن هذه المحاولات قد قربتنا من حل لواحدة من تلك المشكلات ، بل ليس من الإسراف فى شىء أن نقول إنها زادتها صعوبة وتعقيداً .

والذى يهمنا هنا هو البحث عن نشأة السلالة النوبية ومبلغ قدمها فى أوطانها الحالية ، والأوطان الأخرى التى انتشرت أو أثرت فيها وأهم العناصر التى اندمجت فيها على مضى القرون ؛ ومن المفيد مع هذا كله أن نعرض للبحوث الخاصة باللغة النوبية ونشأتها وانتشارها ، بقدر ما تساعد على إيضاح الأطوار المختلفة التى مرت بالشعب النوبى .

إن تقدم البحوث الأثرية فى بلاد النوبة السفلى والعليا لم يكن على وتيرة واحدة ، فهنالك ظروف خاصة دعت إلى البحث الأثرى فى بلاد النوبة الشمالية ، وإلى التوسع فى هذا البحث بسبب إنشاء خزان أسوان ، والخوف من ضياع معالم الآثار القديمة فى هذا الإقليم . فترتب على ذلك القيام بالتنقيب عن الآثار وعما اشتملت عليه المقابر القديمة فى المساحة الممتدة من أسوان إلى جنوب وادى حلفا ، ونشرت نتائج تلك البحوث بوساطة مصلحة الآثار المصرية ، أما بلاد النوبة العليا فإنها لم تبحث بحثاً أثرياً يستحق أن يقارن بالبحوث الخاصة بالإقليم الشمالى . والجهات القليلة التى بحثت مقصورة على مواضع

= هذا بخلاف الكتب الخاصة بالسودان مثل كتاب ماكايكل وترمنجهام وكتب الرحالة أمثال بركهارت ، والمراجع العربية مثل المقريزى والمسعودى وابن خلدون ، مما سبقت الإشارة إليه . وكذلك المؤلفات القديمة لعلماء اليونان واللاتين أمثال إراتوسطين وسترابون وغيرهما .

محدودة جداً . وحتى هذه لم تبحث بحثاً وافياً . ولذلك كانت المقارنة بين الشمال والجنوب فى بحوث العلماء غير متكافئة ، مما يجعل الوصول إلى نتيجة سليمة أمراً غير يسير .

أما البحوث اللغوية فلعلها كانت أكبر الأسباب فيما وقع فيه العلماء من الأخطاء ، لأن علماء اللغة ، وهم يمثلون أكبر مجموعة من الباحثين فى الدراسات النوبية ، قد بنوا آراءهم على اعتبارات لغوية دون أن يدخلوا فى بحثهم أى اعتبار آخر . ولعل أكبر خطأ ترتب على ذلك هو الخلط بين الشعب النوبى وبين الجماعات التى يطلق عليها اسم النوبا سكان الجبال الواقعة فى جنوب كردوفان . وشعب النوبة كما ذكرنا شعب قديم : والاسم نفسه قديم ، أما « النوبا » كاسم لسكان جبال كردوفان الجنوبية فلا يعرفه السكان أنفسهم ، وهم يدعون أنفسهم أحياناً سكان الجبال ، ولكن التسمية السائدة هى أن كل شعبة تسمى باسمها الخاص ، دون أن يكون هنالك اسم جامع شامل لجميع سكان الجبال .

وقد وقع فردريك مولر وتبعه بعض الكتاب ، فى خطأ كبير ، عندما رأى أن هنالك نوعاً من التشابه بين اللغة السائدة فى بعض جبال كردوفان الجنوبية وبين اللغة النوبية ، فحكم بأن جميع سكان الجبال المذكورة يتكلمون لغة تمت بصلة القرابة إلى اللغة النوبية ، ولم يكتف بهذا ، بل حكم أيضاً بأن النوبيين والنوباويين من سلالة واحدة : وقد أصبح حكمههذا مضرب الأمثال عند علماء الأجناس للخطأ التى يتورط فيه علماء اللغات ، حين يبنون قرابة النسب على تشابه لغوى[1].

غير أن الخطأ الذى وقع فيه فردريك ملر ومدرسته كان خطأ مزدوجاً ، فقد أصبح من الثابت أن الجبال فى جنوب كردوفان لا تشتمل على لغة واحدة ، بل على ثلاث مجموعات لغوية مختلفة ، وأن الجبال الشمالية الغربية

---

(١) سلجمان المرجع المذكور ص ٦١٠ وما بعدها .

فقط مثل جبل داير وما يليه ، هى وحدها التى يتحدث أهلها بلسان، يرى علماء اللغات أنه يشبه من بعض الوجوه لغة النوبيين .

أما الخطأ الثانى فهو أن السلالة النوبية والسلالة النوباوية مختلفتان أشد الاختلاف سواء أكان ذلك من ناحية المظهر الطبيعى أم العادات الاجتماعية السائدة فى كل من الإقليمين . فالنوبيون شعب قوقازى ، بينما سكان الجبال تغلب عليهم الصفات الزنجية . وقد وصف سلجمان كلا منهما فقال : إن النوباوى ممتلئ الجسم والعضلات شديد السمرة إلى درجة تبرر وصفه بأنه أسود البشرة ، أما النوبى فنحيل متوسط القامة . وبشرته سمراء سمرة تكون فى كثير من الأحيان خفيفة . وسكان الجبال شعرهم مفلفل والنسبة الأنفية عالية ، والصفات الزنجية المعروفة واضحة ، أما النوبيون فشعرهم مموج فى الغالب . وقد يكون أقرب إلى الاستقامة برغم وجود أحوال شاذة . والتقاطيع لا تشبه التقاطيع الزنجية فى شيء .

كذلك من الناحية الثقافية يختلف الاثنان كل الاختلاف ، فالنوبيون قد يستخدمون الشلوخ كما تفعل القبائل العربية ، ويمارسون الختان للأولاد والختان الفرعونى للبنات ، وهذه كلها عادات لا يعرفها النوباويون سكان الجبال . ولكنهم بالعكس يمارسون عادات لا يعرفها النوبة مثل خلع القواطع ، وخرق الشفة السفلى للنساء لكى توضع فيها حلية . . وكلا الشعبين يصنع الفخار ، ولكن شتان بين الطريقة المتبعة ونوع الفخار الناتج فى الإقليمين . فالفخار النوبى مشابه تمام المشابهة لما يصنعه المصريون ، وليس هناك وجه شبه بينه وبين ما يصنع فى جبال كردوفان الجنوبية[1].

ومما يؤسف له أن سكان الجبال هؤلاء قد أطلق عليهم اسم النوبا ، فساعد تشابه الأسماء على كثير من الخطأ ، وعلى الأخص عند العامة وهواة العلم . ولئن كان هذا الأمر مما لا يمكن الرجوع فيه ، فإن من الواجب ، وعلى

(١) نفس المرجع ص ٦١٢ .

الأخص على المتعلمين من سكان السودان ومصر ، أن يدركوا أن هذا التشابه فى الاسم سطحى ، ولا يستند إلى أية صلة أو قرابة نسب بين الشعبين .

أما التشابه اللغوى فلقد كان من الممكن أن نتصور هجرة نوبية انتشرت فى كردوفان متجهة نحو شمالها أولا ، ثم ممتدة إلى جنوبها بعد ذلك ، حتى تستقر فى الأطراف الشمالية الغربية من الجبال[1]، غير أن هذا الرأى السهل البسيط لا يشفى غلة علماء اللغة ، وعلى الأخص المتطرفين منهم ، ذلك أن اللغة النوبية أو لهجات تشبهها من بعض الوجوه موجودة أيضاً فى شمال كردوفان ودارفور ، كما هى الحال فى جبل ميدوب ، وكذلك فى الأطراف الجنوبية من البطانة بين أعالى العطبرة والنيل الأزرق ؛ وكان من الممكن تفسير هذا التشابه بما كان للنوبيين من التأثير فى إقليم النيل الأزرق وفى سهل البطانة بالذات ، كما كان لهم انتشار مؤكد فى دارفور وكردوفان . ولكن هذا التفسير يأباه كثير من علماء اللغة مثل زيلارتس . وفوق ذلك اكتشف اللغويون أن هنالك خصائص فى بعض المفردات وفى النحو والصرف ، مشتركة بين اللغة النوبية وبين لغات البارى فى أعالى بحر الجبل ، والمازاى فى هضبة إفريقية الشرقية ولغة النيليين أمثال الدنكا والشلك[2] . وكان من الجائز أيضاً تفسير حتى هذه الظاهرة بأن هذه الجماعات كلها دخلها كثير من الدماء الحامية وأن اللغة النوبية كالشعب النوبى من أصل حامى صميم ؛ فمن المعقول أن تكون الثقافة الحامية قد تسربت إلى جميع هذه الجماعات على بعد ما بينها من المسافات .

غير أن زيلارتس العالم النمساوى رأى لأسباب بلا شك وجيهة فى نظره أن لغة جبال كردوفان المشابهة للنوبية لا يمكن أن تكون مشتقة من لغة النوبيين

---

(١) يرى ماكايكل (تاريخ العرب فى السودان الجزء الأول ص ١٤) أن هذا قد حدث بعد الفتح العربى لمملكة دنقلة .

(٢) مقدمة كتاب
G.W. Murray : English–Nubian Comparative Dictionary

سكان إقليم النوبة فى جنوب مصر وشمال السودان ، بل إنهما فرعان من لغة واحدة كانت منتشرة فى شمال كردوفان ، ثم انتقلت بوساطة أصحابها إلى كل من الإقليمين ؛ ونورد هنا تلخيصاً لرأى ذلك العالم كما رواه سلجمان[1].

كان الوطن الأصلى للنوبة (والنوبا) فى شمال كردوفان حيث تكاثر عددهم واتسعت أوطانهم ، بحيث أمكن تقسيمهم فى ذلك الزمن البعيد إلى قسمين : ا و ب ، تبعاً لاختلاف اللهجات .

وفى القرون السابقة للميلاد (أى ما بين ٥٠٠ و ١٠٠ ق . م) نزحت أعداد كبيرة من نوبة ا غرباً إلى جبل ميدوب . ونزحت أخرى فى اتجاه شمالى إلى النيل حيث عاشوا جنباً لجنب مع الليبيين الذين كانوا سكان البلاد فى ذلك الوقت .

وفى القرن الأول والثانى هاجر باقى قسم ا من كردوفان فى الاتجاهين المذكورين ، ويزعم المؤلف تأييداً لرأيه أن هنالك أسطورة لدى بعض النوباويين ، بأن أجدادهم وأجداد النوبيين كانوا إخوة ، ثم حدث نزاع حول ملكية خنزير كان قد قرب قرباناً فى بعض المناسبات . فهاجر أجداد النوبيين ونزحوا عن البلاد . وهذه الأسطورة على طرافتها لا تؤيد وجهة نظر المؤلف فى أن النوبيين هاجروا من شمال كردوفان ، بل من إقليم الجبال .

ومهما يكن من شىء فإن هذه الشعبة الثانية من القسم ا ، التى هاجرت فى القرن الأول والثانى بعد الميلاد قد سلكت طريقين : أولهما طريق وادى الملك ، إلى بلاد النوبة مباشرة ، والآخر طريق درب الأربعين إلى الواحات الخارجة ، وهؤلاء كانوا قلة ، أما الكثرة فقد هاجرت إلى بلاد النوبة حيث أقاموا مع أقربائهم الذين نزلوا هذه الديار قبلهم ببضعة قرون .

أما قسم ب فيقول عنه المؤلف إنه هاجر مشرقاً إلى أرض الجزيرة فى أوائل القرن الرابع (حوالى سنة ٣٢٠) ثم إلى البطانة حيث أغار على مملكة

(١) فى كتاب Pagan Tribes of the Nilotic Sudan, p. 411

مروى وقضى عليها ، ولكنه لم يقتبس حضارتها ولم يمتزج بالسكان ، إلى أن دخلت المسيحية إلى بلاد دنقلة ثم إلى مروى فانتشر تأثيرها إلى قسم ب ، بل وامتد أيضاً إلى جبل ميدوب .

والمهم فى هذا كله أن هذا المؤلف وغيره يزعم أن هؤلاء المهاجرين هم السلالة التى تدعى بحق باسم النوبة . وهم الذين نشروا اللغة النوبية فى البلاد وقد حملوها من أوطانهم الأصلية فى شمال كردوفان .

وقد حاول زيلارتس بنظريته هذه التى تستند إلى بعض الخصائص اللغوية أن يعطى صورة كاملة تفسر الظاهرات المختلفة المتصلة بانتشار الثقافة النوبية فى مختلف الجهات ، ولم يفته أيضاً أن يجد تفسيراً لبعض الإشارات التى ذكرت بأن النوبيين وصلوا إلى الواحات الخارجة . ويبدو فى الصورة التى رسمها تلك النزعة الغالبة عند كثير من الكتاب ، وهى أن اللغة النوبية ليست أصليةفى بلاد النوبة ، بل دخلت البلاد فى وقت ما — سابق للعهد المسيحى — كما أن الجماعات التى أدخلت هذه اللغة ونشرتها هى التى كانت تدعى باسم النوبة .

ومع ذلك فليس من السهل قبول هذه النظرية لسببين : أولهما ما أوضحناه من قبل من أن النوبا فى كردوفان مختلفون كل الاختلاف عن النوبيين ، والسبب الثانى أن هذه الهجرات لطائفة ا النوبيـــة قد دخلت بلاداً تسودها الحضارة منذ قرون عديدة ، كثيرة السكان ، وإن اتسعت لبعض المهاجرين فليس بمعقول أن يضطر هؤلاء المهاجرون السكان الأصليين إلى تغيير لسانهم، بل وإلى تغيير اسمهم . ونحن نعلم أن سكان البلاد لم يكونوابالشعب السهل الذى يتيسر إخضاعه .

وقد ظلت اللغة النوبية زمناً طويلا دون أن تكتب إلى أن تحولت البلاد إلى الديانة المسيحية فى منتصف القرن السادس على أيدى قسس مصريين ، فكتبت النصوص الدينية بالحروف القبطية . كما استخدمت تلك الحروف فى كتابات أخرى ، وبذلك أصبحت اللغة النوبية لغة مكتوبة . أما النصوص

السابقة لذلك العهد فإنها نصوص باللغة المصرية القديمة ، ولعلها كانت اللغة الرسمية للبلاد بينما كانت النوبية هي لغة الناس ، مع ما بين اللغتين من التشابه .

ويصف لنا مستر مري اللغة النوبية وصفاً نلخصه فيما يلي :

ليس هنالك لغة تتفق مفرداتها مع اللغة النوبية اتفاقاً كثيراً ، بل إن كثيراً جداً من أصول الكلمات النوبية ليس له نظير في جميع اللغات التي قورنت بها. أما اللغات التي تشابه اللغة النوبية في مفرداتها ، فأكثرها بلا شك لغات حامية ، وبلا شك أن الصبغة الحامية هي الغالبة على اللغة سواء من ناحية المفردات أو النحو والصرف ، ولكن هنالك اختلافاً كبيراً بينها وبين اللغات الحامية ، في ناحية واحدة وهي النظام الصوتي Phonetic System ، ولكن له نظيراً في اللغات النيلية في جنوب السودان مثل لغة الباري[1] .

فاللغة النوبية تشتمل حسب رأي هذا المؤلف وغيره على عناصر حامية وأخرى غريبة عن الحامية . ولعل مصدر هذا العنصر الغريب بعض الشعوب الجنوبية . وقد رأى بعض العلماء مثل راينش Reinisch أن الأصل في اللغة النوبية أنها حامية دخلتها مؤثرات أجنبية . ولكن بعضهم مثل مري نفسه يرى أنها في الأصل لغة نيلية جنوبية مثل لغة الباري . ثم تعرضت لمؤثرات حامية شديدة على مدى العصور . ومع أن الموضوع لا يزال يفتقر إلى البحث فإن الرأي الأول هو الذي يتفق مع التطورات الجنسية والتاريخية .

هذا وقد دخلت اللغة النوبية مفردات من مصادر أخرى ، بعضها من شمال الحبشة ، عن طريق مملكة مروى على الأرجح ، كما استعارت اللغة النوبية ، كلمات عربية مما يقرب من ثلث مفرداتها ، كما تأثرت بالطبع باللغة المصرية القديمة والقبطية .

ومع ذلك فليس الأمر المستغرب هو أن تقتبس اللغة النوبية ألفاظاً عربية كثيرة ، بل الأمر الذي يبعث على العجب هو تمسك النوبيين بلسانهم على

---

(١) راجع مري المرجع السابق ص X .

مدى العصور الطويلة ؛ وعلى الرغم من تحولهم إلى الإسلام تحولا تاماً ، ظلوا محتفظين بلغتهم .

* * *

وكما اختلف الكتاب فى أن اللغة النوبية حامية — أى من نفس الأسرة اللغوية التى تنتمى إليها لغات البجه وغيرهم — ثم تأثرت بعناصر أجنبية ؛ أو أنها لغة جنوبية مثل لغة البارى ثم غلبت عليها المؤثرات الحامية ؛ كذلك اختلف الكتاب فى الشعب النوبى هل هو فى الأصل نازح من الجنوب ، تغلب عليه الصفات الزنجية ، ثم تعرض لهجرات قوقازية من الشمال ومن الشرق والغرب ، أو أنه فى الأصل شعب حامى قوقازى تأثر ببعض الهجرات الزنجية ، أو دخلته الدماء الزنجية كما هى الحال فى سائر وادى النيل ، عن طريق تجارة الرقيـــق :

إن الرأى الذى سبق التعبير عنه مراراً فى الفصول السابقة ، هو أن السودان الشمالى بوجه عام لم يكن فى وقت من الأوقات وطناً أصلياً للجنس الزنجى ، ولم يقصده الزنوج من تلقاء أنفسهم بالهجرة والاستقرار ، وقد بنى هذا الرأى على دراسة تاريخ هجرات الجنس الزنجى من القارة الآسيوية فى زمن قديم ، والطرق التى سلكها وأسلوب المعيشة التى مارسها ، والتى لم تكن تصلح لها الجهات الشمالية ، فلننظر الآن إذا كان هذا الرأى مما يتفق وتطورات السكان فى بلاد النوبة ، كما كشفت عنها الحفائر ، ودلت عليها الأخبار :

ونظراً لأن الاستقرار فى بلاد النوبة يرجع إلى زمن قديم جداً — إلى الألف الخامسة قبل الميلاد على الأقل — ولأن البلاد تعرضت لهجرات وغزوات متنوعة فى هذه العهود الطويلة ، نرى العلماء يتحدثون عن النوبيين فى الأعصر المختلفة ، بأنهم يكونون مجموعات : ا ، ب ، ج وبعضهم يضيف أيضاً مجموعة رابعة د ، ومجموعة خامسة س[1]. والاتفاق العام بين هؤلاء الكتاب

---

(١) هذه المجموعات التاريخية لا صلة بينها وبين الأقسام ا ، ب اللغوية التى سبقت الإشارة إليها .

هو أن مجموعة ا ترجع إلى عصر ما قبل التاريخ ، والعصر السابق للأسر ، واستمرت إلى الأسرات الأولى ، ومجموعة ب ترجع إلى عصر بناة الأهرام ، وهى تمثل مجموعة ا معدلة تعديلا ملحوظاً فى حضارتها وثقافتها ، ومجموعة جـ ترجع إلى عصر المملكة الوسطى أى الأسرة الثانية عشرة وما بعدها ، أما مجموعة س فيرجعونها إلى العصر الرومانى ابتداء من سنة ٣٠٠ ميلادية .

ولا يتسع المقام لتتبع حوادث التاريخ فى جميع هذه المراحل ولكن من المهم أن نذكر أن محور هذه الحوادث واحد فيما يظهر ، وهو العلاقات بين مصر وبلاد النوبة . وكانت هذه العلاقات تمتاز بالاتصال الثقافى والتجارى ، وعلاقات حسن الجوار ، ثم تتخللها فترات اضطراب ، تجند فيها حملة عسكرية للحد من طغيان عدو من الأعداء . وجميع الشواهد تشير إلى أن هذا العدو دخيل ، أغار على بلاد النوبة وقد يمتد عدوانه إلى الحدود المصرية .

ويسهل التسليم بأن بلاد النوبة ، وهى البقعة الخصيبة وسط الصحراء والفيافى قليلة الماء والنبات ، قد تتعرض للعدوان من ثلاث نواح : من الشرق حيث قبائل البجه ، أو طوائف منهم ، ومن ليبيا التى كانت وكراً لجماعات طمحو وتهنو وغيرهم ، الذين تردد عدوانهم على وادى النيل قرناً بعد قرن ؛ ثم من الجنوب ، من شمالى كردوفان ، حيث الطريق ممهد بوساطة الأودية التى تنتهى إلى نهر النيل .

والإغارات الأولى والثانية يقوم بها على الأرجح جماعات حامية شرقية وليبية ، تزيد فى نسبة الدم القوقازى فى البلاد ، أما الهجرات الجنوبية فإن من الجائز أن تقوم بها جماعات فيها بعض الصفات الزنجية Negroids بقيادة قوقازية . وهذه الظاهرة مألوفة فى القارة الإفريقية .

هذه هى الاعتبارات الأساسية التى يجب أن نذكرها ونحن نتتبع التطورات النوبية من مجموعات ا إلى ب و جـ وهلم جرا . وسنجد فى كتابات بعض علماء الآثار ما يؤيد هذا الرأى .

فجموعة ا خصصت لها فترة طويلة فى تاريخ بلاد النوبة إذ تمتد من نحو عام ٥٠٠٠ إلى عام ٢٥٠٠ قبل الميلاد . هذه الفترة الطويلة هى عصر تكوين السلالة النوبية، وإن لم تكن البلاد فى أثناء ذلك بمأمن من الاضطراب . ويقول سلجمان فى وصف النوبيين فى ذلك العصر : إن الحفائر قد كشفت أن بلاد النوبة فى أقدم الأزمنة كانت آهلة بشعب يدفن موتاه بنفس الطريقة المتبعة فى مصر فى العصر السابق للأسرات ، ويصنع فخاراً على نفس الأسلوب المتبع فى مصر فى ذلك الوقت ، وتشتمل مقابرهم على أدوات وآلات عديدة تتفق تماماً مع ما عثر عليه فى المقابر المصرية لذلك العهد ؛ وقد وجد الأستاذ إليوت سميث بعد دراسة العظام والجماجم أن النوبيين من مجموعة ا لا يختلفون عن المصريين فى ذلك الزمان ؛ ثم يتطرق الأستاذ سلجمان إلى الإثبات بأن هاتين السلالتين المتشابهتين كانتا تعيشان فى عصر واحد[1].

كان هذا الشعب النوبى القديم إذن من السلالة التى ينتمى إليها المصريون القدماء : وتمتاز هذه السلالة بالقوام النحيل والقامة المتوسطة أو فوق المتوسط بقليل ، والرأس مستطيل بارز من الخلف ، والتقاطيع قوقازية ، وهى فرع من الجنس الذى يطلق عليه اسم جنس البحر المتوسط لانتشاره فى أوربا وإفريقية على سواحل هذا البحر . وهو يمتاز فوق ذلك بالأنف المعتدل والشفاه المعتدلة ، وبشعر مموج أو أقرب إلى الاستقامة ولون البشرة أسمر أو فى لون الحنطـــة .

هذه السلالة التى عمرت بلاد النوبة دهراً طويلا ،والتى كانت حرفتها الزراعة وهى حرفة تساعد على التعمير وازدياد السكان، هى بمثابة الأسس التى بنى عليها الشعب النوبى من الناحية الجنسية ، والتى لم تحدث فيها الإغارات على مضى القرون سوى تغيرات يسيرة .

وكانت العلاقات مع مصر بوجه عام طيبة ، وتدخل فيها التجارة والمبادلة ، وكانت البعثات المصرية تمر من بلاد النوبة نحو بلاد جنوبية مثل يام ، كما

(١) مقالة سلجمان فى J.R.A.L. لسنة ١٩١٣ السابق ذكرها ص ٦١٢ .

حدث للوزير حرقوف فى عصر ببى الثانى ، دون أن تلقى معارضة أو تصادف عدواناً ، ولذلك يبدو أن الإغارات التى قام بها صنفرو ، لم تكن موجهة إلى النوبيين الأصليين ، بل إلى عنصر غريب ، يختلف عن السكان الأصليين بأنه لم يكن يحترف الزراعة ، بل يحترف الرعى . ولذلك نرى صنفرو أخذ يسجل أنه قد حصل من هذا العدو على غنائم تقدر بمائتى ألف رأس من الماشية الصغيرة والكبيرة .

وهذا الاضطراب الذى ظهر فى عصر صنفرو أخذ يتكرر فى صورة أشد وأوضح فى عصر الأسرة الثانية عشرة . وأخذت تظهر فى البلاد عناصر جديدة ، وتتوغل فيها توغلا عدائياً . وقد ترك أمينمحعت الأول كتابة يقول فيها : « لقد استوليت على شعب واوات ، وقبضت على شعب المازوى » . ولا نعرف بالضبط ما شعب الواوات وهو على الأرجح قبائل ليبية . أما شعب المازوى فقد سبق لنا أن أوضحنا أن المازوى هم البجه .

ويرى غير واحد من العلماء أنه فى هذه الفترة وما بعدها أخذت تظهر ، فى فترات الإغارة هذه ، عناصر تشبه السلالات الزنجية . وأخذت تؤثر فى التكوين الجنسى للسكان بعض التأثير ، وهذا هو العصر الذى أطلقوا على سكانه اسم المجموعة النوبية جـ ؛ وهى التى قرر الأستاذ إليوت سميث أنها لا تختلف اختلافاً جوهرياً عن النوبيين كما نعرفهم اليوم ؛ أما العنصر الزنجى الذى دخل البلاد فى ذلك الوقت ، فالأرجح أنه لم يدخل مع المازوى ، ولعله دخل مع الواوات .

هذا وقد كان المصريون القدماء يشيرون إلى سكان الجنوب بكلمة نـهس ؛ وهى لا تفيد أى معنى آخر ، وليست لها أية دلالة من ناحية الجنس والسلالة ، وأحياناً تستخدم تلك الكلمة بمعنى الأراضى الواقعة جنوب مصر على اختلافها وقد ترك ببى الأول كتابة يقول فيها إنه شن الحرب على ست مجموعات من النهس وهم نهس إرثت ونهس مازا ونهس يام ونهس واوات ونهس كاو

ونهس طمح . ونستطيع أن نميز من بين هؤلاء الستة ثلاث سلالات على الأقل لا صلة بينها وبين السلالات الزنجية ، وهي الإرثت والمازا (البجه) والطمح وهم من ليبيا .

وهذه الوثيقة تؤيد الرأى بأن كلمة نهس لا تعدو أن يكون معناها سكان الجهات الجنوبية . ومع ذلك قد جرت عادة كثير من الكتاب على ترجمتها بكلمة زنجى ، ومن بين هؤلاء الكتاب العالم الأمريكى هنرى برستد . ولكن عارضه فى ذلك علماء كثيرون مثل الأستاذ ينكر .

وقد اضطرت حكومة مصر فى الأسرة الثانية عشرة إلى أن تحفر قناة عند الشلال الأول لتيسير الملاحة للسفن التى ترسل لتأديب المغيرين ، كما اضطرت إلى توسيع إدارتها بحيث شملت بلاد النوبة الشمالية إلى أول الشلال الثالث . وفى الأسرات الثانية عشرة إلى العشرين تم «تمصير» بلاد النوبة الشمالية والجنوبية من النواحى الثقافية والاجتماعية والسياسية ، وأنشئت لها عاصمة نبتا ، بالقرب من بلدة مروى الحديثة .

وهنا تظهر مشكلة لا تزال تفتقر إلى حل مقبول : وهى أن تصوير المصريين القدماء للنوبيين فى عصر الأسرة الثامنة عشرة وما بعدها ، يمثلهم على أنهم زنوج ، مع المبالغة فى تصوير التقاطيع الزنجية ، فكيف يتفق هذا الوصف مع ما ذكره إليوت سميث استناداً على دراسة الجماجم والعظام والمقارنة بين النوبيين فى ذلك العصر والنوبيين فى الوقت الحاضر ، والرأى الذى انتهى إليه بأنه ليس هنالك فرق جوهرى بين الاثنين ؟

ويرى سلجمان فى تفسير ذلك التناقض أن البلاد كانت تشتمل فعلا على عدد عظيم من الجماعات الزنجية أغارت عليها من الجنوب ، ثم طوردت تلك الجماعات واضطرت إلى أن تعود إلى بلادها . ثم جاء الاتصال المستمر بين مصر وبلاد النوبة عاملا جديداً على زيادة الدماء الشمالية القوقازية .

ويرى غيره من الكتاب أن مقارنة الجماجم والعظام دليل أقوى من الصور والرسوم ، ولا بد أن المصور المصرى كان يقوم بتصويره وهو فى أوطانه

الشمالية ، ويبنى رسومه على ما يشاهده من جماعات الأسرى ، التى كانت ترسل إلى الشمال ؛ وهؤلاء يشتملون على عدد من الجنود الزنوج وإن كان معهم أحياناً بعض قادتهم من غير الجنس الزنجى .

وهنالك تعليل آخر . لعله لا يختلف كثيراً عن الرأى الثانى ، وهو أن المصور المصرى كان يرسم صورة للأعداء الذين أغاروا على بلاد النوبة ثم على حدود مصر الجنوبية . فكان يصورهم زنوجاً قحاً على سبيل الزراية والاحتقار

غير أنه ليس بمستبعد أن بعض الإغارات التى حدثت فى بلاد النوبة فى العصور القديمة كانت تقوم بها جماعات زنجية أو شبيهة بالزنجية Negroid بقيادة جماعة من الحاميين . وهذا ما نجده فعلا فى آثار الجماعات التى أطلق عليها اسم المجموعة النوبية س . وهى ترجع إلى سنة ٣٠٠ بعد الميلاد والفترة التى أعقبتها ، وقد وجدت آثارها وعظامها فى بعض المقابر فى إقليم بلانه إلى الشمال من وادى حلفا وغيرها ؛ وقورنت محتوياتها بما اشتملت عليه بعض المقابر فى جزيرة مروى[١].

والبحث فى هذه المقابر لا يصل بنا إلى نتيجة حاسمة لأن أكثرها ، وعلى الأخص مقابر القادة والزعماء ، قد نبشت وخربت مراراً[٢]، وقد قام ببحث الجماجم والعظام الدكتور بطراوى وقرر بعد فحصها أن هنالك سلالتين تتميز إحداهما عن الأخرى : الأولى تظهر فى جماعات المحاربين والرؤساء ، ويمتازون بالقامة الطويلة وصفات أبعد عن الصفات الزنجية ، والأخرى تمتاز بالقامة القصيرة والصفات الزنجية وتظهر فى النساء بوجه خاص ، كما أن هنالك أمثلة تشير إلى اختلاط بين السلالتين[٣].

---

(١) جزيرة مروى هى الإقليم الواقع بين العطبرة والنيل ، وفى شماله بلدة مروى القديمة وآثارها اليوم أطلال بالقرب من كبوشية . ومن المهم التمييز بينها وبين مروى الحديثة المجاورة لبلدة نبتا .

(٢) مقالة كروان عن أصل النوبة فى المجلد العشرين من S.N.R. ص ٥٦ .

(٣) Batrawi : Archeological Survey of Nubia (1929-34), p. 180

ولا يدع بحث الأستاذ البطراوى مجالا للشك بأن النوبين رقم س ، وإن كانت تغلب عليهم الوثنية والعادات المخالفة لما كان يسود بلاد النوبة ، فإنهم لم يكونوا يمثلون سلالة زنجية خالصة ، بل جماعات حامية اقتادت معها سبياً من الزنج .

* * *

والظاهر أن مجموعة س قد انجلت عن البلاد بعد ذلك ، وإن تركت آثاراً بها وأخذت الأحوال فى شىء من الاستقرار فى القرن الخامس والسادس ، وانتشرت المسيحية بعد ذلك ، وأنشئت مملكة مسيحية ، عاصمتها بلدة فرس ، ثم تحولت العاصمة بعد ذلك إلى بلدة أنشئت فى العهد المسيحى وهى دنقلة القديمة ، (أو دنقلة العجوز) ، ثم انتشرت المسيحية بعد ذلك إلى جزيرة مروى ، كما أنشئت بعد ذلك مملكة علوة ، وعاصمتها سوبة ، وفى عهد الفتح العربى لمصر كانت هنالك دولتان مسيحيتان ، الأولى دولة دنقلة أو دولة النوبة والأخرى دولة علوة . وكان هنالك دولة أخرى تدعى مقرة اندمجت فى دولة دنقلة قبل الفتح العربى لمصر .

هذا وقد دخلت المؤثرات والسلالات العربية من طريقين : الأول من الشمال حيث انتشرت قبائل عربية أكثرها من ربيعة ما بين الشلال الأول ووادى حلفا ، وهذا هو الإقليم الذى كان يطلق عليه اسم مريس ، وهى كلمة قبطية بمعنى الجنوب أو الإقليم الجنوبى ، والطريق الثانى الذى سلكته المؤثرات العربية من الجنوب ، كما يتبين ذلك عند الكلام على انتشار الجعليين فى الفصل التالى .

* * *

يتبين مما تقدم أنه إذا كان هنالك محل لاختلاف الرأى فى أمر اللغة النوبية وهل هى لغة من اللغات التى تسود الجماعات الزنجية ، ثم تأثرت بعد ذلك تأثراً شديداً بالمؤثرات الحامية أو بالعكس ، فليس هنالك أقل شك فى النوبيين

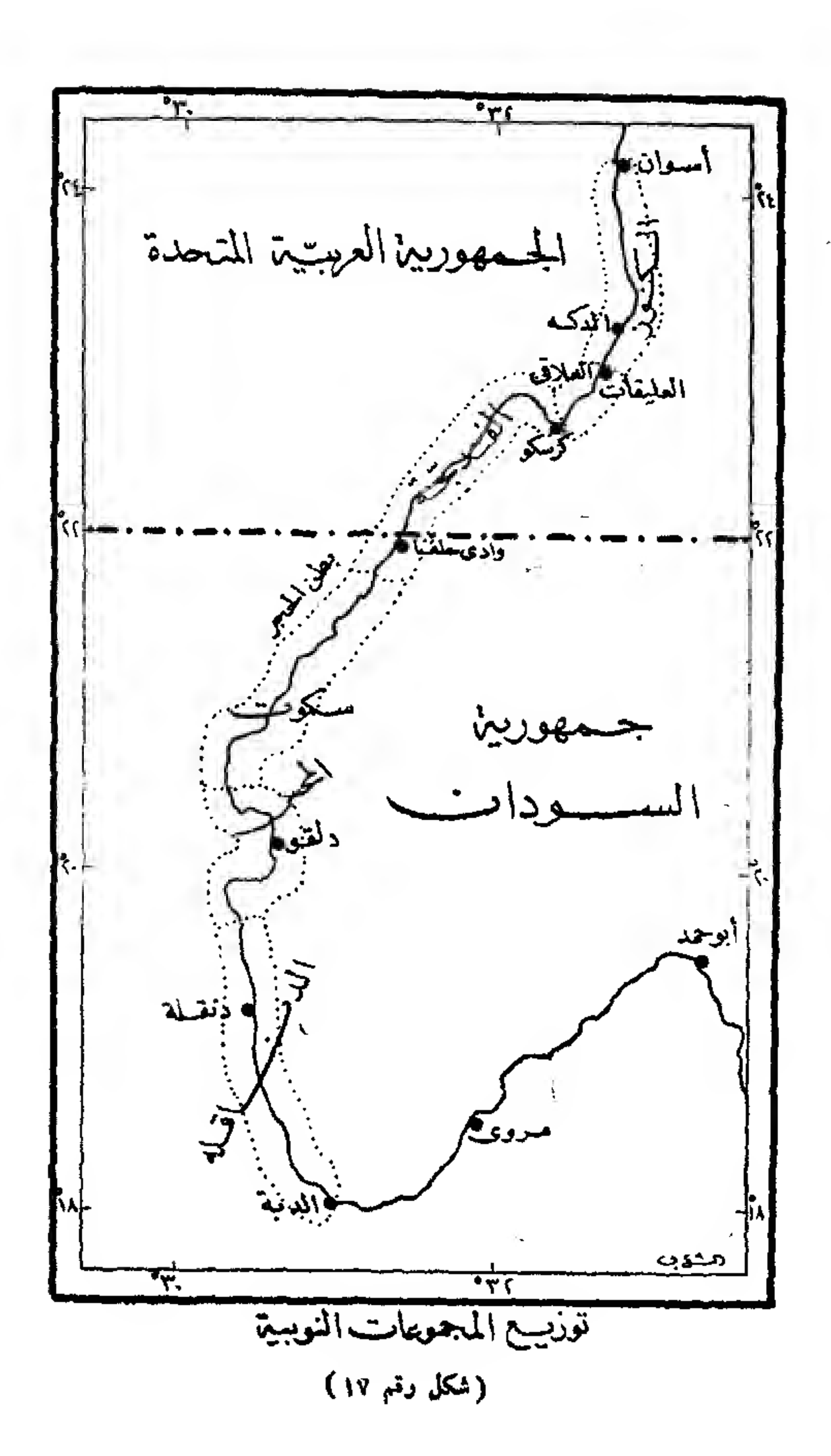
أنفسهم كما نعرفهم اليوم ، فإن أصولهم فى السلالات القوقازية الحامية عريقة قديمة ، وأن الصفات الزنجية التى قد نراها أحياناً بينهم هى العنصر الطارئ الدخيـــل .

وكذلك لا شك أن النوبيين ، كما نعرفهم اليوم ، كانوا أوسع انتشاراً ، وبلادهم مصعدة فى النهر إلى مدى أبعد مما تصل إليه اليوم ، فالمديرية النوبية المصرية التى كانت حاضرتها بلدة نبتا هى التى أنشأت عاصمة فى الجنوب فى بلدة مروى القديمة ، بالقرب من بلدة شندى الحديثة . وقد ازدهرت مروى بدورها ، واتسع نفوذها حتى وصل إلى ملتقى النيل الأزرق والأبيض وإلى أرض الجزيرة . وهذه كلها أقطار كانت تسكنها بلا شك سلالات ، وتصل إليها مؤثرات ثقافية خلاف السلالات والمؤثرات النوبية ، ولكن بقايا الثقافة النوبية ظاهرة فيها أيضاً . وقد يكون من الغلو أن تزعم أن مملكة المرويين ، أو مملكة علوة ، كانت مملكة نوبية خالصة . ولكن لا شك أن بلاد النوبة الشمالية هى العامل الأكبر فى إنشاء هاتين المملكتين .

وقد اختلف العلماء فى أصل اسم النوبة ، كما اختلفوا فى تاريخهم وفى نشأة لغتهم ، والأصل المصرى القديم للكلمة مشتق من لفظ نوب أو نوبو ، بمعنى الذهب ، أى أنها بلاد الذهب ، وهو أحد الأسماء التى كان يطلقها المصريون على هذه البلاد ، وإلى جوارها كما هو معلوم مناجم قديمة لذلك المعدن الثمين ، وقد وصفت البلاد بهذا الاسم فى كتابة فى الأسرة الثانية عشرة فى عهد الملك أمنمحعت الأول[1]، ومع أن هذا الاشتقاق الواضح مما يسهل التسليم به ، فإنه لم يجد قبولا من أولئك الكتاب الذين يرون أن شعباً زنجياً يدعى باسم النوبة ، قد أغار على البلاد ونشر فيها الدم الزنجى ولغة من اللغات الزنجية ، فى عصر يعد نسبياً عصراً متأخراً . وأن هؤلاء المغيرين الذين لا نكاد نعرف عنهم شيئاً هم الذين أكسبوا البلاد اسمها الذى تعرف به الآن .

---

(١) ماكايكل : الجزء الأول ص١٢ (هامش) نقلا عن برستد
Ancient Records, I, 520



توزيع المجموعات النوبية

(شكل رقم ١٧)

ومهما يكن من شيء ، فإن والى مصر الأمير عبدالله بن سعد بن أبي السرح عندما عقد معاهدته فى سنة ٦٥١ ميلادية مع ملك هذه البلاد سماه فى المعاهدة عظيم النوبة[1]، ونص على أن المعاهدة المعقودة تشمل البلاد التى تمتد من حدود مصر إلى حدود علوة ، مما يدل على أن عظيم النوبة المذكور كان مسيطراً على كل ذلك الإقليم : من الشلال الأول إلى إقليم كان يدعى فى ذلك الوقت إقليم الأبواب ، لعله عند الشلال السادس .

وقبل زمان عبدالله بن سعد بن أبي السرح بنحو تسعة قرون كان الجغرافى الإسكندرى إبراتوسطين يدعو سكان تلك البلاد باسم النوبة[2]. وهكذا ترجع النصوص التاريخية باسم النوبة إلى القرن الثالث قبل الميلاد . أى فى زمن سابق بعدة قرون لظهور تلك الطوائف التى سموها نوبة س ، والتى يقال إنها هى التى أثرت فى البلاد وأكسبتها اللغة والأسماء وقسطاً غير قليل من الدماء الجنوبية .

* * *

هذا وقد شغل بتاريخ النوبيين القديم وبلغتهم وآثارهم عدد كبير من الباحثين ، ولم يعن بوصفهم فى الأزمنة الحديثة من الكتاب إلا عدد من السائحين مثل بركهات وغيره . ولا يزال هنالك مجال لدراستهم فى بيئاتهم الحالية ودراسة أحوالهم الاجتماعية والأثنوغرافية .

وحسبنا أن نذكر أن النوبيين فى الوقت الحاضر يحتلون مساحة من نهر النيل قد تكون أقل من نصف المساحة التى كانوا يحتلونها من قبل ، وتمتد أوطانهم اليوم من أسوان فى الشمال إلى الدبة فى الجنوب ، وهم ينقسمون إلى خمس مجموعات رئيسية : الدناقلة فى الجنوب ما بين الدبة وأبى فاطمة ، ثم

---

(١) خطط المقريزى الجزء الأول ص ٣٢٢ .
Kirwan = Nubian Origins, p. 47.

(٢) ماكايكل نفس المرجع ص ١٢ وكروان
فى المجلد العشرين من S.N.R. .

المحس والسكوت فى إقليم الشلالات والجنادل ، ثم الفديجة ما بين وادى حلفا وكرسكو ، والكنوز فى الجزء الشمالى الممتد من كرسكو إلى أسوان . ولسنا نعرف حتى على وجه التقريب عدد النوبيين فى أوطانهم الأصلية ، ولكنهم على الأرجح لا يقلون عن ربع مليون من الأنفس ، أما عددهم فى جميع أنحاء وادى النيل ، فيوشك أن يكون من المستحيل تقديره .

والدناقلة يعيشون فى إقليم يعد من أحسن ما اشتملت عليه الأوطان النوبية ، فالنهر معتدل الجريان خال من الجنادل سهل الملاحة ، ويتسع السهل الفيضى فى عدة مواضع ، مما يتيح للسكان فرصة للزراعة على نظام رى الحياض ، مع الاستعانة بالسواقى ونحوها ، ومن أجل ذلك تعد الساقية من الممتلكات الهامة فى بلاد النوبة ، ومع اشتغال الدناقلة بالزراعة نراهم من أنشط الجماعات فى السودان كله فى التجارة وفى مختلف الحرف .

ويشبه الدناقلة فى مظهرهم الطبيعى جيرانهم العرب من البديرية ، ولا شك أن النسب العربى فيهم قوى ، وفى مجلس يضم جماعة من البديرية والدناقلة ليس من السهل أن يميز المرء بينهم فى بعض الأحيان .

أما المحس فإن أوطانهم تتخللها جنادل الشلال الثالث ، وفيها يضيق مجرى النهر من آن لآن . بحيث لا يتسع للزراعة إلا بمقدار ضئيل ، ومع ذلك فهنالك جهات يتسع فيها الوادى وتتيسر فيها الزراعة ، غير أن إقليم المحس والسكوت بوجه عام محدود الموارد ، وسرعان ما يضيق بسكانه ، ولذلك كثرت الهجرة من هذا الإقليم أكثر من غيره ، وعلاوة على هجرة الأفراد فى طلب الرزق ، نرى المحس قد هاجروا فى صورة جماعات كبيرة ، ونزحوا عن أوطانهم إلى أوطان جديدة فأصبحوا يحتلون جزيرة توتى وإقليم عيلفون ، وفى هذين الإقليمين قد استعرب المحس ، وأصبحوا لا يختلفون عن جيرانهم من العرب ، وأصبحت لغتهم الوحيدة هى العربية ، كذلك كان المحس هم العنصر الأكبر فى المهاجرات التى كانت وجهتها جبل ميدوب ؛ وغيره من الجهات فى شمال كردوفان ودارفور .

أما السكوت فهم أصغر المجموعات النوبية عدداً ، ومعلوماتنا عنهم
. وتنهى أوطانهم إلى الجنوب من وادى حلفا . وبذلك تكون أوطان
عات الثلاث : الدناقلة والمحس والسكوت واقعة كلها فى السودان ؛
كان المحس فى العادة يتجهون إلى مصر فى هجراتهم أكثر مما يتجهون
ودان :

فى بعض أزمنة الشدة والجهد فى العصر الحديث ، هاجرت مجموعات
من المحس والسكوت ، سعياً وراء الرزق ، أو هرباً من الإرهاق فى
مهدية ، فاتجهوا بجموعهم إلى الشمال من وادى حلفا ، ونزلوا على
نيل الشرقية والغربية بين تلك المدينة وبلدة كرسكو ، وهذه المجموعة
يطلق عليهااسم الفديجةأو الفدجة(١). فهم إذن يمثلون هجرة من
إقليم الجنادل ، إلى الجهات التى تليها نحو الشمال ، وبفضل هـــذه
صبحت للمحس والسكوت أوطان داخل حدود القطر المصرى ،
وا بهذا الاسم الجديد .

أوطان الفديجة الجديدة تقع بعض البلاد الشهيرة مثل قصر ابريم
ولا بد هنا من الإشارة إلى أن السلطان سليم بعد فتح مصر ، أرسل
لإقليم جماعة من ضباطه يسمون الكشاف (جمع كاشف) ، لكى
حراسة التخوم الجنوبية لمصر ، وأكثر هؤلاء الكشاف من أصل
شناق أو أناضولى . وقد اندمجوا فى السكان على مضى الزمن .
إقليم ابريم ؛ بل انتشروا فى غيره من الجهات المحاورة ، بحيث
وم إقليماً أو جهة من الجهات ، ومع ذلك لا يزال أكثرهم يعرف
، وإن لم تصبح لأحدهم الوظيفة القديمة التى كانت له فى عصر

ز فأوطانهم كلها داخل القطر المصرى. وشكلهم الطبيعى فى

ف أن كلمة فديجة معناها أننا سنهلك ، أى أنهم هاربون من هلاك محقق ،
ل الأرجح إلى أبعد من زمن المهدية .

معظم الأحيان لا يكاد يختلف فى شىء عن سكان الوجه القبلى فى مصر . وقد نجد بينهم فى كثير من الأحيان أشخاصاً يمتازون بالملامح العربية الوسيمة . ولا غرو فإن هذا الإقليم قد استحال إلى مستعمرة عربية على إثر الفتح العربى لمصر . ونزلته قبائل من ربيعة ومضر ، وبعض الجهنيين أيضاً[1]. ولكن السيادة فيه كانت لربيعة . وهو أول إقليم زالت عنه سلطة ملك النوبة المسيحى وتحول فى وقت متقدم إلى الإسلام .

وقد كانت الإمارة فى هذا الإقليم فى عهد الفاطميين لأمير ينتمى إلى قريش ، اسمه أبوالمكارم هبة الله ، ويعرف بالأهوج المطاع ، وهو الذى ظفر بأبى ركوة الخارج على الحاكم بأمر الله ، وقبض عليه ،فأكرمه الحاكم إكراماً عظيما ولقبه كنز الدولة[2] ، فانصرف الاسم إلى أتباعه ورعيته ، ولازم الاسم سكان هذا الإقليم إلى وقتنا هذا .

واللغة النوبية التى يتحدث بها جميع النوبيين تختلف اختلافاً قليلا من إقليم إلى إقليم ، فلهجات المحس والسكوت والفديجة تؤلف مجموعة متشابهة ، بينما لغة الكنوز والدناقلة تؤلف مجموعة ثانية متشابهة ، وقد قيل فى تفسير ذلك أن الجهات الوعرة فى إقليم الجنادل الوسطى حالت دون الاختلاط بأهل الشمال والجنوب ، فتشابهت لغة سكان الجنادل . غير أن هذا التفسير لا يساعد على إيضاح تشابه لهجات الدناقلة والكنوز مع بعد المسافة بينهما . ولا بد لنا أن نفترض أن الاتصال بين إقليم الكنوز والدناقلة كان كثيراً ومطرداً بحكم العلاقات التجارية بين الجنوب والشمال . ولم يكن بد لسرعة الاتصال من تجنب الإقليم النهرى الكثير الجنادل ، والذى لا يلعب دوراً خطيراً فى التجارة . فإن السلع الرئيسية كانت من مصر والسودان ، وكان كل من الدناقلة والكنوز بحكم موقع أوطانهم هم الذين يقومون بالنصيب الأكبر من تلك التجارة : لذلك كثر اتصالهم وتشابهت لهجاتهم .

(١) المسعودى فى مروج الذهب الجزء الأول ص ١٩١ .

(٢) المقريزى فى البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب (القاهرة ١٩١٦) صفحة ٥٠ .

وقد جرت عادة النوبيين ، وعلى الأخص فى النصف الشمالى من بلادهم،
على التمييز بين الضفتين الشرقية والغربية وسكانهما ، فيدعون الجهات الشرقية
وسكانها ماتوكى ، والجهات الغربية وسكانها تينوكى .وفى إشارتهم الخاصة
بهذا المعنى ما قد يفهم منه أن سكان البر الشرقى جاءوا من الشرق . وسكان
البر الغربى جاءوا من الغرب ؛ أو على الأقل هذا ما فهمه الأستاذان بنكر
وشيفر (١). وليس يبدو أن هنالك فرقاً جوهرياً فى أية ناحية من النواحى بين
سكان الشرق والغرب ، والأمر لا يعدو التمييز بين الضفتين الشرقية والغربية ،
كما هى الحال فى سكان الصعيد . ولا بد من دراسات اجتماعية وأنثروبولوجية
دقيقة لمعرفة ما بين سكان الضفتين من فروق ، إذا كانت هنالك فروق .

(طبع فينا سنة ١٩٣٢ (Nubische ...

الفصل الرابع عشر

القبائل العربية فى السودان

لقد ساقنا الحديث عن البجه وعن النوبة فى الفصلين السابقين ، إلى التوغل فى السودان إلى بعض أطرافه الشمالية . وهذه الجماعات وإن كانت لها لغاتها . فإن أكثرهم لا يدعوها « لغة » ، بل « رطانة » أى لغة حديث وكلام . وهى لا تكتب ؛ وقد تسربت إليها ألفاظ وعبارات عربية . ومن البجه والنوبة علماء وفقهاء وكتاب ، تجرى أقلامهم وألسنتهم بالعربية الفصحى . وكثير منهم فى مراكز قيادية فى المجتمع السودانى ، وكلهم أو جلهم منتظم فى طرق صوفية تجمعهم على اختلاف اللغات واللهجات مع إخوانهم العرب ، ويتبع هذا أن أوطان تلك القبائل البجاوية والجماعات النوبية وغيرها متداخلة مع أوطان العرب ، متجاورة قراهم ، وأحياؤهم .

فلا يتسرب إذن إلى الأذهان أن وجود البجه أو النوبة أضر بوحدة السودان أكثر مما أضر وجود البريتون بوحدة فرنسا .

والفضل فى لمّ شمل السودان وتوحيده يرجع إلى العروبة ؛ فهى التى جمعت بين أبناء البلاد وأشاعت بينهم روح التعاون والأخوة . . .

ولعل من المستحب أن نحدد معنى العروبة . وحسبنا هنا أن نقرر أن العروبة لها عناصر أساسية ثلاثة .

أولا : النسب العربى ، أو الدماء العربية ، أى أن تكون الجماعة أو القبيلة لها صلة نسب عربى ، وتمت بهذه إلى أصل عربى ، اشتق قديماً أو حديثاً من الجزيرة العربية ولو بطريق غير مباشر .

ثانياً : الديانة . وهى فى هذه الحالة الإسلام . الدين الحنيف الذى حمل رسالته النبى العربى محمد بن عبدالله ، وانتشر على يد العرب وأتباعهم إلى سائر الأقطار ، وكان دعاته فى القرون الأولى ، وفى كثير من القرون التالية من العرب أنفسهم .

ثالثاً : اللغة العربية ، التى انتشرت بانتشار العرب ، واقتبستها وتأثرت بها شعوب كثيرة صاهرت العرب واتصلت بهم ، وأصبحت بفضل هذا الاتصال وتلك المصاهرة تمثل ركناً أساسياً من أركان العروبة .

ودراستنا لعروبة السودان ترينا فى غير لبس ولا غموض أن هذه العناصر الثلاثة : النسب العربى والإسلام واللغة العربية قد أثرت فى السودان تأثيراً واسعاً عميقاً . ولا يفوتنا أن نلاحظ أنه ليس فى السودان جماعة اقتبست اللغة العربية وحدها ، دون أن تعتنق الإسلام ، كما هى الحال فى مصر وفى بعض الأقطار العربية . . بل إن الإسلام الظاهرة الثقافية الأولى التى كان لها أوسع الانتشار ، وإليها يرجع الفضل الأكبر فى توحيد العناصر وامتزاجها .

أما الأطراف الجنوبية للسودان ، التى لم تتصل بالعروبة إلا منذ منتصف القرن الماضى ، فهى أيضاً قد تأثرت بالعروبة تأثراً واضحاً . فكثير من الدنكا والشلك اعتنقوا الإسلام وتعلموا العربية ، وكذلك توغلت العروبة فى جبال النوبا ، وانتشرت فى بحر الغزال؛ ولولا ظروف وملابسات سياسة غير طبيعية ، لكانت العروبة فى هذه الأقطار أبعد مدى وأوسع انتشاراً ، ولكان هذا عاملا هاماً فى ترقية البلاد ، والنهوض بسكانها .

فالجماعات العربية إذن هى العناصر السائدة فى السودان كله ، والتى لها الفضل فى نشر العروبة فيه . وهذه الجماعات منظمة تنظيما قبلياً ، أى أن كل فرد ينتمى إلى قبيلة من القبائل . ومع أن ظروف الحياة الحديثة ، والتجمع فى المدن واتخاذها مستقراً ومقاماً ؛ وكل هذا مما أضعف الصلات القبلية أحياناً ، فأصبح بعض السكان ينتسب إلى المدينة التى يعيش فيها ، لا إلى قبيلة من القبائل ، فإن الأغلبية الساحقة لا تزال محتفظة بصلاتها القبلية إلى اليوم .

ومن الناس من يزعم أن العصبية القبلية قد تضر الوحدة القومية ، وهذه مرحلة – إن وجدت – فقد تخطاها السودان منذ زمن بعيد . والذى نشهده اليوم أن الروابط القبلية فى السودان لم تضر الوحدة القومية فى أية ناحية من النواحى . وليس هناك تعارض إلا فى أحوال شاذة بين الإخلاص للوطن والإخلاص للقبيلة ، وهناك فائدة محققة فى انتساب المرء إلى قبيلة يجلها ويفخر بها لأن هذا خليق أن يرتفع به عن كل عمل يشين سمعة القبيلة أو يلحق بها ضرراً .

• • •

انتشرت العروبة إذن انتشاراً واسعاً شمل معظم جهات السودان . ولكى تنتشر العروبة هذا الانتشار الواسع ، وتؤثر هذا التأثير الشامل . لا بد لذلك من زمن طويل . ومن الخطأ ما ذهب إليه بعض الكتاب من أن انتشار العروبة فى السودان لم يبدأ إلا بعد إتمام فتح دنقلة ، فى أوائل القرن الرابع عشر ، أى أنه لا يرجع لأكثر من خمسة قرون مضت . فإن أصحاب هذا الرأى يتوهمون أن انتشار العروبة لا يتم إلا بعد تأسيس دولة عربية ، فيخلطون بين السياسة والعروبة . وقد سبق أن أشرنا إلى العناصر الأساسية للعروبة وهى النسب العرفى واللغة العربية والإسلام ، ولا علاقة لهذا كله بقيام حكومة عربية أو إسلامية بالمعنى المألوف . ففى السودان مثلا مناطق واسعة عاشت فيها الجماعات العربية خاضعة للنظام القبلى ، دون أن تؤلف من بينها دولة أو حكومة موحدة .

وإذا افترضنا حسن النية عند أولئك الكتاب الذين يزعمون أن انتشار العروبة فى السودان شىء حديث ، فمن الجائز أنهم يتوهمون أن الطريق الوحيد إلى السودان ، الذى يمكن للعروبة أن تسلكه هو وادى النيل ، عن طريق أسوان فوادى حلفا فدنقلة فبرى ، أى التزام مجرى النيل . ونظرة إلى خريطة السودان الشمالى كافية لأن ترينا أن هذا ليس الطريق الأمثل للوصول إلى السودان ، لأنه طويل جداً وكثير الالتواء ، وغير ملائم بوجه خاص للقبائل التى تنتقل

بقطعانها وماشيتها ، لأنه إقليم زراعى مزدحم بالسكان ، تسوده حكومة منظمة كثيراً ما تفرض الضرائب أو تقيم العراقيل أمام القبائل الرعوية التى تخترق بلادها . وإذا كان عدد القوافل كبيراً ، فإن سلوك هذا الطريق يبدو بالنسبة إليها عملا شاقاً ، أما الجماعات الصغيرة ، فليس من الصعب عليها أن تسلكه . مع وجود حكومة غير عربية ، وسنرى فيما يلى أن سلوك هذا الطريق بالنسبة إلى الجماعات الصغيرة كان أمراً مألوفاً فى أول الإسلام ، بل قبل الإسلام أيضاً .

أما الطريق من مصر إلى السودان ، الذى كانت تستخدمه القوافل ، والذى يرجع استخدامه إلى زمن بعيد جداً ، فهو الطريق الصاعد من أسوان إلى كرسكو ، وقبل كرسكو بمرحلة أو مرحلتين ، ينفصل هذا الطريق عن نهر النيل ، ويذهب فى اتجاه جنوبى شرقى ، مخترقاً بيداء العتمور ، حتى يلتقى بنهر النيل مرة أخرى بالقرب من المكان الذى تقع فيه بلدة أبى حمد الآن ، ولم يكن هذا هو الطريق المألوف فى الزمن القديم فحسب ، بل فى الأزمنة الحديثة أيضاً ، كما نرى ذلك فى رحلات المستكشفين أمثال بركهاردت وغــيره .

فلا داعى إذن لأن نصل انتشار العروبة فى السودان بالاستيلاء على مملكة دنقلة . وتحويلها إلى مملكة إسلامية ، لأن توغل العروبة فى بلاد النوبة نفسها قد سبق الفتح بقرون طويلة ، ولم يكن الفتح سوى المرحلة الأخيرة فى ذلك التوغل .

ولكى نحاول أن نرسم صورة صحيحة لتاريخ العروبة فى السودان يجمل بنا أن نبدأ بالنظر إلى الأمور الآتية :

١ ــ إن اللغة المصرية القديمة انطبعت بالطابع السامى فى زمن قديم جداً ، وهذا الطابع كان مصدره الجزيرة العربية ، وكان بلا شك نتيجة هجرات قديمة إلى وادى النيل ، وليس من السهل أن نقرر تاريخ هذه الهجرات ، ولكن مما لا شك فيه أنها قديمة جداً ، لأن أقدم النصوص المصرية ، كانت

مطبوعة بذلك الطابع السامى ، وانتقال القبائل من شمال الجزيرة العربية إلى شبه جزيرة سينا والصحراء الشرقية كان أمراً مألوفاً قبل الإسلام وبعده .

٢ - ومن المعروف تاريخياً أن عرب اليمن هاجروا إلى الحبشة ، ونشروا فيها الثقافة العربية ، فى وقت سابق للقرن العاشر قبل الميلاد على الأقل ، وقد وصل هذا التأثير إلى الأطراف الشمالية للهضبة أى إلى حدود السودان كما نعرفه الآن . فهل وقف هذا التأثير عند تلك الحدود ، وهل كان مقصوراً على القبائل اليمنية ؟ من الصعب أن نتصور أن هذا التأثير لم يتناول غير بلاد الحبشة ، أو أن بلاد اليمن وحدها كانت مصدر تلك الهجرات ، إن سكان الحجاز فى أول الإسلام وقبله كانوا يعرفون بلاد الحبشة تمام المعرفة ، ولذلك آثر بعضهم أن يهاجر إليها هرباً من الاضطهاد الذى تعرض له المسلمون فى بداية الدعوة .

٣ - إن عدداً من الممالك المنتشرة حول بحيرة تشاد ، إلى الغرب من السودان مثل كانم وبرنو ، ترجع بنسبها إلى سيف بن ذى يزن ، وهو من ملوك التابعة . يروى لنا هذا ابن بطوطه كما يرويه العمرى صاحب المسالك والممالك وغيرهما ، ولا يزال هذا الرأى سائداً عند هذه الجماعات إلى اليوم ، ومن الصعب أن نحكم ببطلان هذا الزعم ، وأن هجرة يمنية لم تؤثر على الأقل فى الطبقات الحاكمة فى تلك الأقطار ، قبل الإسلام ببضعة قرون .

فإذا نظرنا إلى هذه الأمور مجتمعة ، وأكثرها ثابت ثبوتاً تاريخياً ، كان من الصعب علينا أن نصدق أن هذه الهجرات التى مصدرها جزيرة العرب ، قد أثرت فى مصر وبلاد الحبشة ، والبلاد الواقعة غرب السودان ، دون أن تؤثر فى السودان نفسه .

ولعل هذه الاعتبارات وأمثالها هى التى دعت مستر ريد لأن يحكم بأن هجرة العرب إلى السودان قديمة . فيقول فى بعض مقالاته :

« والحقيقة الراجحة أنه قبل تدفق العرب الفاتحين إلى مصر بزمن

طويل ، اخترقت جماعات عربية البحر الأحمر ، ونزلوا السودان الشرقى ، وكثيراً ما اتخذوا لأنفسهم زوجات من بنات السكان الحاميين ، واستطاعوا بفضل قانون الوراثة عن طريق الأم ، أن يرثوا أحياناً مناصب ذات خطر »(١) .

وكلام مستر ريد وإن كان منصباً على شرق السودان ، لأنه متصل بالموضوع الذى يعالجه ، فإن الاعتبارات والظروف الجغرافية تجعل مثل هذا التحديد أمراً مستحيلا .

ونظراً لأن القبائل العربية ، التى من طبعها التجول والانتقال من مكان إلى مكان ، وتغلب عليها البداوة ، كانت تسودها الأمية فى العصور المتقدمة ، فليس من السهل أن نجد وثائق تاريخية مدونة . ومع ذلك فإن هنالك بعض الوثائق ، مما ترتب على اتصال الحكم العربى لمصر ، بالجهات الشمالية من السودان . وجدير بنا أن نتأمل فى بعض هذه الوثائق :

بعد فتح العرب لمصر بعشرة أعوام (أى فى سنة ٦٥١ م) غزا عبدالله ابن سعد بن أبى السرح بلاد النوبة ، وفتح مدينة دنقلة (أى ما يسمى الآن دنقلة العجوز) وعقد معاهدة حفظ لنا نصها المقريزى نقلا عن المؤرخ النوبى عبدالله بن أحمد بن سليم الأسوانى ، الذى كان يكتب فى القرن التاسع الميلادى(٢) أولها :

« بسم الله الرحمن الرحيم . عهد من الأمير عبدالله بن سعد بن أبى السرح لعظم النوبة ولجميع أهل مملكته ، عهد عقده على الكبير والصغير من حد أرض أسوان إلى حد أرض علوة » . . . وجاء فيها « وعليكم حفظ المسجد ،

---

(١) راجع المقالة فى مجلة Sudan Notes and Records الجزء الثانى من المجلد الثالث عشر سنة ١٩٣٠ ص ١٥٠ .

(٢) اسم كتاب ابن سليم : كتاب تاريخ النوبة والمقرة وعلوة والبجه والنيل . ولم يعثر على أصل هذا الكتاب بعد وقد نقل المقريزى نص المعاهدة فى ص ٣٢٢ من الجزء الأول من الخطط (مطبعة النيل سنة ١٣٢٤ هـ) .

الذى ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم ، فلا تمنعوا عنه مصلياً ، وعليكم كنسه وإسراجه وتكرمته ، إلى آخرما جاء فى ذلك العهد .

والذى يهمنا أن نوجه النظر إليه هو أن المسلمين فى هذا الوقت المتقدم ، بعد الهجرة بواحد وثلاثين عاماً ، وبعد فتح مصر بعشر سنوات ، كانوا قد بنوا مسجداً فى عاصمة مملكة دنقلة النصرانية ، يؤمه المصلون ، وكان لهذا الأمر من الخطر ما جعل المحافظة عليه شرطاً أساسياً من شروط المعاهدة .

إن انتصار عبدالله بن أبى السرح لم يكد يتم ، حتى عقدت المعاهدة . فلا يمكن أن يكون الجيش هو الذى ابتنى هذا المسجد ، بل لا بد من التسليم بأن قد ابتناه مسلمون مقيمون فى دنقلة . وأن عددهم كان كبيراً مما يبرر بناء المسجد . وكانوا مقيمين فى دنقلة بصفة دائمة ، حتى تكون هناك حاجة لإنشاء مسجد .

فكيف وصل الإسلام إلى مدينة دنقلة العجوز فى هذا الوقت المتقدم ؟ بديهى أنه كانت فى بلاد النوبة جالية عربية مستوطنة ، ولها اتصال وثيق بما يجرى فى البلاد العربية من التطورات ، لأنه من الصعب أن نتصور أن العرب هاجروا إلى بلاد النوبة بعد الإسلام مباشرة ولا بد من التسليم بأن العرب قبل الإسلام كانوا يعرفون بلاد النوبة ، ويختلفون إلى ديارها ، وكانت إقامتهم بها مثل إقامتهم فى جهات أخرى من السودان ، حادثاً طبيعياً نتيجة الاتصال القديم بين أوطانهم فى الجزيرة العربية ، وبين الجهات التى نزلوها فى السودان .

ثم انظر إلى إشارة الأمير ابن أبى السرح فى العهد بأنه يسرى على الإقليم الممتد من حدود أسوان إلى حدود علوة ، وهى فى النيل الأزرق بالقرب من الخرطوم . إن الأمير أراد أن يثبت حقوق العرب فى كل هذا الإقليم .

فإذا صح ما ذهبنا إليه من وجود عناصر عربية فى دنقلة قبل الإسلام ، فإنها بلا شك لم تنزل هذه الديار ، إلا بعد أن انتشرت فى جهات أخرى من

السودان الشرقي . مما يؤكد قدم الهجرة إلى السودان . وقد ساعد وصول الإسلام إلى دنقله على انتشار العروبة فى بلاد النوبة فأخذت تتقدم تقدماً مطرداً وبزداد عدد المسلمين فيها تباعاً ، حتى إذا تم فتح دنقلة فى أول القرن الرابع عشر كان هذا بمثابة المرحلة الأخيرة فى انتشار العروبة فى بلاد النوبة ، لا أول مرحلة فيه كما يتبادر إلى بعض الأذهان .

ويحكى المسعودى فى مروج الذهب أنه فى القرن الأول والثانى الهجرى أخذت قبائل عربية من الحجاز تتخذ لها أوطاناً دائمة فى الإقليم الواقع جنوب أسوان إلى القرب من وادى حلفا ، مع أن هذا الإقليم كان من الوجهة السياسية جزءاً من مملكة دنقلة ، فلم يلبث أن انسلخ عنها ، وتألف منه قطر تسوده العروبة ، ويدعى باسم مريس . وهى كلمة قبطية معناها الجنوب . أى الإقليم الذى يلى مصر جنوباً ، ولم تكد العروبة أن تستقر فى هذا الإقليم حتى أخذت تتدفق منها موجات جديدة إلى السودان ، لا عن طريق النيل ودنقلة ، بل عبر الصحراء وعن طريق العتمور إلى شمال السودان على النحو الذى وصفناه من قبل .

وكان هناك طريق آخر سلكته العروبة إلى السودان ، وهو الإقليم الشرقى الواقع بين النيل والبحر الأحمر ، وهو الإقليم الذى يشمل أوطان البجه . . وقد كان سكانه دائماً شديدى الاتصال بأهل مصر منذ الأزمنة القديمة . ولذلك كانوا يتأثرون بسرعة بكل تطور يحدث فى مصر ؛ هذا إلى جانب اتصال بلادهم عن طريق البحر الأحمر بالجزيرة العربية . فليس بمستغرب أن نرى ابن سليم المؤرخ الأسوانى يحدثنا أن الإسلام أخذ ينتشر فى بلادهم فى زمن عبدالله بن سعد بن أبى السرح . . . .

ولعل أول معاهدة هامة عقدت بين البجه وبين الدولة العربية ، عقدت بعد انتشار الإسلام بينهم ، وترجع إلى عصر المأمون فى القرن التاسع الميلادى . فقد عقدت بين عبدالله بن الجهم حاكم مصر ، وبين عظيم البجه الشماليين المسمى كنون بن عبد العزيز ، واسم كنون من الأسماء المعروفة لدى البجه ،

واسم عبد العزيز دليل على تغلغل العروبة بينهم ، وليس بمستغرب أن يكون زعيم البجه وهو مسلم ممن يثيرون القلاقل والمنازعات ، لأن الشعوب البدوية لا تقبل الخضوع إلى الحكم المنتظم وكثيراً ما تعاهدوا مع حكام مصر .

والمعاهدة التي نحن بصددها لها أهمية خاصة لتقدم زمنها ، ولا يتسع المقام هنا لذكرها برمتها لأنها طويلة ، ومن أهم ما يلفت النظر فيها النص على المحافظة على المساجد التي بناها المسلمون في بلاد البجه . وعلى تيسير دخول عمال أمير المؤمنين لقبض صدقات من أسلم من البجاه[1] .

هذا نص خطير لأن عمال أمير المؤمنين لا ينتقلون لقبض دراهم معدودة من أفراد قلائل ، مبعثرين في بلاد البجه ، بل لا بد أن كان عددهم كبيراً ، وكانوا منتشرين انتشاراً واسعاً .

وفي آخر المعاهدة نص طريف ، يسترعى النظر وهو أن هذه المعاهدة قد ترجمت إلى لغة البجه ، ترجمها حرفاً حرفاً اثنان : زكريا بن صالح المخزومي من سكان جده ، وعبدالله بن إسماعيل القرشي .

فكيف تسنى لزكريا هذا وزميله القرشي أن يعرفا لسان البجه معرفة تمكنهما من ترجمة معاهدة طويلة ، ترجمة حرفية ؟ أليس في هذا دليل لا يحتمل الشك على أن سكان الحجاز وعلى الأخص سكان تهامة ، كانت لهم صلات منتظمة مع سكان السودان الشرقي ، وأن العرب كانوا يقيمون في تلك الجهات إقامة تمكنهم من إجادة لغتهم ، والتحدث بها في سهولة ويسر .

فلا يبقى مجال للشك في أن الاتصال بين الجزيرة العربية والسودان ظاهرة قديمة جداً . ولئن كان انتشار العروبة قد اشتد بعد ظهور الإسلام ، إن أكبر سبب لهذا أن نواة هذا الانتشار كانت موجودة قبل الإسلام بقرون عديدة .

وقد سبقت الإشارة إلى اهتمام عبدالله بن أبي السرح ببلاد علوة . وكانت مثل دنقلة مملكة مسيحية . وكانت عاصمتها سوبه على الضفة اليمنى للنيل الأزرق

---

(١) راجع النص في المقريزي في الجزء الأول من الخطط ص ٣١٣ .

على بعد عشرة أميال من الخرطوم . ويحدثنا المقريزى نقلا عن ابن سليم أن العاصمة سوبه مدينة عظيمة فيها رياض وبساتين ، وفيها رباط للمسلمين ، ولملكها جيش عظيم ، وعنده من الخيل أكثر مما عند ملك النوبة ، ونحن نعلم من مصادر أخرى أن الخيل كانت من أهم السلع التجارية التى يستوردها السودان ، وأنها كلها خيول عربية . والاتجار فيها قديم . وإلا لما كانت متوفرة فى سوبه بهذه الكثرة فى القرن التاسع الميلادى .

يتضح من هذا أن النفوذ العربى قد بلغ سوبه . الواقعة فى قلب السودان حيث يلتقى النيل الأبيض والأزرق (وابن سليم يسميه النيل الأخضر) حتى كان فيها رباط للمسلمين ، أى مستعمرة ينزلون بها فى غدوهم ورواحهم ، ولإقامة من شاء الإقامة . كذلك يثبت لنا أن المهور العربية كانت تجلب إلى النيل الأزرق ، وكانت تأتى فى الغالب عن طريق البحر الأحمر . لأن طريق الصحراء من الشمال قلما يصلح لنقل الخيل .

وهذه أدلة تاريخية على انتشار العروبة فى جهات مختلفة فى صميم السودان فى وقت متقدم جداً فى العهد الإسلامى ، ولا يمكن أن يبلغ انتشار العروبة هذا الحد فى هذا الزمن المتقدم ما لم يكن هناك انتشار سابق للعرب فى السودان قبل الإسلام .

والشواهد التاريخية التى ذكرناها تخص أقاليم محدودة فى السودان ، دعت بعض الظروف إلى أن تخص بالذكر . أما الجهات الأخرى التى لم يتح لها مثل هذه الظروف ، فلم نعثر إلى الآن على وثائق مدونة خاصة بها . ولكن من الخطأ أن يتخذ هذا الدليل السلبى برهاناً على أن العروبة لم تنتشر فيها إلا مؤخراً .

• • •

الآن وقد تبين لنا — بفضل ما لدينا من معلومات أكيدة — أن العروبة فى السودان ليست حادثاً جديداً يرجع إلى قرون قليلة مضت ، نستطيع الآن

أن ننظر إلى التوزيع الحالى للجماعات العربية ، وإلى أقسامها الرئيسية ، والطرق التى سلكتها حتى وصلت إلى أوطانها الحالية .

وقبل أن نذكر أقسام القبائل العربية فى السودان ، لا بد أن نذكر أن العرب فى بلادهم الأصلية كانوا دائماً ينقسمون إلى قسمين عظيمين : الجنوبين والشماليين . أى سكان اليمن وما يليها من الأقطار فى الجنوب ، والحجاز ونجد فى الشمال . وقد كان يطلق عليهم اسم العرب العاربة والعرب المستعربة ، كما يطلق عليهم اسم قحطان وعدنان . ولعل هذه التسمية الأخيرة أنسب من كلمة الجنوب والشمال ، خصوصاً بعد أن هاجرت القبائل اليمنية ، وانتشرت فى جهات مختلفة من الحجاز ونجد وعلى حدود الشام والعراق ، فأصبح وصفهم بأنهم جنوبيون لا ينطبق على الأوضاع الجغرافية .

وبمناسبة الإشارة إلى القبائل اليمنية والعدنانية يجمل بنا أن نذكر أنه فى العصر الجاهلى ، كانت القبائل اليمنية تمتاز بالملك والسيادة ، حتى كنا نجد القبيلة العدنانية أحياناً يسودها أمير يمنى . فكان للقبائل القحطانية فى ميـــدان التسامى والتفاخر ميزات واضحة ، إلى أن بعث الرسول الكريم من قريش : فرجحت بذلك كفة عدنان . وكلما اقترب النسب من بنى هاشم كان ذلك أدعى إلى الفخر . وإن كان النبى صلى الله عليه وسلم قد نهى عن العصبيات الجوفاء ، وأكد أنه لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى ، ومع ذلك فإن كان لا بد من التفاخر فإن فى النسب القحطانى مجالا واسعاً للفخر .

• • •

فى كل مكان هاجر إليه العرب نرى القحطانيين والعدنانيين ممثلين تمثيلا قوياً . وكذلك الحال فى السودان ، حيث ينقسم العرب إلى مجموعات ، بعضها ينتمى إلى العدنانية والبعض إلى اليمنية . والتقسيم فى السودان يتمثل فى الجعليين العباسيين ، الذين يمثلون الشعبة العدنانية والجهنيين الذين يمثلون الشعبة القحطانية . وهذا التقسيم صحيح إلى درجة بعيدة ، لأن الجعليين ينتمون إلى

العباس عم الرسول ، فهم إذن من عدنان ، وجهينة فرع من قضاعة وهى من أعظم القبائل القحطانية وأكثرها عدداً وانتشاراً فى مختلف الأقطار .

والجعليون والجهنيون يمثلون فيما بينهم نحو تسعة أعشار القبائل العربية فى السودان ، وهناك قسم آخر قليل العدد . ولكن كان له شأنه فى تاريخ العروبة فى السودان . وهذا القسم يتمثل فى قبائل الكواهله أو بنى كاهل ، الذين ينتهى نسبهم إلى كاهل بن أسد بن خزيمة .. وبذلك يتصل نسبهم بمضر وبعدنان . غير أنهم يمثلون مجموعة مستقلة عن القبائل العباسية . فإن هجرتهم إلى السودان جاءت عن طريق البحر الأحمر ، فكان لهم على قلة عددهم أثر كبير فى نشر العروبة بين قبائل البجه ، وبوساطتهم اتصلت أنساب البجه بالنسب العربى الصريح .

ولسنا نريد بتقسيم القبائل العربية فى السودان إلى مجموعات ، أن نظهر أن بينها فروقاً جوهرية ، حيث لا توجد فروق ، بل فائدة هذا التقسيم أنه وسيلة نهتدى بها إلى شرح توزيع تلك المجموعات ، وإلى طرق الهجرة التى سلكتها ، وبعبارة أخرى إن هذا التقسيم عنصر أساسى فى دراسة انتشار العروبة فى السودان ، وهذا هو السبب الذى يدعونا لأن نتناول كل مجموعة على حدة :

الجعليـون :

يجب علينا أن نميز بين قبيلة الجعليين ، وبين « مجموعة » الجعليين أو العباسيين . فإن قبيلة الجعليين التى تعيش على ضفاف النيل ، ما بين مصب عطبرة شمالا وخانق سبلوقى جنوباً ، هى إحدى الوحدات أو القبائل الجعلية ، ولعلها الوحدة الرئيسية فى المجموعة كلها . أما المجموعة الجعلية كلها فتشمل على قبائل أخرى لها أسماء خاصة بها ، مثل قبيلة الشايقية والرباطاب والبديرية والميرافاب .. الخ . وهؤلاء هم الذين ندعوهم باسم المجموعة الجعلية أو العباسية .

هذه المجموعة العظيمة من القبائل العربية تمتد أوطانها من دنقلة فى الشمال ،

إلى بلاد الدنكا فى الجنوب ، كما أن لهم أوطاناً أخرى بعيدة عن النهر فى سهل البطانة وكردوفان غير أن هذه الأوطان ما هى إلا تفرعات للأوطان النهرية . التى تحتل من نهر النيل مسافة تبلغ زهاء الألف كيلو متر . وليس هناك مجموعة أخرى متحدة النسب تحتل من النهر مسافة تقرب مما تحتله المجموعة الجعلية .

ونلاحظ على هذا التوزيع ثلاثة أمور :

١ – إن بعض القبائل الجعلية قد انتشرت – كما ذكرنا من قبل – من أوطانها النهرية ، واتخذت لها أوطاناً فى كردوفان : مثل الجوامعة والبديرية . وبعضها مثل البطاحين استوطن جزءاً من سهل البطانة . وبعضها انتشر فى جزء من جبال النوبا ، حيث أسس مملكة تقلى ، ومن الطبيعى أن بعض القبائل التى تميل إلى البداوة ، ولم ترغب فى الاستقرار على ضفاف النهر ، وجدت مجالا للتوسع فى السهول الفسيحة شرقاً وغرباً .

٢ - هذا الانتشار على ضفاف النيل من دنقلة فى الشمال إلى خط عرض ١٢° ، ليس مطرداً . بل فيه انقطاع فى جزء محدود من وادى النيل الأبيض تحتله بعض قبائل الكواهلة .

٣ – فيما عدا ذلك نجد أن المجموعة الجعلية تحتل الوادى كله ، لا ينازعها فيه منازع ، اللهم إلا فى الأطراف الشمالية فى مديرية دنقلة ، وفى الأطراف الجنوبية ، فيقاسمها الوادى فى الشمال جماعة الدناقلة ، وفى الجنوب جماعات من البقارة ، وفيما عدا ذلك يسود العباسيون المساحات المتاخمة لنهر النيل .

هذه الحقيقة على جانب من الأهمية ، لأنها تجعلنا نرجح أن الجعليين لم ينتشروا من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب ، متتبعين مجرى النيل ، وإلا لكان احتشادهم فى إقليم دنقلة أعظم وأوضح ، بل إنهم تركزوا واحتشدوا أولا فى الجزء الأوسط ما بين أبى حمد إلى شندى . ثم أخذوا بعد ذلك ينتشرون منحدرين على النهر فى اتجاه دنقلة . وصاعدين فى النهر إلى أعالى النيل الأبيض :

وفى هذا ما يؤيد الرأى بأن الإقليم الذى هاجر منه الجعليون إلى السودان هو إقليم مريس ، الذى تقدم ذكره وما يليه من جنوب القطر المصرى . فقد أخبرنا المقريزى أنه على أثر الفتح العربى لمصر ، قد احتلت هذا الإقليم واستوطنته جماعات عربية أكثرها حجازى قرشى . فمن هذا المصدر أخذت الجماعات العربية القرشية تنتقل فوجاً إثر فوج . متجهة عبر صحراء العتمور إلى أبى حمد ثم إلى سائر أوطان الجعليين .

نزل الجعليون إذن بحكم ظروف هجرتهم ، وطرقهم التى سلكوها ، على ضفاف النيل حيث العمران والسكان ، ولذلك ضموا إليهم الجماعات التى كانت تسكن هذه الجهات من قبل ، سواء أكانوا من أصل حامى أم نوبى أم بجاوى . أو من تلك السلالة القديمة التى لا نكاد نعرف عنها أكثر من اسمها المسماة بالعنج . وبذلك تم للمجموعة الجعلية احتلال الإقليم النهرى ، فأصبحوا أكبر مجموعة عربية فى السودان .

جهينة :

تعد قبيلة جهينة ، كما ذكرنا من قبل ، فرعاً من قضاعة ، ولكن هذا الفرع قد نما نمواً عظيما حتى فاق كل أصل وفرع ، وقد ظهروا ظهوراً قوياً فى الفتوح الإسلامية ، وانتشروا بوجه خاص فى مصر وإفريقية والمغرب ، ومع ذلك بقيت لهم أوطان ، بل لم تزل لهم أوطان على شواطىء البحر الأحمر وهذا التضخم الكبير لقبيلة جهينة واتساع مواطنهم على شواطئ البحر الأحمر فى مقابل مصر والسودان هو وحده يفسر لنا كيف تسنى لهم أن يتخذوا كل هذه الأوطان العديدة ، وأن ينتشروا فى كل إقليم دخلته الفتوح الإسلامية .

وإذا كانت المجموعة الجعلية بوجه عام ، قد انتشرت فى الإقليم النهرى من السودان ، فإن المجموعة الجهنية قد انتشرت فى الشرق ، وفى الغرب ، وبذلك يتسنى لنا أن نقسم الجهنيين إلى مجموعتين : الأولى شرقية والثانية غربية

وقلما تدعى قبائل جهينة فى السودان بهذا الاسم ، لأن هجراتهم وانتشارهم

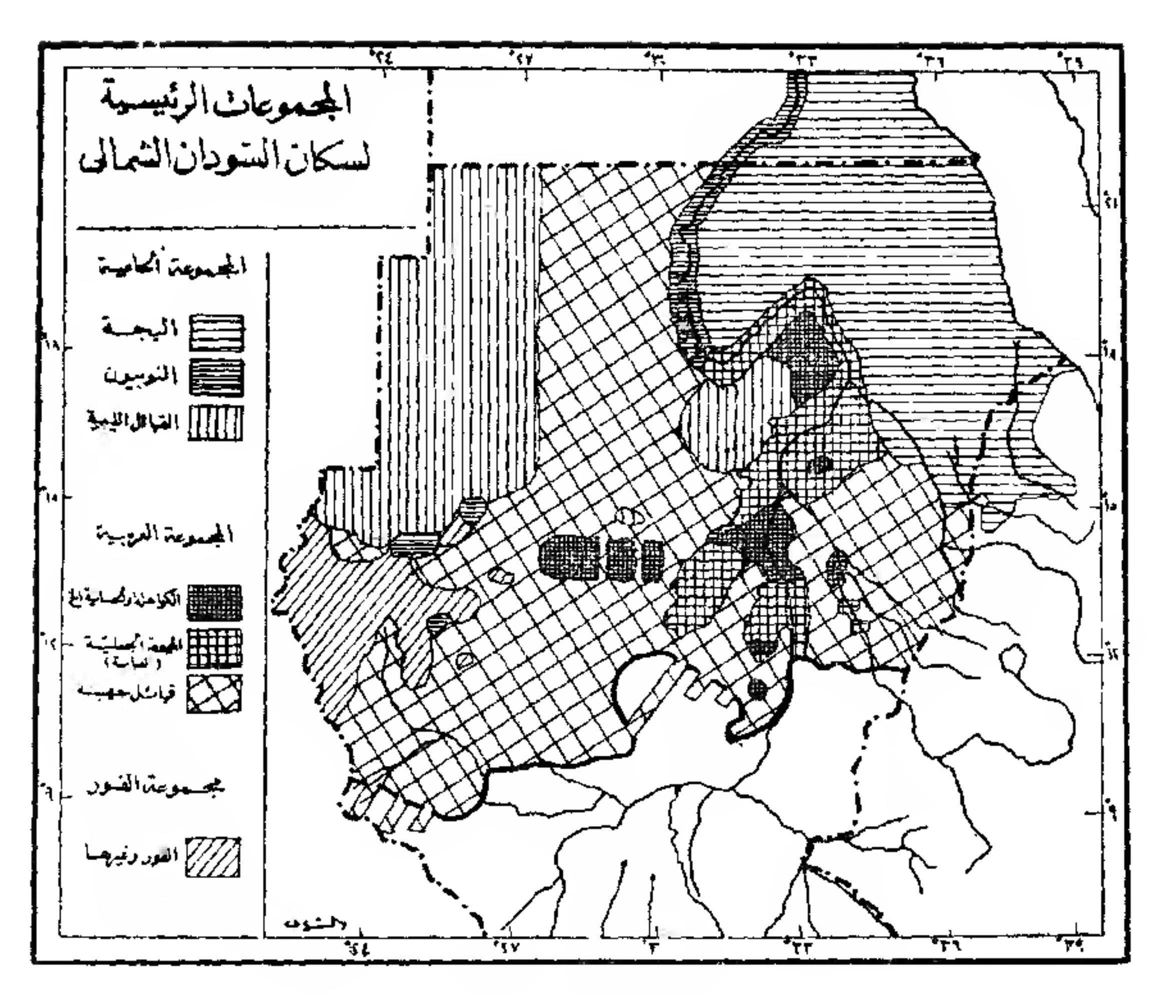
كان متفرقاً وموزعاً فى أزمنة مختلفة ، وسلكوا إلى أوطانهم الحالية طرقاً مختلفة . ولم يحتشدوا كالجعليين فى إقليم واحد ، ثم انتشروا منه فى سائر أوطانهم . لذلك نرى القبائل الجهنية يدعى كل منها باسمه الخاص . مثل الشكرية أو المسيرية أو رفاعة أو غيرهم .

والشعبة الشرقية من جهينة تحتل الجزء الأكبر من إقليم البطانة بين العطبرة والنيل الأزرق من أطرافه الشمالية إلى أقصى الجنوب ، حيث نجد قبيلة الشكرية التى طالما كانت هى القبيلة البارزة فى هذا الإقليم ؛ وحيث نجد أيضاً القسم الشرقى من قبيلة رفاعه . أما القسم الغربى منها فإنه يعيش فى الجانب الغربى من النيل الأزرق .

وإقليم الجزيرة نفسه تكثر فيه الجماعات المنتمية إلى جهينة ، وإن كانت قد تسربت إليه عناصر أخرى من مختلف القبائل .

وهكذا يكون المجال الأكبر لهذه الشعبة الشرقية ، هو جهات البطانة وحوض النيل الأزرق ، فإذا أكدنا أن لجهينة أوطاناً فى شرق البحر الأحمر وأن عبور البحر سهل ميسور ، جاز لنا أن نتصور أن الجهنيين الشرقيين هاجروا إلى السودان من الجزيرة العربية مباشرة ثم انتقلوا بالتدريج نحو الجنوب حتى نزلوا بأوطانهم الحالية .

أما الأقاليم الغربية ، فى كردوفان ودارفور ، فلها قصة أخرى ، فإن القبائل الجهنية ، التى اتخذت أوطانها هنا لم تأت من الجزيرة العربية مباشرة ، بل كان شأنها كشأن الجعليين . نزلت بمصر أولا ، ولعلها التزمت الجانب الغربى من وادى النيل ، ثم اتجهت إلى النصف الغربى من السودان ، والأرجح أنها لم تمس نهر النيل إلا مساً خفيفاً . ونستطيع أن نسمى هذا الطريق الذى سلكته الشعبة الغربية الطريق الليبي ، وهناك طريق مثل درب الأربعين يمتد من وادى النيل بالقرب من أسيوط متجهاً بعد ذلك إلى دارفور أو كردوفان ؛ وهو طريق معروف منذ الأزمنة القديمة . ولكنه ليس الطريق الوحيد من هذا النوع ، بل هناك طرق أخرى ، وبعضها لا يبتعد كثيراً عن النهر ،



المجموعات الرئيسية
لسكان السودان الشمالى
المجموعة الحامية
البجة
النوبيون
القبائل الليبية
المجموعة العربية
الكواهلة والجعلية الخ
الجهنة الجعلية (العبابدة)
قبائل جهينه
مجموعة الفور
الفور وغيرها

(شكل رقم ١٨)

ولا يزال الكبابيش وهم من الجهنيين الغربيين إلى وقتنا هذا يستخدمون بعض هذه الطرق الليبية لنقل إبلهم من السودان إلى أسوان ومصر .

وربما كان بين الجهنيين الغربيين من هاجر إلى السودان بعد إقامة طويلة أو قصيرة فى برقة أو طرابلس . فإن أقوالهم وأساطيرهم تؤيد هذا الرأى .

هذا والجهنيون الغربيون ممثلون تمثيلا قوياً فى كردوفان ، ولكن انتشارهم فى دارفور أضعف ، وبخاصة فى النصف الشمالى ، بسبب تكوين سلطنة دارفور وامتداد نفوذها فى تلك الأرجاء . وهم ينقسمون بوجه عام إلى قسمين رعاة إبل فى الشمال ورعاة بقر فى الجنوب ، ومن أهم القبائل التى ترعى الإبل الكبابيش ، ثم الحمر ، ورعاة البقر أكثر عدداً ويطلق عليهم اسم البقارة وهو اسم لا يطلق على أى قبيلة تمارس رعى البقر ، بل يطلق فقط على القبائل الجهنية فى كردوفان ودارفورى ، التى تعنى برعى البقر ،وهو عماد ثروتها ، وجميع البقارة من الجهنيين ، بينما رعاة الإبل فيهم قبائل ليست من جهينة .

وأشهر قبائل البقارة من الشرق إلى الغرب الأحامدة وسليم، المجاورون لنهر النيل . ثم الهبانية والمسيرية والحمر والرزيقات (وهؤلاء بلا شك أهم قبائل البقارة) . ثم التعايشة وبنى هلبه فى أقاصى الغرب من السودان .

ولم يكن العرب رعاة بقر عندما دخلوا السودان ، بل رعاة إبل ، ولكنهم عندما توغلوا فى الجنوب فى أقاليم السفانا ، نفقت إبلهم بسبب الذباب الفتاك ، فاضطروا إلى التحول إلى رعى البقر ، وأصبحوا أعظم رعاة بقر فى السودان كله ، وقد كان للبقارة فضل فى انتشار الثقافة العربية والنفوذ العربى فى جهات بحر العرب وبحر الغزال ، والجزء الجنوبى الغربى من السودان .

الكواهلة :

تعد الكواهلة مجموعة صغيرة إذا قيست إلى المجموعتين الكبيرتين ، الجعلية والجهنية . غير أن لهم فى تاريخ عروبة السودان شأناً يستحق الذكر . فهم كما سبقت الإشارة من قبل قد نزلوا فى وقت متقدم على السواحل السودانية

للبحر الأحمر ، ما بين عيذاب وسواكن ، وخالطوا البجه ، وتعلموا لسانهم وصاهروهم ، كما شهد بذلك ابن بطوطة نفسه ، فحملوا النسب العربى إلى هذه القبائل الحامية القديمة ، كما كان لهم أثر كبير فى نشر الثقافة العربية فى أرجاء القسم الشرقى من السودان .

وهؤلاء الكواهلة ، الذين خالطوا البجه وصاهروهم ، قد اندمجوا فيهم كل الاندماج ، بحيث لم يعد لهم وجود فى أقاليم البجه كوحدة قبلية مستقلة . غير أن بطوناً أخرى من بنى كاهل ، انتقلت فيما يبدو من شرق السودان ، واتخذت لها أوطاناً فى أقاليم عطبرة والنيل الأزرق ، ثم هاجرت جماعات أخرى ونزلت على النيل الأبيض ، حيث تدعى تارة باسم الكواهلة ، وأحياناً باسم الحسانية والحسينات ، كما أن هناك جماعة من الحسانية اتخذت لها أوطاناً فى صحراء بيوضه .

ولعل أهم قبيلة كاهلية اليوم ، هى قبيلة الكواهلة فى كردفان ، ويقال إن هجرتهم إلى هذا الإقليم حديثة لا ترجع لأكثر من قرنين اثنين ، ومع ذلك استطاعوا بفضل ما رزقوه من الحيلة والنشاط أن يصبحوا من أكبر القبائل التى ترعى الإبل فى كردوفان .

وبعد فإن المقام لا يسمح بالتحدث عن القبائل العربية فى السودان ، بأوسع مما أوردناه . ولا بد لمن يطلب المزيد أن يرجع إلى المراجع الخاصة بهذا الموضوع (١) .

---

(١) راجع السودان الشمالى للمؤلف وسر هارولد ماكيكل عن تاريخ العرب فى السودان (بالانجليزية) .

الفصل الخامس عشر

الشعب المصرى

فى الجزء الشمالى من وادى النيل ، يعيش شعب مصر الذى يزيد تعداده اليوم على الثلاثين مليوناً . والذى بدأ حياته فى هذا الوادى منذ بضعة آلاف من السنين ، وإن كنا لا نستطيع أن نبت فى مدى قدمه ، ولكن الرأى متفق على أنه عريق فى القدم . . وقد استطاع أن يبنى صرح الحضارة فى أرجاء هذا الوادى قبل أى شعب آخر . ولذلك كان من معجزات التاريخ بقاؤه هذا الدهر الطويل ، على الرغم من تقلب الأحداث ، يحيا حياة متصلة ، متطورة ، يتعرض فيها لبعض المحن أحياناً ، ثم لا يلبث أن يخرج منها فائزاً منتصراً .

ولا شك أن شعب مصر أقدم شعوب العالم على الإطلاق ، فإنه على فرض أن بعض عناصر الحضارة فى زعم بعض الكتاب ، قد نشأت فى بعض الجهات الآسيوية . فلا شك فى أنه لم ينشأ فى أى بقعة فى العالم شعب يعمل متعاوناً ومنتجاً ، فى حياة اجتماعية وسياسية منتظمة ، قبل ظهور شعب مصر . ومع ذلك فإن قول البعض إن أهم عناصر الحضارة . وهى الزراعة ، نشأت فى غير مصر ، لا يمكن للمحقق أن يقبله . لأن الزراعة التى بنيت عليها الحضارات الأولى كانت تقوم على زراعة الحبوب ، وبخاصة زراعة القمح . ومن المسلم به أن نشوء الزراعة كان فى بعض السهول النهرية ، التى يغطيها الفيضان فترة من الزمن ، ثم ينحسر عنها ، تاركاً حقولا واسعة معدة ومهيأة ، لأن يبذر فيها الحب . وبعد أشهر قلائل يجنى منها المحصول . . وأقل علم بفيضان النيل

برينا أنه الوحيد الذى تتناسب دورته مع دورة زراعة القمح . فالفيضان يتم فى آخر الصيف وأوائل الخريف ، ثم تنحسر المياه . أو تبدأ فى الانحسار فى شهر أكتوبر . وتكون الأرض مهيأة لتلقى البذور فى منتصف نوفبر . وهذا هو أنسب موعد لزراعة القمح .. وهذا النظام النهرى الملائم للزراعة يخالف ما نصادفه فى جهات غرب آسيا ، حيث يكون الفيضان فى أشهر الربيع وأول الصيف ، على أثر ذوبان الجليد . أو يكون فى الشتاء على أثر سقوط الأمطار الشتوية . وهذه الدورات لا تلائم دورة زراعة القمح ؛ إلا بعد أن تدخر المياه وتحفر لها القنوات . ونحو ذلك من الأمور التى تلائم مرحلة متأخرة فى التطور الحضارى ، أما المرحلة الأولى فيكون الاعتماد فيها على الطبيعة . والمساعدات الطبيعية . وهذه لا نجدها إلا فى نهر النيل وفيضانه .

كذلك وجد النظام الملكى ووحدة الحكم فى البلاد فى وقت مبكر جداً لم يتح لأى بلد آخر . . ربما كان لنهر النيل فضل فى هذا أيضاً . فإن نهر النيل فى القطر المصرى ، يجرى بانحدار معتدل ، لا هو بالانحدار الضعيف ، فيسبب المستنقعات والبرك . ولا هو بالسريع جداً الذى لا تستطيع السفن أن تصعد فيه ، واتفق فى الوقت نفسه أن الرياح التى تهب على الوادى هى ريح الشمال ؛ فتستطيع السفن أن تصعد ضد التيار — من الشمال إلى الجنوب — فإذا أرادت بعد ذلك أن تنحدر آتية بالناس وبالسلع من الجنوب ، فإن التيار كفيل بأن يحمل السفن ويدفعها دون مشقة . . .

وهكذا تضافرت الظروف الطبيعية لتيسير الاتصال بين الشمال والجنوب ، وتبادل الأفكار والآراء والمتاجر ، وتوحيد الاتجاه للبلاد كلها . وقد كان الاتحاد فترة من الزمن يقسم البلاد إلى مملكتين : العليا فى الصعيد ، والسفلى فى الدلتا . ثم اتحدت الدولتان فى دولة واحدة فى وقت مبكر جداً ، قبل أن يكون فى العالم أى شيء يشبه مثل هذا الاتحاد .

إن التاريخ الطويل لوادى النيل الأدنى . مع ما ظهر فيه من حضارة ، وما تخلف عنها من آثار فنية رائعة ، قد شغل العلماء والباحثين أجيالا طويلة ،

فإن تربة مصر وهواءها كانا كفيلين بحفظ مخلفات العصور الغابرة . وأصبحت مصر مضرب الأمثال فى ثروتها التاريخية والأثرية المنقطعة النظير . . ولعله لم يكن يحق لنا أن نتوقع ، مع وجود المغريات الهائلة بالبحث والتنقيب ، أن يهتم الكثير من العلماء بالبحث فى تاريخ الشعب المصرى نفسه ، كيف نشأ وكيف تكون على مدى آلاف السنين ، وهل ولد هذا الشعب فى هذا الوادى ، وفيه نشأ وترعرع ؟ أم نزل أكناف الوادى آتياً من أقطار أخرى . قريبة أو بعيدة ؟

إن بعض هذه الموضوعات قد عولج — ولو معالجة يسيرة — ولكنها لا تقارن إلى المجهود الضخم الذى بذل فى الكشف عن الآثار ، وتحقيق أحداث التاريخ بعامة ، والعصور القديمة بخاصة . . وألفت فى ذلك الأسفار فى كثير من اللغات والأقطار ، ولم يحظ البحث الأنثروبولوجى عن سكان مصر إلا بالنذر اليسير .

ومع ذلك فإن مجرد التفكير فى التاريخ الطويل لوادى النيل على مدى آلاف السنين ، يدعونا حتماً إلى التسليم بأن سلالات أو جماعات عديدة قد نزلت أرجاء الوادى على مر العصور . ولا بد أنها أضافت إلى السلالة القديمة عناصر جديدة . لم تكن من قبل ممثلة فى جمهرة السكان .

ولعل من المفيد أن نفرق بين العناصر التى نزلت البلاد واستوطنت بعض أرجائها واندمجت فى سكانها ، وبين العصابات التى جاءت للغزو والسلب والنهب . ثم انجابت عن البلاد ، وعادت أدراجها . فعصابة قمبيز وأتباعه من الآسيويين ، الذين جاءوا غزاة فاتحين ، ثم ارتدوا بعد نحو قرنين على أعقابهم خاسرين . لا يمكن أن يكونوا قد أثروا فى البلاد وسكانها . وهذا يقال عن الرومان وقد كان حكام البلاد منهم بضعة قرون .

وعلى نقيض ذلك العناصر التى كانت تدخل البلاد من الأقطار المجاورة أفراداً أو جماعات مسالمة ، تنشد التجارة أو الالتجاء ثم يستقر بها المقام وتندمج فى السكان على مدى القرون . وهؤلاء هم العنصر الذى يؤثر فى تكوين السكان

لأنه ينزل البلاد فى هدوء ، لا يثير عداوة ولا ضجة . ولا يقوم بتخريب ولا تدمير ، فلا تؤلب القوى الوطنية وتحشد لإخراجه من البلاد .

وعلى الرغم من أنه ليس من السهل أن نرسم صورة كاملة للمراحل التى مرت بالوادى ، وعمارته بالسكان على مضى الزمن ، فإن هذا لا يمنعنا من أن نحاول رسم شىء تقريبى ، لا يبعد عن الواقع كثيراً . .

والخطوة الأولى فى هذا السبيل أن نشير إلى الظروف الطبيعية للقطر المصرى ، التى قل أن يكون لها مثيل فى العالم ، فوادى النيل كما نعلم تحف به الصحراء من الشرق والغرب . وتمتد تلك الصحراء شرقاً عبر سيناء إلى جزيرة العرب ولا تنتهى إلا على شواطىء المحيط الهندى . وتمتد الصحراء غرباً حتى شواطىء المحيط الأطلسى .

فى العهود البشرية القديمة إلى نحو عشرة آلاف من السنين ، لم تكن الصحراء – بشقيها الشرقى والغربى – مجدبة جافة كما هى اليوم ، كان هنالك عصر يدعى العصر المطير يقابل ما كان فى أوربا ويدعى العصر الجليدى . كانت الصحراء فيها مراع وفيها من الوحش أنواع وضروب ، وغير قليل من الشجر . . وهذا العصر الذى اشتمل على فترات طويلة ، لم ينته فجأة ، بل بالتدريج . . ولعل المرحلة الأخيرة منه منذ نحو عشرة آلاف من السنين ، هى التى تهمنا بوجه خاص فى تصوير بدء احتلال الوادى .

لقد كان الوادى ، فى نظر كثير من الكتاب ، يتلقى نصيبه من المطر ، أسوة بالأقاليم المجاورة ، وكان يجرى فيه النيل ، ويترتب على هذا أن تكثر فيه البرك والمستنقعات . وتمتلئ جوانبه بالأحراج والأدغال ، وتجول فيه قطعان الوحش .

وأكبر الظن أن السكان كانوا يعيشون على حافة الوادى ، دون أن يتوغلوا فيه كثيراً . وينالوا من صيده غذاءهم . ومع أنه ليس لدينا جماجم ترجع إلى هذا العصر الحجرى القديم ، فإننا عثرنا على الكثير من الصوان

المنحوت فى صورة أدوات مما ترمى به الفريسة أو تقطع ، ومن المألوف أن تكون المرحلة الأولى للمجتمع البشرى مرحلة الصيد .

ثم أخذت الصحراء بعد ذلك تجف تدريجياً ، ونزحت إلى الجنوب حيوانات كالزراف كانت تعيش فى وسطها . . . وهذا الجفاف كان يحل فى « موجات » أو فترات من الزمن يندر فيها المطر . . فيضطرب السكان ويلتمسون الماء والعشب فى البقاع التى فيها بقية من الماء والعشب . ثم تنجلى هذه الفترة وتجىء بعدها فترة من الرخاء النسبي . فيستقر الناس ، وتعود حيوانات الصيد ، ويتكاثر السكان . وقد استمرت هذه « الفترات » إلى عصر الفراعنة فى الدولة القديمة والوسطى ، بل والحديثة أيضاً .

أما الوادى فإنه أيضاً أخذ يتطور ، فتقل أمطاره ، وتنكمش فيه المستنقعات والبرك ويكثر الناس من النزول فى أكنافه . ولكثرة الحيوان أخذ الناس يحتبسون صغار الدواب ، حتى تكبر ، أو إلى الوقت الذى يريدونها لطعامهم والأنثى ربما أبقى عليها إذا بدا أنها توشك أن تلد . . وهكذا تعلم سكان الوادى فى هذه الفترة بالتدريج كيف يستأنسون الحيوان . وكان أول حيوان استؤنس فى الغالب الضأن والماعز . والأرجح أن الكلب استؤنس فى وقت سابق لأنه خير معين لمحترفى الصيد . . وبالتدريج تحول سكان الوادى إلى قوم مولعين باقتناء الحيوان . ثم لم يلبثوا أن أخذوا يستأنسون النبات أيضاً ، وأن يصبحوا زراعاً . إن المصرى شخص زراعى بالفطرة ، وهذا يرجع إلى قدم عهد السكان وأجدادهم بهذه الحرفة التى سبقوا بها الأمم ، والتى تعلمها منهم معظم الشعوب فلم تكد تقترب الألف الخامسة قبل الميلاد حتى كان فى الوادى شعب يعرف الزراعة وتربية الحيوان ، ولم يلبث أن برع فى الصناعات وبخاصة صناعة الفخار ، وكل هذا قبل العهد الفرعونى بألف أو ألفين من السنين .

ونستطيع أن نتصور أن جفاف الصحراء ، جعل كثيراً من سكانها ينزحون إلى الوادى ، بأعداد قليلة تزداد على مضى الزمن . وقد تعلم أكثرهم

كيف يربون الماشية ، ولذلك كانوا يفدون بماشيتهم يحيون حياة الرعاة ، حتى يتعلموا على مدى السنين كيف يمارسون الزراعة أيضاً . وقد دخلت البقر فى وقت مبكر فى عداد الحيوانات الهامة فى وادى النيل وفى ليبيا ، وعنى القدماء بتربيتها[1] وكان القاصدون إلى مصر من الغرب يفدون تارة مسالمين وادعين . ويعيشون بقطعانهم قريباً من الدلتا دون أن يتوغلوا فى الريف . وكذلك العناصر الوافدة من الشرق مما ندعوه الآن سوريا وفلسطين والأردن وجزيرة العرب ، وبخاصة أطرافها الشمالية . . . وتارة بالطبع كان الوافدون جيشاً محتشداً يحاول الغزو والعدوان .

وعندما تبدأ الأحداث التاريخية الخطيرة تسجل ، يتجلى أمامنا العراك العنيف بين الرعاة من الشرق والغرب ، وبين المملكة المنظمة المستقرة .

وتروى لنا الأساطير العراك الدائم بين أوزريس و « أخيه » ، بين قوى الحضارة والاستقرار ، وقوى البداوة والعدوان ، ويروى بعض هـذه الأساطير أن أعداء أوزريس ظفروا به ومزقوا جسده إرباً ، ونثروا جزءاً من الجسم ، فى كل مقاطعة ، حتى جاءت الأخت الحبيبة إيزيس فجمعت الأشلاء ، وبعثت فيه الحياة ، وأمكن لنجله هورس أن يطرد الأعداء ويوردهم موارد الهلاك .

ومن الإشارة إلى أوزريس وأخيه ست يتبين أنه من ناحية السلالة ، ليس بين البدو الغزاة والحضر المستقرين فرق ، وإنما الفرق فى أسلوب المعيشة ، ولذلك لم يترتب تغيير جوهرى فى تكوين السكان بسبب الهجرة المستمرة من جزيرة العرب ، التى لم تكد تنقطع فى أى وقت من الأوقات .

وقد التزمت الهجرات العربية الجانب الشرقى من مصر السفلى والعليا .

(١) لم يعرف المصريون القدماء الجاموس برغم انتشاره الآن . وأوطانه التى جاء منها إلى مصر فى الهند وإندونسيا . . وأكبر الظن أنه نقل إلى مصر فى عهد البطالمة باتساع التجارة . وجاء إلى مصر مباشرة ، لأنه غير معروف فى سائر إفريقية ، وقد لاءمته البيئة المصرية فتكاثر وازدهر .

كما أن أكثر الوافدين من الجانب الليبي كانوا ينزلون فيما نسميه الآن مديرية البحيرة . . وفى الصعيد .

فى جملة ما تركه المصريون من الرسوم ، صورة تحكى مظهر الشعوب الأربعة التى لها بوادى النيل صلة . فقد رسم المصريون أنفسهم باللون الأحمر ، وأهل الجنوب فى بلاد كوش وما يليها باللون الأسود ، وصوروا أهل الشرق باللون الأصفر . وسكان ليبيا باللون الأبيض . وقد كانت مصر فى تاريخها الطويل ، ومنذ عهد النشأة تفد إليها عناصر من هذه الجهات ، وبخاصة من جهة الشرق ، وأكبر الظن أن الوافدين من الشرق بدأوا قبل التاريخ المكتوب ، أى قبل عهد الأسر بزمن طويل جداً ، وأكبر دليل على هذا أن لغة مصر القديمة قد انطبعت بالطابع السامى ، فى وقت متقدم جداً ، وقد دامت الهجرة واتصلت فى كل عصر . حتى أصبحت مصر وجزيرة العرب قطرين مرتبطين بأقوى الوشائج . وبديهى أن هذه الصلات اشتدت وقويت بعد أن أصبحت مصر جزءاً من الدولة الإسلامية . فعروبة مصر ليست ظاهرة حديثة ولا ترجع لعهد الفتوح الإسلامية، بل ترجع إلى ما قبل التاريخ المسجل المكتوب .

وهكذا يتألف سكان مصر من الجماعات الأولى التى نزلت إلى الوادى ، وما أعقبته من نسل على مدى السنين ، ومن سيل لا ينقطع من المهاجرين من جزيرة العرب . وبعض النازحين من شمال إفريقية . . هذه هى العناصر الرئيسية ، وقد انضم إليهم بعض عناصر أخرى ، بسبب اتخاذ الملوك فى بعض الأزمنة جنوداً من المرتزقة ، وبسبب التجارة مع سكان البحر المتوسط ، وبعض العناصر الشركسية والبلقانية ونحوها . ولكن هذا لا يؤلف إلا نسبة صغيرة من السكان .

أما الصفات الطبيعية الأساسية لسكان مصر فقد لخصها الدكتور البطراوى فيما يلى[1]. نتيجة لدراسته للجماجم فى المقابر القديمة .

---

(١) مقالة نشرت بالإنجليزية فى المجلة الأنثروبولوجيه الملكية فى مجلدى ٧٥ ، ٧٦ فى عامى ١٩٤٦ — ١٩٤٧ .

« منذ أوائل العصر الحجرى الحديث كانت هنالك سلالتان متميزتان ، ولكنهما مرتبطتان إحداهما بالأخرى : الأولى فى الشمال فى مصر الوسطى ، والثانية فى مصر العليا . ويتميز الجنوبيون بأن نسبة الرأس أكثر انخفاضاً . والنسبة الأنفية أعلى ، والفك فيه بروز قليل ، وهذا الاختلاف بين الجنوب والشمال استمر إلى عهد ما قبل الأسر ، وفى أول العهد الفرعونى ، أخــذ العنصر الجنوبى يتراجع إلى الجنوب ، وإن بقيت منه بقايا فى الصعيد . . وأخذ العنصر الشمالى يزحف تدريجياً حتى صارت له الغلبة الواضحة فى وقت الأسرة الثانية عشرة فى جميع أنحاء البلاد » .

ويرى الأستاذ سلجمان أن المصريين القدماء يشابهون البجه : فالرأس مستطيل نسبته بين ٧٣ و ٧٥ . والجسم نحيل . والشعر المموج لا بد أن كان قليلا على الوجه ، وهو أسود والعيون سوداء . والقامة فوق المتوسط (نحو ١٦٨ سم) .

وقد حفظت المقابر جماجم كثيرة وقد بحثت ودرست . وتدل على أن تغيراً كبيراً لم يطرأ على سكان مصر ، وكانت المقابر الأولى بيضية الشكل أو مستطيلة ، تقع تحت الأرض بنحو متر . والميت يرقد على جانبه الأيسر والأرجل والأيدى مضمومة إلى الجسم . وهو ملفوف عادة فى جلد أو قماش من التيل . ومن حول الجسم بعض المقتنيات التى قد يظن أن الروح تحتاج إليها فى العالم الآخر . ومن هذه الأشياء أوعية من الفخار ومن المرمر وهى من أجمل ما صنع فى أى عصر وفى أى بلد ، وألواح من الاردواز ، وحبات عقد ، وتماثيل صغيرة ، وخناجر ، وأدوات مختلفة ، ونحو ذلك . وبعض هذه الذخائر قد يكون مكسواً بالذهب . وكان النحاس قليلا أول الأمر ، ثم أخذ يزداد فى مقابر العصر السابق للتاريخ .

وهذه المخلفات المحفوظة فى المقابر من أهم الوسائل فى الاستدلال على أسلوب المعيشة فى العهد النيوليتى . وهى تدل على شعب زراعى ، يزرع أنواعاً من الحبوب ، وكان لديه أيضاً كثير من الماعز والحمير . وكانوا

بارعين فى الصيد البرى والنيلى . وخلفوا كثيراً من الحراب النحاسية التى تستخدم فى صيد فرس البحر . وهى مشابهة تماماً لما يصنعه سكان أعالى النيل اليوم لصيد الحيوان نفسه . وكانت براعتهم فى صناعة الخزف فائقة ، ومهارتهم فى صنع أوان من المرمر منقطعة النظير .

وصفوة القول إن المصرى يكون فى الغالب أسمر البشرة ، مموج الشعر ، العيون سوداء واسعة ولوزية الشكل ، والشعر أسود أو بنى داكن . وهو قليل على الجسم . والرأس مستطيل والقامة متوسطة أو فوق المتوسطة والأصل فى الجسم أن يكون نحيلا ، على الرغم مما نراه بخلاف ذلك فى المدن . والعنق مستطيل .

هذا هو الأصل وهناك اختلافات نتيجة هجرات قديمة أو حديثة ، فقد دخل إلى مصر فى عصر بناة الأهرام سلالة ذات رأس عريض نوعاً وجمجمة ممتلئة . نراها بوضوح فى تمثال « شيخ البلد » وتمثال « الكاتب » .

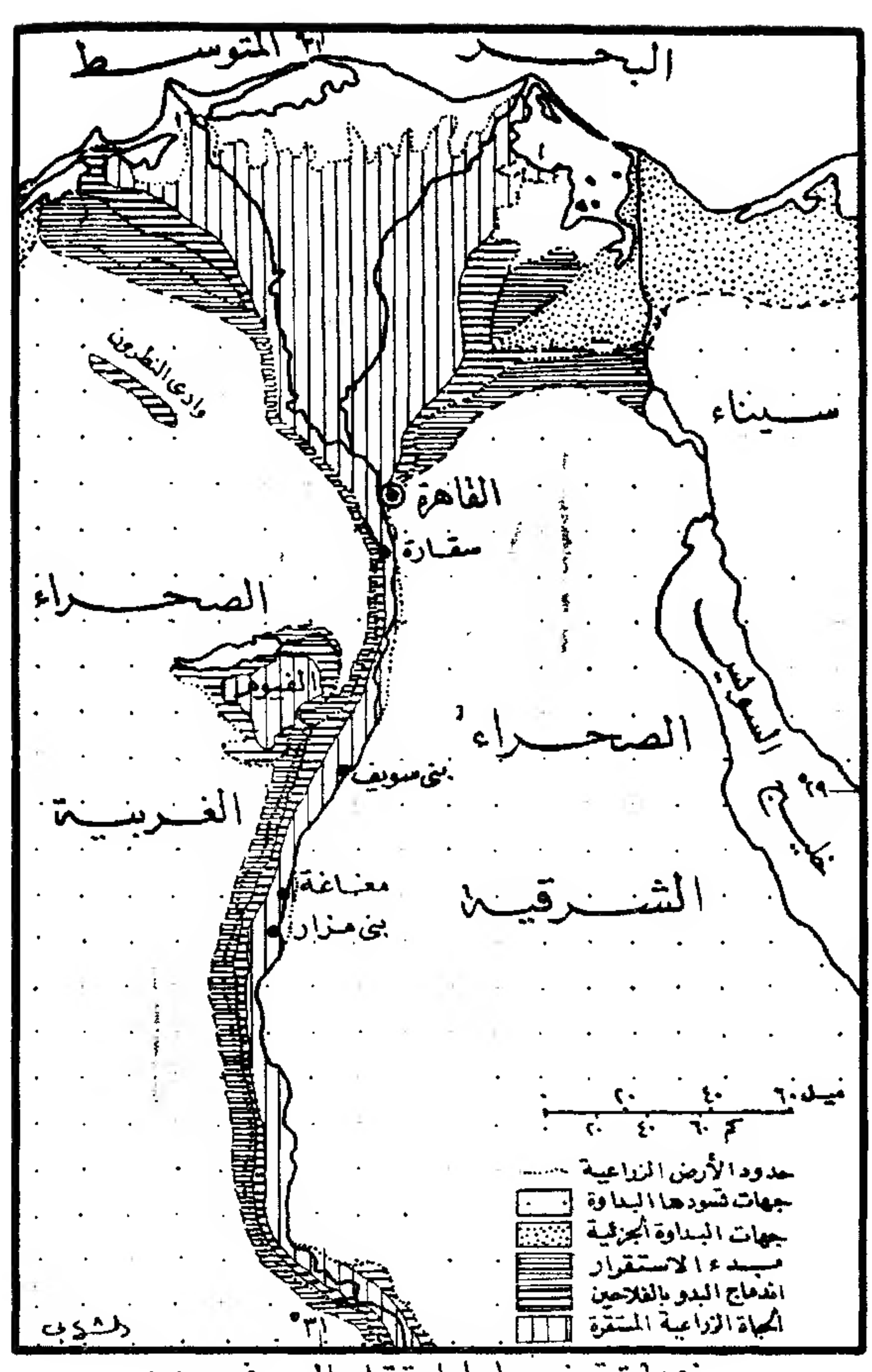
كذلك نرى أحياناً أن الشعر لولبى مع أن سائر الوجه قوقازى . وهذا يرجع فى الأرجح إلى الزواج أو التسرى بجوار من الجنوب . وهناك أشخاص وليسوا بالقليلين ، ألوانهم أكثر بياضاً . والشعر فيه صهوبة أو شقرة والعيون قد تكون أيضاً رمادية أو عسلية خفيفة .

وليس لدينا أرقام ولا دراسات نهتدى بها إلى توزيع هذه الصفات ، وهى ترجع فى الغالب إلى دخول عناصر شركسية ، أو مرتزقة فى العهد الفرعونى المتأخر . أو عناصر ليبية ؛ ومع ذلك ربما صادفناها فى صميم الدلتا أو الصعيد . وقد كان للحكم التركى أثره فقددام بضعة قرون . ولكن هذه الآثار قليلة على كل حال .

وجميع الكتــاب الذين تنــاولوا موضوع سكان مصر بالدراسة الأنثروبولوجية قد قرروا أنه ليس هنالك أى فرق بين القبطى وأخيه المسلم . . ولا عبرة بما يزعمه المرجفون خلاف ذلك ، والاختلافات فى السحنة التى نجدها عند إحدى الطائفتين ، نجدها أيضاً عند الطائفة الأخرى . . .

والمصريون كشعب زراعي مجد في حاجة إلى استقرار أموره وإلى حكومة قوية تنظم شئون الزراعة والري . وإذا اختل الحكم في مصر . اختلت الحياة كلها ، وأهملت الأعمال الزراعية . ومشروعات الري . وهلك الناس ونقص السكان كما حدث ما بين أوائل القرن السادس عشر إلى أوائل القرن التاسع عشر إذ هبط عدد السكان إلى ثلاثة ملايين . ولعله ليس في العالم بلد في مسيس الحاجة إلى الحكم الصالح كمصر .

ولا تزال مصر يفد إليها البدو من الشرق أو من الغرب . ثم يمرون بمرحلة طويلة تنتهي بهم إلى الاندماج التام في السكان الأصليين . ولذلك نرى النظام القبلي معدوماً في مصر ، وليس من المعقول في شعب زراعي عاكف على حقوله ومواشيه وغلاته ، أن يحتفظ بنظام بدوي لا يمت إلى حياته بصلة . . . والقبائل البدوية لا وجود لها إلا في سيناء والصحراء الشرقية والغربية . . وعددها قليل لا يكاد يتجاوز الثلاثين ألفاً . . وقد امتلأت الصحراء بمواقع عديدة للاستقرار في شمال ليبيا وفي وادي النطرون ، وفي مشروعات التعدين المختلفة وبعض المشروعات الزراعية في الجهات الشرقية .



خريطة توضح مراحل استقرار البدو فى ج.ع.م

الفصل السادس عشر

الأقطار المغربية

فى أوج اتساع الدولة العربية ، كان الكتاب يتحدثون عن « المشارقة » و « المغاربة » وكان هذا التمييز ينصرف عادة إلى الإشارة إلى رجال الثقافة والعلم . فيقال إن هذا الموضوع عند المشارقة له حكم وعند المغاربة حكم . وأن كاتباً « مغربياً » ينحو أحياناً نحو المشارقة . أو أن موضوعاً أو مذهباً من المذاهب الفكرية قد اختص به المغاربة ، وهلم جرا .

وهكذا قسم القدماء سكان العالم العربى إلى المشارقة ، وهذا الاصطلاح يشمل سكان العراق والشام والجزيرة العربية . والمغاربة وهذا الاصطلاح يشمل العالم العربى فى الأقطار الشمالية من إفريقية مثل برقةوطرابلس وتونس والجزائر والمغرب الأقصى والأندلس . وفى الأرجح لم يشمل هذا التقسيم مصر ، التى أخذت بنصيب من الطائفتين ، وكانت بمثابة حلقة الاتصال ولم يكن بد بعد أن اتسع العالم العربى ، وانتشر إلى شواطئ المحيط الأطلسى ، أن يشير الناس إلى جناحه الشرقى وجناحه الغربى .

وهذا الاتجاه يؤكد على كل حال الصفة العربية الخالصة لهذا الإقليم الغربى العظيم . الذى ظهرت فيه شعوب فى التاريخ القديم بأسماء مختلفة ، وغشيته الحضارة الفونيقية ، وهى ذات الصلة الوثيقة بالثقافة السامية. فترة من الزمن . ولكن جل تأثيرها كان مجاوراً للشاطئ . وكذلك ألمت به الثقافة الرومانية ، وحلت به أيضاً جماعات الوندال Vandal . ولم تترك هذه التجارب كلها أثراً فى حضارة الإقليم وثقافته ، إلى أن جاءت الفتوح الإسلامية فى

القرن السابع والثامن ، فإذا العروبة تزدهر ، وإذا الثقافة تنتشر ، وإذا العلوم العربية والإسلامية يرتفع لواؤها ، وتثبت قواعدها ، كأحسن ما نجده فى أقطار المشرق العربى . . .

ولا شك أن من المسائل التاريخية التى تفتقر إلى إيضاح ، أن هذا الإقليم من شمال إفريقية ظل بمعزل عن سيل الحضارة برغم مجاورته للرومان. إلى أن أظله الفتح العربى . فأصبح من الأقطار الممتازة بنتاجها العقلى والفنى . وأبدى فى ذلك تفوقاً وامتيازاً ، وأصبحت فيه مراكز للثقافة والعلوم الإسلامية فى مدن مثل القيروان ، وفى مسجد القرويين فى فاس . وبطريقة غير مباشرة نال مصر أيضاً حظ من هذا النشاط بتأسيس الجامع الأزهر .

وهذا الانتعاش الثقافى فى العهد العربى دون ما سبقه من العهود ربما كان من أسبابه قرابة فى السلالات أو نوع من القرابة الروحية . إن الكتاب العرب حين يتحدثون عن القبائل العربية فى جزيرة العرب وما يليها من الأقطار ، كثيراً ما يشير بعضهم إلى أن البربر من سكان إفريقية الشمالية لهم صلة نسب قديمة بالعرب[1].

ولئن كان من الصعب أن ندرك صلة النسب القديمة بين العرب القدماء والبربر ، إنه ليس من الصعب أن نتابع الأستاذ جرينبرج فيما ذهب إليه من أن لغة البربر واللغات السامية تمت كلها إلى أصل واحد . وقد سماها المجموعة الأفروأسيوية[2]. ولن تكون القرابة اللغوية قائمة دون أن تستند إلى شيء من القرابة الروحية بين العرب وسكان إفريقية، كان له الفضل فى استجابة سكان إفريقية الشمالية للمؤثرات العربية والإسلامية .

ولن نكون أيضاً مسرفين إذا ذهبنا إلى أن سيل الهجرة من جزيرة العرب قبل الإسلام وبعده لم يكن ضعيفاً ولا نادراً ، بل كان قوياً دائماً ومتصلا على

---

(١) راجع مثلا صبح الأعشى الجزء الأول ص ٣٦٠ وما بعدها .

(٢) مقال جرينبرج فى كتاب الثقافات الإفريقية African Cultures طبع جامعة شيكاجو ١٩٥٩ وهو يعد من أقدر علماء اللغات فى العصر الحاضر .

مدى القرون . ونستطيع فى ضوء هذه الحقيقة أن نصحح ما ذهب إليه الأستاذ سلجمان من أن معظم سكان شمال إفريقية (باستثناء ليبيا) من البربر المستعربين ، وأن العنصر العربى فيهم قليل .

وهو يستثنى ليبيا لأن الطبيعة الصحراوية أكثر ملاءمة للعرب البدو . . وهو هنا يخطئ خطأ مزدوجاً لأن من العرب من عرف الزراعة والاستقرار ، ومن البربر من عاش عيش البداوة والرعى . . .

ولا شك على كل حال أن ليبيا بلد عربى ، ومعظم سكانه ينتمون إلى قبيلة « أولاد على » وهو فى هذا يعد امتداداً لما نجده فى الجانب المصرى من ليبيا ، حيث نجد الفروع الشرقية من تلك القبيلة التى تمتد بطونها غرباً إلى نهاية طرابلس . . وفى وسط هذا البحر الخضم من العروبة : قد نجد بعض « الجزر » ذات الثقافة البربرية ، فنجد فى واحة سيوة فى مصر ، وفى واحة أوجلا وغيرها فى ليبيا بقية من السكان الذين لا تزال لهم لغات أو لهجات بربرية .

وإذا انتقلنا من ليبيا إلى تونس وجدنا قطراً يمتاز بثقافته العربية ، وليس فيه بقية من اللهجات البربرية إلا فى الأطراف الشمالية الغربية ، ولا يزيد من يتكلمون تلك اللهجة على اثنين فى المائة من سكان البلاد كلها . . والكتاب عن تونس يرددون كثيراً ما حدث من هجرة بنى هلال فى العصور الوسطى. إذ وفدوا بجموعهم من جزيرة العرب بإيعاز من الفاطميين ، ووجهوا نحو تونس لغزوها . ومن الجائز أن هؤلاء الهلالية قد خربوا ودمروا كثيراً . ولكننا نشك فى أنهم زادوا فى عروبة تونس . ويكون من الخطأ الزعم بأن سكان تونس من البربر ، وأنهم استعربوا نتيجة الزحف الهلالى . إن « الزحف » العربى سابق للهلاليين بقرون عديدة . ولا تعدو الإغارات الهلالية أن تكون عدواناً من عصابات من البدو على بلاد عربية مستقرة . وإن نجم عن هذا العدوان اضطراب فى الحياة الاجتماعية .

إذا مضينا غرباً نحو الجزائر انتقلنا إلى أقطار تزيد فيها نسبة المتكلمين باللغة

البربرية إلى نحو ستة فى المائة ، وأكثرهم فى الجهات الجبلية المنعزلة . . . وجمهورية الجزائر اليوم تعد من أكبر الوحدات الإفريقية مساحة . هى والسودان والكنجو . . والكلام هنا على الجزء الشمالى منها أما الجزء الجنوبى ، فأكثره واقع فى الصحراء . وسكانه القليلون سنتناولهم بالكلام فيما بعد .

وفى نهاية الاتجاه الغربى مملكة المغرب المطلة على البحر المتوسط والمحيط الأطلسى . وهنا نجد نسبة المتكلمين باللهجات البربرية يقرب من ١٥ فى المائة أما ما جاء فى كتاب سلجمان عن أجناس إفريقية[1] من أن ثلثى سكان المغرب يتكلمون لهجات بربرية ، فإنه ضرب من الوهم . وسبب ارتفاع نسبة المتكلمين بالبربرية فى المغرب ، وجود أقاليم جبلية عالية وهى جبال الأطلس الشهيرة التى تشتمل على مساحات واسعة منعزلة . فمن المعقول ألا تسهم هذه الجهات فى حركة التطور السكانى للبلاد . وكان الاستعمار الفرنسى حريصاً على التفرقة بين العرب والبربر . تبعاً للأساليب الاستعمارية البالية فى كل مكان . وكان أكبر المعادين لهذه السياسة هم قبائل البربر أنفسهم . وكثيراً ما كان يسأل الرجل من البربر . فيرد على السائل إنه عربى صميم . . وليس هنالك من ناحية الصفات الطبيعية فروق يتميز بها الواحد عن الآخر . وكلاهما معتنق للإسلام . وقد تساوى الفريقان فى مكافحة الاستعمار والمستعمرين . وقد سبق لنا أن أشرنا إلى أن الفرق بين الحاميين والساميين ، ليس مما يمكن استبانته وكان الكلام عندئذ عن الحاميين فى إفريقية الشرقية . فكذلك الحال فى الحاميين الشماليين وعرب المغرب . . لا يستطيع المرء من الصفات الطبيعية أن يستبين أحدهما عن الآخر .

وعلى الرغم من أن الحاميين فى شرق إفريقية يمتون بصلة النسب إلى البربر أو الحاميين الشماليين ، ومع أنه يحق لنا أن نتوقع تشابهاً فى الملامح

---

(١) طبعة أكسفورد عام ١٩٥٧ ص ١١٨ يقول المؤلف :

In Morocco about two thirds of the people are Berber-speaking, compaired with one third in Algeria.

(وكلا التقديرين خاطئ)

الأساسية للفريقين ، غير أنه لا بد لنا أن نحسب للبيئة حسابها ، ونأخذ بعين الاعتبار الموقع الجغرافى لكل منهما . إن هذا الموقع بالنسبة للحاميين الشرقيين يجعلهم فى شبه عزلة إلا بالنسبة لأقاربهم العرب فى الجزيرة العربية ، شرقاً ، وبعض القبائل الزنجية فى الجنوب .

أما أهمية الموقع بالنسبة للبربر ، فإنه إقليم بعيد عن العزلة ، ملاصق لأوروبا عند جبل طارق ، مما يساعد على الاتصال — كماحدث فى عصور التاريخ وما قبل التاريخ — بشبه جزيرة إيبريا وما وراءها ، والبحر المتوسط يختلف عن البحر الأحمر ، بأنه طريق مزدحم ، يعج بالحركة البشرية ، ويرتاده القرصان والمغيرون . وهؤلاء قد يجيئون من شواطئ سوريا أو الأناضول أو بلاد اليونان أو غيرها من الشواطئ الشمالية . . وفى الجنوب جهات صحراوية كانت يوماً ما أكثر سكاناً ، وبعض سكانها نزح دون شك نحو الشمال . كذلك لم يكن المؤثر الزنجي منعدماً ، سواء جلبه الجلابون ، أو جاء مجنداً فى جيش يقوده بعض القادة من سكان منطقة السفانا . هذا بقطع النظر عن أن شمال إفريقية كله كان يوماً جزءاً من الإمبراطورية الرومانية .

وهكذا ينتظر أن تكون هنالك مظاهر متعددة للصفات الطبيعية ، نلخصها فيما يلى :

١ — أول ظاهرة يتحدث عنها الكتاب عن سكان المغرب وجود عناصر تمتاز بالشقرة ، ألوانها بيضاء ناصعة ، لا يغشاها سوى السمرة الخفيفة التى تتولد من التعرض لأشعة الشمس ، وإلى جانب لون البشرة الناصع ، قد تكون العيون تمتاز بلون خفيف رمادى أو أخضر أو أزرق . وقد يكون الشعر أشقر أو أصهب أو بنياً فاتحاً أو داكناً . هذه الصفات من خصائص ما نسميه الآن « الجنس الشمالى » . وهو الآن منتشر حول البحر البلطى فى اسكندناوه وشمال ألمانيا وحول بحر الشمال ، وبلاد الصقالية الشماليين ، كما أنه موجود فى روسيا ، والشعر هنا تغلب فيه الصهوبة لا الشقرة .

هذا هو التوزيع الحالى للجنس النردى (الشمالى) بقطع النظر عمن هاجروا من أوربا إلى أمريكا وسائر جهات العالم الجديد .

فمن أين جاءت هذه الصفات « الشمالية » إلى الأقطار المغربية ؟

لقد قيل فى تفسير وجود هذه الصفات أن بيئة الجبال فى المغرب ، جعلت الإقليم فى برودة الأقطار الشمالية ، فتولدت الصفات المتشابهة فى كلا الحالين لتشابه الإقليمين ؛ وهذا الرأى — وإن كان صدوره فى أواخر القرن الماضى من أستاذ محترم ، لكن الجميع ينكرونه ، ويحكمون ببطلانه . . ومن الحق أن نستبعد هذا الرأى ، وإلا لحق لنا أن نتوقع الصفات النردية فى جميع الأقطار الجبلية وفى هضبة التبت وأثيوبيا . . .

كذلك استبعد الرأى بأن هذه الشقرة ترجع إلى إغارة الوندال Vandal فى القرن الخامس ، وهم شعب جرمانى فيه شقرة بلا شك . . أغار من ايبريا على شمال إفريقية وأقام حكومة فترة من الزمن .

وكذلك نستبعد الرأى الذى يتوهم أن الشقرة فى شمال إفريقية ترجع لتجارة الرقيق الأبيض ، وإلى القرصنة فى سواحل البحر المتوسط — وقد اشتهرت هذه السواحل بأعمال القرصنة فترة من الزمن — والاستيلاء على السفن وما بها من بضائع وسبى .

إن هذه الأسباب الأخيرة ينفيها أن ظاهرة الشقرة قد سجلها المصريون فى صور رسموها لليبيين ، وجعلوهم ذوى بشرة بيضاء وعيون خضراء وشعر أشقر ، وليس من الضرورى أن يكون كل المغيرين مما تتوافر فيهم هذه الصفات ، ولكن الرسام المصرى يسجل الظاهرات الغريبة . ويعنى بإبرازها .

وهذه الرسوم تضطرنا لأن نقرر أن وجود عناصر شمالية فى ليبيا أمر قديم يرجع إلى ما قبل القرن الرابع عشر قبل الميلاد . وهذه الجماعات كانت تغير على الجهات الغربية من دلتا نهر النيل ، فهم يزحفون براً ، ومعهم قطعانهم ودوابهم . . مما يدل على أنهم وافدون من أوطان فى شمال إفريقية .

والتعليل الوحيد لوجود عناصر شمالية فى الأقطار المغربية هو أن هؤلاء نزحوا من جهات خارجية – أوربية على الأرجح – ونزلوا ديار المغرب واتخذوا لهم أوطاناً فيها .

وهؤلاء « الشماليون » لا يمثلون إلا عنصراً واحداً من العناصر . وهم يوجدون بوجه خاص فى الجزائر فى جبال الشاوية ، وفى إقليم « القبائل » الجبلى إلى الغرب من مدينة الجزائر . ونجدهم أيضاً فى المغرب فى جبال « الريف » الواقع فى شمال المغرب ، ويوصفون بأن قامتهم فوق المتوسط ، وأن البشرة بيضاء ، ولعلها أكثر بياضاً مما نجده فى السواحل الشمالية للبحر المتوسط . أما العيون فربما كان ٢٠ أو ٣٠ فى المائة من السكان يمتازون بعيون ذات لون رمادى أو أخضر خفيف أو أزرق . أما الشعر الأشقر فلا يوجد فى أكثر من ١٠٪ ، وربما كانت هذه العناصر الشمالية قد تعدلت صفاتها بالاختلاط الزوجى على مدى القرون .

وقد تكررت هجرة هذه العناصر غرب دلتا النيل ، ولعل ما نشاهده من هذه الصفات فى بعض جهات مثل حوش عيسى ونحوها ، يرجع إلى هذه الهجرات .

٢ – الشكل السائد فى الأقطار المغربية ، مستطيل الرأس متوسط القامة يشبه العنصر السائد فى مصر . ولكن لون البشرة أقل سمرة . والشعر مموج . والأنف ضيق بارز نوعاً فى كثير من الأحيان .

وسكان الواحات لا يختلفون كثيراً عن سائر السكان ، سوى أنهم أكثر سمرة ، وربما زادت فيهم نسبة الصفات الناتجة عن تجارة الرقيق ، أو جلبهم من إفريقية لكى يشتغلوا بالزراعة (حراتين) .

وفى جزر جربه ، فى خليج قابس فى جمهورية تونس يمتاز السكان برءوس عريضة حيث تصل النسبة الرأسية إلى ٨٢ والقامة متوسطة والنسبة الأنفية أعلى مما نجده لدى عامة السكان ، والرأس عال والقذال مستطيل . وهـــذه

الخصائص تشابه صفات السلالة « الأرمنية » أو سلالة غرب آسيا . ووجودها على شاطىء تونس يماثل المواقع الساحلية فى جزر مالطة وغيرها التى توجد فيها بقايا هذه السلالة.. التى يدعونها أحياناً سلالة الباحثين عن المعادن Prospectors

وفى الجهات الجنوبية المغربية مما يلى مدينة مراكش تظهر صفات مولدة من اختلاط بالسلالات الإفريقية .

وإلى جانب هذا كله يوجد أعداد غير قليلة من أتباع الدين اليهودى . وإن كان مظهرهم لا يختلف كثيراً عن الصفات المنتشرة فى المغرب ، غير أن التزامهم الحياة الخاصة بهم ، وتزاوجهم فيما بينهم ، جعل منهم طائفة خاصة . وكثير منهم من سلالة اليهود الذين عاشوا من قبل آمنين فى كنف دولة الإسلام فى الأندلس والأقطار المغربية ، وفى الأزمنة الحديثة جاءتهم إضافات من جهات أخرى .

هذه خلاصة موجزة لحالة السكان من حيث الصفات الطبيعية . ومن الناحية الاجتماعية لا يزال الاعتماد الأكبر على الزراعة فى الأجزاء الشمالية من ليبيا ، وبخاصة فى الواحات والجبل الأخضر فى إقليم طرابلس . . ولا تزال حرفة الرعى لها شأنها إذا اقتربنا من الصحراء وتربية الضأن تلقى عناية فائقة وناجحة فى المغرب والجزائر بخاصة . وفى سائر جهات شمال إفريقية بعامة . . ويترتب على وفرة الجلود براعة فى الصناعات الجلدية ، التى اشتهرت بها الأقطار المغربية .

وفى ختام هذا الفصل لا بد من الإشارة إلى ظاهرة خاصة فى مملكة المغرب وهى أن على شاطئ البحر المتوسط نجد بلدتين أغلب سكانهما من الأسبان وهما بلدة سبتة على بوغاز جبل طارق ومَلِيلاَّ بالقرب من الحدود الشرقية للمغرب . وسكان سبتة نحو ٧٣,٠٠٠ نسمة ، ومللا سكانها يقربون من ٨٠,٠٠٠ ، تسعة أعشارهم جميعاً من الكاثوليك الأسبان ، وعشرة فى المائة موزعة بين المسلمين وبعض اليهود .

الفصل السابع عشر

سكان الصحراء

إذا ذكرت كلمة الصحراء انصرف الذهن دائماً إلى الصحراء الكبرى ، التى تحتل الجزء الأكبر من إفريقية شمال خط ١٥° من العروض الشمالية ؛ حتى أن الأوربيين لا يدعونها إلا بكلمة واحدة وهى الصحراء Le Sahara وإطلاق كلمة عربية على هذه البضعة الملايين من الأميال المجدبة يوهم بقوة العروبة فى هذه الأقاليم الفسيحة ، مع أن توغل العرب فى أعماق الصحراء قليل (وسكانها على الإطلاق قليلون) . وإنما أخذ الاسم العربى نقلا عن العرب الذين يسكنون الجهات العامرة المطلة على البحر المتوسط ، وبديهى أن يشير سكانها إلى الجهات الجنوبية باسم الصحراء .

إن الصحراء يحيط بها من الشمال إطار من الأقطار العامرة ، التى يزداد مطرها كلما اتجهت من الشرق إلى الغرب . . وهذه مزدحمة بالسكان ، أما الصحراء فسكانها مبعثرون ، فيهم العرب ، وأكثرهم من البربر . وفى الجهات الشمالية من الصحراء واحات تحتلها مدن مثل غردايه فى إقليم مزاب ، الذى يصيبه شىء من المطر ، وآباره كثيرة ، ومياهها قريبة المنال . . كذلك ربما وجدنا فى الصحراء كتلاً جبلية ، يساعد ارتفاعها على إسقاط قليل من المطر ، فينبت العشب ، الذى تجد فيه الدواب قوتها وينمو النخيل الذى يساعد ثمره على حياة الناس .

كانت هذه الصحراء الكبرى إلى وقت قريب من « الممتلكات » الفرنسية فقد استطاعت فرنسا وقت التكالب على القارة الإفريقية فى أواخر القرن

التاسع عشر ، وبعد أن استولت على الجزائر وبسطت « حمايتها » على تونس واستولت على نصيب طيب من سواحل خليج غينا فى الجنوب ، وابتدع الاستعمار النظرية القائلة بأن من يملك الشاطئ يملك ما وراء الشاطىء ؛استطاعت فرنسا أن تطبق هذه النظرية بحيث يمتد نفوذها إلى ما بين شواطئ البحر المتوسط ، وسواحل غينيا ، ولئن كان هذا الإقليم الواسع أكثره صحراء مجدبة ، فإنه على كل حال يشعر من ينظر إلى الخريطةبضخامة الأرض التى تسيطر عليها فرنسا ، وتبسط عليها نفوذها ، وتستأثر بخيرها إذا كان فيها خير

ولكن النهضة الاستقلالية الحديثة تناولت الصحراء فيما تناولت من الأقطار الإفريقية . فأصبحت الصحراء موزعة بين طائفة من الدول الجديدة : لكل منها نصيب من هذه الأقطار القليلة الماء والمرعى . . .

وبقطع النظر عن الجمهورية العربية المتحدة ، التى لها نصيب من الصحراء يدعى باسم صحراء ليبيا ، نرى أن المملكة الليبية لها نصيب عظيم من الصحراء يشمل القطر الجنوبى من برقة ، وإلى غربه إقليم فزان . يلى ذلك جمهورية الجزائر . فقد نالت من الصحراء نصيباً كبيراً بسبب امتداد أراضيها جنوباً إلى ما بعد خط العرض العشرين . واستطاعت الجزائر بهذا الامتداد أن تصبح إحدى الدول الثلاث الأكبر مساحة فى القارة الإفريقية (السودان والكونغو والجزائر) .

أما المملكة المغربية ، فإنها تمس الصحراء مساً خفيفاً . . وجبالها العالية وفرت لها الماء والمرعى . والمطر الغزير . ولكن إلى جنوب المغرب إقليم يدعى « الصحراء الأسبانية » قليل السكان وقليل الخير ، وأسبانيا تعتبره مجرد نقطة عسكرية ، وبديهى أنه ليست هناك مصلحة عسكرية ، فى تلك الجهات . وقد جاء فى بعض المجلات حديثاً أن أسبانيا تفكر جدياً فى التخلى عن الصحراء الأسبانية وإقليم إفنى للملكة المغربية[1] ، لعل هذا أن ينسيها وجود بلدتين

(١) جاء هذا الكلام فى مجلة Foreign Affairs الأمريكية فى عدد أبريل سنة ١٩٦٥ ؛=

أسبانيتين على الساحل المغربي من البحر المتوسط ، كما أشرنا لذلك فى الفصل السابق .

فالجزء الشمالى من الصحراء داخل أكثره فى مملكة ليبيا وجمهورية الجزائر ، والصحراء الأسبانية والجزء الجنوبى من الصحراء فى حدود السودان الشمالية الغربية وجمهورية تشاد وجمهورية النيجر ، والجزء الشمالى من جمهورية مالى وموريتانيا .

ونلاحظ أن الجزء الشمالى يستند إلى أقطار مطلة على البحر المتوسط ، والجزء الجنوبى يستند إلى أقاليم السفانا ذات المراعى الغنية . . ومع ذلك فبعض سكان الصحراء يتصل بالشمال والجنوب فى آن واحد ، ويسيرون القوافل للتجارة عبر الصحراء .

* * *

وعلى الرغم من أن سكان الصحراء جماعات قليلة العدد ، فإن بعضهم اكتسب شهرة بعاداته وأسلوب معيشته . مما يبرر الحديث عنه بشىء من الوضوح .

والجماعات المستقرة فى صميم الصحراء هم سكان الواحات الشمالية فى إقليم مزاب وهؤلاء المستقرون استطاعوا أن يبنوا عاصمة لهم فى مدينة غردايه ، ومن حولها مدن أخرى . ويتألف السكان من عناصر مختلفة . ولكن الذين يطلق عليهم اسم المزابيين ، والذين لهم الفضل الأكبر فى تعمير الإقليم هم عبارة عن طائفة من الخوارج الإباضية هاجرت من البصرة فى القرن الثامن ، فلما بلغت هذا القطر المغربى — إلى الجنوب من جبال الأطلس فى الجزائر ، وجدت الناس فى جدل دينى عنيف ، حول بعض المذاهب النصرانية — فلم يجد الأباضيون صعوبة (على حد كلام الأستاذ برجس Briggs) فى تحويل

= وإفنى Ifni عبارة عن موضع صغير على الساحل فى الجنوب الغربى من المغرب ، ولا يتجاوز سكانه البدو والحضر أربعين ألفاً . أما الصحراء الأسبانية إلى جنوب المغرب فلا يزيد سكانها على ٣٠٠٠٠ معظمهم من البدو المور Moor .

السكان جميعاً – وأكثرهم من البربر – إلى الإسلام مع اعتناق المبادئ الإباضية المشددة . ولما كانت هذه المبادئ مما لا يروق لأولى الأمر فى البلاد الشمالية ، فان الإباضيين اختاروا أرض مزاب واتخذوها وطناً لهم ، حتى يكونوا بمعزل عن الاضطرابات التى قد تحل فى الجهات الشمالية ، وليتقوا بعزلتهم أى نوع من أنواع الاضطهاد .

والمزابيون يتكلمون العربية والبربرية ، ويشتغلون بالتجارة ، وأصبحت عاصمتهم سوقاً لسكان الصحراء وسكان الشمال . وربما وجدنا فى مدن الجزائر الشمالية عدداً غير قليل من المزابيين ، لهم دكاكينهم الخاصة للبيع والشراء . ولكنهم لا يستقرون نهائياً فى الشمال ، بل يعودون إلى مزاب من آن لآن .

وفى الإقليم عدد كبير من الواحات الصالحة لزراعة البساتين . ولكن الذين يقومون بالعمل الزراعى جماعات يطلق عليهم اسم الحراثين ، وفى جميع أرجاء الصحراء تستخدم كلمة الحرث بمعنى الزراعة . وهؤلاء الحراثون يبدون كأنهم خلاسيون ، لاختلاطهم ببعض العناصر الزنجية ، وهم سمر البشرة ، طوال الرأس ، والشعر مجعد جداً ، ولكن التقاطيع ، مثل شكل الأنف والشفتين ، أقرب إلى ملامح القوقازيين . وهم عادة يشتغلون بالزراعة لحساب صاحب المزرعة ، الذى يوفر لهم البذور والمياه والأدوات الزراعية ، على أن يأخذوا نظير عملهم « خمس » المحصول . ولكن نظراً لأن صاحب المزرعة لا يعيش فيها ولا يزورها إلا نادراً ، فإن نصيب الحراثين يصل عادة إلى نحو الربع أو الثلث . . وحالتهم بوجه عام حسنة .

وهناك جماعات أخرى نزلت فى إقليم مزاب . منها جماعة عربية تدعى مضابح ، وأخرى تدعى بنى مرزوق . وقد جاءوا أول الأمر لتقـــديم مساعدات عسكرية ، واتخذوا مساكنهم فى ظاهر المدن . وعلى مضى الزمن اندمجوا فى السكان الأصليين . . وفى هذا ما يؤكد مرة أخرى أن السكان فى إقليم مزاب خليط من العرب والبربر . ومنهم جماعة تدعى الخادمة ،

ولا يعرف متى نزلوا الإقليم . وهم فى الأرجح أيضاً عرب مختلطون بالدم البربرى . وجدوا الفرصة سانحة لتأدية الأعمال التى ينفر منها سائر العرب والتجار . فأخذوا يكتسبون رزقهم بالعمل الجاد ، ولذلك أطلقوا عليهم اسم « المخادمة » وهم لا يختلفون كثيراً فى مظهرهم الطبيعى عن سائر السكان .

إلى جانب هذه الجماعات توجد طائفة من اليهود ، لا تكاد تختلف فى صفاتها الطبيعية عن الجماعات التى تعيش حولها . وإن كان هناك اختلاف فى السحنة أو الملامح فإنه راجع فى الأكثر إلى التزامهم الزواج مع أنفسهم ، فيتزوج الرجل ابنة عمه . وأحياناً ابنة أخيه . . وأكثر ما يحترفونه صناعة المعادن . والحلى ، والنجارة ، ويكادون يحتكرونها . ويصنعون الأثاث أيضاً ، كما أنهم بالطبع يشتغلون بالتسليف والربا ، وتستخدمهم السلطة فى جمع الضرائب والعوائد ؛ ويحترفون أيضاً بيع الخمور . أى أنهم يقومون بالأعمال التى يأنف المسلمون أن يمارسوها ويرى برجس أن هؤلاء اليهود من أهل البلاد الأصليين . وترجع هجرتهم إلى الجزائر إلى هجرة الفونيقيين فى القرن الثامن قبل الميلاد . ويتكلم هؤلاء اللغة العربية فيما بينهم . وإن كانت الدعاية الصهيونية حاولت إفسادهم .

* * *

إذا تركنا منطقة مزاب Mzab ، وأخذنا نتعمق فى الصحراء ، ألفينا أمامنا نظاماً للحياة لا يكاد يختلف من مجتمع إلى آخر . وهذا النظام السائد يستند إلى البداوة . والانتقال من مكان إلى آخر . مع وجود منازل ثابتة يعود إليها البدو بعد النجعة الطويلة . ويعتمد البدو على الإبل فى رحلاتهم الطويلة ، أياً كان القصد منها . وإن كانت لهم خيل فإنها للزينة والرياضة ونحو ذلك من أغراض . وكذلك يعتمدون على الضأن والماعز لغذائهم[1] . .

---

(١) Tribes of the Sahara by L.C. Briggs, (1960), p. 91

ولكل جماعة من رعاة الإبل هؤلاء نظامها الخاص ، وطبقاتها . وأسلوبها فى الحياة . ولو أن أعمالهم متشابهة إلى درجة بعيدة . فكثير منهم يمتلك واحات أو شبه واحات يمكن أن تزرع ، فيستخدمون الحراثين لذلك . وبعضهم يستخدم الإبل فى النقل والتجارة أو حماية القوافل . . أو الإغارة عليها . . وقد كانت الإغارة عند أكثرهم جزءاً لا يتجزأ من الحياة البدوية . وقد تغير الجماعة على أحياء من قبيلتها ، ولكنها فى الأغلب تتجه للإغارة على قبيلة أخرى وقد يذهبون بعيداً فى غاراتهم . . وقد يقطعون فى الغارة الضخمة مئات من الأميال بين الذهاب والإياب ويتمون هذه العملية فى بضعة أشهر .

وتنقسم الغارات الصحراوية إلى قسمين : القصيرة المدى ، والبعيدة المدى

ففى الحالة الأولى يكفى اتفاق بضعة أشخاص ، يترصدون قافلة آتية من بعيد ، ويمعنون فى التخفى ، ثم ينقضون على القافلة مفاجئين . فلا يلبثون فى بضع دقائق أن يجمعوا غنيمة تحتوى على سلاح ومتاجر ودواب ، ثم يفرون هاربين . ومثل هذه الغارات الصغيرة هى من صنع أفراد وليست من النشاط النظامى للقبيلة .

أما الغارة البعيدة المدى ، فإن لها مكاناً فى نظام الحياة عند القبائل البدوية ذات القوة والجبروت . وهذه الغارات قد يبلغ عدد المشتركين فيها الخمسين ، ويتوقف عنصر النجاح فيها على المفاجأة التامة ، وعلى السرعة وتنظيم العمل بحيث يتم جمع الغنيمة والهرب بها بمنتهى السرعة . بحيث يتعذر أو يستحيل اللحاق بالمغيرين . ولذلك يرسم المغيرون خطتهم للإغارة على حلات قد تبعد عن خيامهم بنحو ٤٠٠ ميل ، ويسيرون نحو غايتهم فى الطرق الوعرة ، التى لا يكاد يطرقها أحد . فإذا اقتربوا من منازل العدو اختفوا عن الأنظار تماماً ، واستراحوا قليلا ، وأخذوا يرسلون عيونهم ليتعرفوا حالة القطعان ومنتجعاتها ، حتى إذا آنسوا وجود قطيع كبير ، منعزل عن سائر الإبل . بادروا بالانقضاض عليه عند الصباح الباكر . واندفعوا بكل سرعة نحو ديارهم ، مصطحبين معهم الرعاة الذين كانوا يحرسون القطيع المنهوب ، حتى لا يسرعوا بتنبيه القبيلة .

مثل هذه الغارات كانت جزءاً لا يتجزأ من أعمال سكان الصحراء ، يمارسها الجميع سواء أكانوا من العرب مثل الشاعمبه ، أم المور ، أم من البربر مثل الطوارق أو التيدا . وقد قلت هذه الغارات أو أصبحت نادرة جداً ، بسبب سيطرة الدول الحديثة ، ووجود موارد جديدة للحياة . فقد اختطت الطرق وسارت فيها قوافل السيارات ، وجد نشاط جديد فى استنباط البترول ، فى جنوب الجزائر ، وفى ليبيا ، وفى هذا كله ما يفتح مجال العمل وأبواب الرزق أمام كثير من البدو . وإن كان هذا لا يمنع وجود بعض المجتمعات الصحراوية المحافظة على تقاليدها ، ولكن النواحى العدوانية فى هذه التقاليد قد تضاءلت كثيراً ولا يتسع المجال هنا للتحدث بالتفصيل عن كل قبيلة من قبائل الصحراء .. ونكتفى بأن نختم كلامنا بالإلمام بذكر قبيلة الطوارق

الطوارق :

إذا ذكرت الصحراء لم يتبادر إلى الأذهان شيء كما يتبادر إليها ذكر الطوارق ، فقد ألف الناس التحدث عنها ، حتى كأن الصحراء لا تشتمل على قوم آخرين ، وهذا يشبه ما ذكره ابن خلدون عن شعب صنهاجة (أجداد الطوارق) إذ يقول[1] : « إن هذا القبيل من أوفر قبائل البربر وهو أكثر أهل الغرب لهذا العهد وما بعده ، لا يكاد قطر من الأقطار يخلو من بطن من بطونهم فى جبل أو بسيط ، حتى لقد زعم كثير من الناس أنهم الثلث من أول البربر . . . وذكر آخرون من مؤرخى البربر أن بطونهم تنتهى إلى سبعين بطناً ، وذكر ابن الكلبى والطبرى أن بلادهم بالصحراء مسيرة ستة أشهر »

هذا ما قاله ابن خلدون عن الأصول الضخمة لشعب صنهاجة أجداد الطوارق . ثم يحدثنا بعد ذلك عن « الطبقة الثانية » منهم وسماهم صنهاجة الملثمين الذين يلبسون اللثام على النحو الذى سنشرحه فيما بعد . ويقول ابن خلدون عنهم :

---

(١) تاريخ ابن خلدون جزء ٦ ص ١٥٤ (طبع القاهرة) .

« هذه الطبقة من صنهاجة هم الملثمون ، الموطنون بالقفر ، وراء الرمال الصحراوية بالجنوب ، أبعدوا فى المجالات هنالك منذ دهور قبل الفتح لا يعرف أولها ، فأصحروا عن الأرياف ، ووجدوا بها المراد ، وهجروا التلول وجفوها ، واعتاضوا منها بألبان الأنعام ولحومها ، انتباذاً عن العمران ، واستئناساً بالانفراد ، وتوحشاً بالعز عن الغلبة والقهر ، فنزلوا ريف الحبشة (!) جواراً وصاروا ما بين بلاد البربر والسودان . واتخذوا اللثام خطاماً تميزوا بشعاره بين الأمم »[1].

هذا وصف دقيق لأجداد الطوارق فى عهدهم الأول . وفيه زعم صريح بأن صنهاجة آثروا الصحراء على العمران . وهذا قول يسترعى الانتباه. فليس من عادة الشعوب ذات العزة والمنعة أن تؤثر الصحراء وتجلو عن الريف . . . وربما كان الأرجح أن يقال إن صنهاجة كانوا فى أوطان كثيرة النبات والمرعى والمزارع والبساتين ، وسط ما يسمى الآن الصحراء ، التى لم تكن بعد قد تسرب إليها الجدب والجفاف . . وابن خلدون يعترف أن وجودهم فى أوطانهم هذه يرجع إلى دهور قبل الفتح الإسلامى لا يعرف أولها . ومن المعروف أن الصحراء فى هذه « الدهور » القديمة كان الماء والمرعى فيها متوافراً . . فلما أخذ الجدب يمتد إليها انكمشت أوطان السكان ، وانتشروا فى أرجاء الصحراء حتى وصلوا إلى إقليم السڤانا جنوباً . (بلاد السودان كما يسميها ابن خلدون) .

أما أن صنهاجة أجداد الطوارق فما لا شك فيه ، فهم وحدهم من دون الناس الذين اتخذ رجالهم اللثام شعاراً .

والذين يتحدثون عن الطوارق اليوم يذكرون أن لسانهم فرع من اللغة البربرية الصنهاجية[2]. فشعب الطوارق اليوم بشقيه الصحراوى والسودانى ، هما بقية الشعب الصنهاجى العظيم ، الذى كان له على الأرجح شأن فى تاريخه

---

(١) ابن خلدون نفس المرجع ص ١٨١ .

(٢) Briggs نفس المرجع ص ١٢٥ .

الأول . وحسبنا دليلا على ذلك أن الطوارق هم الوحيدون ــ دون جميع البربر ــ الذين لهم كتابة خاصة بهم ورثوها عن أجدادهم ويكتبون بها لغتهم . وتسمى اللغة تماهق Tamaheq والكتابة تفناغ Tifinagh .

على أن أحداً لا يذكر شعب صنهاجة اليوم ، بل الكلام كله على الطوارق ولا بد لنا أنه نستنتج أن الطوارق شعبة من صنهاجة ذات التاريخ المجيد .

• • •

إن الطوارق اليوم موزعون فى أنحاء مختلفة من الصحراء ، يستوطنون أوطاناً متباعدة بعضها عن بعض ، وهذه الأوطان ما هى إلا البقية الباقية من أوطان أوسع وأعظم . . . ولعل التفسير الصحيح لتوزيع الطوارق فى الوقت الحاضر ، أنهم حينما أخذ الجدب سبيله إلى الجهات الصحراوية . أخذت بطون تنزح إلى الجنوب ، ملتجئين إلى إقليم السفانا بالقرب من تمبكتو ، وما يليها شرقاً ؛ وهى جهات تقع اليوم فى جمهورية مالى .

وعلى مضى الزمن استقر هؤلاء الطرارق « الجنوبيون » كما يسمون ، فى هذه الأوطان الجديدة ، وانصرفوا إلى اقتناء البقر ، وقل اقتناؤهم للإبل ، وأخذ الكثير منهم يشتغل بالزراعة . ولا يزالون على حالهم هذه إلى اليوم . وهؤلاء قد يصل عددهم إلى ربع مليون من الأنفس .

أما الذين آثروا البقاء فى الشمال ، فإنهم تفرقوا والتجأت كل فرقة إلى منطقة من مناطق الصحراء الجبلية ، لأن بيئة الجبال أتاحت للإقليم أن يحتفظ ببعض المطر ، إلى جانب ما يشتمل عليه من العيون والآبار .

فأصبح الطوارق الذين لا يزالون يسكنون الصحراء ثلاث شعب :

١ ــ تاسيلن ــ آجر (بتعطيش الجيم) Tissili-n-Ajjer

٢ ــ سكان جبال آهجر (الحجر) Ahaggar

٣ ــ وأدرارن إفوجاس Adrar-n-Ifogas

وهؤلاء الشماليون الثلاثة ، مجتمعين ، لا يزيد عددهم على ١٢,٠٠٠ ، والشعبتان الأولى والثانية تقعان فى الجنوب والجنوب الشرقى من جمهورية الجزائر . . والثالثة تقع فى أقصى الشمال الشرقى من جمهورية مالى . . وكل شعبة من هذه الشعب مستقلة عن أخواتها . ولا تعمل متحدة ولا متشاركة فى أى مجهود . وربما كان الأهجرّ أكثر عدداً من الشعبتين الأخريين ، وأكثر احتفاظاً بالصفات الأساسية للطوارق ، وأقل اختلاطاً بعناصر أجنبية .

من ناحية الصفات الجسدية يوصف الطوارق بأنهم أطول قامة عن سائر سكان الصحراء ولهم قامة نحيلة ولكنها مفتولة متينة « كأن عضلاتهم أسلاكاً من الصلب » برغم ما يبدو من النحول فى الصدر والكتفين ، والأطراف .

والبشرة بيضاء فى الأجزاء غير المعرضة للشمس والضوء . . والوجه بيضى الشكل أو فى شكل يقرب من المثلث عريض فى أعلاه ، ثم يضيق تدريجياً إلى الذقن ، والأنف دقيق مستقيم أو بارز بانحناء يسير إلى أعلى . والشعر أسود عادة ، ومن النادر أن تكون هنالك عيون صافية . ولو أن هذا يحدث أحياناً . وقد يوجد أفراد يمتازون بالصهوبه وزرقة العينين ، ولكنهم قليلون جداً .

ينقسم الطوارق — كما ذكرنا آنفاً — إلى ثلاث شعب : وكل شعبة تتألف من الناحية الاجتماعية من ثلاث طبقات : السادة أو النبلاء : والموالى والعبيد . هذه هى الطبقات التى يتألف منها المجتمع . ويكون فيه مقام الفرد تابعاً للعشيرة التى ينتمى إليها . ولذلك يتحدث الطوارق عن العشائر النبيلة ، وعشائر الموالى

لذلك كانت الأقسام التى تنقسم إليها كل شعبة : هى القبائل ، ثم العشائر ، ثم العمائر ، ثم الحصص . وعلى رأس الشعبة كلها رئيس أهم قبيلة فيها . ويدعى أمينوكال Amenokal . وهو قلما يستبد بالحكم ، بل يشاور الجماعة من طبقة النبلاء فى كل ما يحزب من أمر .

وطبقة الموالى دون مرتبة النبلاء من الناحية الاجتماعية ، ولكنها تتمتع

بالحقوق الفردية ، وإن كانت لا تسمو إلى مرتبة النبلاء . . وعلى الموالى أن يقدموا بعض خراج الأرض إلى زعيم قبيلتهم أو إلى الأمينوكال .

والموالى يدينون للنبلاء بالاحترام والولاء ، ولكنهم فيما عدا ذلك أحرار . أما العبيد ، فأكثرهم جلب من الجنوب فى أزمنة سابقة ، وهذا لا يحدث كثيراً الآن ولكن نسل العبيد السابقين ، يعدون أيضاً من العبيد ، ويؤدون جميع أعمال الخدمة المنزلية . . للأسر النبيلة ، التى يعنى رجالها بالتجارة وبرعى الإبل ، والإغارة وحراسة القوافل ونحو ذلك . والطوارق اليوم مسالمون ، على الرغم من كل ما اشتهر عنهم فيما مضى ، والعمران والتقدم كفيلان بأن يجعلهم قادرين على الإسهام فى بناء الوطن الجديد .

إن المقام لا يتسع لأن نطيل الكلام عن الطوارق ، وحسبنا أن نختم الحديث عنهم بالإشارة إلى « اللثام » الذى انفرد به الطوارق دون جميع الشعوب فى جميع الأقطار : والذى يستعمله الرجال دون النساء . هذا اللثام يدعى عند الطوارق تجلموست Teguelmoust وهو عبارة عن شال يشبه شال العمامة ، ولعله أكبر نوعاً ، يلف حول الرأس والوجه ، تاركاً فتحة صغيرة بمحاذاة العينين ، لا يرفعه الرجل ولا يحركه إلا عند تناول طعامه . وفى تلك اللحظة يستر فمه بيده ، وبديهى أن لبس « اللثام » قديم ، ويرجع إلى ما قبل زمان ابن خلدون والبكرى وغيرهما من الكتاب العرب . ولم يحاول أحد منهم أن يشير إلى الأسباب التى حملت الطوارق على وضع هذا اللثام .

ولا يدرى أحد متى ولا أين فكر الطوارق أو أجدادهم الصنهاجيون ، فى اتخاذ هذه السنة وفرض اللثام على الرجال دون النساء . إذ ليس فى الصحراء ولا غير الصحراء شعب خطر له مثل هذا الخاطر ، كما أنه ليس من السهل أن ندرك كيف فرض شىء كهذا على الرجال دون النساء . إن نساء الطوارق سافرات دائماً ، ويتمتعن بمكان ممتاز فى المجتمع ، وباحترام وتقدير منقطع النظير : ولكنهن لا يضعن لثاماً .

والكتاب العرب لم يحاول واحد منهم أن يتساءل عن هذا اللثام ، ما سببه وما فائدته . . كأنهم لم يجدوا فى وجوده غرابة . أما فى الأزمنة الحديثة . فقد حاول كثير من الكتاب الأجانب بحث الموضوع واستقصاءه ، فلم يحظوا من الطوارق أنفسهم بأى تفسير سوى « أنه هكذا يجب أن يكون » . أو « إنه ليس بمعقول أن يكشف الرجل عن وجهه » أو « إنه ليست هنالك أسباب خاصة من حرارة الجو أو التراب أو نحو ذلك ، بل إن الشيء الطبيعى أن يلبس الرجل اللثام » . . . الخ . . الخ .

وقد تعرض الأستاذ Briggs فى فصل طويل فى كتابه عن سكان الصحراء[1] ؛ لهذا الموضوع وانتهى إلى أنه بالرغم من إنكار الطوارق ، لا بد أن تكون طبيعة البيئة الصحراوية هى التى فرضت هذه العادة . ولم تفرض على المرأة ، لأنها تعيش عادة فى حفظ وصون من تقلبات الجو والمنغصات الصحراوية :

* * *

إلى جانب الطوارق ، هناك جماعات صحراوية تحسن الإشارة إليها ، وأكثرها تعيش فى بيئة مشابهة لبيئة الطوارق . ومن أهم هذه الجماعات شعب « تيدا » الذى يسميه بعض الكتاب تبوّ Tibbu ، ولكنهم يدعون أنفسهم تيدا Teda . لهم بيئتهم الجبلية فى جبال تبستى Tibesti إلى الجنوب من حدود المملكة الليبية . وهى واقعة الآن فى الجزء الشمالى من جمهورية تشاد وكانوا فيما مضى يكثرون من الإغارة فى النصف الشرقى من الصحراء : ومن المؤكد أنه كانت لهم فيما مضى صلات مع الطوارق ، على الرغم من تبادل الغارات فى الأزمنة الحديثة . . ولهم إبل وضأن وماعز . وأشجار ونخل ، وفى بيئتهم الجبلية قمم بركانية يصل ارتفاعها إلى أكثر من ٣٠٠٠ متر ، كما هى الحال فى بيئة طوارق الأهجار :

---

(١) ص ١٥٢ وما بعدها .

ولكن علاوة على بعض التشابه بين مجتمع التيدا ومجتمع الطوارق : فهناك فرق كبير فى اللغة ، فإن لغة التيدا بعيدة كل البعد عن اللغات البربرية. كان الجيل القديم من علماء اللغات يصف لغة تيدا بأنها « سودانية » . ولذلك كانت الخرائط القديمة – بل وبعض الحديثة – تتساهل وتمد انتشار السلالات الزنجية إلى حدود ليبيا . ولكن الأستاذ جرينبرج العالم الضليع فى لغات إفريقية . قد جعل لغة التيدا لساناً مستقلا كل الاستقلال عما حوله من اللغات وليس له نظير فى المجموعات الإفريقية الأخرى . ولا عبرة بما يكون قد تسرب إليه من ألفاظ من بعض الأقطار المجاورة .

وقد نفذ تأثير جبال تبستى إلى السودان ، فى الجزء الشمالى من مديرية دارفور حيث نجد جماعات تتكلم لغة التيدا مثل القرعان والبدايات والزغاوة[١].

---

(١) راجع كتاب السودان الشمالى للمؤلف ص ٢٦٦ – ٢٦٨ .

مطابع كوستاتسوماس وشركاه
٥ شارع وقف الخربوطلي بالظاهر ج. م. ع
تليفون ٩٠٠١١٨ س. ت ٦٣٤١١

٥٠

مطابع كوستاتسوماس وشركاه
٥ شارع وقف محمد طبلى بالظاهر ج.ع.م
تليفون ٩٠٠١١٨ ص.ب ١١ ـ ١٣٤٩